الدولة الإسلامية

بين الواجب والممكن

الشَّيخُ الدُّكْتُورُ

جَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ المُهَلْهِلِ اليَاسِين



الدولة الإسلامية

بين الواجب والممكن



الطبعة الثانية
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

بطاقة الكتاب

اسم الكتـــاب : الدولة الإسلامية
تأليـــــف : جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الناشـــر : شركة السماحة للنشر والتوزيع الكويت
الصف والإخراج : مركز بدور للثقافة والترجمة
عدد الصفحـات :
عـدد المـلازم :
مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤
رقـم الإيـداع : ٢٠٠٧/١٩٧٧م

شركة السماحة للطباعة والنشر
والتوزيع - الكويت
ت/٩٩٥٥٧٤٧١
الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦
ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

الدولة الإسلامية
بين الواجب والممكن

تأليف
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

تقديم
أ.د/ عجيل جاسم النشمي

مؤسسة السماحة
شروق للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

تطلب مؤلفات الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

في الكويت من: شركة السماحة - الكويت.

ت/ ٩٩٥٥٧٤٧١

الرمز البريدي : ٤٣٧٥٦

ص. ب : ٦٦٥٢٠ بيان

في مصر من: شروق للنشر والتوزيع



إِلَى وَالِدَتِي مُنِيرَةَ، الَّتِي لَهَا مِن اسْمِهَا نَصِيبٌ، فَقَدْ أَنَارَتْ لِي طَرِيقَ حَيَاتِي، فَعَرَفْتُ رَبِّي، وَسَلَكْتُ مَنْهَجَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الْخَيْرِ كُلَّهَا، فَكَانَتْ مَدْرَسَةً فِي كُلِّ شَيْءٍ، فَهِيَ الَّتِي عَلَّمَتْنِي كَيْفَ يَكُونُ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَعَلَّمَتْنِي الإِحْسَانَ إِلَى الآخَرِينَ وإِنْ أَسَاؤُوا، وأَرْضَعَتْنِي مَعَانِيَ الصَّبْرِ الَّتِي قَرَأْنَا فِي المجَلَّدَاتِ وَكَتَبْنَاهَا. لَقَدْ عَلَّمَتْنِي مَعْنَى الإِنْفَاقِ مِمَّا كَانَ فِي يَدِهَا لِتُدْخِلَ بِهِ السُّرُورَ عَلَى الآخَرِينَ.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي لَمْ تَعْرِفِ الشَّكْوَى فِي حَيَاتِهَا، وَلَمْ تَئِنّ مَعَ كَثْرَةِ أَمْرَاضِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي كُنَّا قَبْلَ وَفَاتِهَا – رَحِمَهَا اللهُ – بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ، وَإِنِّي لأَذْكُرُ قَوْلَ أَحَدِ الأَصْدِقَاءِ عَنْ أُمِّهِ بَعْدَ وَفَاتِهَا: لَقَدْ ذَهَبَتْ مَنْ كُنَّا بِدُعَائِهَا نَتَنَعَّمُ. وَإِنِّي لأَقُولُ: لَئِنْ تَنَعَّمْتُ بِدُعَاءِ أُمِّي فِي حَيَاتِهَا، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَكُلَّمَا ازْدَدْتُ لَهَا دُعَاءً، ازْدَادَتْ نَفْسِي إِحْسَاساً بِالنَّعِيمِ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَنَعَّمُ بِدُعَائِهَا فِي حَيَاتِهَا وَأَتَنَعَّمُ بِالدُّعَاءِ لَهَا بَعْدَ وَفَاتِهَا، وَفِي الْحَالَتَيْنِ، فَإِنِّي أَتَنَعَّمُ بِخَيْرِهَا فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ.

وَلَسْتُ أَعْرِفُ لإِنْسَانٍ فَضْلاً عَلَيَّ – فِيمَا أَنْعَمُ بِهِ مِنْ فَضْلٍ – خَيْراً يُعَادِلُ أَوْ يُقَارِبُ فَضْلَ وَالِدَتِي – رَحِمَهَا اللهُ تَعَالَى. وَأَسْأَلُ اللهَ – سُبْحَانَهُ – أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهَا لِي، وَيَسْتَجِيبَ دُعَائِي لَهَا.

لَقَدْ تَعَلَّمْتُ مِنْهَا الصَّبْرَ وَالتَّجَلُّدَ؛ فَقَدْ شَطَبَتْ مِنْ حَيَاتِهَا مَا يُسَمَّى بِالإِيذَاءِ، فَكَانَتْ لاَ تُؤْذِي أَحَداً وَلا شَيْئاً، حَتَّى الأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ تَمْشِي عَلَيْهَا، عَلَّمَتْنِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، قَدَّمَتْهَا وَهِيَ تُضَحِّي بِصِحَّتِهَا وَوَقْتِهَا وَسَعَادَتِهَا.

إِلَى وَالِدَتِي الَّتِي أَعْرِفُ مِنْ مَدْرَسَتِهَا الْكَثِيرَ، وَلاَ يَسَعُنِي ذِكْرُهُ فِي هَذَا الإِهْدَاءِ، وَسَأُفْرِدُ

لَهُ رِسَالَةً خَاصَّةً، إنْ شَاءَ اللهُ.

إِلَى وَالِدَتِي أَهْدِي ثَوَابَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ، لَعَلِّي أُؤَدِّي زَفْرَةً مِنْ زَفرَاتِهَا فِي وِلادَتِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى وَالِدِي – رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى رَفِيقَةِ الدَّرْبِ أُمّ مُعَاذٍ، الَّتِي كَانَتْ لِي عَوْناً فِي صَبْرِهَا عَلَى سَهَرِي وَسَفَرِي.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى أَوْلادِي جَمِيعاً، ذُكُوراً وَإِنَاثاً.

وَأَهْدِي هَذِهِ الرَّسَائِلَ إِلَى كُلّ مَنْ أَسْهَمَ فِي إِخْرَاجِهَا، وَجَعَلَهَا بَيْنَ يَدَي النَّاسِ فِي المُشْرِقِ وَالمُغْرِبِ.

وَإِنَّنِي إِذْ أَكْتُبُ هَذَا الإِهْدَاءَ، أَرْجُو مِنْ إِخْوَانِي الَّذِينَ يَكُونُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هَذَا الْكِتَابُ أَلاَّ يَنْسُونَا جَمِيعاً مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِمْ.

* * *

الإهداءُ شعرًا

أمَّــاهُ كُنْـتِ مُنِيــرَةً وَمَنَــارَةً ... عُلْيَـا وَصَــرْحاً ثابـتَ الأَرْكَـانِ
قَـدْ كُنْتِ مَدْرَسَـةً تُعِـدُّ نُفُوسَنَـا ... لِـصَنَائِعِ المَعْــرُوفِ وَالإِحْــسَانِ
قَــدْ كُنْــتِ لِلأَيْتَــامِ أُمَّــاً بَــرَّةً ... وَالجَــارِ وَالمِــسْكِينِ أَرْأَفَ حَــانِ
أَرْضَـعْتِنَا الأَخْـلاقَ شَـهْدَاً سَلْـسَلاً ... تَــدْنُو ثِمَــارُ قُطُوفِهَــا لِلْجَــانِي
عَلَّمْتِنَــا الـصَّبْرَ الجَـمِيلَ خَـلِيقَةً ... وَالقَوْلَ لِلحُسْنَى وَكَفَّ لِسَانِ

* * *

أبَتَــاهُ قَــدْ رَبَّيْتَنِــي وَأَحَــطْتَنِي ... برِعَايَــةٍ فِــي غِبْطَــةٍ وَأَمَــانِ
وَفَّــرْتَ أَسْـبَابَ الـسَّعَادَةِ وَالهَنَـا ... فَجَعَلْتَنِي أَسْمُو عَلَى الأَقْرَانِ
فَجَـزَاكَ رَبُّ العَـرْشِ خَـيْرَ جَزَائِـهِ ... وَأُسْــكِنْتَ فِي رَوْحٍ وَفِي رَيْحَــانِ

* * *

نَوَّرْتَ **يَا بَدْرَ** الدُّجَا سُبُلَ العُلا ... بالفَــضْلِ لاَ فَــظٍّ وَلاَ مَنَّــانِ
كَــمْ ذَا تُقَابِــلُ بِالــسُّرورِ تَـدَلُّلِي ... بمَحَبَّــةٍ وَبرَأْفَــةٍ وَحَنَــانِ
أَحْبَبْتَنِــي قَــرَّبْتَنِــي رَبَّيْتَنِــي ... بالعِــزِّ فِي ثِقَــةٍ وَفِــي اطْمِئْنَــانِ

* * *

أرَفيقَتِــي كُنْـتِ الـشُّعَاعَ إِذا دَجَـا ... لَيْـلُ الحَيَـاةِ بمُظْـلِمِ الحِـدْثَانِ
قَـدْ كُنْـتِ خَـيْرَ شَرِيكَــةٍ وَمُعِينَــةٍ ... فِي الــبِرِّ عِنْــدَ تَقَـاعُسِ الأَعْـوَانِ
الـصَّبْرُ فِيـكِ مَـعَ الوَفَـاءِ سَجِيَّةٌ ... بتَعَـاقُبِ الأَفْـرَاحِ وَالأَحْـزَانِ

* * *

يَــا حَبَّــذَا **أَفْــلاذ أَكْبَــادٍ** بِهَــا ... كَــمُلَ المُــرَادُ وَقَــرَّتِ العَيْنَــانِ

فَاحْفَظْ **مُعَاذاً** وَاحْفَظَنَّ **مُهَلْهِلاً** ... أَمَدَ الزَّمَانِ **وَعَابِدَ الرَّحْمَنِ**

لاَ زَالَ **عَبْدُ اللهِ** فِي حِفْظٍ وَلاَ ... زَالُوا جَمِيعاً غُرَّةَ الفِتْيَانِ

وَلْتَحْظَ **عَائِشَةٌ وَفَاطِمَةٌ** بِمَا ... قَدْ شَاءَتَا مِنْ بُغْيَةٍ وَأَمَانِ

وَاحْفَظْ **هَيَا وَمُنِيرَةً** يَا رَبَّنَا ... مِنْ مُبْطِنِ البَغْضَاءِ وَالشَّنَآنِ

❊ ❊ ❊

يَا رَبِّ لاَ زَالَ الجَمِيعُ بِنِعْمَةٍ ... وَقِهِمْ شُرُورَ الحَاسِدِ المِعْيَانِ

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى **النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ** ... وَالآلِ وَالأَصْحَابِ كُلَّ أَوَانِ

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

❊ ❊ ❊

تقديم الكتاب

أشرف بتقديم هذا الكتاب لأخى الشيخ الداعية الذى ما فتئ مذ عرفته يجول بنظره فى ميادين الدعوة، فيسبر كل غور مآل النظر فيه صلاح دينه ودعوته، ولطالما أجال النظر فى مواطن دعوية عدة، فصدر عنها بكتب، بها عرفه المربون والسالكون على مدرجة الدعوة.

واليوم ينظر للدعوة أيضا، ولكن من منظار التاريخ، وما أدراك ما التاريخ! سجل للماضى مذخور، ومرآة للحاضر والمستقبل منظور، والنظر فيه لا كالنظر فى ميدان غيره، إنه يحتاج إلى أدوات علمية، وملكات متنوعة كيما يستطيع الناظر سبر الغور، واستلال العظات والدروس من خلال ركام ضخم من الآثار العلمية كالموج المتلاطم، وهذا ليس لكل أحد أجال النظر فى أسفار التاريخ، وإنا لنظن ـ ولا نزكى على الله أحدا ـ أن صاحبنا من مُلاك تلك الأدوات والملكات، بل من فرسان الميادين حيثما نزل وإن كان ميدان التاريخ.

ومن يقرأ التاريخ ثقافة ليس كمن يقرؤه عظةً ودرساً، واستدلالاً على واقع يعيشه، كيف يتفق هذا ومن ينظر فيه ليبنى عليه عملا وحركة وموقفاً، فإن هو رام ذلك فإنما يرتقى مرتقا صعبا؛ إذ ينحت من النظر فى فن التاريخ تاريخا للحاضر، ولذا قال ابن خلدون فى استهلال مقدمته مرشدا أصحاب المراقى الصعبة: «**اعلم أن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم، والأنبياء فى سيرهم، والملوك فى دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا**»[(١)].

ولا شك أن من معضلات التاريخ ـ كما ألمح ابن خلدون ـ القدرة على الربط بين الماضى والحاضر، واستلال دروس أو منهج يتبع لا لحياة فرد، وإنما لمسير جماعة، بل جمهرة دعاة يرومون توجيه مجتمع المسلمين، فآثار دعوتهم للمجتمع كله، هم دعاة إلى استئناف حياة إسلامية، ووصل ماضيها بما انقطع من حاضرها، وهذه غاية دونها مفاوز جمة، لا يردها إلا أصحاب الهمم العوالى السامقة، ثم لا يجتازها إلا من رعاه الله ووفقه.

---

(١) ١/ ٣٦٢ تحقيق الدكتور عبد الواحد وافي – الطبعة الثانية – مطبعة لجنة البيان ١٣٨٤ ـ ١٩٦٥ بمصر.

فالبحث الدعوى فى التاريخ الحديث للإسلام وواقع المسلمين، وربطه بما مضى حديث عن تاريخ لا يصنعه أهله اليوم، ولا قدرة لهم مطلقا على المبادرات فيه، وإنما القياد لخصومهم أو أعداء دينهم، ممن صنعوا تاريخهم الحديث على أنقاض تاريخ الإسلام وسيرة المسلمين فى آخر أيام مجدهم، ولا يزالون يكيلون الافتراء ويرمون الإسلام وأهله عن قوس واحدة، ويكيدون كيد الليل والنهار وهذا منهجهم وخططهم مذ أسقطوا خلافة المسلمين، كما أفصح عن هذا وأبان الأمير شكيب أرسلان، وصِدْقُ كلامه اليوم أجلى عما مضى من أيامه حين قال: «**العالم الإسلامى لا يزال محور سياستهم قهره وإعفاؤه وتجريده من السلاح بكل وسيلة، والحيلولة بينه وبين الاتحاد والتماسك بكل حيلة، احتياطا من وراء رَسَفَانِهِ فى قيوده الحاضرة، وأمانا على ديمومة خنوعه لسلطتهم القاهرة، لا يصح أن يقال: إنه بلغ من النهضة الدرجة التى تكفل له حَطْمَ سلاسله الثقيلة، واسترداد ممالكه العريضة الطويلة، واستئناف معاليه الخالية،ومصيره مع العالم الأوربى حالة متساوية ولا أدرك بهذه السنين القلائل من اليقظة ما يكفى لتجديد ما أخلق من حاله واستشن**[1] **من شأنه، بل لا يزال ويا للأسف الجهل مخيما على أكثر آفاقه وما برحت العصبيات الجاهلية عاملة عملها فى تفكيك عراه وبعثرة أجزائه، كما أن الرعب من سطوة الأجانب إلا من رحم ربك ملء الجوانح، واليأس من استطاعة القيام فاشٍ فى الأفكار والخواطر، وكأنه إلى هذه الحالة بعينها نظر النبى ﷺ حينما قال:** «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلي قصعتها**» قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[2] أو كما قال. نعم صار المسلمون، إلا الأقل منهم إلى زمان لا تغنى عنهم كثرتهم شيئا، بل صارت الفئة القليلة من غيرهم تتحكم فى الفئة الكثيرة منهم، وتخبطهم بكل عصا، وهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، وراح الأجنبى يفتح بلدانهم بهم، ويسلط بعضهم على بعض، يقتل هذا

---

(١) الشن: القربة الخَلَقُ، والمراد هنا ما ضعف وبلى من شأن.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) وصححه الألباني.

بذاك مستفيدا من قتل الاثنين، الذى يقاتله والذى يقاتل معه[١] هذه حال واقع لا يـمارى فيها غير مكابر،لكنه واقع لا يستلزم التثبيط والخنوع والاستسلام، إلا لأقوام انهزموا مـن داخلهم لأول هيعة،فكانوا تبعا،وجعلوا من عدوهم القوى المتحضر المثال القدوة.

وهـذه وإن كانـت طبـائع المغلـوب أن يـذهل بانتـصار وقـوة عـدوه، إلا أن اسـتمراءه وإخلاده إلى الهزيمة يورده الغفلة وهلكـة نفـسه، فينـدم ولات سـاعة منـدم، كـما قـال ابـن خلدون: «**إن المحاكاة للإنسان طبيعة معروفة، ومن الغلط غير مأمونة، تخرجه من الذهول والغفلة عن قصده، وتعرّج به عن مرامه**»[٢] وهـذه وإن كانـت طبـائع المغلـوب المنهـزم فى نفسه، إلا أنها لا تعنى أصحاب المبادئ السامية فى شىء، بل تشحذ هممهم، وتـوقظ فيهـم التشمير عن ساعد التغيير، تغيير الواقع والمنهج والقيادة.

وإن ملامح هذا التغيير بادية اليوم، وإن حملة منهج التغيير قد جـاوزوا مرحلـة التـنظير إلى مرحلة الترميم والتعمير لوقائع عدة تربوية ودعوية واجتماعية واقتصادية وغير ذلك مما هو ملموس معاين، وهم إلى الاتساع ماضون بمضى دينهم كما شهد بـذلك الخـصوم قبـل غيرهم.

إن استمرار هذا الجهد بهمة ومنهجية هو محل النظر، ومعقد الأمل، فإن مسيره مُعْتَرَضٌ بمفازات وأهوال دونها تلكم المفازات الماضية فى عصر يسمونه اليـوم عـصر التكـتلات أو العولمة، وما هو من عولمة الخير بقريب، بل هو صيغة جديدة للهيمنة والاستعمار البائد، إنه الاستعمار الجماعى بديل الاستعمار المتفرق القديم.

ومن هنا كانت أهمية هذا الكتاب الذى لم يجرؤ مؤلفه - صدقا- عـلى ادعـاء الكـمال فى موضوعه مـن وصـف العلاقـة بين مـاضى الدولـة والـسلطة، وواقـع الـدول والحكومـات الإسلامية اليوم، ومنهج العلاقة الأمثل بينها وبين الحركات الإسلامية وتحديد ما يجب أو ما يمكن، فإن المسلك صعب، ومحاذيره كثر، وحسب أخينا أنه أرسى لبنة فى البناء، ودعـا

(١) حاضر العالم الإسلامي للعالم لوثورب ستودارد، تعليق الأمير شكيب أرسلان، المقدمة (ز) الطبعة الرابعة ١٣٩٤ - ١٩٧٣ دار الفكر - بيروت.
(٢) مقدمة ابن خلدون ٤٠١ .

من خلاله من يكمل ويعلى.

ولا أزال أدعو الله العلى القدير أن يجزل العطاء موفورا لمن دل على هذا الخير، ورفع مناره، وأن يثقل به ميزانه إنه سميع للدعاء مجيب.

أ.د. عجيل جاسم النشمى

* * *

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

أنا لا أكتب تاريخا ولا أذكر حوادث وما كان هذا مقصدى، فكتب التاريخ والكتب والأخرى التى تكتب عن حوادث الزمان كثيرة جدا. وإن كان القارئ سيجد فى كتابى تاريخا وحوادث ولكنها ليست مقصودةً لذاتها ولو كانت كذلك لما أضفت جديدا ولكانت تكرارا لمن سبقنى، ولكن الكتاب يعالج فى مجمله قضية أساسية تحتاج إلى تأصيل وبحث من قبل الدعاة وهى: «**الدولة الإسلامية**» التى يريدها الدعاة بين ما هو موجود فى الذهن من خلال استقراء النصوص وبين ما هو واقع فالواجب بلا شك هو أن نعمل على إيجاد دولة بعدلها والتزامها ولكن إن لم نصل إلى هذا الأمر لكونه ليس داخلا فى دائرة المقدور الآن فلا حرج أن نعمل على إيجاد دولة الممكن فإن كان الوضوء بالماء واجب لدخول الصلاة فالتيمم عند عدمه يحل مكانه فى رفع حكم النجاسة، وهذه المسألة لا أدعى أننى قد أشبعتها بحثا ولكننى فتحت الأبواب لدراستها والتعمق فيها والوصول إلى أدبيات جديدة تطرح فى قاموس الدعاة والأمر غير مقطوع فى أى الاتجاهين ولكن على الأقل نفتح نوافذ للرؤى والنظر والدراسة، وليس بالضرورة أن كل ما ذكرناه أو أخذناه فى الماضى يكون صحيحا فى زماننا هذا، وخصوصا فى مجال الدعوة والفكر؛ حيث إنها من نتاج بشرى لمفاهيم الكتاب والسنة فى إطار واقع وحركة الدعوة والمجتمع.

وحسبى أننى نبهت وركزت الفكر للبحث والتنقيب، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى والشيطان.

والله الموفق

الشيخ الدكتور

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

* * *

مدخل

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فمن المعروف أنه حتى الربع الأول من القرن العشرين كانت الدولة في الإسلام جزءًا من بنائه، لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه. وقد انفردت الدولة الإسلامية بالسبق والريادة بين الدول عدة قرون.

غير أن الذي حدث بعدما استفاق المسلمون بوعي ثقافي غربي أنهم أخذوا يبحثون عن ذاتهم ومكانتهم ودولتهم، وكان من نتيجة ذلك أن انقسموا إلى فريقين كل منهما يتحدث عن الدولة بمنظور خاص، فالفريق الأول عمل على التوفيق بين الشريعة الإسلامية وفكرة الدولة الغربية، والفريق الثاني فرق بين الإسلام كدين والدولة كمؤسسة سياسية.

أما الفريق الأول فلم تكن ردة فعله إلا صدى لما هو واقع في الدول الأوربية التى **«سطع نجمها في أفق العالم المعاصر، وبسبب الضعف من جهة والحنين إلى تراثه وإثبات هويته التى أحس بفقدانها من جهة أخرى، تجلى له ذلك حينما وجد نفسه ورقة شجر خريفية وسط عاصفة هوجاء، وفي هذا الإطار يحسن بنا أن نستذكر ما قاله خير الدين التونسي[١] نقلاً عن أحد أعيان أوربا: «إن التمدن الأوربي تدفق سبيله فى الأرض، فلا يعارضه شيء إلا استأصله، فيخشى على الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار»**[٢].

إن هذا الجرف الأوربي وضع أمة العالم الإسلامي في حالة اغتراب، وهذا هو حالهم ليس فقط إزاء مؤسسة الدولة، بل تجاه كثير من أدبيات المجتمع الأوربي مثل حقوق الإنسان، وتحرير المرأة، والحرية والعدالة، والمساواة والديمقراطية، والنظريات العلمية،

---

(١) خير الدين التونسى: هو أحد رجال الإصلاح في القرن التاسع عشر، ومن نظراته الثاقبة: أنه كان يعارض الاتفاقات الدبلوماسية مع أوربا والاعتماد عليها، ويطالب بالتوجه إلى التنمية الداخلية، رئيس وزراء من ١٨٧٣ - ١٨٧٧».

(٢) مقدمة «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» تحقيق معن زيادة، دار الطليعة. بيروت ط/ ١٩٧٨، ص١٦٨ .

ففي كل مسألة كتب مفكرون مسلمون مجلداتٍ وهم يدافعون عن الإسلام من منظور المقولات الغربية .

إن الفكر السياسي الغربي عندما تحدث عن مقومات الدولة فصلها من حيث الواقع، فتحدث عن الجماعة التى تقيم على الدوام في إقليم معين، ويمتثلون إلى سلطة منظمة تتولى تدبير شؤونهم الداخلية والخارجية، وفرعوا أركان الدولة إلى ما هو قائم بالأصل «**الشعب والإقليم**» أي الأرض والسلطة السياسية، وجريًا على منهجهم في وصف ما هو كائن، قالوا: بأن من خصائص الدولة السيادة المستقلة عن أي مؤثر خارجى وعدم الخضوع لسلطة أعلى منها، وأنها مطلقة في الشأنين «**الداخلى والخارجي**» ولها شخصية معنوية تسمح لها بتحمل المسؤوليات والالتزام بالحقوق بشكل منفصل عن شخصية الأفراد الذين يمارسون الحكم [(١)].

وأما الفريق الثاني فقد ذهب مذهباً كَنَسِيًا ليس كما كان حال الكنيسة في ذروة قوتها، بل كما هو حالها عندما تراجعت أمام الزحف العلمي الذي شهدته أوربا منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى؛ حيث انكفأت المسيحية إلى داخل الكنيسة وتخلت عن مهماتها الإنسانية المتعلقة بالإنسان وواقعه في الحياة ، حيث حصر دورها في الحديث الروحاني التطهرى، وتحضير الأذهان لسلوك طريق الخلاص يوم الدينونة.

لقد تم إسقاط حال الكنيسة على الإسلام، وطالب هذا الفريق بتخصيص «**الإسلام**» في مجالات الطقوس العبادية، والأخلاق التى أساسها الزهد الهُرُوبى من الواقع، والدعوة إلى البعد عن الكون ومشاكله باعتباره سجن المؤمن وفق المفهوم الهندوسى الهندى ، ومجال تطبيقه لا يتعدى المسجد.

وهكذا نجد أنه قد مضى ردح كبير من الزمن، كان العالم الإسلامي يموت فيه موتاً بطيئا، أرسى واقعاً من القطيعة بين الجيل الإسلامي في غروب عزه وأفول شمسه من أفق الكون، جعل تلك الأجيال تحس بعتمة ليل لن تضيئه إلا شموع الغرب، ولن تؤنس

---

(١) انظر: طعيمة الجرف، نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي ص٩٣ ـ٩٥ بتصرف، عبد الفتاح ساير داير: القانون الدستوري ص ٦٤ بتصرف.

سكونه إلا حركة الآلة التى كانت أصوات محركاتها تقطع ذلك الصمت المخيف، وتشد الألباب والجوارح إلى مستقبل بدا فجره صادقاً حين سطع نوره من جهة أوربا الغربية، ولم يكن يومها في أفق العالم الإسلامي إلا شفق المغيب الأحمر، عندها اندفع هؤلاء وهم في حالة خواء ينعمون النظر، ويسرون باستعمال منتجات الغرب وأدوات الرفاهية عنده، ويحلمون بهجرةٍ إليه كي ينعموا بعبق حريةٍ، طالما حرمهم إياها جهل واقع حالهم، وذلك للتخلص من ظلم بعضهم لبعضهم الآخر، ومن التخبط في دياجير هذا الظلم والظلام، ثم كرّس هذا التوجه اختراق أفكار عقيمة لجدارهم الإسلامي الصلب.

إن تلك الحالة أوجدت عندهم روح الانهزام والانكباب على دراسة ما عند غيرهم، وكأنهم ولدوا من فراغ ...

الإسلام منهج أمة «**دين ودولة**» (١):

إن الإسلام بمقدماته ونتائجه على مدى ثلاثة عشر قرناً من الزمن يثبت لكل ذي بصر وبصيرة أنه دين ودولة.

وبهذا قال الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في الأصل الأول من الأصول العشرين ما نصه: «**الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أوحكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء**».

لوضوح هذا الأصل كان الاهتمام الكبير في دين الله بأمر الولاية والحكم فقد كان نداء إبراهيم عليه السلام وهو يرفع مع ابنه إسماعيل قواعد البيت الحرام ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ﴾ (٢).

وأمر الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ

(١) مصطلح الأمة أو حداثته في القاموس الإسلامي بينه الأستاذ الدكتور أحمد حسن فرحات في رسالته «الأمة».
(٢) البقرة: ١٢٨ .

أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[١].

وكـــــذلك ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[٢].

ووصف الله - تعالى - المسلمين بقوله: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[٣].

وحكمه القاطع ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[٤] والأمة معناها الطائفة أو المجموعة المنظمة، وقد أنيطت بها مهمة الأمر والنهي، والأمة معناها الطريقة أي المنهج والدين، والإمام معناه القائد وهو كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين[٥].

ولعل حديث رسول الله ﷺ لعمه أبي طالب عندما حضرته الوفاة، وجاءه وفد من قريش يفاوضونه بشأن ابن أخيه، فرد عليه الصلاة والسلام: «**أي عمّ، أولا أدعوهم إلى ما هو خير لهم، كلمة يقولونها تدين لهم بها العرب ويملكون رقاب العجم**»[٦] والرسول ﷺ إنما يتحدث عن القيادة التي يمكن أن تؤول للعرب إن استجابوا لدعوة الإسلام.

إن عرب الجاهلية عرفوا ملامح الدعوة الجديدة والمصير الذي ستؤول إليه، لقد فهموا أنها الدولة مع أنه لم تكن لديهم الخبرات الموجودة عند أناس اليوم ،فعندما كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل العربية، قال فراس بن عبد الله بن سلمة بن عامر بن صعصعة: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: «**الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء**» قال له: أفنهدفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) آل عمران: ١٠٤ .
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) الأنبياء: ٩٢ .
(٥) انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (أمم).
(٦) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير ١/ ٦٥، دار صادر بيروت ١٩٨٢ م.

أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟!! لا حاجة لنا بأمرك [١].

والأمر يعني النظام السياسى، فالأمر مصطلح ذو صلة بالائتمار أي التشاور، ومنه سمى الحاكم الأمير، والقادة بأولى الأمر.

وكل ما ورد في السيرة هو استعمال مصطلح «**الأمر**» للتعبير عن النظام السياسي، قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**إن محمداً قد مضى لسبيله، ولا بد لهذا الأمر من قائم يقوم به**»[٢].

وفي رواية عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن أبا بكر قال: «**ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحيّ من قريش، هم أوسط العرب نسبا ودارا**» [٣]، وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**وإن الله قد جمع أمركم على خيركم**»[٤].

وغداة طعنه من قبل أبى لؤلؤة المجوسي، وهو على فراش الموت، دعا عليًّا وعثمان وسعداً وعبد الرحمن والزبير وطلحة بن عبيد الله – رضي الله عنهم – ، وقال لهم: «**إنى نظرتكم فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، وإنى لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكنى أخاف اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذنها فتشاوروا فيها ، ووضع رأسه وقد نزفه الدم**» [٥].

وكان قبيل موته قد سمع مناجاتهم وارتفاع أصواتهم، فقال لهم: «**ألا أعرضوا عن هذا، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم**»[٦]، وقال لأبى طلحة الأنصاري: «**يا أبا طلحة، إن الله ـ تعالى ـ طالما أعز بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم**».

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٦٦ ، دار إحياء التراث العربي، د.ت.
(٢) نهاية الإقدام، الشهرستاني، ص ٤٧٩، تحقيق الفرد جيوم ، بدون تاريخ وبدون مكان النشر .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٣١٠.
(٤) المرجع نفسه ٤/ ٣١١ .
(٥) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/ ٦٦.
(٦) المرجع نفسه ٣/ ٦٧.

وقال للمقداد بن الأسود: «**إذا وضعتمونى في حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلاً**».

وقال لصهيب: «**صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، وإن رضى ثلاثة وعارض ثلاثة فَحَكِّموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا.. فكونوا مع الذين منهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس**».

ونلاحظ فيما قاله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه حدد:

أولاً: الإمارة في المجموعة التى كانت تمثل مجلساً يلتف حول رسول الله ﷺ وهم العشرة المبشرون بالجنة، وكان قد مات منهم أبو بكر وأبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ثانياً: ليس أمام المجلس المنعقد لاختيار الأمير إلا ثلاثة أيام فقط، بعدها يقوم قائد الحرس أبو طلحة بإلزامهم بذلك بالقوة، ولما اشتدت المنافسة بينهم، قال لهم أبو طلحة: «**لأن تدفعوها أخوف مني لأن تنافسوها، والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أُمرتم**»[1].

ثالثاً: وجوب الأخذ برأي الأكثرية، وعند التعادل يؤخذ برأي الفريق الذي معه عبدالرحمن بن عوف وكان أكبرهم سناً.

رابعاً: هدر دم كل من يخرج على رأي الأكثرية «**واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس**».

خامساً: تكليف إمام للصلاة وهو صهيب حتى اختيار الأمير الجديد، لأن الصلاة لا تؤخر إقامتها.

والملاحظ أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان ليقول ذلك لولا علمه بمقاصد الشريعة وطبيعة المنهج الربانى، وهو من المجموعة المبشرة بالجنة، وثاني الخلفاء وأول رجل يتحدى قريشا بالجهر بالدعوة فور إعلان إسلامه أمام رسول الله ﷺ في دار الأرقم، وهو الفاروق عمر ...

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٣/ ٥/ ٣٦.

لقد كان العقد الأول بين رسول الله ﷺ وبين مجموعة من مسلمى يثرب في العقبة الثانية قبل الهجرة، هو عقد بيعة للإمارة، والتزام من الأمير تجاه من أوكلوا إليه أمرهم، ويتضح ذلك جليا من خلال الحوار التالي، ثم قال رسول الله ﷺ: «**أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**»، أجاب أحد أعضاء الوفد: نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا ـ نساءنا ـ فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ـ السلاح ـ ورثناها كابراً عن كابر.. قال عضو آخر من الوفد وهو أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعنى اليهود ـ فهل عسيت إنْ نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فَتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**»[1].

قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: يعنى الحرمة، أى: ذمتى من ذمتكم، وحرمتى من حرمتكم[2].

وهذه المصطلحات التى تعنى المؤسسة السياسية في أجل معانيها إنما أعلنت قبل الهجرة إلى يثرب، حيث تمت ترجمتها إلى واقع مؤسسى كامل بدأ كالنور يشع من مركز انبعاثه ثم أخذت دائرته تتسع رويداً رويداً، وخلافاً لمنهج الاقتباس يستحسن إثبات مشهد البيعة، كما رواه ابن إسحاق عن عبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر بن قتادة لقد قال رسول الله ﷺ للنقباء: «**أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي...** » وقال عبادة بن نضلة الأنصاري: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، .. فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة[3].

ومضى رسول الله ﷺ في دعوته، ولم تمض سنتان على بيعة العقبة الأولى حتى كان

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٦٠)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث قوى وهذا إسناد حسن».

(٢) السيرة لابن هشام ٢/ ٨٤، ٨٥. قال ابن قتيبة: كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار: دمى دمك، وهدمى هدمك، أي ما هدمته من الدماء هدمته أنا. كنى ابن هشام عن حرمة الرجل وأهله «بالهدم» لأنهم كانوا أهل نجعة وارتحال.

(٣) انظر: السيرة لابن هشام ٢/ ٨٨، ٨٩.

الإسلام ينتشر انتشاراً سريعاً، وما كاد ﷺ يصل إلى يثرب «**المدينة المنورة**» حتى بنى مسجداً وأخذ في وضع دستور الحكم للمدينة المنورة، والذى عرف تاريخياً باسم الصحيفة والتى تضمنت تحديد العلاقات بين المسلمين وقبائل اليهود تحديداً دقيقاً، وبذلك قامت الدولة الإسلامية الأولى دون وجود سلطة مركزية تحول دونها أو تعترض سبيلها؛ لأن الجزيرة العربية لم تكن تعرف ما هو قائم يومها في بلاد فارس والروم ويمكننا أن نحدد منهج الرسول ﷺ في الوصول إلى الحكم بما يلى:

١ـ إنَّ الرسول ﷺ بَدَأَ بدعوة الناس إلى الإسلام حتى تكونت له قاعدة صلبة من المسلمين «**المهاجرون**».

٢ـ لم يقبل الملك حين عرض عليه من قبل الجاهلية لأنه سيكون والياً من قبلها، ولن يكون له أي نفوذ عليهم لعدم وجود قاعدة مؤمنة يرتكز عليها في نشر الدعوة الإسلامية.

٣ـ لم يخض الرسول ﷺ مع الجاهلية حرباً عسكرية لحين قيام الدولة.

٤ـ لقد كانت المدينة المنورة موقع الصدام مع الجاهلية، بعدما تهيأت كقوة حقيقة قادرة على ذلك[1].

وهنا نقول: إن موضوع السياسة الشرعية محفوف بالكثير من المخاطر حتى يكاد لا ينجو أحد ممن كتب فيه من النقد، والراضى عما يُكتب فى الموضوع قليل، ولكنه بحر لا بد من ولوجه والخوض فيه وخصوصاً فى زمننا هذا؛ حيث أصبح الحديث عن حكم الإسلام ودولته مما تمتلئ به أحاديث فتيان الدعوة، ناهيك عن رجالاتها وساستها، وإن كان سادتنا وعلماؤنا لا يجيزون لأحد أن يتكلم في نواقض الوضوء إلا بعلم ودليل، فمن باب أولى ألا يتحدث أحد في إثبات الحكم ونواقضه إلا بعلم ودليل، كما أن الدخول فى دهاليز وأبواب الحكم والسياسة الشرعية من غير أصحاب الاختصاص والتمحيص، سبيل إلى التخبط، لا على مستوى الفرد بل على مستوى الأمة، فما خرجت الخوارج ولا انتشرت الفتن وكثر الهرج إلا بدخول هذا الباب من غير علم ولا دليل من قبل عوام المسلمين، واليوم

(١) وهذه الأمور مذكورة وموجودة في كثير من مصادر السيرة والتاريخ وكتب الدعوة.

والدعوة قد انتشرت وأصبحت هناك حركات ملء السمع والبصر، بل وتشعبت وتشققت إلى فصائل ومجاميع، ومازالت متوالية الانقسام تعبث فى جسم الحركة الإسلامية، وعند التحقيق فى كثير من الانشقاقات نجد أن السبب هو الموقف من الحكومات الحالية وكيفية التعامل معها، وكذلك طبيعة النظرة الشرعية لها، وأصبح كل واحد من هذه الجماعات ينظر إلى نفسه على أنه هو صاحب الحق وغيره على باطل إن لم يكن خارجاً عن الملة والجماعة، ودَمُه مستباحا.

ومن التاريخ يظهر لنا أنه يحدث فى أيام الفتنة وتسلط الغوغاء ما لا يحدث فى أيام العافية وإسناد الأمر إلى أهله.

ففى الفتن تراق الدماء بغير وجه حق ظلماً وعدواناً، ويحدث طيش مثل طيش الخوارج الذين كان إذا مر بهم أبناء الصحابة قتلوهم، وإذا مر بهم المشرك، قالوا: مشرك مستجير!!

وأنا هنا لا أدعي أنني أكتب فى السياسة الشرعية، ولكنها محاولة لقراءة التاريخ القديم والجديد المتعلق بالدول والجماعات فيما يتعلق بالحكم ومتعلقاته.

وللأستاذ والمعلم محمد عبده فيما ذكرنا كلام جميل، ذكره فى مبحث الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية سنة ١٣٧٥هـ من منشورات المؤتمر الإسلامى صـ١٢٣ يقول فيه الشيخ رحمه الله: إن كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله، فتضطر السياسة للدخول فى الأمر لحفظ أمن العامة فتأخذ صاحب الفكر، لا لأنه تَفَكَّر ولكن لأنه لم يُرِد أن يقصر حق الحرية على شخصه، بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره غنى عما يراه هو حقا له، وتُخشى الفتنة إذا استمر مُدعِي الحرية فى غلوائه، فلهذا يرى حُفَّاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن يُنقى منهم المجتمع، صونا له عما يزعزع أركانه».

ويرى الشيخ أنه بالطريقة التي كان يدرس بها الطالب ويطبق فيها التعليم عند المسلمين يمكن وقاية المجتمع من الغُلُوِّ، وهذه الطريقة تعتمد على الحوار والنقاش فى حضرة المدرس وتنقل حرفيا ما قاله.

ويعيد الشيخ محمد عبده كل حالات الإيذاء والوشاية التي كانت تقع من بعض أو لبعض

الفقهاء فيكون من نتيجتها تنكيل الحكام بهم، ويرد ذلك إلى الحسد والغيرة وليس الدين.

وهى مُحاولة للوصول إلى نظرية يكتمل فيها النظر العاطفى المثالى مع البعد العقلانى المنطقى فى إطار الظروف والوقائع ليأتى الحكم بعد ذلك بعيداً عن زحام القضايا والهموم، وطغيان عموميات الطرح الإسلامى الابتدائى فى إطار من التوازن بين البعد العالمى والبعد المحلى للدعوة، وبهذا يُرسم خط استراتيجي يِراعى الحدود والإمكانات والقدرات، لتأتى بعد ذلك بدائل متنوعة، بعيدة عن النمطية والجمود على نوعية محددة من البدائل متشكلة تحت وطأة ضغط الواقع وأهمية النظر الاستراتيجى فى تحليل هذا الواقع، مع فتح كل النوافذ والنظر من خلالها للعلاج، وتلك قضية حتمية حيث إن واقعنا الذى نعيشه ليس واقعاً بسيطاً فى تركيبته بل هو واقع غايةٌ فى التعقيد والتشابك بين مدخلاته المختلفة .

إن التعامل مع منهج دعوى متكامل ينظر إلى كل الإمكانات والقوى الموجودة فى المجتمع من أجل إنجاح المشروع الإسلامى العام، هذا المنهج بينه أستاذ الدعوة في العصر الحديث الإمام البنا ـ رحمه الله ـ في قوله فى رسالة المؤتمرالخامس سنة ١٩٤١م: أما غاية الإخوان الأساسية، أما هدف الإخوان الأسمى، أما الإصلاح الذى يُريده الإخوان ويهيئون له أنفسهم، فهو إصلاح شامل كامل تتعاون عليه قوى الأمة جميعاً، وتتجه نحوه الأمة جميعاً يتناول كل الأوضاع القائمة بالتغيير والتبديل، نعم عملية الإصلاح متكاملة من جميع العاملين فى الدولة. وبهذا جاء نداء الإمام البنا ـ رحمه الله ـ فى قوله: «**وقد اشتد ساعد الدعوة وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن تُوَجِّه ولاتُوَجَّه وأن تُؤثِر ولا تتأثر، نهيب بالكبراء والأعيان والهيئات والأحزاب أن ينضموا إلينا وأن يسلكوا سبيلنا وأن يعملوا معنا، وأن يتركوا هذه المظاهر الفارغة التي لا غناء فيها... وتستطيع الدعوة بهم أن تختصر الوقت والجهد**». اهـ .

فهو استخدام كل الإمكانات والسبل والمسارات لاختصار الوقت، فمن المعلوم بداهة أنه ليس ثمة مسار يُغنى، ولا وسيلة تغنى عن وسيلة وأخيرا. نقول: إن مبحثنا هذا والذي نحاول أن نبين فيه ما الدولة الإسلامية وما آلت إليه، وكيفية تعامل الحركات الإسلامية

مع الأنظمة والحكومات، وهذه المحاولة ما هي إلا قراءة الماضي لرسم المستقبل، قد تصيب وقد تخطئ والكاتب فيها يدور بين الأجرين ـ إن شاء الله، والكتاب لا يعنى أصحاب الآراء الجاهزة حول ما نكتب، وحسبنا أننا ننشد الصدق والوضوح والتقرب إلى الله، كما أننا نرجو ممن قرأ ألا يقع في المستنقع الآسن من سوء الظن، ورداءة التأويل لنوايانا، فنحن حين نكتب نؤكد أننا لسنا أوصياء على الدعوة، وننكر على المتنطعين أن يكونوا أوصياء على النصوص الدعوية فهماً وتفسيراً وتنفيذاً، فالحق وإن كان عند الله واحد فهو فى أفهام الناس متعدد، وكما يقول العلماء: كلامنا صواب يحتمل الخطأ وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب، وما من شك أن كل كاتب فى ميدان الدعوة يعلم أن له رباً يستعين به ويستهديه فى أمره كله، ويعلم كذلك أن للشيطان أنفاً طويلاً يحشره فى كل أمرٍ صغير أو كبير، وهو لا يملك حينذاك إلا أن يقول: اللهم يا مصرف القلوب والأبصار صرف قلوبنا إلى طاعتك، كما أننا نستعيذ بالله من شخص إذا تكلم أخوه المخالف له فى اجتهاده تمنى أن يتلعثم ويطيش وينسى النحو والصرف والفصاحة والبلاغة ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

وفى نهاية تجوالنا وقبل أن نختم مدخلنا إلى البحث نقول: إنه لمن المسلمات أن تكون الدولة فى الإسلام جزءا منه، ولا يتصور أحد وجود إسلام تام بغير وجود سلطة تنفذه ، وتحافظ على حدوده، وتقيم تعاليمه ، وتظهره بين الناس وإن كره ذلك الكارهون الجاحدون.

وأحكام الإسلام المتعلقة بـ (الإمام) والمنوطة به، تجعل إيجاد هذا الإمام وإقامته واجباً شرعياً لا تبرأ الذمة بدونه، ولا يسلم المجتمع من الانحرافات بغيره، وكانت سلامة المجتمع من الانحراف هي المهمة الأولى للخليفة أبى بكر، حين حارب المرتدين فقضى على الانحراف وأمَّن الناس على عقيدتهم وشريعتهم التى يحتكمون إليها في حياتهم، وستظل سلامة الناس من الانحراف عن العقيدة والشريعة هى مطلب كل مسلم، مدرك لواجبه، عارف لشريعته، عامل على إظهار دعوة الله بين الناس، بل إنها مطلب الحركات الإسلامية الصحيحة التى قامت فى العالم الإسلامى فى العقود الأخيرة تدعو كل (إمام)

صالح ليقود الناس فى ضوء التعاليم الإسلامية، بعيدا عن الانحراف الفكرى السلوكى، الذى يكاد يقضي على المجتمعات الإسلامية، ويطمس هويتها، دون أن تجد إماما كأبي بكر يردها عن انحرافها، ويعيدها إلى رشدها، ويقيم فيها الحق والعدل بين الناس أجمعين، وهذا هو الهدف الأول للدولة فى الإسلام، الذى لاينبغى أن تنحرف عنه أبداً.

ومنذ تحولت الخلافة إلى ملك عضوض، كما فى الحديث عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فيكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً جبرياً، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة**»، ثم سكت[1].

والدولة الإسلامية بين مد وجزر تتعدد فيها الاجتهادات الفكرية المبنية على عديد من التجارب المتضاربة، مما أوجد تراثا سياسياً ضخما ينبغى النظر إليه بعين الباحث المتفحص الذى لا تغيب عنه ظروف الزمان أو المكان، وغيرهما من العوامل التى تركت آثارها واضحة فى التراث السياسى للأمة الإسلامية عبر قرون وقرون، وصدق فيها حديث النبى ﷺ «**خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2] وهذا ما يستدعى قيام حركات إسلامية تصحيحية تعيد للإسلام جدته، وتوقظه فى نفوس المسلمين، سواء تمثلت هذه الحركة الإصلاحية فى فرد معين أو جماعة معينة أو صحوة عامة، فإنها تحدث يقظة، تجعل الناس يدركون أهمية هذا الدين، ويدركون أهمية الالتفاف حول إمام (ملك ـ سلطان ـ رئيس ـ أمير ... إلخ) يُحيى دور المسلمين ويعلي رايتهم فى العالمين.

وقد كانت التجارب التاريخية الواقعية للمهتمين بالإسلام وللحركات الإسلامية، فيها شيء من الإحباط، ولن نعود بالقارئ الكريم فى هذه المقدمة إلى الأحداث التاريخية فى العصور الإسلامية المختلفة، مما سيجده القارئ فى ثنايا هذا الكتاب، ولكنّا سنقف معه

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وقال الأرناؤوط: «إسناده حسن».

(٢) أخرجه البخارى (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٥).

كاشفين موقف دعاة الإصلاح منذ فشل الحملة الفرنسية على مصر وما ترتب عليها لنرى أن خديعة العاملين للإسلام تمت على يد كثير من الثورات التى استمالت العلماء فأيدوها فقامت ـ بعد أن ساهموا فى إيجادها بدور كبير ـ بتجاهلهم وإبعادهم والانتقام منهم، ومن ذا ينكر دور العلماء فى إيقاظ المدّ الشعبي المقاوم للحملة الفرنسية على مصر؟ لقد استمر هذا المد الشعبى يقوده العلماء فيسقطون الوالى ويعينون «**محمد علي**» بدلاً منه، بل ويفرضون ذلك على السلطان العثمانى، وما إن ثبتت أقدام «**محمد علي**» فى حكم مصر حتى تخلص من السيد/ عمر مكرم، الذى كان زعيم الثورة الشعبية، ونفاه بعيداً عن القاهرة، وأفرغ هذا المد الشعبى من محتواه، ولم يصل الشعب إلى مبتغاه، لقد أراد الشعب بزعامة العلماء إقامة ولاية عادلة تقيم الشرع، وتضمن حقوق الرعية تحت رقابة أهل الحل والعقد، وأراد «**محمد على**» استثمار شعبية العلماء للوصول إلى الحكم ثم التخلص منهم بعد ذلك، وقد تم له ذلك فتخلص من العلماء بعدما أضعف مكانتهم الاجتماعية وألغى بعض النظم الاقتصادية التى كانوا يشرفون عليها.

وهذه الصورة وغيرها مما تكرر في عالمنا الإسلامي تستدعى رؤية جديدة تقوم على أن العبرة ليست بالمسميات فليسمَّ نظام الحكم نفسه ما يشاء..ليكن نظاما ملكيا، أو سلطانيا أو رئاسيا أو أميريا أو جمهوريا أو ما شئت من أسماء، ثم ليكن البحث والسؤال ماذا حقق ويحقق للإسلام؟ إن الحركة الإسلامية ـ بعد التجارب المريرة التي مرت بها مدعوة اليوم ـ إلى أن تتبنى منهج الإصلاح وأن تتعامل مع الواقع الذي لا تستطيع أن تقفز فوقه، على ألا تتخلى عن مكتسباتها التى حققتها خلال العقود ولا عن أصولها التى أخذتها من الكتاب والسنة، وفهمتها من أقوال الفحول من العلماء.

وأن تقبل التعامل مع الأنظمة القائمة التي ترتبط بالإسلام ولاتحارب وجوده، بصيغة تضمن استمرارية الأمن والاستقرار اللذين هما ركيزتا النجاح الدعوي، فأجواء الحرية والاستقرار هبة البيئة الصالحة.

إن الحركة الإسلامية مدعوة اليوم، إلى أن تدعو الجميع ـ حكاما ومحكومين إلى كلمة سواء، تستطيع بواسطتها أن تقدم مشروعها الحضارى، الذى تنعقد عليه آمال المجتمعات

لإنقاذها من الظلم والخراب والدمار.

هذه الكلمة ينبغي أن تنطلق ـ وهى برنامج مدروس من إعادة التقييم العلمى الجاد للواقع الدولى والمحلى من جهة، وللمجتمع الإسلامى وتجاربه وتجربتها هي رغم قصرها من جهة أخرى.

كما أن عليها أن تقف بحزم حتى لا تُسرق مجهوداتها مرة أخرى وخصوصاً أن الخطاب الإسلامى ظهر جليا أنه وحده القادر على الاستمرار، والعطاء الفياض، وأنه الحقيقة الحضارية الوحيدة التي تمضى إليها المجتمعات وتجلى ذلك في إفلاس كافة الأيدلوجيات والنحل والمبادئ التي هزت العالم قرابة عقد من الزمن، وانتهت بإفلاس وحسرات على معتنقيها، لقد حان لمرحلة الشعارات ومرحلة العواطف أن تنتهى ليحل محلها العمل الجاد المعقد، المحدد لأهدافه الاستراتيجية على جميع المستويات، وذلك بغية إعادة تقويم وصياغة شخصية الحركة الإسلامية من جديد، ومن هنا ينبغى للحركة الإسلامية ألا تشترك فى غرس بذرة لا تجنى ثمارها الطيبة أبدا، بل لا تجنى منها غالباً ـ كما وقع تاريخيا ـ إلا الحنظل والعلقم.

والملاحظ أنه على مدار الخمسين سنة الماضية لم تستفد الحركة الإسلامية الاستفادة المناسبة لحجمها من النظم القائمة والأحزاب المعارضة؛ إذ إن التعاون والتحالف بينها وبين النظم والأحزاب غالباً ما يتم على غير برنامج وعلى غير أسس دقيقة مكتوبة أو معلنة.

وهكذا بذلت الحركة الاسلامية جهوداً جبارة فى الإطاحة بأنظمة كثيرة وفى استقلال بلاد كثيرة، واستقرار أنظمة كانت منهارة دون أن تستفيد من هؤلاء أو أولئك، بل على العكس من ذلك كثيرا ما قلبَ لها ظهر المجن من طرف الجميع، فصار صديق الأمس عدو اليوم، وإن العمل على نجاح أى طرف من الأطراف ينبغى أن ينطلق من معطيات علمية موضوعية دقيقة في مقدمتها محاولة بناء الإنسان المسلم، والأخذ بمنهج الاستمرارية وطول النفس، وحمل المشعل للأجيال بعد الأجيال، والتحذير من التعجل فى قطف الثمرة قبل نضجها وقبل حصول وسائل لجنيها وحفظها بعد الحصول عليها، وقد كان

للانقلابات أثر كبير في تأخر الأمة فقد لقيت الانقلابات العسكرية دعم ومباركة القوات الاستعمارية المتربصة بالأمة ومصالحها، رأينا ذلك مع انقلاب بورقيبة على الملكية فى تونس بدعم من فرنسا.

وبعد هذه الاستطرادة يحسن بنا الوقوف على بعض المفاهيم الهامة التى ينبنى عليها فهم موضوعنا:

أولاً: الدولة الإسلامية:

ونعنى بها الدولة التى يحكمها شرع الله ـ عز وجل ـ وفيها تُقام حدود الله وتطبق شعائر الدين، ويهنأ الناس بعدل الإسلام وأمن الإيمان ويأمنوا على دينهم وأنفسهم وأموالهم وأعراضهم وعقولهم. قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ

---

(١) النساء: ٢٨.

(٢) النساء: ٢٧.

(٣) المائدة: ٤٩.

(٤) طه: ٢٤.

(٥) المائدة: ٤٤، ٤٥.

أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[١].

ثانياً: الواجب:

يعرف الواجب شرعاً: بأنه ما يثاب المرء على فعله، ويأثم على تركه، ويقصد به هنا: ما يتحتم القيام به من كل شعائر الدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً على منهاج النبوة وسنن الخلفاء الراشدين المهديين.

ثالثاً: الممكن:

يقصد بالممكن هنا تحصيل ما هو مستطاع بعد استفراغ ما فى الوسع دون تقصير.

بين الواجب والممكن:

ننطلق فى كلامنا هذا من فكرة الواجب والممكن كما ورد فى التطبيقات الفقهية والأصولية؛ حيث لا يمكن أداء الحكم الإسلامى مائة فى المائة على ما سنه النبى ﷺ وما درج عليه خلفاؤه الراشدون المهديون من بعده ولكن يمكن تطبيقه فى حدود الممكن من الفعل تمهيداً لتطبيقه على الوجه الصحيح الكامل والذى يمثل الواجب.

وهنا نريد أن نؤكد على الواجب والممكن الوارد فى كتب الفقه فى المسائل التعبدية الفردية يمكن أن ينسحب على فكرة الدولة الإسلامية فى عصرنا الحديث؛ إذ إننا نرى أنه يجب أن نسقط الخيار فى السعى لإقامة الدولة الإسلامية فى حدود الممكن كمرحلة، وتمهيداً لإقامتها على ما يقتضيه الأمر الواجب، وفى الأسطر القادمة تفصيل وبيان لتلك الأطروحة.

بين المصالح والمفاسد:

أ - تعريف المصلحة فى اللغة:

المصلحة فى اللغة هى المنفعة جلباً وإبقاءً[٢].

ب - المصلحة فى الاصطلاح:

---

(١) المائدة: ٤٧.

(٢) المصباح المنير.

قيل: هى المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم وماهم.

وقيل هى: جلب المنفعة لدفع المضرة [(١)].

سن فى الابتداء أن نقول: إنه قد بُنى الشرع الحكيم على درء المفاسد وجلب المصالح، والمفاسد والمصالح من الأمور النسبية التى لا يحدها معيار منضبط متواتر؛ إذ إنها متفاوتة الحجم والقدر والزمان والمكان... وقد جاءت قواعد الفقهاء فى هذا الموضوع مسلمات عند الباحثين والتى منها (عند الضرورة يرتكب أخف الضررين) وهذه قاعدة مدلل عليها من القرآن قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [(٢)]. وتشير هذه الآية إلى قضية متعلقها «**المصلحة والمفسدة**»، حيث إن الجهاد باللسان مشروع وواجب، وكذلك ذكر عيوب وحقارة وصغار الآلهة التى تعبد من دون الله وبيان بطلان عبادتها واجب... غير أن ذلك لو أفضى إلى ضرر كبير يربو على المصلحة منه فإنه يمنع وهذا ما تشير له الآية الكريمة.

وشاهد آخر من السنة ـ أيضاً ـ وهو ما كان من النبى ﷺ حيث عرض على غطفان أن يعطيهم نصف ثمار المدينة ليرجعوا عنه عام الأحزاب، ومعلوم أن دفع المسلمين مالاً للكفار ليستعينوا به على كفرهم وعداوتهم لله ورسوله حرام فى الأصل، غير أن هذا الحرام كان ضرره أقل من ضرر حشد كل الكفار فى وقت واحد على المسلمين لإجهاض المشروع الإسلامى، ألا وهو مشروع الدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة.

وهنا يستلزم الأمر أن نقول إن العلماء يحصرون تقسيم المصلحة من حيث الاعتبار والإلغاء إلى **ثلاثة أقسام**:

(١) **المصالح المعتبرة**: وهى ما تشهد الشارع باعتبارها، بأن وضع من الأحكام التفصيلية ما يوصل إليها ويحققها، وقام الدليل على اعتبارها ورعايتها سواء نصاً أو

---

(١) الناظر ١/ ٤١٢.

(٢) الأنعام: ١٠٨.

إجماعاً، وترجع إلى حفظ الضرورات الخمس (**الدين والنفس والعقل والنسل والمال**) ومن أمثلتها: الجهاد لحفظ الدين، والقصاص لحفظ النفس، والحدود لحفظ النفس والعقل، والبيع والشراء لحفظ المال.

(٢) المصالح الملغاة: وهى ما شهد الشارع بإلغائها وعدم اعتبارها كالربا وجعل الطلاق فى يد المرأة.

(٣) المصالح المرسلة: وهى المصالح التى لم يقم دليل جزئى معين على اعتبارها بذاتها ولا على إلغائها، ولكنها داخلة ضمن مقاصد الشرع، أى أن لها دليلاً واعتباراً وإن لم يكن مباشراً وصريحاً، بمعنى أن هذه المصالح تدخل تحت أصل كلى دلت عليه نصوص شرعية كثيرة لا حصر لها. ومن أمثلتها: جمع القرآن، وفرض أموال على الرعية لتجهيز الجيوش عند عجز بيت مال المسلمين عن نفقات الجهاد حفظاً للدين، ومنها القوانين المتعلقة بالمرور والسير[١].

وقبل الانتقال إلى الفقرة الثانية نذكر الفرق بين المصلحة والضرورة من أجل تحديد المصطلحات الواردة في المبحث حيث إن هناك فرقا بين الضرورة والمصلحة، فالضرورة: هى التى تصل فيها درجة الاحتياج إلى أشد المراتب وأشق الحالات، فيصبح الإنسان فى خطر حقيقى يحيط بنفسه أو ماله ونحوهما. وأما المصلحة: فهى أعم وهى فى الأصل عبارة عن جلب منفعة أو دفع مضرة، ويراد بها فى اصطلاح الشرعيين: (**المحافظة على مقصود الشرع بدفع المفاسد عن الخلق**) كما قال الخوارزمى. أو هى « **المنفعة التى قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم ونسلهم وعقولهم وأموالهم. طبق ترتيب معين فيما بينهما**» كما قال الرازى، وعلى هذا (**فالمصلحة تشمل مراتب الضروريات والحاجيات والتحسينيات، وأما الضرورة فهى قاصرة على المرتبة الأولى**) [٢].

الدولة الإسلامية الواجب [٣]:

---

(١) انظر: أثر الأدلة المختلف فيها (٣٦)، ضوابط المصلحة (٢٠٣)، مقاصد الشريعة.

(٢) نظرية الضرورة الشرعية (٥٤).

(٣) وهنا نود أن نطرح سؤالا للتفكير بصوت عال وهو: هل دولة النبوة والخلافة هى دولة الواجب، أم أنها دولة المثال والأنموذج، وأن الواجب هو ما استقرت عليه الأمة بعد الخلافة الراشدة؛ لأنه يتناسب مع طبيعة البشر، وأن الدول الإسلامية على مر العصور يقاس قربها أو بعدها من المنهج والأصول الإسلامية.

نستطيع أن نطلق هذا المسمى على تلك الدولة التى نشأت فى عهد النبوة فى المدينة تحت إمرة القائد الأعظم ذى الخلق العظيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى ﷺ، وما تلاها من موجات مد لمنهجه الكريم ﷺ فى عصر خلفائه الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى.

فهذا رسول الله محمد ﷺ يقيم دولة الإسلام على أسس ومعايير تمثل نموذج العدالة وقاعدة الخلافة وذروة ما وصلت إليه البشرية **وهذه هى:**

١ ـ القيام بالحق:

وهذه الصفة العظيمة منوطة بالشرع الإسلامى، فهو شرع الله الحق الذى يستسلم الناس له عن رضاً ورغبة، وقد أشار الله لذلك فقال سبحانه: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[3].

٢ ـ القيام على العدل:

وتلك خصيصة ربانية قامت عليها دولة الرسول ﷺ وكيف لا وهو رسول الله الذى أمر بالعدل وجعله ميزاناً توزن به الأشياء وتعرف به قيمتها، والعدل فى الفكر الإسلامى ذو مفهوم واسع يشمل الحاكم والمحكوم والراعى والرعية جميعاً فهو وضع الشىء فى موضعه، وإعطاء كل ذى حق حقه.

ولله در رسول الله ﷺ لما سرقت شريفة قرشية فسعى بعض الناس لدرء الحد عنها وبعثوا بأسامة بن زيد ليشفع لها عند رسول الله، فهب رسول الله مغضباً لله ولانتهاك قيم العدل وصاح فى أسامة ومن وراءه: «**أتشفعُ فى حدّ من حدود الله يا أسامةُ؟!**»، ثم ذكر أن ذلك مدخل للهلاك والضياع فقال: «**إنما أَهَلَكَ الذين قبلكم أنهم كَانُوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوهُ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد ...**»، وهكذا يكشف رسول

(١) الإسراء:١٠٥.
(٢) الإسراء: ٨١.
(٣) الأنفال: ٨.

الله عن أدواء وعلل الأمم السابقة ومسببات دمار المجتمعات الإسلامية ثم أعلن المبدأ الإسلامى الدستورى الخالد لدولته الإسلامية «**وايم الله، لوْ أن فاطمةَ بنت محمد سرقتْ لَقَطَعَ محمدٌ يَدَهَا**»[1] صدقت يا رسول الله وبلغت وأبلغت فصلى الله عليك وسلم وبأبى وأمى أنت.

وقد انطلق النبى فى قيمة العدلية هذه عن سياسة القرآن الكريم ونهجه فى تأصيل المنظور العدلى حيث قال ـ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾[4].

٣ ـ الموازنة بين الحياتين الدنيا والآخرة:

وتلك ـ أيضاً ـ من مزايا دولة الإسلام المثالية فى عهد رسول الله وصحابته فهى دولة الدنيا قيادة وريادة وإمامة واستطلاعاً وعلماً وفضلاً، ودولة الآخرة تقيم حدود الله وترعى شرائعه وشعائره وتتقيه وترفع كلمته عليا... **وهذه ملامح من ذلك تتمثل فى:**

ـ حرص الإسلام على إشباع حاجات الإنسان وتنظيمها فقال ـ سبحانه ـ مراعياً لحاجات خلقه الفطرية المشروعة من ملبس وزينة ومتاع طيب، بل جعل الله ـ سبحانه ـ مساحة الطيب والحلال واسعة وجعله الأصل، والاستثناء هو المحرم حيث ضاقت مساحته قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾[5]، وقال ـ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

(٢) النساء: ١٣٥.

(٣)النحل: ٩٠.

(٤) النساء: ٥٨.

(٥)الأعراف:٣٢.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[1].

وهذا رسول الله ﷺ يؤسس في سنته الدستور الإسلامي من خلال سنته؛ كما في قصة الثلاثة الرهط الذين جاؤوا يسألون عن عبادته ﷺ فتقالوها، وعزم أحدهم على صيام الدهر، وعزم الآخر على قيام الليل دائماً بلا نوم وعزم الثالث على هجر النساء واعتزالهم والترهب لله، فقال ﷺ: «**أَنْتُم الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَالله إِنِّى لأَخْشَاكُمْ لله وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لكِنِّى أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّى وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِى فَلَيْسَ مِنِّى**»[2].

دولة الراشدين:

وإذا كانت سيرة رسول الله ﷺ تمثل سيرة القائد العادل ورعيته تمثل الرعية المطيعة العابدة، فكذلك كانت سيرة الخلفاء الراشدين بعده أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ﷺ جميعاً.

حيث كان شعارهم (**الإمارة تكليف لا تشريف**)، (**لو عثرت بغلة فى العراق لخشيت أن يسألنى ربى لماذا لم تفسح لها الطريق**)، وقول الصديق يوم ولى الخلافة (**إن أقواكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه، وأضعفكم عندى قوى حتى آخذ الحق له**)، وناهيك ما كانت من عدالة هؤلاء الراشدين مع أنفسهم أو ذويهم وأقاربهم من إقامة العدل وتقويم النفس والبدء بها ثم بالأقربين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾[3]. ولذلك طابوا أحياء وطابوا أمواتاً وغنموا الأجر وحسن الثناء، وهذا رسول كسرى الفرس يقولها كلمة مدوية عن عمر لما سأل عن أمير القوم ورئيسهم فدلوه على عمر وكان نائماً تحت شجرة، لا حرس، ولا حشم، ولا خدم، فتعجب وقال: (**عَدَلْتَ، فَأَمِنْتَ، فَنِمْتَ يَا عمرُ**)

---

(١) البقرة: ١٧٢.

(٢) أخرجه البخارى (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) التحريم: ٦.

والحق ما شهدت به الأعداء.

ثم كان قدر الله من انحسار مساحة العدالة، وتقلص ظل شجرتها..

وحلول الدخن.. حتى غدت ملكا عضوداً وفيها أثرة.. وحل السيف فى الأمة على ما جاءت بذلك أحاديث النبى ﷺ، كما فى أبواب الفتن والملاحم وآخر الزمان من كتب السنة.. فمن ذلك ما رواه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال ـ فى مجلس عمر بن الخطاب ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ على القلوب كَالحصِيرِ عُوداً عُوداً، فَأَىُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَىُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجَخِياً لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفاً، وَلاَ يفنْكِرُ مُنْكَراً إِلاَّ مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ**» ثُمَّ قَالَ حُذَيْفَةُ: وَحَدَّثْتُهُ ـ أَىْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ـ عَنِ الْفِتَنِ وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَاباً مُغْلَقاً يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ، قَالَ عُمَرُ: أَكَسْراً لاَ أَبَا لَكَ! فَلَوْ أَنَّهُ فَتَح لَعَلَّهُ كَانَ يُعَادُ، قُلْتُ: لاَ بَلْ يُكْسَرُ، وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ ذَلِكَ الْبَابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ، حَدِيثاً لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ[1].

وهكذا حل الدخن، وذهبت الخلافة الرشيدة، وصارت أثرا بعد عين، وخبرا بعد حقيقة وأصبحنا ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ فريسة تتداعى علينا الأكلة لا خليفة ولا خلافة.. فأين المخرج وكيف السبيل إليه؟!

مشروع الدولة الإسلامية حديثا:

أصابت الأمة الإسلامية فاجعة كبرى حين سقوط الخلافة الإسلامية بل يعدُّ ذلك الحدث هو أخطر أحداث القرن العشرين الميلادى على الإطلاق، لأنه بسقوط الخلافة سقطت أمة وضاعت حضارة، وليست أى حضارة إنها حضارة مهادها السماء وامتدادها على الأرض حضارة الدنيا والآخرة حضارة الروح والجسد حضارة ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[2]، حضارة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

(٢) آل عمران: ١١٠.

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾[1]، حضارة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[2]، حضارة ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[3]، حضارة ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[4]، حضارة ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[5]. تجمع بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، والعقيدة الروحية، والأخلاق العلمية النظرية ذات الفضائل الجمة التى هى وسط بين رذيلتين... وليرجع من أراد التعرف على خسارة العالم بسبب سقوط الحضارة الإسلامية إلى كتاب: «**ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**» لأبى الحسن الندوى.

وهكذا ضاعت الحضارة فى الربع الأول من القرن العشرين، وبعدها طوقت أوربا المسيحية يديها على عنق العالم الإسلامى لتتقاسم تركة الرجل المريض (**إشارة للخلافة العثمانية فى تركيا**) فاحتلت أوربا العالم الإسلامى كله من شرقه لغربه، وأعملت خيلها ورجلها وكل ما أتيح لها فى تنصير شعوبه ومص خيراته، فهذه الفلبين تشهد بما حدث فيها إذ نصرت الكنيسة الكاثوليكية أكثر من نصف سكانها، وكذلك نصرت عددا كبيراً من مسلمى أندونيسيا، وهؤلاء البروتستانت فى بريطانيا وأمريكا لا يبرحون عن إرسال البعثات التبشيرية إلى دول أفريقيا خاصة ليجتالوا الناس عن دينهم.

والقصة طويلة ودامية.. ولنتركها لمقال آخر أكثر تفصيلاً.

وبناء على تلك الفواجع والكوارث التى حاقت بالأمة فإن الله ـ سبحانه ـ لن يأذن لدينه بالاندثار ولا بالانقهار ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[6]، فيهب بقية المخلصين فى السعى إلى خلاص ومخرج لجمع

(١) الحجرات: ١٣.
(٢) القصص: ٧٧.
(٣) الأعراف: ٣٢.
(٤) النساء: ٢٨.
(٥) الجمعة: ١٠.
(٦) التوبة: ٣٢.

شمل الأمة فيخرج مجددون ممن بشر بهم رسول الله ليعيدوا الأمة إلى صوابها ويجددوا معالم دينها، فهذا الإمام محمد بن عبد الوهاب يرفع راية التوحيد علياء فى جزيرة العرب، وهذا الإمام جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده ومن حذا حذوهم يرفعون شعار الجامعة الإسلامية، وهذا الإمام الشهيد حسن البنا يرفع راية عالمية الإسلام شريعة وعقيدة ودينا ودنيا، إلى غير هؤلاء من مصلحين.. غير أن الفاجعة كبرى ومصاب المسلمين أعظم من أن تقوم به حركة أو جماعة واحدة فتعددت الرؤى وكثرت الأطروحات، وتشعبت المسالك.. بما يمكن التمييز بين اتجاهات رئيسية فى مشروع الدولة الإسلامية.

الأمكن والممكن:

نرى أن الجماعات والحركات والمؤسسات الإسلامية تُجمع على ضرورة إقامة الخلافة الإسلامية..؛ وهذا شيء هام جداً وأساس يتفق عليه الجميع غير أن الوسائل والآليات تختلف فى كيفية إقامتها وإعادتها، وهذا شيء طبيعى شريطة ألا تبعد الوسائل شططا عن دائرة الغاية...، وألا يعظم بعضها على حساب البعض الآخر وألا تزعم كل طائفة لنفسها الوسيلة الخالصة، وتنتقص وتسفه وسائل الآخرين فلكلٍ دور ولكلٍ مجال وكلٌ يقف على ثغرة من ثغور الإسلام ما دام مقيدا بنصوص الكتاب وصحيح نصوص السنة، ثم نقول: هل بالإمكان تنصيب خليفة مسلم يسير بالناس على منهاج النبوة وتدين له الشعوب الإسلامية جمعاء فى أقطاب المعمورة بالولاء والسمع والطاعة... هذا واجب وإن أمكن فلا مناص عنه...

ولكن هل هو الممكن..؟!

أسئلة كثيرة يطرح بعضها بعضا ويولد كبيرها الصغير منها...، وهكذا وعليه فإننا استنادا إلى نصوص الشريعة نرى:

١ ـ ضرورة السعى إلى إقامة الدولة الإسلامية بما هو ممكن أولاً لتحقيق ما هو واجب... وعدم مغالطة الواقع والغفلة عن معطياته ومترسباته، والتمييز بين عالم الأذهان وعالم الكلام، وبين عالم الواقع وعالم الممكن.

٢ ـ ضرورة التنسيق بين القوى الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها وأماكنها لتوحيد

الأطروحات والاتفاق على أسس مشتركة لإقامة دولة الممكن سعيا إلى التمكن من دولة الواجب.

٣ ـ توسيع مساحة الاتفاق وتضييق هوة الخلاف والشقاق بين الاتجاهات الإسلامية، وإلا كان الفشل حليفُنا ونصيبُنا ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[1]..

وسنزيد هذا الأمر وضوحاً بالحديث عن موضوعين:

(١) العجز.

(٢) التدرج.

وقبل الدخول فى الموضوعين سنمر على موضوع التيمم لنستلهم منه الانتقال من الواجب إلى الممكن فى بناء الدولة؛ حيث إن المتيمم ينتقل من الأصل وهو الماء الذى يستخدم للوضوء إلى الصعيد الطيب عند وجود الأسباب المبيحة نحو (**المرض الخوف ـ خوف زيادة أو تلف**) لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ﴾[2]، وقول النبى ﷺ لمن أصابه جرح فى رأسه «**إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يُعَصِّبَ عَلَى جُرْحِهِ وَيَتَيَمَّم**»[3].

وكذلك من أسباب الانتقال إلى التيمم إذا خاف المتيمم العطش فيحبس الماء للشرب ويتيمم ولا إعادة عليه، وقد وضع العلماء شروطا لصحة التيمم:

(١) دخول وقت الصلاة المكتوبة.

(٢) طلب الماء وعدم وجوده.

وبعد هذا البيان فى الانتقال من الواجب إلى الممكن فى الوضوء والتيمم يمكننا أن نرى بوضوح منهج الإسلام فى التيسير ورفع الحرج فى مسائل الحياة المختلفة والتى منها موضوعنا عن الدولة.

---

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) النساء: ٢٩.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٣٦)، وحسنه الألبانى دون قوله: « إنما كان يكفيه».

العجز:

لا شك أن الواجب هو: العمل على إيجاد دولة إسلامية تحكم الناس على منهاج النبوة، ملتزمين بهدى الكتاب والسنة، ولكن إذا تعذر الوصول إلى هذا الأمر لسبب؛ كالعجز وعدم القدرة على التمام، فلا مانع من أن نجتهد على إيجاد **(دولة الممكن)** (١). والتعامل معها، فهى **(البدل الذى يعاد إليه عنه تعذر الأصل)**.

والعجز ليس عدم الإمكان فقط، بل كما قال الرافعى (٢): (لا نعنى بالعجز عدم الإمكان فقط، بل فى معناه: خوف الهلاك ولذلك قال الأصوليون: **(جواز التكليف مبنى على القدرة التى يوجد بها الفعل المأمور به، وهذا شرط فى أداء حكم كل أمر، حتى أجمعوا على أن الطهارة بالماء لا تجب على العاجز عنها ببدنه، بأن لم يقدر على استعماله له حقيقة، ولا على من عجز عند استعماله إلا بنقصان يحل به أو مرض يزاد به)** (٣).

أثر العجز:

العجز سبب من أسباب التخفيف والتيسير فى العبادات والمعاملات والحدود والقضاء، وغير ذلك فكل ما عجز عنه الإنسان يسرته له الشريعة، تفضلاً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمة بعباده، ورفعا للحرج والمشقة عنهم.

والأصل فى ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾(٤).

قال الجصاص: فى هذه الآية نص على أن الله ـ تعالى ـ لا يكلف أحداً ما لا يقدر عليه ولا يطيقه، ولو كلف أحداً ما لا يقدر عليها ولا يستطيعه لكان مكلفا له ما ليس فى وسعه(٥).

---

(١) نعنى (بالممكن): الواقع الموجود الآن فى بعض من الدول الإسلامية، وهو: الحكم الذى يجمع بين الصالح والطالح، وبين الإيمان والمعصية، وبين العدل والجور.. إلخ، فنختار الأخف فى الجور عملاً بالضرورة.

(٢) انظر بتوسع: مغنى المحتاج ١/ ١٥٤، شركة ومطبعة البابى الحلبى وأولاده ـ مصر.

(٣) انظر بتوسع: كشف الأسرار للبزدوى ١/ ١٩٢، دار الكتاب الإسلامى ـ القاهرة، والموسوعة الفقهية الكويتية ٢٩/ ٢٨٤، وزارة الأوقاف (الكويت).

(٤) البقرة: ٢٨٦.

(٥) انظر بتوسع: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨ دار الكتب العلمية ـ بيروت، والموسوعة الفقهية ٢٩/ ٢٨٧.

أنواع التخفيف التى تترتب على العجز:

تختلف أنواع التخفيف المترتبة على العجز وذلك على الوجه الآتى:

أولاً: سقوط المطلوب إن لم يكن له بدل: فإذا عجز الإنسان عند أداء المطلوب، ولم يكن له بدل فإنه يسقط، ويسمى: **(تخفيف إسقاط)** ومن أمثلة ذلك: إسقاط الحج على الفقير(١).

ثانياً: الانتقال إلى بدل المطلوب:

إذا عجز الإنسان عن فعل المطلوب وكان له بدل، فإنه ينتقل إلى البدل، كالعجز عن استعمال الماء للوضوء أو الغسل فإنه ينتقل إلى التيمم،وقد جاء النص بذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾(٢).

وكذلك من لم يقدر على القيام فى الصلاة انتقل إلى القعود، ومن لم يقدر على القعود انتقل إلى الاضطجاع، ومن لم يقدر على الركوع والسجود انتقل إلى الإيماء، وبهذا قال النبى ﷺ لعمران بن حصين: «**صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**»(٣) ومن عجز عن الصيام انتقل إلى الإطعام(٤).

وقد وضع الفقهاء والأصوليون من القواعد ما يجمع الكثير من أسباب العجز، ووضحوا التخفيفات التى تنبنى على كل سبب، **ومن هذه القواعد:**

القاعدة الأولى: المشقة تجلب التيسير:

المشقة لغة: العسر والعناء الخارجين عن حد العادة فى الاحتمال(٥).

المشقة اصطلاحاً: هى المشقة التى تنفك عنها التكاليف الشرعية. أما المشقة التى لا

---

(١) انظر:المنثور للزركشى ١/ ٢٥٣، شركة الكويت للصحافة (الأنباء)، ط٢ ـ ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، الأشباه والنظائر لابن نجيم ـ ص ٨٣، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٢) النساء : ٤٣.

(٣) أخرجه البخارى (١١١٧).

(٤) انظر: الأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٨٣ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت، ولذخيرة للقرافى ـ ص٣٣٩، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط٢ ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، وأحكام القرآن للجصاص ١/ ٥٣٨، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٥) مختار الصحاح (٣٤٣) ومعجم لغة الفقهاء (٤٣١).

تنفك عنها التكاليف الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود، ورجم الزناة، وقتل البغاة فلا أثر لها فى جلب تيسير ولا تخفيف[١].

التيسير لغة: السهولة واليسر[٢].

التيسير اصطلاحاً: هو ما يؤدى إلى رفع الحرج بشرط عدم مصادمته نصاً، فإذا صادمت نصاً[٣].

والمقصود من هذه القاعدة بيان تيسير الشريعة الإسلامية وأمرها للمكلف بما يستطيع دون إيقاعه فى حرج، وبما يتوافق مع طبيعته وفطرته. كما أنها تراعى أحواله وظروفه، وكل ذلك فى حدود الضوابط مبينة فى مكانها.

وهذا أصل عظيم من أصول الشرع، ومعظم الرخص منبثقة عنه، بل إنه من الدعائم والأسس التى يقوم عليها صرح الفقه الإسلامى، فهى قاعدة فقهية وأصولية عامة، وصارت أصلا مقطوعا به لتوافر الأدلة عليها[٤].

قال الإمام الشاطبى رحمه الله تعالى: (**إن الأدلة على رفع الحرج فى هذه الأمة بلغت مبلغ القطع**)[٥].

وقال أيضاً: إذا فرضنا أن رفع الحرج في الدين مثلا مفقود فيه صفة العموم، فإنا نستفيده من نوازل متعددة خاصة مختلفة الجهات، متفقة فى أصل رفع الحرج ـ كما إذا وجدنا التيمم شرع عند مشقة طلب الماء، والصلاة قاعدا عند مشقة طلب القيام، والقصر والفطر فى السفر، والجمع بين الصلاتين فى السفر والمرض والمطر، والنطق بكلمة الكفر عند مشقة القتل والتألم، وإباحة الميتة وغيرها عند خوف التلف الذى هو أعظم المشقات، والصلاة إلى أى جهة كان لعسر استخراج القبلة، والمسح على الجبائر والخفين لمشقة النزع ولرفع الضرر، والفطر فى الصيام عما يعسر الاحتراز منه من المفطرات كغبار الطريق

(١) شرح القواعد الفقهية، الزرقاء (١٥٧).
(٢) مختار الصحاح (٧٤٢).
(٣) شرح القواعد الفقهية، الزرقاء (١٥٧).
(٤) القواعد الفقهية، الشيخ على أحمد الندوى، ص ٢٦٥، ط ١، دار القلم ـ دمشق.
(٥) الموافقات، للشاطبى ٣/ ٣، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مصر ـ مطبعة محمد على صبيح.

ونحوه ـ إلى جزئيات كثيرة جدا يحصل من مجموعها قصد الشارع لرفع الحرج، فإنا نحكم بمطلق رفع الحرج فى الأبواب كلها عملاً بالاستقراء فكأنه عموم لفظى فإذا ثبت اعتبار التواتر المعنوى ثبت فى ضمنه ما نحن فيه(١).

وهذه القاعدة فيها تفسير للأحكام التى روعى فيها التيسير والمرونة، وإن الشريعة لم تكلف الناس بما لا يستطيعون أو بما يوقعهم فى الحرج، وربما لا يتفق مع غرائزهم وطبائعهم وأن المراعاة والتيسير والتخفيف مرادة ومطلوبة من الشارع الحكيم.

ومن خلال التأمل والدراسة للأسباب التى أدت إلى التخفيف في المسائل الشرعية نجد أن لها ارتباطاً مهماً ووثيقاً بمسألة الضرورة والحاجة، فالمضطر لقول كلمة الكفر عند سلطان جائر أبيح له ذلك بناء على الإكراه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان فقد أخذ بالرخصة وهو أحد أسباب التخفيف.

والمشقة الحاصلة لمن لم يجد الطعام وهو مضطر إليه ولا يستطيع إنقاذ نفسه من الهلاك إلا بالسرقة، فنتيجة لهذه المشقة الحاصلة رخص له أكل طعام الغير من غير إذنه.

مما سبق إذن يتبين لنا مدى الارتباط الوثيق بين مفهوم «**الضرورة والحاجة**» وقاعدة (المشقة تجلب التيسير).

الدليل على قاعدة (المشقة تجلب التيسير):

قد دل على هذه القاعدة، وعلى بعض القواعد الفرعية الأخرى التى هى امتداد لهذه القاعدة الجليلة ـ نصوص من الذكر الحكيم، وأحاديث النبى ﷺ.

أولاً: من القرآن الكريم:

قوله تعالى:

١ـ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ

(١) الموافقات ٣/ ٣، تحقيق: عبد الله دراز ـ المكتبة التجارية ـ مصر، ومقاصد الشريعة وعلاقتها بالأدلة الشرعية، للدكتور محمد سعد اليوبى، بتصرف يسير، دار الهجرة للنشر والتوزيع ـ ط١.

بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾[١].

٢ - ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾[٢].

٣ - ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[٣].

٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[٤].

٥ - ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[٥].

٦ - ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾[٦].

٧ - ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ

---

(١) البقرة : ١٨٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) النساء : ٢٨.

(٤) المائدة : ٦.

(٥) الأعراف : ١٥٧.

(٦) الحج : ٧٨.

بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[١] .

ووجه الدلالة فيها وفيما سواها من الآيات الأخرى التى تضافرت فى هذا الموضوع: أن الشريعة الإسلامية تتوخى دائما رفع الحرج عن الناس، وليس فى أحكامها ما يجاوز قوى الإنسان الضعيفة، ومن هذه النصوص استنبط الفقهاء هذه القاعدة، وجعلوها بمثابة نبراس يستضيئون به عند النوازل والوقائع، ويعالجون كثيراً من المسائل والقضايا على أساسها.

جاء فى «**تفسير المنار**» [٢] . عند قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٣] أن الآية تشعر بأن الأفضل أن يصوم إذا لم تلحقه مشقة أو عسر لانتفاء علة الرخصة وإلا كان الأفضل أن يفطر لوجود علتها... ذلك بأن الله لا يريد إعنات الناس بأحكامه وإنما يريد اليسر بهم وخيرهم. وهذا أصل فى الدين يرجع إلى غيره ومن هذه الآية أخذ العلماء قاعدة (المشقة تجلب التيسير).

ثانياً: من السنة النبوية:

وفى مجال السنة المطهرة إذا تصفحت الأحاديث، وجدت كثيراً منها تصرح أو تشير إلى معانى هذه القاعدة الشرعية، وليس أدل على ذلك من أن الرسول ﷺ وصف هذا الدين بالحنيفية السمحة.

فهناك روايات وردت بهذه الصيغة، والتى من أجودها:

«**إن الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية**»[٤] .

وسمى ـ أى الدين ـ بالحنيفية لما فيها من التسهيل والتيسير[١] .

---

(١) النور : ٦١.

(٢) ٢/ ١٦٤ ، مطبعة المنار ـ القاهرة،١٣٧٣هـ، وراجع: القواعد الفقهية، للندوى، ص ٢٦٦.

(٣) البقرة:١٨٥.

(٤) أخرجة أحمد (١/ ٢٣٦) بنحوه، وقال الأرناؤوط : « صحيح لغيره ».

وجاء في حديث أسامة بن شريك التغلبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: أتيت النبى ﷺ وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فجاءته الأعراب من جوانب تسأله عن أشياء، فقالوا: هل علينا حرج من كذا؟ فقال: « **عباد الله! وضع الله الحرج إلا امرئ اقترض امرئ ظلماً فذاك يحرج ويهلك**»[٢].

وقد عقد الإمام البخارى ـ رحمه الله ـ باباً فى صحيحه بعنوان «**الدين يسر**».

وتناول فيه ما روى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**»[٣] قال الإمام ابن حجر ـ رحمه الله: وسمى الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله؛ لأن الله وضع عن هذه الأمة الأمر الذى كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم[٤].

ومن هذا الباب: ما روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال: «**يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا وبَشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا**»[٥].

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم أمرهم من الأعمال بما يطيقون..**»[٦].

وتفصيل هذا المعنى نجده فيما روى عن عائشة – رضي الله عنها – : أن النبى ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «**من هذه؟**» قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: «**مَهْ عليكم من العمل بما تُطِيقُونَ، فوالله لا يملُّ الله حتى تَمَلُّوا**» وكان أحبَّ الدينِ إليه ما دَاوَمَ عليه صاحبُهُ[٧].

---

(١) الموافقات للشاطبى ١/ ٢٣٢ ـ تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة على صبيح ـ مصر.
(٢) مسند الطيالسي (١٢٣٢).
(٣) أخرجه البخارى (٣٩).
(٤) فتح البارى (١/ ٩٣) دار المعرفة.
(٥) أخرجه البخارى (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).
(٦) أخرجه البخارى (٢٠).
(٧) أخرجه البخارى (٤٣)، ومسلم (٧٨٥).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:كان رسول الله ﷺ فى سفر، فرأى زحاما ورجلا قد ظلل عليه فقال: «**ما هذا؟**» قالوا: صائمٌ، قال: «**لَيْسَ مِنَ الْبِرّ الصِّيَامُ فِى السَّفَرِ**» وفى رواية أخرى: «**وَعليكُم بِرخصةِ الله التى رَخَّصَ لَكُمْ**»(١).

القاعدة الثانية: الميسور لا يسقط بالمعسور:

هذه قاعدة مهمة من قواعد الفقه تمسك بها جماهير الفقهاء، ويتمثل فيها جانب التيسير والتخفيف.

ويذهب الفقهاء فى استنباط هذه القاعدة إلى الشطر الثانى من الحديث التالى: عن أبى هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» (٢).

وقد ذكرها الإمام تاج الدين السبكى (فى أشباهه) (٣). وقال: وهى من أسهل القواعد المستنبطة من قوله ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»(٤).

قال العلامة ابن حجر الهيثمى فى شرح الحديث المذكور: «**وهذا من قواعد الإسلام المهمة مما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم، لأنه يدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام، وبالحديث وبالآية الموافقة له يخفى عموم قوله تعالى:** ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾(٥).

وعلى أساس الأصل المذكور قد تختلف بعض الأحكام العملية حسب اختلاف الأشخاص وأوضاعهم وإلى هذا وقعت الإشارة فى قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٦).

---

(١) أخرجه البخارى (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥).

(٢) أخرجه البخارى (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) أخرجه البخارى (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٤) الأشباه والنظائر ، للسبكى، وهو مخطوط : و:٤٧، الوجه الأول رقمه في المركز ١٦٨ـ فقه شافعى ـ مصدره : مصور عن المكتبة الأزهرية رقم ٥٢/ ٩٣٧.

(٥) الحشر : ٧.

(٦) الطلاق : ٧.

فإذا عجز عن ركن أو شرط كنحو وضوء، أو صلاة، أو قدر على غسل أو مسح بعض الأعضاء أو التيمم أو على ستر بعض العورة أو على بعض الفطرة لا عن الرقبة فى الكفارة لأن لها بدلا، أو بعض الفاتحة أو إزالة بعض المنكر، أتى بالممكن وصحت عبادته مع وجوب القضاء تارة وعدمه تارة أخرى.

من شواهد هذه القاعدة:

ومن شواهد هذه القاعدة وتطبيقاتها، ما رواه البخارى عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال: كَانَتْ بِى بواسيرُ، فسألتُ النبيَّ ﷺ عَنِ الصلاةِ، فقال: «صلِّ قائماً، فَإِنْ لم تَسْتَطِعْ فقاعداً، فَإِنْ لم تَسْتَطِعْ فَعَلى جَنْب»[1].

فإنه يستفاد من الحديث أن «**الميسور لا يسقط بالمعسور**» لأن وجوب الصلاة منوط بوجود العقل، فحيث كان حاضرا لا يسقط التكليف عن المكلف، كما لا يسقط الركوع والسجود بالعجز عن قيام، وقد وضع من الترتيب المذكور، أنه: «**إذا عجز عن الأعلى، وأتى بالأدنى، كان آتيا بما استطاع من الصلاة**».

والحديث الوارد فى النص عن المنكر أيضاً يحتمل هذا المعنى.

وهو ما روى عن النبى ﷺ أنه قال: « **مَنْ رَأى منكم منكراً فَلْيُغَيِّرْه بيدِه، فَإِنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان**»[2].

ولما كانت الاستطاعة بالقلب وهى: النفرة عن المنكر والتنكر له بإظهار الأمارات الدالة على ذلك كإراقة الخمر ومقاطعة الشارب فى مقدور كل شخص، فإنها لم تسقط عنهم فى حال من الأحوال.

وفى كل ما سبق إشارة جلية إلى أنه اشترطت القدرة فى جميع ما أوجبه الله ـ تعالى ـ على العباد فمن لم يقدر على شىء فلا يكلفه الله بما يعجز عنه [3].

ابن تيمية بين قاعدة الميسور لا يسقط بالمعسور والانتقال بين الواجب والممكن.

---

(١) أخرجه البخارى (١١١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

(٣) القواعد الفقهية للشيخ على أحمد الندوى ـ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٦ ـ ط١ ـ دار القلم ـ دمشق.

قال الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ فى موضوع بحثنا فى الانتقال من الواجب إلى الممكن: «**وأولو الأمر صنفان: الأمراء والعلماء. وهم الذين إذا صلحوا صلح الناس، فعلى كل منهما أن يتحرى في ما يقوله ويفعله، طاعة الله ورسوله واتباع كتاب الله ومتي أمكن فى الحوادث المشكلة معرفة ما دلَّ عليه الكتاب والسنة كان هو (الواجب) وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز الطالب، أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك، فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه.. ثم قال: وكذلك ما يشترط فى القضاة والولاة من الشروط يجب فعله بحسب الإمكان، بل وسائر شروط العبادات من الصلاة والجهاد، وغير ذلك، كل ذلك مع القدرة، أما مع العجز فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولهذا أمر الله المصلى أن يتطهر بالماء، فإن عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك، تيمم الصعيد، فمسح بوجهه ويديه منه، وقال النبى ﷺ لعمران ابن حصين: «صلِّ قائماً، فإن لم تستطعْ فقاعداً، فإن لم تستطعْ فعلى جنب»** [1]. وقد أوجب الله ـ تعالى ـ فعل الصلاة فى الوقت على أى حال أمكن كما قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [2].

فأوجب الله الصلاة على الآمن والخائف، والصحيح والمريض، والغنى والفقير، والمقيم والمسافر، وخففها على المسافر والخائف والمريض، كما جاء به الكتاب والسنة.

وكذلك أوجب فيها واجبات من الطهارة والستارة واستقبال القبلة، وأسقط ما يعجز عنه العبد من ذلك، فلو انكسرت سفينة قوم، أو سلبهم المحاربون ثيابهم، صلوا عراة بحسب أحوالهم، وقام إمامهم وسطهم؛ لئلا يرى الباقون عورته.

ولو اشتبهت عليهم القبلة، اجتهدوا فى الاستدلال عليها، فلو عميت الدلائل، صلوا كيفما أمكنهم، كما روى أنهم فعلوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ، فهكذا الجهاد والولايات، وسائر أمور الدين، وذلك كله فى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [3].

---

(١) أخرجه البخارى (١١١٧).

(٢) البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) التغابن: ١٦.

وفى قول النبى ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[١]. كما أن الله تعالى: لما حرم المطاعم الخبيثة قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[٣].

فلم يوجب ما لا يستطاع، ولم يحرم ما يضطر إليه، إذا كانت الضرورة بغير معصية من العبد.. فالواجب على المسلم أن يجتهد فى ذلك بحسب وسعه، فمن ولى ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه، ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من ترك المحرمات، لم يؤاخذ بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار، ومن كان عاجزا عن إقامة الدين بالسلطان والجهاد ففعل ما يقدر عليه من النصيحة بقلبه والدعاء للأمة، ومحبة الخير، وفعل ما يقدر عليه من الخير لم يكلف بما يعجز عنه، فإن قوام الدين الكتاب الهادى والحديث الناصر كما ذكره الله تعالى[٤].

النزول على الواقع الموجود عند تعذر الأصل:

مع تعاقب الأجيال[٥]، وانسحاب الإسلام من واقع الأمم والجماعات، ومن ضمائر الأفراد ضرب الفساد فى الأرض، وتلبست الأهواء والأغراض بالإنسان، ومن هنا، فإذا اخترنا أقل المسلمين لبسا بالأهواء والأغراض ليتولى المناصب والولايات نكون وفقا لظروف الزمان قد اخترنا الأصلح وقدمنا من يستحق التقديم على الأعمال، وتعبيرا عن ذلك ورد عن الإمام الماوردى[٦].

ومع أنه يجوز تولية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود، فيجب مع ذلك السعى فى إصلاح الأحوال حتى يكمل فى الناس ما لا بد لهم من أمور الولايات

---

(١) أخرجه البخارى (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢) البقرة: ١٧٣.

(٣) المائدة: ٦.

(٤) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية - الإمام ابن تيمية ص ١٥٩ - ١٦٧ دار المعارف - بيروت - لبنان.

(٥) من ملامح الثورة الإدارية فى الإسلام، أ/ عبد العظيم منصور - ص ٥٧.

(٦) لعل الصواب - ابن تيمية - راجع السياسة الشرعية ابن تيمية ص ٣٣، ٣٤، تحقيق أبى عبد الله المغربى، دار الإيمان - الإسكندرية.

والإمارات ونحوها، كما يجب على المعسر السعى فى وفاء دينه، وإن كان فى الحال لا يطلب منه إلا ما يقدر عليه...

ثم إن هناك مثلا عليا نصبها الشرع للإنسان المسلم ليرنو إليها بعينه، ويهفو إليها بقلبه، ويسعى إليها بحركته، ولكن الواقع كثيراً ما يغلبه، فيعجز عن الوصول إليها فيضطر إلى النزول عنها إلى ما دونها تحت ضغط الضرورة وعملا بالممكن الميسور بعد تعذر الصعود إلى المثال المعسور.

ومن هنا تقررت القاعدة الشهيرة (الضرورات تبيح المحظورات) وقاعدة (المشقة تجلب التيسير) وقاعدة (لا ضرر ولا ضرار) وقاعدة (رفع الحرج) ومن قرأ القرآن واستقرأ السنة، وجد ذلك واضحا كل الوضوح، فقد بين القرآن أن الله ـ تعالى ـ أقام أحكام شرعه على اليسر لا على العسر، على التخفيف لا التغليظ، وعلى رعاية الظروف المخففة، والضرورات القاهرة، والحاجات الملحة.

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[1].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[2].

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾[3].

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾[4].

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[5].

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[6].

وفى الصحيح: «**يَسِّرُوا وُلا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا**»[7].

---

(١) البقرة: ١٨٥.
(٢) النساء: ٢٨.
(٣) البقرة: ١٧٨.
(٤) الحج: ٧٨.
(٥) البقرة: ١٧٣.
(٦) النحل: ١٠٦.
(٧) أخرجه البخارى (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤).

«إنما بُعثتُمْ مُيسرين ولم تُبعثوا معسرين»[١]. **«أحبُّ الدينِ إلى الله الحنيفيةُ السمحةُ»**[٢].

ولهذا نجد الفقهاء يُجيزون للفرد المسلم وللمجتمع المسلم: (النزول للضرورة من المثل الأعلى إلى الواقع الأدنى) حتى لا تتعطل مصالح الخلق، ولا تضيع حقوقهم، ويذهب دينهم ودنياهم. مثال ذلك:

ـ إجازة شهادة الفاسق إذا لم يوجد (العدل) الذى هو (الأصل) فى الشهادة.

ـ وإجازة ولاية القاضى المقلد إذا لم يوجد القاضى المجتهد الذى هو (الأصل) فى القضاء.

ومثله: الإمام (رئيس الدولة) فالأصل فيه أن يكون مجتهدا ولكنهم أجازوا إمامة المقلد بل الجاهل على أن يستعين بأهل العلم.

ـ وكذلك أجازوا الجهاد مع البار والفاجر، مع أن الأصل هو البار الصالح.

بل سئل الإمام أحمد: عن أمير قوى ولكنه فاجر، وآخر صالح ولكنه ضعيف، مع أيهما يجاهد؟

فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أما القوى الفاجر ففجوره على نفسه، وقوته للمسلمين، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه، وضعفه على المسلمين! يجاهد مع القوى وإن كان فاجراً.

فإذا نظرنا إلى واقع المسلمين وما هم فيه من وهن وتمزق وتخلف، وإلى واقع أعدائهم وما يملكون من قوة وأسباب نرى هذا الواقع يفرض علينا أن نقبل فى حال الضعف ما يجب أن نرفضه فى حال القوة، ونقبل فى حال التفرق ما يجب أن نرفضه فى حال الوحدة، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[٣].

فأشار إلى أن الضعف من أسباب التخفيف وإن كان على المسلم أن يتطلع أبدا إلى القوة والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

---

(١) أخرجه البخارى (٢٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٦)، وقال الأرناؤوط: « صحيح لغيره » .

(٣)الأنفال :٦٦.

ومن لم يستطع أن يصل إلى الحكم، وينفرد به من الجماعات الإسلامية كما هو الحال في أكثر البلاد الإسلامية اليوم فلا مانع أن ينزل على حكم الواقع، ويرضى بالمشاركة مع غيره إن كان من وراء ذلك خير للأمة[١].

وجوب الأخذ بالعدل ـ الممكن :

يقول الإمام ابن قيم الجوزية: «**فإن الله ـ تعالى ـ أرسل رسله، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأى طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله ـ تعالى ـ لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.**

والطرق أسباب ووسائل لا تراد لذواتها، وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد، ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها، ولن تجد طريقا من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شِرْعَةٌ، وسبيل للدلالة عليها، وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟

ثم قال: ولا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هى جزء من أجزائها وباب من أبوابها»[٢]، ويعتبر ابن تيمية أن السياسة التى تسير على مبدأى (أداء الأمانات) و(الحكم بالعدل) إنما هى سياسة استطاعت أن تحقق الكمال فى الحكم ـ فيقول (وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها، والحكم بالعدل، فهذان جماع السياسة العادلة والسياسة الصالحة).

وإن كان كلام ابن تيمية فى مطلع (السياسة الشرعية) صريحا فى ذكر مبدأى أداء الأمانات، والحكم بالعدل، كل منهما على نحو مستقل عند الآخر فإنه فى كثير من الأحيان لا سيما فى (منهاج السنة) [٣]. يدمج مبدأ (أداء الأمانات) فى مبدأ (الحكم بالعدل) ويعتبر

(١) من فقه الدولة فى الإسلام ـ د. يوسف القرضاوى ـ ص١٨١، دار الشروق ـ بيروت، الطبعة الأولى.
(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (٤/ ٣٧٣)، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية ـ بيروت.
(٣) منهاج السنة (١/ ٣٢)، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

أن الحكم بالعدل هو المقصود النهائى للشريعة باعتبار أن أداء الأمانة من العدل.

يقول: (والمقصود أن الحكم بالعدل واجب مطلقاً في كل زمان ومكان على كل أحد ولكل أحد، والحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ هو عدل خاص، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها والحكم به واجب على النبى ﷺ وكل من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر).

ويقول أيضاً: (ولهذا يروى: إن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة) [(١)].

وهكذا نجده قد جعل الحكم بالعدل مساويا للشريعة، وبتعبير آخر فإن مقصود السياسة ومبدأها الأساسى هو العدل بالمعنى العام[(٢)].

الإقدام على المصالح الضرورية أو الحاجية وإن اعترض طريقها بعض المنكرات:

يقول الإمام عز الدين بن عبد السلام: إذا تعذرت العدالة فى الولاية العامة والخاصة بحيث لا يوجد عدل ولينا أقلهم فسقا، وله أمثلة:

أحدها: أن تتعذر فى الأئمة، فيقدم أقلهم فسوقا عند الإمكان، فإن كان الأقل فسوقا يفرط فى المصالح العامة مثلا، وغيره يفرط فى خمسها، لم يجز تولية من يفرط فى الخمس فما زاد عليه، وتجوز تولية من يفرط فى العشر، وإنما جوزنا ذلك لأن تبعة الأعشار بتضييع العشر أصلح للأيتام ولأهل الإسلام من تضييع الجميع ومن تضييع الخمس أيضاً، فيكون هذا من باب (دفع أشد المفسدتين بأخفهما).

وإذا استولى الكفار على إقليم عظيم فولوا القضاء لمن يقوم بمصالح المسلمين العامة فالذى يظهر إنفاذ ذلك كله، جلبا للمصالح العامة ودرءا للمفاسد الشاملة، إذ يبعد عن رحمة الشارع ورعايته لمصالح عباده تعطيل المصالح العامة وتحمل المفاسد الشاملة لفوات كمال فيمن يتعاطى توليها لمن هو أهل لها، وفى ذلك احتمال بعيد.

---

(١) الحسبة فى الإسلام للإمام ابن تيمية ص٤، المطبعة السلفية ـ القاهرة.

(٢) راجع: النظرية السياسية عند ابن تيمية، د/ حسن كونا كانا، ص ١٥٤، ١٥٥، دار الإخلاء ـ الدمام.

المثال الثانى: الحكام إذا تفاوتوا فى الفسوق قدمنا أقلهم فسوقا، لأننا لو قدمنا غيره لفات من المصالح ما لنا عنه مندوحة، ولا يجوز تفويت مصالح الإسلام إلا عند تعذر القيام بها ولو لم يجز هذا وأمثاله لضاعت أموال الأيتام كلها وأموال المصالح بأسرها، وقد قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[(١)].

ومبنى هذه المسائل كلها على الضرورات ومسيس الحاجات، فقد يجوز فى حال الاضطرار ما لا يجوز فى حال الاختيار[(٢)].

حفظ الموجود أولى من تحصيل المفقود:

ويقول الإمام عز الدين بن عبد السلام أيضاً: إن حفظ الموجود أولى من تحصيل المفقود، ودفع الضرر أولى من جلب النفع، وهذا معروف بالعادة، وقد قال ﷺ: «**مَنْ ولِيَ مِنْ أمرِ المسلمينَ شيئاً ثم لم يجهدْ لهم وينصحْ، لم يدخلِ الجنةَ معهم**»[(٣)].

ولما اتهم خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة ليتزوج بامرأته... حرص عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أن يعزله أبو بكر رضي الله عنه وقال: قتل رجلاً من المسلمين ونزا على امرأته، فامتنع أبو بكر من عزله، لأنه كان الأصلح فى القيام بقتال أهل الردة من غيره، وهو أصوب مما رآه عمر؛ لأن تلك المسألة لم تكن قادحة في كونه أقوم بالحرب من غيره، فلما تولى عمر عزله عن حرب الشام، وولى أبا عبيدة بن الجراح، فوصل كتاب العزل إلى أبى عبيدة والناس صفوف للقتال فلم يخبر به خالدا حتى انقضت الحرب لعلمه بتقدمه فى مكايد الحروب وترتيب القتال، ولو أخبره بذلك لتشوش أمر المسلمين، وإنما لم يخبره لأنه أذن له فى ذلك أو رأى أنه لا ينعزل حتى يقف على الكتاب. اهـ.

ولقد نص الإمام ابن تيمية على أن الوالى ليس عليه إلا أن يستعمل أصلح الموجودين من أهل زمانه وقد لا يكون فى الموجودين من هو صالح لتلك الولاية، فيختار الأمثل

---

(١) التغابن: ١٦.

(٢) قواعد الأحكام فى إصلاح الأنام، للإمام عز الدين بن عبد السلام ٢/ ١١٣، تحقيق: نزيه حماد، وعثمان جمعة ضميرية، دار القلم ـ دمشق.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٢٢١).

فالأمثل فى كل منصب بحسبه وإذا فعل ذلك بعد الاجتهاد التام، وأخذ للولاية بحقها، فقد أدى الأمانة وقام بالواجب فى هذا، وصار فى هذا الموضع من أئمة العدل والمقسطين عند الله، وإن اختلت بعض الأمور بسبب من غيره، إذا لم يمكن إلا ذلك، فإن الله يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾[1].

ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[2] فمن أدى الواجب المقدور عليه فقد اهتدى...

ولمزيد من الإيضاح نريد أن نلقى الضوء على بعض القواعد الفقهية التى لها صلة مباشرة بموضوعنا لربطها ببعض عناوين هذا الكتاب، **ونختار منها:**

أولاً: قاعدة (درء المفاسد أولى من جلب المصالح) : وارتباطها بمفهوم الضرورة والحاجة، وهذه القاعدة فى الحقيقة من الأهمية والخطورة معاً؛ إذ إن تقدير المصلحة والمفسدة لا يتأتى بسهولة، خصوصاً فى المسائل والقضايا المستجدة الكبرى...

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نضع أيدينا على نصوص مهمة تمثل ضوابط ومفاهيم رئيسة فى فهم هذه القاعدة، كى يتسنى لنا بعد ذلك ربطها بمفهوم الضرورة والحاجة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى معرض حديثه عن تعارض المصالح والمفاسد، بأن لها اعتباراً (هو اعتبار مقادير المصالح والمفاسد بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع المنصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر)[3].

وهذه اللفتة المهمة من شيخ الإسلام تبين لنا أهمية الانطلاق من نصوص الشريعة

---

(١) التغابن: ١٦.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٩)، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة المكتب التعليمى السعودى المغربى، بيروت.

الإسلامية حلاّ وحرمة، عند بداية الموازنة بين المصلحة والمفسدة أو حين تعارضهما. وهذه المصالح ليست ما يراه الإنسان مصلحة له ونفعاً حسب هواه، وإنما المصلحة ما كانت فى ميزان الشرع لا فى ميزان الأهواء والشهوات، فالإنسان قد يرى ـ مدفوعاً بهواه ـ النافع ضاراً، والضار نافعاً، متأثراً بشهواته النفسية وتطلعه واستشرافه إلى النفع العاجل اليسير، دون التفات إلى الضرر الآجل الجسيم، فقد يرى أن من النفع له أكل مال الناس بالباطل بالأساليب الخفية الملتوية، أو باحتكار أقواتهم، أو بأخذ الربا ليزيد ماله بهذا الطريق المحرم الخبيث، أو يقعد عن الجهاد ليتمتع بمتع الحياة، وينسى هذا الإنسان أن هذه المنافع صورية لا حقيقية، إذ هى فى جوهرها ضرر محض فى العاجل والآجل.

من أجل هذا كله كان لا بد من بيان مقاصد الشريعة العامة ليكون المكلف على علم بها فيعرف ما يأخذ وما يذر، ويزن بها مصالحه وأضراره[١].

وقاعدة المصالح والمفاسد نستطيع أن نضع لها معياراً من خلال تأملنا ودراستنا للقواعد السابقة، ففيما يتعلق بمسألة «**الأخذ بالضرورة**» فيكون المعيار هو الموازنة بين مفسدة ارتكاب المحظور عملاً بالضرورة والمفسدة المترتبة على عدم العمل بها، فإن كانت مفسدة ارتكاب المحظور أعظم من مفسدة عدم الأخذ بالضرورة لم يلتفت إلى الضرورة ولم يعمل بها؛ إذ هى حينئذ ضرورة ناقصة واستباحة المحظور بالضرورة بشرط عدم نقصانها، فالمضطر مثلاً إلى الطعام لا يجوز له أخذ طعام مضطر آخر، كما قال العز بن عبد السلام.

أما إذا كانت المفسدة المترتبة على عدم العمل بالضرورة أعظم من مفسدة ارتكاب المحظور فللمكلف حينئذ الأخذ بالضرورة، وهنا ينبغى الإشارة إلى أن ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها[٢]. وأن تراعى ضوابط الأخذ بالضرورة السابق ذكرها.

وفى قاعدتنا: «**درء المفاسد أولى من جلب المصالح**» نرى أن درء المفاسد يكون أولى من جلب المصلحة أحياناً للضرورة وأحياناً للحاجة، ومثال ذلك: أكل لحم الميتة فيه مفسدة،

---

(١) الوجيز فى أصول الفقه ص٣٧٨، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة، ١٤٢٠هـ.

(٢) الضرر فى الفقه الإسلامي (١/ ٧١٠) أحمد موافى، دار ابن عفان ـ الخبر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

ولكنه أبيح للضرورة وهو أولى من مصلحة عدم أكله، وكذلك شرب الخمر لإساغة اللقمة[1].

وكذلك من جاز له اقتناء كلب لحاجة الصيد لم يجز له أن يقتنى زيادة على القدر الذى يصطاده[2].

وكذلك مسألة: تترس الكفار بجماعة من أسرى، تعارضت فيها مفسدتان:

مفسدة قتل مسلم معصوم لم يذنب ذنباً، ومفسدة تسلط الكفار على كافة المسلمين بالقتل، إذا لم يقتل المسلمون الترس فالتزام المفسدة الأولى، وهى قتل الترس يكون لتفويت المفسدة الأعظم، وهى قتل جميع المسلمين؛ ذلك لأنه حال ضرورة لا مناص عن احتمال أولى المفسدتين، ومقصود الشرع تقليل القتل، كما يقصد حسم سبيله عند الإمكان، فإن لم نقدر على الحسم قدرنا على التقليل[3].

ومثله: جواز انعقاد الإمامة الكبرى لمن قصر عن رتبة الاجتهاد دفعاً لأشد الضررين.

ومن خلال فهم هذه القاعدة ومعرفة معاييرها والتأمل فى أمثلتها، يمكن فهم بقية القواعد الفقهية المتفرعة عن القاعدة الكبرى (لا ضرر ولا ضرار) **وهذه القواعد هى:**

١ ـ قاعدة (الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف).

٢ ـ قاعدة (يختار أهون الشرين أو أخف الضررين).

٣ ـ قاعدة (إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما).

(وهذه القواعد الثلاث تباينت ألفاظها وصيغها، واتحدت معانيها ومغزاها ومؤداها واحد، وهو أن الأمر إذا دار بين ضررين، أحدهما أشد من الآخر فيتحمل الضرر الأخف ولا يرتكب الأشد، وهى منبثقة من القاعدة الشرعية الفقهية السابقة «**درء المفاسد أولى من جلب المصالح**» ومتفرعة عن القاعدة الكلية (لا ضرر ولا ضرار)[4].

---

(١) الأشباه والنظائر، السيوطى، ص٨٤، مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة، د.ت.

(٢) الأشباه والنظائر، السيوطى، ص٨٤، مكتبة نزار الباز ـ مكة المكرمة، د.ت.

(٣) المستصفى من علم الأصول، الغزالى ص ٦٤، دار صابر ـ مصر، الطبعة الأولى.

(٤) القواعد الفقهية الكبرى، د. صالح بن غانم السدلان، ص١ دار بلنسية ـ الرياض ١٤١٧هـ.

ثانياً: قاعدة (الإقدام على المصالح الضرورية أو الحاجية وإن اعترض طريقها بعض المنكرات):

هذه القاعدة يبين معناها لنا الإمام الشاطبى ويمثل لها ببعض الأمثلة المهمة فيقول: «ويمكن التمثيل لذلك بتعاطى البيع والشراء والتعامل مع الناس والإقدام على الزواج مع تعرض المسلم فى هذه المعاملات لبعض المنكرات ووقوعه فى الشبهات وذلك لما فى ترك هذه المصالح الضرورية والحاجية من الفساد والضرر الذى يربو كثيراً على مصلحة التحرز من المنكرات واتقاء الشبهات، وليعمل جهده فى تحرى وجه الكسب الحلال، أما أن يترك البيع والشراء والزواج والمعاملات حذراً من الوقوع فى بعض المناكر التى عمت فى الأسواق وبعداً عن بعض الشبهات فى طريق الكسب فذلك لا يجوز، لأنه ترك لمصلحة أصلية تشوفاً لمصلحة كمالية، والمكمل إذا عاد على أصله بالبطلان لا يلتفت إليه[1].

وكذلك يقول الشاطبى:(إن الأمور الضرورية أو غيرها من الحاجية والتكميلية إذا اكتنفتها من الخارج أمور لا ترضى شرعاً، فإن الإقدام على جلب المصالح صحيح على شرط التحفظ بحسب الاستطاعة من غير حرج، كالنكاح الذى يلزمه طلب قوت العيال مع ضيق طرق الحلال واتساع أوجه الحرام والشبهات، وكثيراً ما يلجأ إلى الدخول فى الاكتساب لهم بما لا يجوز ولكنه غير مانع لما يؤول إليه التحرز من المفسدة المربية على توقيع مفسدة التعرض، ولو اعتبر مثل هذا فى النكاح فى مثل زماننا لأدى إلى إبطال أصله، وذلك غير صحيح، وكذلك طلب العلم إذا كان فى طريقه مناكر يسمعها طالب العلم، وشهود الجنائز وإقامة الوظائف الشرعية إذا لم يقدر على إقامتها إلا بمشاهدة ما لا يُرتضى، فلا يخرج هذا العارض عن تلك الأمور عن أصولها، لأنها أصول الدين وقواعد المصالح، وهو المفهوم من مقاصد الشارع»[2].

وبعد هذا العرض والإيضاح لمعانى هاتين القاعدتين، سنقوم بربطها بواقعنا اليوم،

---

(١) فقه المصلحة وتطبيقاته المعاصرة، حسين حامد حسان، ص٤٧ مطبوعات المعهد الإسلامى للبحوث والتدريب، جدة، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) الموافقات،للشاطبى ٢/ ٣٤٨، دار ابن عفان ـ الخبر.

كتطبيقات جزئية متفرعة عنهما وعما سبقتهما، وسيكون تناولنا فيها من خلال المشاريع الآتية:

(١) مشروعية تولى الولاية العامة فى الدول الظالمة مع عدم التمكن من إقامة العدل الواجب:

لا شك أن منهج الرسل فى دعوتهم إلى الله هو فى تحصيل المصالح وتكميلها، والدعوة إلى الله حسب الاستطاعة، وليس كل أحد بمستطيع أن يقيم العدل كاملاً، ويفعل كل ما يريد على أكمل الوجوه.

فكان تقليل الشرور على أقل حد ممكن وتحصيل المصالح لأكبر حد ممكن منها هو منهج الرسل والأنبياء عليهم السلام.

ومن هنا يقرر ابن تيمية أن تولى الولاية العامة مع عدم التمكن من إقامة العدل الواجب جائزة، بل واجبة أحياناً إذا كان فيها تخفيفٌ للظلم، ومنعٌ لمن يتولاها ويقصد بها الظلم.

واستدل شيخ الإسلام على ذلك بما أقدم عليه نبى الله الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم فقال[1]: «**ومن هذا الباب تولى يوسف الصديق على خزائن الأرض لملك مصر، بل ومسألته أن يجعله على خزائن الأرض وكان هو وقومه كفاراً كما قال تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

وقال تعالى عنه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3] ، **ومعلوم**

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ٢/ ٥٦.
(٢) غافر: ٣٤.
(٣) يوسف: ٣٩، ٤٠.

أنه مع كفرهم لا بد أن يكون لهم عادة وسنة فى قبض الأموال، وصرفها على حاشية الملك، وأهل بيته وجنده، ورعيته، ولا تكون تلك جارية على سنة الأنبياء وعدلهم ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين الله، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فعل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته مما لم يكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل فى قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1].

ويقول شيخ الإسلام: «وكذلك إذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى فى هذا الحال محرماً فى الحقيقة، إن سمى ذلك ترك واجب، وسمى هذا فعل محرم باعتبار الإطلاق لم يضر، ويقال فى هذا مثل هذا: ترك الواجب لعذر وفعل المحرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة، أو لدفع ما هو أحرم»[2].

وتأتى أهمية هذا الكلام من الشيخ على اعتبارين:

الاعتبار الأول: مكانته العلمية فى مذهب الإمام أحمد، وحصوله على رتبة الاجتهاد المطلق بشهادة المحب والكاره.

الاعتبار الثانى: أن الزمان الذى عاشه ابن تيمية يشبه فى بعض صوره واقعنا اليوم وخصوصاً فى تسلط الكفار وحكم الفاسق والانهزامية العامة فى الأمة وسقوط الخلافة العباسية بأيدى التتر، واستقلال حكام الأقاليم والدويلات بدولهم، وغلبة الجهل والظلم على حكام الولايات، وحكمهم بالإسلام تارة وبالأعراف والتقاليد وتشريعاتهم تارة أخرى، واستئثارهم بكثير من الأموال لأنفسهم دون المسلمين، فلم يكن توزيع المال على الطريقة النبوية والخلافة الراشدة.

وكان شيخ الإسلام يفتى بأنه لا يجوز التخلى عن تولى الولايات العامة فى مثل هذه الدويلات على ما فيها، حتى وإن كان لا يستطيع المتولى أن يقيم العدل كما أمر الله به.

---

(١) التغابن: ١٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٠/ ٥٧.

(٢) مشروعية حيازة الولاية العامة للمسلم الصالح المريد للخير وإن اشتملت على بعض الباطل والظلم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ وهو في معرض بيان قاعدة: (ارتكاب أخف الضررين) [١]:

«إذا كان المتولي للسلطان العام أو بعض فروعه كالإمارة والولاية والقضاء ونحو ذلك، إذا كان لا يمكنه أداء واجباته وترك محرماته، ولكن يتعمد ذلك ـ في حرصه على فعل الواجب وترك المنكر ـ ما لا يفعله غيره قصداً وقدرة، جازت له الولاية وربما وجبت؛ وذلك لأن الولاية إذا كانت من الواجبات التي يجب تحصيل مصالحها، من جهاد العدو، وقسم الفيء،وإقامة الحدود، وأمن السبيل، كان فعلها واجبًا، فإذا لم يكن ذلك مستلزماً لتولية بعض من لا يستحق، وأخذ بعض ما لا يحل، وإعطاء بعض من لا ينبغي، ولا يمكنه ترك ذلك، صار هذا من باب ما لا يتم الواجب أو المستحب إلا به فيكون واجباً أو مستحباً، وإذا كانت مفسدته دون مصلحة ذلك الواجب أو المستحب، بل لو كانت الولاية غير واجبة وهي مشتملة على ظلم، ومن تولاها أقام الظلم فتولاها شخص قصده بذلك تخفيف الظلم فيها ودفع أكثره باحتمال يسيره، كان ذلك حسناً مع هذه النية، وكان فعله لما يفعله من السيئة بنية دفع ما هو أشد منها جيداً.

سئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عن رجل متولّ ولايات ومقطع إقطاعات، وعليها من الكلف السلطانية ما جرت به العادة، وهو يختار أن يسقط الظلم كله، ويجتهد في ذلك بحسب ما قدر عليه، وهو يعلم أنه إن ترك ذلك وأقطعها غيره وولّي غيره، فإن الظلم لا يترك منه شيء، بل ربما يزداد وهو يمكنه أن يخفف تلك المكوس التي في إقطاعه، فهل يجوز لمثل هذا بقاؤه على ولايته وإقطاعه؟ وقد عرفت نيته واجتهاده، وما رفعه من الظلم بحسب إمكانه، أم عليه أن يرفع يده عن هذه الولاية والإقطاع؟ وهل عليه إثم في هذا الفعل أم لا؟ وإذا لم يكن عليه إثم فهل يطالب على ذلك أم لا؟ وأي الأمرين خير له: أن يستمر مع اجتهاده في رفع الظلم وتقليله أم رفع يده مع بقاء الظلم وزيادة؟

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/ ٥٥.

وإذا كانت الرعية تختار بقاء يده لها من المنفعة به، ورفع ما رفعه من الظلم، فهل الأولى أن يبقى ويزداد برفع يده؟

فأجاب رحمه الله:

الحمد لله، نعم إذا كان مجتهداً فى العدل، ورفع الظلم بحسب إمكانه، وولايته خير وأصلح للمسلمين من ولاية غيره، واستيلاؤه على الإقطاع خير من استيلاء غيره، كما قد ذكر، فإنه يجوز له البقاء على الولاية والإقطاع، ولا إثم عليه فى ذلك، بل بقاؤه على ذلك أفضل من تركه إذا لم يشتغل إذا تركه بما هو أفضل منه.

وقد يكون ذلك عليه واجباً إذا لم يقم به غيره قادراً عليه، فنشر العدل بحسب الإمكان ورفع الظلم بحسب الإمكان ـ فرض على الكفاية ـ يقوم كل إنسان بما يقدر عليه من ذلك إذا لم يقم غيره فى ذلك مقامه، ولا يطالب والحالة هذه بما يعجز عنه من رفع الظلم.

وما يقرره الملوك من الوظائف التى لا يمكنه رفعها، وإذا كانوا هم ونوابهم يطلبون أموالاً لا يمكن دفعها إلا بإقرار بعض تلك الوظائف، وإذا لم يدفع إليهم أعطوا تلك الإقطاعات، والولاية لمن يقرر الظلم أو يزيده، ولا يخففه، كان أخذ تلك الوظائف ودفعها إليهم خيرًا للمسلمين من إقرارها كلها، ومن صُرف من هذه إلى العدل والإحسان؛ فهو أقرب من غيره، ومن تناوله من هذا شىء أبعد عن العدل والإحسان من الظلم، ويدفع شر الشرير بأخذ بعض ما يطلب منهم، فما لا يمكنه رفعه هو محسن إلى المسلمين غير ظالم لهم، يثاب ولا إثم عليه فيما يأخذه على ما ذكره، ولا ضمان عليه فيما أخذه، ولا إثم عليه فى الدنيا والآخرة إذا كان مجتهداً فى العدل والإحسان بحسب الإمكان. وهذا كوصى اليتيم وناظر الوقف والعامل فى المضاربة والشريك، وغير هؤلاء ممن يتصرف لغيره بحكم الولاية أو الوكالة إذا كان لا يمكنه فعل مصلحتهم إلا بأداء بعض من أموالهم للقادر الظالم؛ فإنه محسن فى ذلك غير مسىء، وذلك مثل ما يعطى هؤلاء المساكين وغيرهم في الطرقات، فلو كان لا يجوز لأحد أن يتصرف لغيره لزم من ذلك فساد العباد وفوات مصالحهم.

والذى ينهى عن ذلك ـ لئلا يقع ظلم قليل ـ لو قبل الناس منه، تضاعف الظلم والفساد

عليهم، فهو بمنزلة من كانوا فى طريق وخرج عليهم قطاع الطريق، فإن لم يرضوهم ببعض المال أخذوا أموالهم وقتلوهم، فمن قال لتلك القافلة: لا يحل لكم أن تعطوا لهؤلاء شيئاً من الأموال التى معكم للناس، فإنه يقصد بهذا حفظ ذلك القليل الذى ينهى عن دفعه، ولكن لو عملوا بما قال لهم ذهب القليل والكثير، وسلبوا مع ذلك، فهذا مما لا يشير به عاقل، فضلاً أن تأتى به الشرائع، فإن الله ـ تعالى ـ بعث الرسل لتحصيل المصالح وتكمليها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان.

وهذا بمنزلة وصى اليتيم، وناظر الوقف الذى لا يمكنه إقامة مصلحتهم إلا بدفع ما يوصل من المظالم السلطانية، وإذا رفع يده تولى من يجور ويزيد الظلم، فولايته جائزة، ولا إثم عليه فيما يدفعه، بل قد تجب عليه هذه الولاية. ثم يقول رحمه الله:

«والمجتهد من هؤلاء المقطعين كلهم فى العدل والإحسان بحسب الإمكان يجزيه الله على ما فعل من الخير ولا يعاقبه على ما عجز عنه،ولا يؤاخذه بما يأخذ ويعرف إذا لم يمكن إلا ذلك: إذا كان ترك ذلك يوجب شراً أعظم منه..» [(١)].

سنة التدرج:

إن لله ـ تعالى ـ سنة من سننه فى خلقه لا ينبغى لنا أن نغفلها وهى: سنة التدرج وكل شىء يبدأ صغيراً ثم يكبر، ضعيفا ثم يقوى.

نرى هذه السنة فى النبات والحيوان والإنسان.

فالإنسان لا يولد بالغا عاقلا بل يبدأ وليدا فرضيعا، ففطيما، فصبيا، فمراهقا، فشاباً فكهلاً... إلخ.

وقبل ذلك يبدأ فى بطن أمه نطفة، فعلقة، فمضغة، يكسوها الله لحما ثم ينشئه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين[(٢)].

والشرع الحنيف قد راعى هذه السنة، فتدرج مع المكلفين فى فرض الفرائض، كما تدرج معهم فى تحريم المحرمات، رحمة بهم، وتيسيراً عليهم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٠/ ٣٥٦ ـ ٣٦٠.

(٢) انظر: فقه الدولة الإسلامية، د. يوسف القرضاوى، دار الشروق.

وقد لا يستطيع الإنسان رغم طموحه الوصول إلى أهدافه الكبيرة مرة واحدة، ولكنه قد يمكنه الوصول إلى شيء منها بعد شيء وفق قدراته وظروفه، فلا يرفض ذلك ولا يمنعه منه شرع ولا عرف ولا عقل، فقد اتفق العقلاء على أن ما لا يدرك كله لا يترك جله. الوصول إلى الحكم الإسلامى الكامل هدف كبير ولا ريب، يجب أن يكون نصب الأعين وملء القلوب، ولكن قد يتعسر الوصول إليه دفعة واحدة، فما المانع أن يصل إلى بعضه من يستطيع الوصول، ليعطى للناس الأسوة، ويضرب المثل ويحقق ما أمكنه من إقامة الحق، وإشاعة الخير، ونشر العدل، فيفتح الباب لغيره، ويرغب الناس فى تشجيع مثله(١).

منهج القرآن الكريم فى التدرج:

وردت فى القرآن بعض الآيات الكريمة التى تدل على مشروعية التدرج فى التشريع وهى قوله تعالى:

١ - ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(٢).

٢ - وقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾(٣).

٣ - وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾(٤).

٤ - وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى

---

(١) ملخص من كتاب: فقه الدولة فى الإسلام، د. يوسف القرضاوى ص ١٨٣، دار الشروق، الطبعة الأولى.
(٢) التغابن: ١٦.
(٣) البقرة: ٢٨٦.
(٤) الحج: ٧٨.

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة تدل على التدرج فى التشريع الأول، وتدل ثانياً على التدرج فى العودة إلى التطبيق فى كل وقت.

ونؤكد إلى ذلك بذكر بعض الآيات الأخرى:

١ ـ قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2].

قال القرطبى: «**هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين، دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة، فهى محكمة فى جهة العصاة من الموحدين ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين، وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار وروجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة**»[3].

وقال القاسمى: «**بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق الذى لا شبهة فيه والعبر اللطيفة. والطريقة التى هى أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف فإن ذلك أبلغ فى تسكين لهبهم**»[4].

وأن الله ـ تعالى ـ حكيم يضع الأشياء فى محلها وأمر بالحكمة فى آيات كثيرة وإن التدرج فى التطبيق من لوازم الحكمة التى عرفها ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: (فعل ما ينبغى فى الوقت الذى ينبغى وعلى الشكل الذى ينبغى)[5].

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

(٢) النحل: ١٢٥.

(٣) تفسير القرطبى ٩/ ٢٢٠، دار الكتاب العربى ـ القاهرة (١٣٧٨هـ/ ١٩٦٧م).
ـ وتفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٢، دار الحديث ـ القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.
ـ وتفسير الإمام القاسمى ٦/ ٤٢٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٤) تفسير القاسمى ٦/ ٤٢٢.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٤٩٩ طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٣م.

ولا ينكر أحد أن التدرج فى التطبيق من الحكمة التى يجب على الحكام مراعاتها، والعمل بموجبها.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾(١).

قال القرطبى: «**أى: قل يا محمد: هذه طريقتى وسنتى ومنهاجى. ودعوتى.. ودينى أى الذى أنا عليه، وأدعو إليه، يؤدى إلى الجنة،** ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ **أى على يقين وحق**»(٢) وإن العمل على تطبيق الشريعة ينبغى أن يكون على بصيرة من الأمر ودراية فى أحواله.

٣ ـ قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾(٣).

قال أبو العالية: «**مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه، يدعون إلى الله سراً وجهراً، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة...، وقال قوم: هذا وعد لجميع الأمة فى ملك الأرض كلها تحت كلمة الإسلام... واستخلافهم هو أن يمكنهم البلاد، ويجعلهم أهلها...**» ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام(٤).

وهذا الاستخلاف والتمكين والتبديل للأمن لا يتم إلا بالتدرج فى التطبيق شيئاً فشيئاً وهو ما حصل قديما مع المسلمين أكثر من مرة ويحصل مع غيرهم أيضاً.

منهج الرسول ﷺ فى التدرج:

وردت أحاديث كثيرة تدل على سماحة الإسلام والتيسير فيه والسهولة المحمودة فى أحكامه نذكر طرفا منها:

---

(١) يوسف: ١٠٨.
(٢) تفسير القرطبى ٩/ ٢٧٩.
(٣) النور: ٥٥.
(٤) تفسير القرطبى ١٢/ ٣٠٠.

١ـ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الدينَ يسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبَهُ**»[١].

فأحكام الدين ميسرة، وتطبيقها يسير، والمنهج للعمل بها يسير، وإن التشدد فيه يؤدى إلى عكس النتائج، قال النووى رَحِمَهُ اللهُ: «**إلا غلبه: أى الدين، وعجز ذلك المشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه**»[٢].

٢ ـ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بين أمرينِ إلا اختارَ أَيْسَرَهُمَا، ما لم يَكُنْ إِثْماً**»[٣].

فالتخيير بين أمرين من الأحكام والتكاليف والأعمال يقتضى اختيار الأسهل على الناس والمكلفين للأخذ بيدهم إلى الاستجابة وحسن التطبيق والالتزام.

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هذا الدينَ متينٌ، فَأَوْغِلُوا فيه بِرفقٍ**»[٤].

وهذا أمر للأفراد أن يسيروا بالدين برفق ويسر، وبدون تكلف وتشدد ومغالاة تؤدى بهم إلى الانقطاع وترك العمل، ويكون ذلك بالنسبة للدولة والحكام وأولى الأمر بالأولى بأن يأخذوا الناس باللين والتدرج.

قال الغزالى: «**أراد بهذا الحديث ألاَّ يكلف نفسه فى أعماله الدينية ما يخالف العادة، بل يكون بتلطف وتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدل، فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئا حتى تنفصم تلك الصفات المذمومة الراسخة فيه، ومن لم يدع التدريج، وتوغل دفعة واحدة ترقى إلى حالة تشق عليه فتنعكس أموره، فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا، وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا ينفر منه، وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق**)[٥].

٤ ـ روى أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتُكم بأمرٍ فأتوا منه ما

---

(١) أخرجه البخارى (٣٩).

(٢) نزهة المتقين شرح رياض الصالحين، للنووى ١/ ١٦٨.

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٨٦)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٤) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وقال الأرناؤوط: « حسن بشواهده ».

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوى ٢/ ٥٤٤، دار المعرفة ـ بيروت.

استطعتُمْ، وما نهيتُكُمْ عنه فَاجْتَنِبُوه»[١].

فالأمر بأداء الأوامر والأعمال يكون حسب الاستطاعة مع بذل الوسع فى ذلك، وقال بعض أهل العلم:

يؤخذ منه أنَّ النهى أشد من الأمر؛ لأن النهى لم يرخص فى ارتكاب شىء منه، والأمر قيد بحسب الاستطاعة، وروى هذا عن الإمام أحمد، رحمه الله. وقالت طائفة: لأن الامتثال للأمر لا يسهل إلا بعمل والعمل يتوقف وجوده على شروط وأسباب وبعضها قد لا يستطاع، ولذلك قيده بالاستطاعة، كما قيد الأمر بالتقوى بالاستطاعة، قال الله عز وجل: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[٢].

وتأكد ذلك بما رواه ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**استقيمُوا ولن تحصُوا**»[٣].

يعنى لن تقدروا على الاستقامة كلها[٤].

٥ ـ عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «**لولا أَنَّ قومَكِ حَدِيثُو عهدٍ بجاهليةٍ لأَمَرْتُ فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فيه ما أُخْرِجَ منه، وأَلْزَقْتُهُ بالأرضِ، وجعلتُ له بابين، باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغتُ به أساسَ إبراهيمَ**»[٥].

وهذا من أصرح الأدلة على التدرج فى التطبيق؛ لأن النبى ﷺ ترك هذا الأمر الذى يراه الأفضل دفعا للمفسدة التى قد تقع من المسلمين لقرب عهدهم بالإسلام، وتأثرهم بما أَلِفُوه فى بناء البيت، فيكون التغيير مُنَفِراً لهم، ومفسدة فى دينهم، فدرء المفسدة مقدم على تحقيق المصلحة[٦].

ومن تتبع الأحاديث الشريفة وهدى رسول الله ﷺ يتأكد من مشروعية التدرج فى

---

(١) أخرجه البخارى (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٢)التغابن: ١٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وصححه الألبانى.

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى،تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

(٥) فتح البارى شرح صحيح البخارى، لابن حجر ١/ ٣٢٤ ، دار المعرفة ـ بيروت.

(٦) التدرج فى تطبيق الشريعة الإسلامية، د. محمد عبد الغفار الشريف ص ٥٧.

التطبيق ويدرك مسوغاته كاملة.

عمل الخلفاء فى التدرج فى التطبيق:

حرص الخلفاء الراشدون - رضي الله عنهم - على تطبيق الشريعة كاملة كما عمل سائر الخلفاء على الالتزام بشرع الله، ولكن الظروف والأحوال لم تكن على وتيرة واحدة لم تقتصر على الحالة التى كانت في العهد النبوى فاقتضت الحكمة والفهم العميق للدين على تطبيق الأحكام بصورة تتفق مع العصر والأحداث، ونقتصر على ذكر مثالين من الخلفاء يدل على عملهما على أخذ التدرج فى التطبيق بعين الاعتبار.

١ ـ منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

إن تطبيق الأحكام الشرعية يتوقف على وجود أسبابها وتوفر شروطها وانتفاء موانعها وحدثت فى عصر عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقائع غريبة دفعته إلى الاجتهاد فى تطبيق بعض الأحكام، **فيها ونذكر ثلاثًا منها:**

أ ـ منع عمر رضي الله عنه تقسيم الأراضى المفتوحة على المجاهدين الفاتحين الذين طالبوا بتقسيمها حسب ظواهر النصوص فى القرآن والسنة فى تقسيم الغنائم، وخشى انشغال المجاهدين بزراعة الأرض والعمل بها عن مثابرة الجهاد، وأدرك أن هذه الأراضى تتعلق بها حقوق المسلمين عامة، حاضرهم وآتيهم في المستقبل، فإذا تملكها الفاتحون حرمت الأجيال الآتية منها مع ثبوت حقهم أيضاً فيها بالنص الذى احتج به عمر فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾[(١)].

فقرر ترك الأرض فى يد أهلها وفرض عليهم ضريبة الخراج، وهذا أصلح لإحيائها وأعم وأدوم لنفعها سائر المسلمين بها، وفتح عمر رضي الله عنه بابا جديداً لتطبيق أحكام الفىء والغنيمة والخراج، وخالفه بعض الصحابة، ثم وافقوه على ذلك وأجمعوا على رأيه[(٢)].

---

(١) الحشر: ١٠.

(٢) المدخل فى تطبيق الشريعة الإسلامية، د/ عبد الغفار الشريف، ص٥٩، نشر إدارة البحوث والدراسات الإسلامية فى اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، سلسلة تهيئة الأجواء، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٧، ٣٣٩، دار الحديث.

ب ـ منع عمر رضي الله عنه المؤلفة قلوبهم من سهم الزكاة لأنه وجد أن الغاية قد فقدت فى زمنه بدفع الزكاة لهم، لأن دين الله ـ تعالى ـ ظهر والأمر قد استقر،ولم يجد فى عصره من يستحق التأليف فى نظره ولم يبق دور للمؤلفة قلوبهم الذين كانوا يأخذون هذا السهم عندما كان الإسلام ضعيفاً وأراد أن يؤلفهم، فلما قويت دولة الإسلام زال السبب إلى إعطائهم ولم يبق للإسلام حاجة فى تأييدهم، بل صاروا على العكس فى حاجة إلى الاعتزار به، وبذلك فقد تغيرت الحاجة والمصلحة، وفقد السبب، فتغير الحكم لفقدان سببه أو توفر شرطه[١].

ج ـ أوقف عمر رضي الله عنه تنفيذ حدّ السرقة فى عام المجاعة، المسمّى عام الرمادة، واكتفى بتعزير السارق، كما منع تطبيق الحد على العبيد الذين سرقوا بسبب الجوع نتيجة لبخل سيدهم وتجويعهم، واعتبر ذلك شبهة تدرأ الحد بقوله ﷺ: «**ادْرَؤُوا الحدودَ بالشبهاتِ**»[٢].

ويؤيد ذلك ما ثبت فى السنة أن صاحب بستان جاء بسارق سرق شيئاً من سنابل القمح من بستانه، وطلب منه النبى ﷺ أن يقطع يده وبعد التحقيق عرف النبى ﷺ أن الذى دفعه للسرقة إنما هو الجوع، فالتفت رسول الله ﷺ إلى صاحب البستان، وقال موبخا له: «**ما علمتَهُ إذ كان جاهلاً، ولا أطعمتَهُ إذ كان جائعاً، ارْدُد عليه كساءَهُ**»[٣]. فكان عمر رضي الله عنه يجتهد فى تطبيق شروط العقوبة وانتفاء موانعها[٤].

وهكذا يظهر أن الإمام يبحث عن أسباب الأحكام، فإن وجدت رتب الحكم عليها وإلا منع تطبيق الحكم، فإن وجد المانع انتفى الحكم، وهذا مطلوب من كل حاكم وخليفة وإمام للمسلمين، فيجتهد فى التدرج فى تطبيق الأحكام بحسب ما يراه من مصلحة الأمة، لأنه موظف لحفظ الدين والدنيا، وتصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة.

---

(١) المدخل الفقهى العام، للشيخ مصطفى الزرقا ١/ ١٦١، دار الفكر ـ دمشق.
(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٨/ ٢٣٨)، وضعفه الألبانى في ضعيف الجامع (٢٥٨).
(٣) أخرجه النسائى (٥٤٢٤)، وابن ماجه (٢٢٩٨)، وصححه الألبانى.
(٤) المدخل الفقهى العام، للشيخ مصطفى الزرقا ١/ ١٦١.

٢ ـ منهج عمر بن العزيز رحمه الله تعالى:

ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩هـ وقد وقع قبله كثير من الأخطاء والانحراف والظلامات والابتعاد عن شرع الله وأحكامه، فأراد عمر ـ رحمه الله ـ أن يصلح الأمور ويعيد تطبيق الأحكام الشرعية كاملة واتخذ مبدأ التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية منهجاً له، ولذلك يصلح منهجه فى ذلك أن يكون مثالا ومثلا مباشراً لعصرنا الحاضر.

وسار عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ على هذا المنهج فى الإصلاح وصرح به فقال: (لو أقمت فيكم خمسين عاما ما استكملت فيكم العدل، إنى لأريد الأمر وأخاف ألَّا تحمله قلوبكم، فأخرج معه طمعا من الدنيا، فإن أنكرت قلوبكم هذا سكنت إلى هذا) [1].

فيرى عمر بن عبد العزيز أنه يحتاج إلى مدة طويلة لإعادة الأمور إلى مجاريها، وإقامة العدل الذى يطلبه الشرع. وإنه يسعى لذلك شيئاً فشيئاً حتى ولو تسامح مع الناس فى المباحات. وتوسع معهم فيها حتى يستدرجهم إلى التزام الأوامر والطاعات، وترك المناهى والمحرمات فيقول: (ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئا) [2].

ويؤكد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ على منهجه فى حواره مع ابنه عبد الملك وكان شاباً تقياً ورعاً متحمساً، ويرغب من والده أن يسرع فى الإصلاح ويقيم الحق والعدل دفعة واحدة مهما كانت النتائج والعواقب فيقول لأبيه: «**يا أبت ما لك لا تنفذ الأمور؟ والله ما أبالى لو أن القدور غلت بى وبك فى الحق**» فيجاوبه والده بحكمة ويرشده إلى المنهج الإلهى فى التغيير والإصلاح فيقول له: «**لا تعجل يا بنى، فإن الله ذم الخمر فى القرآن مرتين وحرمها فى الثالثة، وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدعونه جملة،ويكون من ذلك فتنة**»[3].

---

(١) التدرج فى أحكام الشريعة الإسلامية، د. محمد عبد الغفار الشريف ص٤٥، عن كتاب الحلية لأبى نعيم ٥/ ٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥، عن كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢١١.

(٣) المرجع السابق ص ٤٧، عن كتاب العقد الفريد ١/ ١٤.

فالخليفة الراشد يريد أن يعالج الأمور بحكمة وتدرج على هدى القرآن الكريم فى تحريم الخمر وذلك جرعة جرعة ليمضى بهم إلى الغاية المنشودة خطوة خطوة[١]. ويعود الحماس مرة ثانية إلى الولد البار المتقد إيمانا ويعاود سؤال أبيه فيقول: يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك، فقال: رأيت بدعة فلم تمنعها، وسنة فلم تحيها؟ فيسر الوالد الخليفة بابنه ويدعو له بخير، ويذكره بالمنهج القديم فى الإصلاح وهو التدرج فى التطبيق والعمل بتؤدة شيئاً فشيئا دون كلل ولا ملل، فيقول له: «**رَحِمَكَ الله، وجزاك من ولد خيرا والله لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير، يا بنى إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أريد مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقا تكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون على من أن يراق فى سببى محجمة من دم**» ثم قرر المبدأ والمنهج الذى يسير عليه فقال: «**أو ما ترضى ألا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيى فيه سنة، حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين**»[٢].

وفى مقابلة ثانية، وحوار آخر بين عبد الملك وأبيه، يعلن الخليفة الراشد منهجه فى الإصلاح، ويرشد ابنه إلى منهج القرآن فى التدرج والحكمة فى تطبيق الأحكام على الوقائع فيقول له: «**يا بنى، إن نفسى مطيتى، إن لم أرفق بها لم تبلغنى، إنى إن أتعبت نفسى وأعوانى لم يكن ذلك إلا قليلا حتى أسقط ويسقطوا، وإنى أحتسب فى نومتى من الأجر مثل الذى أحتسب فى يقظتى، وأن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة واحدة لأنزله، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى استكمل الإيمان فى قلوبهم، ثم قال: يا بنى، ما أنا فيه أمر هو أهم إلىّ من أهل بيتك، هم أهل العدة والعدد، وقِبلهم ما قَبِلَهم فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره على، ولكنى أنصف الرجل والرجلين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له، فإن يرد الله إتمام هذا الأمْر أتمه، وإن تكن الأخرى فحسب عبد أن يعلم أنه يحب أن ينصف جميع رعيته**»[٣].

(١) فقة الأولويات، د/ يوسف القرضاوى، ص٩٣، مكتبة وهبة ـ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
(٢) التدرج فى تطبيق الشريعة الإسلامية، ص٤٦.
(٣)المرجع السابق ص ١٠٦.

فالخليفة الراشد يعلم الهدف والغاية ويحب الوصول إليها، ولكنه يحذر من الطفرة فى العمل والفجأة فى التغيير ويستفيد من التجارب ويلتزم التدرج فى التغيير لتطبيق الحق والعدل، مرحلة فمرحلة حتى يتم الله الأمر، ولذلك اعتبر خامس الخلفاء الراشدين، وأصبح مثلا ساميا لكل من يريد الإصلاح بعد الفساد، وتطبيق الشريعة بعد التنكر لها، أو التنكب عنها، أو الإعراض عن الالتزام بها.

وهذا المنهج فى التدرج لإعادة تطبيق الشريعة هو ما سار عليه كثير من الخلفاء والسلاطين والولاة فى الدولة الإسلامية سواء كان ذلك من خلفاء بنى العباس كالمنصور والرشيد والمقتدر بالله، أم من خلفاء الدولة الأموية فى الأندلس، أو غيرهم كالسلطان نور الدين الزنكى، وصلاح الدين الأيوبى، وهو ما يراه بعض الحكام المسلمين فى عصرنا الحاضر الذين يتجهون صوب الشريعة لتطبيقها وإعادتها إلى الحياة فى بلاد المسلمين[(١)].

المعقول:

إن منهج التدرج فى التطبيق منهج منطقى وعقلى وتقتضيه الحكمة ويدعو إليه المفكرون والمصلحون والحكماء ويتفق مع الطباع السليمة **ويظهر ذلك فى النقاط التالية:**

١ ـ التدرج سنة فى الكون:

إن التدرج فى الحياة عامة ـ (كما سبقت الإشارة إليه فى المقدمة) هذا من كلام الباحث ـ سنة من سنن الله ـ عز وجل ـ فى الكون وأن الله ـ تعالى ـ أقام الأسباب ورتب عليها المسببات والأحكام، وأن بعضها يتدرج إثر بعض، ويعتمد وجود بعضها على وجود الآخر، وأن المقدمات تسبق النتائج لتكون الأمور منطقية وعقلية، ليتدرب الناس على هذا المنهج الإلهى فى الكون، ويقتفون خطاه فى الحياة، فالمسبب لا بد له من سبب والنتيجة لا تتحقق بدون مقدماتها وإذا عدم السبب عدم المسبب، وإذا فقدت المقدمة انعدمت النتيجة.

فالإنسان يزرع ليحصد، ويتزوج لينجب ويستمر النسل، والمطر ينزل ليخرج النبات،

---

(١) التدرج فى التشريع والتطبيق فى الشريعة الإسلامية، أ. د/ مصطفى الزحيلى، ص ٧٣، ٨٤.

والرياح تجرى لتلقح الأشجار، ويتشكل السحاب ليخرج الودق من خلاله ويهطل على الأرض، وهذا يؤكد وجوب التدرج والتتابع فى الأعمال لتحقيق الوصول إلى الغايات.

٢ ـ فعل الممكن:

إن المسلمين عامة، والحاكم منهم خاصة، لا يُكَلَّفُ شرعا إلا بما يمكنه، وهذا الإمكان متتابع ويتم مع الزمن، وليس له قدرة خارقة ليكون عمله (كن فيكون) بل يجتهد ويسعى للوصول إلى هدفه بحسب إمكانه.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى: (فالواجب على المسلم أن يجتهد وسعه فمن ولى ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من ترك المحرمات، لم يؤاخد بما يعجز عنه، فإن تولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار).

٣ ـ التطبيق الجزئى سبيل للتطبيق الكلى:

إن التدرج فى التطبيق يعنى إقامة الشرع جزءًا فجزءًا، فإذا حانت الفرصة واستكملت عناصر جانب من الشرع فيجب تطبيقه والعمل به، ولا يجوز تأجيله وتأخيره لاستكمال جميع الجوانب التى لا ترتبط به ارتباطاً مباشراً.

يقول الشيخ مصطفى الزرقا ـ رحمه الله تعالى ـ عن العقوبات الشرعية مثلا: «**فإذا لوحظ أن تطبيق عقوبة الحدود الأربعة أصبح متعذرا فى زمان أو مكان، فمن الممكن تطبيق عقوبة أخرى، ولا يوجب هذا ترك الشريعة أجمع**»[(١)].

٤ ـ مراعاة الواقع:

إن واقع المسلمين اليوم يختلط فيه الحلال مع الحرام، وتتعدد فيه القوانين والأنظمة المختلطة من الشريعة الإسلامية، ومن غيرها، وأن المجتمع اليوم لا يمكن تسميته مجتمعا إسلاميا، وبالتالى فلا يمكن تطبيق الأحكام الشرعية عليه دفعة واحدة ولا بد من التدرج والرؤية.

يقول الدكتور عجيل النشمى: (وإذا كان من المستحيل أن يطبق هذا النظام على مجتمع

(١) المدخل الفقهى العام، للشيخ مصطفى الزرقا ١/ ٥١، دار الفكر ـ دمشق.

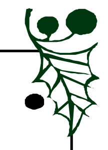
لا يدين بالإسلام فإنه من العسير تحقيق أحكام هذا القانون فى مجتمع إسلامى تكدرت فيه بعض المشارب الأسرية والاجتماعية وبعدت عنه فى بعض النواحى، فلا بد من إزالة هذا الكدر، وتقريب هذا البعد حتى يزاول التشريع الإسلامى مهمته) [١].

وإن كثيراً من المسلمين: أفراداً وجماعات يتفاوتون فى معرفة الشرع والتمسك بأحكامه وكثير منهم لا يعرف من الإسلام إلا اسمه، وبعضهم يقتصر على العبادات، وبعضهم يلتزم بمجرد الأخلاق، وأغلبهم لا يطبق أحكام الشرع فكانت الحكمة والمنطق والعقل يفرض وضع الجداول الزمنية لتطبيق الشريعة للأخذ بيد هؤلاء نحو التطبيق خطوة خطوة[٢].

*****

(١) التدرج فى تطبيق الأحكام الشرعية، د. عجيل النشمى، ص١.

(٢) التدرج فى التشريع والتطبيق فى الشريعة الإسلامية، أ.د. محمد مصطفى الزحيلى، ص ٧٣ ـ ٨٣، بتصرف يسير.

الفصل الأول:
مراحل تطور الدولة الإسلامية

المبحث الأول: ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة.

المبحث الثاني: الدولة في عهد الخلفاء الراشدين.

المبحث الثالث: الدولة في عهد الأسر المالكة.

المبحث الرابع: خلاصة المباحث السابقة «**النظرية السياسية في الإسلام**».



المبحث الأول
ملامح الدولة الإسلامية في زمن النبوة

١ ـ الإفادة من المحيط:

لقد أفاد رسول الله ﷺ من قيم العرب في مكة المكرمة، من حيث كراهيتهم للظلم وأهله وانتصارهم للمظلوم، ومن حيث العادات والتقاليد مثل الإجارة والتحالف.

فما إن فكر أبو طالب بما طالبه به وجهاء قريش الذين هددوه بمنازلة محمد، أو محمد وأبى طالب معاً إذا تعذر كفه عنهم، أو السماح لهم بالتفرد به، وظن محمد ﷺ أن عمه خاذله فوقف وقال: «**يا عماه، لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه**»[١] ثم بكى رسول الله ﷺ وقام، عندها رق قلب عمه أبى طالب وناداه حتى أقبل عليه وقال له: «**اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً**».

وبعد مفاوضة جديدة بين وجهاء قريش وأبى طالب، حيث عرضوا عليه بأن يأخذ فتى من أجمل فتيان قريش ويتخلى عن محمد ﷺ، فأجابهم: «**أتعطونني ابنكم أغذيه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه؟!**».

عندها قامت كل قبيلة تعذب من أسلم من أبنائها، بينما قام أبو طالب بدعوة بنى هاشم إلى حماية محمد ﷺ ففعلوا، وهم على شركهم وما شذ إلا أبو لهب[٢].

لقد أفاد محمد ﷺ من شرعة القبيلة، وأمن لنفسه حماية أعطته حرية الدعوة وتبليغ رسالة ربه، تحت حراسة سيوف المشركين من بنى هاشم، وكان هذا حظ كل المسلمين الذين ينتمون إلى عشائر قوية بينما كان مصير الذين ليست لهم عشائر تحميهم الحبس والتعذيب بالضرب والجوع والعطش في رمضاء مكة، كي يفتنوا عن دينهم.

وقصص التعذيب معروفة ويتم التداول في شأنها في كل مناسبة [٣] لكن ما يمكن

---

(١) قال الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي: «ضعيف»، وأورده في الضعيفة (٩١٣).

(٢) الكامل فى التاريخ، لابن الأثير ٢/ ٦٤، ٦٥ .

(٣) المرجع السابق، ص ٦٦ وما بعدها.

توظيفه في هذا المجال هو أن التعذيب جعل العطف على المسلمين شديدا، فقام أبو بكر بإعتاق بلال بن رباح الحبشى، وهذه بادرة غرست الأمل في نفوس كل المستضعفين والمسترقين، وما حصل لأسرة ياسر التى نالت حظا عظيما من التعذيب، واستشهدت زوجته أم عمار نتيجة لطعنة أصابتها من أبى جهل في موقع عفتها، كل ذلك ترك بالغ الأسى في نفوس كل من شهد أو سمع بما حصل، وأما خباب بن الأرت رضي الله عنه، فقد عذب عذاباً شديداً، وكذا صهيب بن سنان الرومى ـ الذى كلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن يصلى بالناس غداة انعقاد مجلس الشورى لاختيار خليفة من بعده ـ قد افتدى نفسه بكل ما يملك مقابل السماح له بالهجرة واللحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة [(١)].

لقد كانت نتيجة تحمل الأذى أن تربى المسلمون الجدد على الصبر والطاعة ، وفي الجهة المقابلة أخذت قلوب المشركين تتحرر من الخوف ومن العبودية لأصنام لا تضر ولا تنفع.

٢ ـ الإفادة من النظام الأمنى الموجود (الأشهر الحرم – الجوار) :

كانت الجزيرة العربية تعرف نظاماً أمنياً قد يتعذر وجود مثيل له في عصرنا الحاضر، فمن عاداتها أن يأمن الناس على حياتهم في:

أولاً : الأشهر الحرم.

ثانيا: الإجارة.

ففى الأشهر الحرم يتوقف القتال ويتهادن المتقاتلون وتضع الحرب أوزارها بين جميع القبائل في تلك الأشهر، ويتم تناسى الأحقاد والضغائن، ولاتراق الدماء، ولا تنتهك الحرمات «**فيتقابل الأصدقاء والأعداء لا يذكر أحدهم للآخر في تلك الفترة من السلم ضغنا أو موجدة....**».

وكان العرب يجتمعون في أوقات معينة وأماكن معروفة للقيام ببعض النسك والشعائر الدينية [(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص ٦٦ وما بعدها.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، دار النهضة المصرية، ص ٨٦ ـ ٦٩، الطبعة السابعة، ١٩٦٤م.

وأما الجوار: فهو أن يدخل أحد في حماية الآخر من أهل البلد، كما فعل بعض الذين عادوا من الحبشة فدخل عثمان في جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص ابن أمية، ودخل حذيفه بن عتبة بجوار أبيه.

ولما عاد رسول الله ﷺ من الطائف وحيداً لا سند له، وكان عمه أبو طالب قد مات، أرسل لعدد من القرشيين كي يجيروه ليدخل مكة فأبوا إلا المطعم ابن عدي الذي دخل مكة مع رسول الله ﷺ ومعه بنوه الستة أو السبعة وهم يتقلدون سيوفهم، وبعد دخولهم المسجد قال المطعم «**وهو مشرك**» لرسول الله: طف، وهم يمسكون بسيوفهم، فأقبل أبو سفيان وقال لمطعم: أمجير أم تابع؟ قال: لا، بل مجير، قال: إذا لا تخفر.

ومات مطعم بعد الهجرة، وقال عنه رسول الله ﷺ يوم بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألنى في هؤلاء النتنى لتركتهم له**»[(١)].

وبقى رسول الله ﷺ في منعة من قريش بسبب إجارة المطعم بن عدي له حتى هاجر.

٣ ـ الإفادة من المصاهرة:

تزوج رسول الله ﷺ من خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين سنة[(٢)]، ولقد خدم ذلك الزواج الدعوة الإسلامية التي مولتها خديجة بمالها وبجاهها، وبما قدمته من نصح لرسول الله ﷺ، ويكفى أن يذكر ذلك غداة نزول الوحى عليه، ولقد ماتت خديجة رَحِمَهُ اللهُ قبل الهجرة بثلاث سنوات مستبقة أبا طالب بخمسة وثلاثين يوماً، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بعدها إلا وهو في الثالثة والخمسين من عمره[(٣)] وعائشة - رضي الله عنها - هي البكر الوحيدة، ثم توزع زواجه على نساء من قبائل مختلفة ولظروف مختلفة وكلها في فترة منتصف الخمسينيات من عمره وحتى وفاته ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة.

إن ذلك الزواج أكسب الدولة الإسلامية الفتية درعاً واقية من خلال الروابط التي أقامها مع بنى خويلد، وبنى تيِّم، ومع بنى عبد شمس، وبنى أسد، وبنى أمية، وبنى

(١) انظر: البداية والنهاية، لابن كثير ٣/ ٢ ص ١٣٧ ـ ١٣٨، والحديث أخرجه البخارى (٣١٣٩).
(٢) تاريخ الطبرى ٢/ ١٩٦.
(٣) الكامل فى التاريخ ،لابن الأثير ٢/ ٩٠، ٩١ .

عدي، ومع أبى سفيان بن حرب وبنى خزاعة وبنى المصطلق ويهود، وقبيلة عامر بن صعصعة وليس بالإمكان أن يفسر ذلك إلا جرياً على عادات ذلك الزمان حيث للمصاهرة دورها في شد أواصر القربى وتمتين الروابط[١].

٤ ـ حلف الفضول واستمرار الوفاء به حتى بعد الإسلام:

لقد ترك الرسول ﷺ للمسلمين حرية الوفاء بالعهود السابقة على الإسلام، ومنها حلف الفضول الذى قال عنه: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**»[٢].

وبنود ذلك الحلف ـ الذي تم التعاهد بموجبه بين قبائل قريش ـ تلزم كل الأطراف بالعمل على رفع الظلم «**فتعاقدوا وتعاهدوا على ألَّا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته**» ولقد حدث هذا الحلف قبل بعثة الرسول ﷺ وفيه قال عمرو بن عوف الجرهمى:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

واستمر سريان الحلف حتى أن الحسين بن علي رضي الله عنهما هدد والى معاوية على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان بالدعوة إليه كي يأخذ حقه منه، قال الحسين: «**أقسم بالله لتنصفنى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعون بحلف الفضول، فقال عبدالله بن الزبير وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبته حتى يُنصف من حقه أو نموت**»[٣]...

٥ ـ التوجه إلى أرض تحكم بالعدل :

إن من طبيعة العرب كما ذكر من قبل الانتصار للمظلوم، وعملية ترك الديار والهجرة

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام ٤/ ٢٩٣ـ٢٩٨ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٣٣،والحديث أخرجه أحمد (١/ ١٩٠)، وصححه الألبانى فى تخريجه على فقه السيرة للغزالى (ص ٧٦).

(٣) الكامل في التاريخ، لابن الأثير ٢/ ٤١، ٤٢، وسيرة ابن هشام ١/ ١٤٠، وما بعدها.

إلى بلاد أخرى هي مما يؤثر في نفوسهم أيضاً، وإزاء واقع الذين لا منعة لهم من قبيلة أو إجارة، فقد أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة، فقال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**»[1].

* **ولهذه الهجرة أكثر من بعد:**

ـ **البعد الأول**: هو نشر الرسالة إلى أبعد من مكة وأبعد من الجزيرة العربية.

ـ **البعد الثاني**: هو إمكانية طلب الأمن والحماية مع البقاء على العقيدة في أية أرض يحل فيها العدل والصدق.

ـ **البعد الثالث**: تجلى بطرح قضية المسلمين في مكة وما تمارسه السلطة في قريش من اضطهاد وتنكيل.

والحوار الذي دار بين وفد قريش الذى أرسلته لاستعادة المهاجرين المسلمين الذين قادهم جعفر بن أبى طالب وبين النجاشي في حضور بطارقته أحدث واقعاً جديداً في الحبشة، حتى قال النجاشى أمام حشد من البطارقة الذين شهدوا معه هذا الحوار بعدما أخذ عوداً من الأرض: «**ما عدا عيسى هذا العود**» وقال للمسلمين: «**اذهبوا فأنتم آمنون، ما أُحب أن لي جبلاً من ذهب وأننى آذيت رجلاً منكم**».

ورد هدية قريش وقال: ما أخذ الله الرشوة منى حتى آخذها منكم، ولا أطاع الناس فيَّ حتى أطيعهم فيه[2].

وبلغ عدد الجالية المسلمة التى هاجرت إلى الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً ما عدا الأبناء والزوجات، ولما مات النجاشى في رجب سنة تسع للهجرة، نعاه رسول الله ﷺ إلى الناس في اليوم الذى مات فيه، وصلى عليه بالبقيع، ولما احتج بعض المنافقين نزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ٣/ ٦٦، مكتبة المعارف ـ بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٧٦، وسيرة ابن هشام ١/ ٣٤٤، والحديث أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن».

(٢) الكامل في التاريخ ٢/ ٨١.

بِءَايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾[1].

وكان من أهم نتائج هذه الهجرة كسر حدة الصراع مع أهل الكتاب وخاصة من النصارى مع ما في ذلك من تشجيع لليهود كي يخففوا من عدائهم لدعوة محمد ﷺ.

٦ ـ الإفادة من علم المشركين:

لقد جعل رسول الله ﷺ مفاداة الأسير أن يعلم عدداً من أولاد المسلمين كما حصل يوم بدر، روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ، فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[2].

٧ ـ العهد مع يهود المدينة :

شإن أول لائحة تصدر عن سلطة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة إنما كانت منظمة للعلاقة بين المهاجرين والأنصار من جهة وبينهم وبين اليهود في المدينة المنورة من جهة أخرى، لقد وادع فيه الرسول ﷺ يهوداً وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس...وألَّا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة «**عظيمة**» ظلم أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم... يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس...وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم...» وبعد ذكر كل قبائل يهود، قال: «**..وإن بطانة يهود كأنفسهم..**» وإنه بين المسلمين واليهود: «**النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين...وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حُرمة إلا**

---

(١) آل عمران : ١٩٩، وانظر: سيرة ابن هشام، وانظر: إسماعيل أبو شريفة، مرجع سابق، ص٥٢٦.

(٢)السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٥١٢)، وصحيح السيرة النبوية ، إبراهيم العلى، ص ٢٦١.

بإذن أهلها..» واشترط الرسول ﷺ على اليهود بأنه: «**لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب**» وانتهى الكتاب بأنه «**لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم**».

«**وإن الله جار لمن بر واتقى**».

وهكذا يكون رسول الله ﷺ قد أصدر دستوراً للعلاقة بين أهل يثرب من مسلمين، مهاجرين وأنصار، ويهود، ولأول مرة تعرف الجزيرة العربية مثل هذا النمط من العلاقات المنظمة والمكتوبة بشكل منفصل.

٨ ـ الإفادة من الشعائر والعادات :

غداة عسكرة الجيش الإسلامي في الحديبية، أرادت قريش أن توقعهم في بأس قوة يحسب لها، وهي قبيلة الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فأرسلت سيدها وهو الحليس إلى رسول الله ﷺ، بعدما قابل عدداً من موفدى قريش ومنهم وفد خزاعة الذى عاد وقال: لقريش بأن محمداً لم يأت مقاتلاً وإنما جاء زائراً للبيت، ولما وصل الحليس ورآه رسول الله ﷺ قال لقومه من المسلمين: «**إن هذا من قوم يتألهون «يعظمون أمر الإله»**، فابعثوا الهَدْىَ في وجهه حتى يراه» ولما رأى ذلك الحليس رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى ثم عاد إلى قريش وكلمهم بما رأى، فلما قالوا له: إنك أعرابي لا علم لك، غضب وقال: «**يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له! والذى نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له: كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضي به**»[1].

٩ ـ الرسول ﷺ يحرك مشاعر الكرم في نفس عدى بن حاتم الطائى:

لقد كان عدي بن حاتم الطائى كما أخبر عن نفسه نصرانياً، ومن أشد الناس كراهية للرسول ﷺ، وكان ملكا في قومه، ولما علم بقدوم خيل المسلمين فر إلى بلاد الشام لكن أخته وقعت في الأسر، وكانت من بين سبايا طىء، وبينما رسول الله ﷺ يمر، إذا بها تقف

---

(١) راجع :سيرة ابن هشام ٣/ ٣٢٦ .

وتقول: «**يا رسول الله، هلك الوالد، وغاب الوافد (الزائر)، فامنن عليَّ منَّ الله عليك**» ولما علم بأن وافدها هو عدى بن حاتم الطائى قال لها: «**الفار من الله ورسوله؟**» وبعد يومين منَّ عليها رسول الله ﷺ، ولما وجدت قافلة تطمئن إليها أخبرت الرسول بذلك، فكساها وأعطاها مالاً ونوقاً، وخرجت مع القافلة حتى وصلت دمشق .

ولما قابلت عَدِيّا وكان قد وصله خبر إكرام الرسول ﷺ لأخته، وسألها وأجابته، بعد أن أنبته لتركه إياها وهربه بها له وعياله «**أرى والله أن تلحق به سريعا فإن كان نبياً فعليك اتباعه وإن كان ملكاً فلا يذل عنده أحد**[1] **!**».

هكذا استطاع رسول الله ﷺ أن يعيد عدي بن حاتم الطائي من دمشق إلى المدينة المنورة عبر رسالة بعثها إليه،خالجت مشاعره وأثارت شجونه «**الكرم**»...

١٠ ـ التحالف مع المشركين :

لقد كان من بنود اتفاق صلح الحديبية أنه «**من أحب أن يدخل في عهد رسول الله دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل**»، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش[2]، وكما هو معلوم فإن علاقة خزاعة مع رسول الله ﷺ كانت سابقة، ولقد قام أحد أبناء هذه القبيلة بدور عظيم جداً عندما خوف أبا سفيان من جيش رسول الله غداة يوم أحد، حيث إن الرسول ﷺ كان قد أمر كل الذين اشتركوا في معركة أحد أن يلحقوا بالمشركين ولما وصل إلى حمراء الأسد مر به «**معبد بن أبى معبد الخزاعى، وكانت خزاعة مسلمهم ومشركهم عيبة نصح لرسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد يومئذ مشرك**»[3].

والجيش الإسلامي الذي فتح مكة بقيادة الرسول ﷺ إنما جاء للوفاء بالعهد مع خزاعة التى اعتدتْ عليها بكر بمساعدة قريش، وهذا يخالف أحد بنود صلح الحديبية الذى فرض الهدنة لمدة عشر سنوات، فخرج عمرو بن سالم الخزاعي مع وفد من خزاعة، وذهبوا

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧.
(٢) الكامل فى التاريخ ٢/ ٢٠٤.
(٣)السيرة لابن هشام ٣ / ١٠٨ .

إلى المدينة المنورة، حيث رسول الله ﷺ وطالبوه بما بينهم من حلف، ومما قاله عمرو بن سالم:

يا ربي إني ناشدٌ محمداً   حلف أبينا وأبيه الأتلدا

والأتلد هو القديم ، وهكذا فإن فتح مكة جاء نتيجة للنجدة التى قدمها رسول الله ﷺ لخزاعة «**المشركة**»(١).

١١ - إبرام المعاهدات مع المشركين :

في غزوة ذي العشيرة من بطن ينبع، وادع بها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة وكتب بينه وبينهم كتاباً، وكذلك عاهد بنى ضمرة على أنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من داهمهم، وعاهد سيد بنى ضمرة واستقرت المصالحة على ألا يغزو بنى ضمرة ولا يغزوه، ولا يكثروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عليه عدواً، وفي معاهدة مع عمرو بن فحش الضمرى، ورد بند ينص على النصرة المتبادلة بين المسلمين والمشركين من بنى ضمرة، وهذه القبائل كانت تعيش بين المدينة المنورة وساحل البحر الأحمر(٢).

لقد كان رسول الله ﷺ يتمتع بحرية الحركة فيعاهد المشركين أو يمنح عطاءات للمسلمين الجدد كي يشجعهم على المضى بإسلامهم دونما إحساس بخسارة مكاسب كانت لهم قبل الإسلام فمن بنود الكتاب الذى كتبه لثقيف:

- إن واديهم حرام محرم لله كله.

- وثقيف أحق الناس بوج «**الطائف**» ولا يعبر طائفهم ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاؤوا أحدثوا في طائفهم من بنيان أو سواه بواديهم.

- وهم أمة من المسلمين، يتولجون من المسلمين حيث ما شاؤوا وأين ما تولجوا ولجوا.

- وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به ما شاؤوا(٣).

---

(١) السيرة لابن هشام ٤/ ٣١، وما بعدها .

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، محمد حميد الله،ص ٢٦٦ وما بعدها ، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، انظر: نظرية الحرب فى الشريعة الاسلامية، إسماعيل إبراهيم أبو شريفة،مكتبة ص ٤٤٢، ٤٤٣، مكتبة الفلاح الكويت، ص ١٤٠١ - ١٩٨١م.

(٣) مجموعة الوثائق السياسية، مرجع السابق ص ٢٨٣ - ٢٨٧ .

إن هذه المعاهدات جعلته في المركز الأقوى على قريش التى بدت معزولة، وتجلى ذلك يوم الفتح والحمد لله رب العالمين .

وفي خلاصة هذا الفصل يكون البحث قد وصل إلى تركيز الضوء على ملامح الدولة الإسلامية التى تكاملت بعد فتح مكة المكرمة فقد عيَّن الرسول ﷺ الولاة، وراسل كل ملوك الأرض يومها، وهم المهيمنون على الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ومن يستظل بظلهما من الملوك والمماليك ولم ينقص ﷺ من احترامه في قومه شيئاً وهذه نماذج لبعض كتبه ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم..فإن توليت فعليك إثم الأريسيين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم...الآية[1]».

وكان قد كتب إلى النجاشى ملك الحبشة :

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله، إلى النجاشى الأفخم ملك الحبشة[2].

وفي رسالة أخرى:....إلى النجاشى الأفخم عظيم الحبشة[3].

ومن رسالة له إلى أسقف الروم في القسطنطينية:

«إلى ضغاطر الأسقف سلام على من آمن، أما على أثر ذلك، فإن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الزكية...» [4].

وعاهد أهالى إيلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٠٣ .

(٤) المرجع نفسه ص ١١٥ ضغاطر: أكبر مركز دينى عند الروم يومها وهى تعريب لكملة: autociaton .

هذه أمنةُ من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنه «**يوحنا**» بن رؤية وأهل أيلة سننهم وسيادتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر[1]...»

وعاهد أهل مقنا وعاهد بنى ثعلبة من غسان.

*****

(١) المرجع نفسة ص ١١٧ – ١١٨.

المبحث الثانى
الدولة في عهد الخلفاء الراشدين

ما إن مات النبى ﷺ حتى اجتمع المسلمون في اليوم نفسه واختاروا لهم خليفة له، وبذلك لم يشغر مكان القيادة ولو ليوم واحد، وكرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة(١).

وتم اختيار أبى بكر في جو جماعي في سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمع الأنصار، وأتاهم أبو بكر ومعه عمر رضي الله عنهما ، وذكر أبو بكر كل ما قاله الرسول ﷺ بحق الأنصار ثم خاطب سعد بن عبادة بقوله: ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد: «**قريش ولاة هذا الأمر برّ الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم**» قال سعد: صدقت فنحن الوزراء وأنتم الأمراء...ففتح عمر يد أبى بكر وقال: إن لك قوتى مع قوتك، قال فبايع الناس...(٢).

قال السيوطى: إن أبا بكر هو أول من عهد بالخلافة لمن بعده «**عمر بن الخطاب**» وهو أول من اتخذ بيت المال، وأول من سمى المصحف مصحفاً(٣).

ومن مبادراته السياسية الجزئية كأول قائد يلى رسول الله ﷺ كما قال.

أولا: بعث جيش أسامة بن زيد إلى الشام وتصميمه على ذلك.

ثانيا: قام بقتال أهل الردة وناظر الصحابة وحجهم بذلك.

ثالثا: جهز الجيوش ودفعها لفتح بلاد الشام.

رابعاً: استخلف على المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٤) وهذا التحيز القيادى لأبى بكر لم يكن بالغريب فقد قال عنه السيوطي: «**وكان من رؤساء قريش في الجاهلية، وأهل مشاورتهم، ومُحَبَّباً فيهم وأعلم لمعالمهم**»(٥) وكذلك كان فى الإسلام ففى الحديث الذى رواه الشيخان عن

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، م٢ جـ٣ ص ٢٠١ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٩٩ .
(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء – ط ١ سنة ١٩٥٢ – مصر، ص ٢٣ .
(٤) السيوطى – المرجع السابق – ص ٢٧ – ٢٨ .
(٥) المرجع نفسه ص ٣١.

أبى سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من أَمن الناس عليَّ في صحبته وما له أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربى لأتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام**»[١].

من هذا الحديث يتضح أن الرسول الكريم لم يعهد لأحد من بعده، وأن الإسلام أرسى دعائم الأخوة في الله عز وجل، وأن أمر الأمة لها، توليه من ترى لما فيه خير ورضا ...

وأفضل ما اختص به أبو بكر هو تصديقه لرسول الله ﷺ يوم قال له الناس: كذبت قال ﷺ: «**... فإن الله بعثنى بالهدى ودين الحق، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت**»[٢].

استخلاف عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

كان أبو بكر خلال فترة حكمه يعتمد على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كثير من الأمور التى تتعلق بسياسة الدولة، ولما مرض خشى أن يموت، ويحصل اختلاف من بعده، عزم على أن يتم اختيار من يخلفه في حياته، فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرنى عن عمر ابن الخطاب؟ فقال: ... هو والله أفضل مِنْ رأيك فيه ثم دعا عثمان بن عفان فقال وأنه ليس فينا مثله وكذلك استشار سعيد بن زيد، وأسيد بن حضير وفريقاً من المهاجرين والأنصار، ومما قاله أسيد:.. ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وعلل أبو بكر اختياره لعمر أنه كان خير أهل ذلك الزمان، وأمر عثمان بن عفان أن يكتب كتاب العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظنى به وعلمى فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾[٣] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/ ٣٧٢).

(٣) الشعراء :٢٢٧.

وختم **الكتاب** ثم دفعه لعثمان بن عفان الذى خرج به للناس وتمت البيعة العامة، بعد ذلك التقى أبو بكر بعمر وأوصاه، وبعد خروج عمر، رفع أبو بكر يديه وقال: «**اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأيا، فوليت عليهم خيرهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرنى من أمرك ما حضر، فاخلفنى فيهم، فهم عبادك، ونواصيهم بيدك، أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح رعيته**»[١].

وظاهر من صيغة كتاب العهد الذى أملاه أبو بكر على عثمان أنه أراد المصلحة، وخشى الاختلاف من بعده، وفي رواية ابن الاثير أن أبا بكر أغمى عليه وهو يملي العهد، فلما استفاق ووجد عثمان قد كتب ما قاله، كبر وقال: «**أراك خفت أن يختلف الناس إن مت من عشيتى قال: نعم. قال: جزاك الله خيراً عن الإسلام وأهله**».

ولنا وقفة مع أبى بكر الصديق رضي الله عنه فى مناجاته لربه ـ عز وجل ـ حين قال: «**وخفت عليهم الفتنة، فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأياً، فوليت عليهم خيرهم**» إن تصرف أبى بكر يعتبر مصدراً من مصادر التشريع السياسي في الإسلام، فهو الأقرب إلى رسول الله ﷺ، والأعلم بمقاصد الشريعة ومراميها، لذلك فقد اتخذ قراراً استثنائياً في حياته، وأسلم الروح وهو مطمئن لاستقرار دولة الإسلام من بعده.

وبعد أن طعن عمر رضي الله عنه، وهو في الصلاة، وذلك على يد أبى لؤلؤة المجوسى، وأيقن عمر بالهلاك، رد على ثناء الناس بقوله: «**أما والله وددت أنّي خرجت منها كفافاً لا عليّ ولا ليّ، وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي**»[٢].

ولما طلبوا منه أن يستخلف وذلك بالعهد لأحد من بعده، أجابهم بأنه يخشى عذاب الآخرة، وغير راغب بتحمل مزيد من المسؤوليات تجاه ربه عز وجل، «**..فما أريد أن أتحملها حياً وميتاً، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال عنهم رسول الله ﷺ: إنهم من أهل الجنة**».

---

(١) انظر: السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ـ ص٨٢، ٨٣،وابن كثير ـ البداية والنهاية ٧/ ١٨، وابن الأثير ـ الكامل في التاريخ م٢ / ٤٢٥، ٤٢٦ .

(٢) انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤ .

وهؤلاء هم بقية العشرة المبشرين بالجنة – رضي الله عنهم - لكنه أخرج منهم صهره سعيد بن زيد[١] وعند الصباح اجتمع بعليّ وعثمان وغيرهم من الستة وقال: «**إنى نظرتكم فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس**»[٢].

وبذلك يكون عمر رضي الله عنه قد عهد للستة، الذين أمهلهم ثلاثة أيام فقط كي يختاروا من بينهم أميراً.

ويستفاد من سنة عمر رضي الله عنه، بأن الأمير يتم اختياره من أفضل القادة البارزين والمجربين وليس من بين عامة الناس ممن ليست لهم تجربة سابقة أو فضل سبق في خدمة الأمة... وهذا من أفضل الضوابط التى تفتقر إليها الديمقراطية في منهجها السياسي المبنى على قرار الأكثرية العددية للناس، دونما الأخذ بعين الاعتبار ضوابط المصلحة التي لا يدركها عوام الأمة.

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه:

بعد مداولات مجلس الشورى[٣] دعا عبد الرحمن بن عوف ـ الذي كان بمثابة رئيس للمجلس ـ عليا رضي الله عنه وقال له: «**عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده**» فأجاب علي ـ كرم الله تعالى وجهه: «**أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى**».

ثم دعا عثمان رضي الله عنه وقال له مثل ما قال لعلي، فأجاب: نعم فتمت البيعة له، ولما أبدى عليّ رضي الله عنه ملاحظات قال فيها لعبد الرحمن بن عوف: «**حبوته حبو دهر، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ...**».

---

(١) العشرة المبشرون بالجنة هم: «أبو بكر، عمر، عثمان، علي، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبى وقاص، الزبير ابن العوام، طلحة بن عبيد الله، أبو عبيدة بن الجراح، سعيد بن زيد».

(٢) انظر: الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٣٤.

(٣) لمن أراد أن يقف على كامل المشهد يراجع الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ٣/ ٣٧.

فأجاب عبد الرحمن «**يا عليّ لا تجعل على نفسك سبيلاً فإنى قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان**».

وأما عن نسب «**القرشية**» الذى اعتد به أبو بكر رضي الله عنه في وجه الأنصار، فإن علياً قال بشأنه: «**إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها**» وهو يقصد بنى هاشم.

ثم بعد أن أجمعت قريش على عثمان رضي الله عنه قام عليٌّ وبايع [(١)].

الفتنة: إنهم بشر :

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه في السبعين من عمره حين آلت إليه الخلافة وكان رقيقاً هيناً، وقدره أنه زامن مرحلة تحول العرب من معيشة البساطة والزهد إلى معيشة الغنى والترف، وسط تدفق الأموال من البلاد المفتوحة، وقد لاقى زمن عثمان رضي الله عنه ارتياحاً عند المسلمين بعد وصولهم للوضع الاجتماعي والاقتصادي الجديد، وسمح عثمان رضي الله عنه بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها، بينما كان عمر رضي الله عنه يتشدد في ذلك، ومما قاله: «**ألا إن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا، إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار**»[(٢)].

وبقى الناس على ذلك حتى كانت ولاية عثمان رضي الله عنه، وجاءت الدنيا بين أيدى أناس مازالوا حديثى عهد بشظف العيش وقساوة حياة البداوة.

ثم قضى عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيداً في فتنة ليس بمقدوره تجاوزها أو التحكم في مراحلها وقد زاد عمره على الثمانين عاماً، وقد جرح الحسن بن على رضي الله عنهما وهو يدافع عن بيت الخليفة وكذلك محمد بن طلحة.

وهكذا تحرك الجبل من مكانه...وبدأت الأحداث تترى، وما تبقى من ذلك هو أن الناس كلهم بشر، والخطأ والصواب جائزان على الجميع، ما عدا رسول الله ﷺ وقد مضوا إلى خالقهم...وبقى الإرث المثقل بالجراح والآلام..وتم إغراق المسلمين في فتنة الحليم

---

(١) انظر: الطبرى ـ المرجع السابق ٣/ ٣٧، ٣٨.

(٢) انظر: الطبرى ـ تاريخ الأمم والملوك ٣/ ١٣٤، وحسن ابراهيم حسن ـ م . س جـ١ ص ٣٥٤، ٣٥٥.

فيها حيران[١].

روى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وقد شُكى إليه ما لقى الناس من الحجاج فقال: «**اصبروا فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» سمعته من نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم[٢].

وقفة:

إن هذا البحث لم يكتب للحكم على الماضى أو كي يكون رزمة من الصفحات تضاف لمثيلاتها من الكتب والمجلدات...وزيادة على ذلك فإنه ليس لدى كاتبه الجرأة أو الرغبة في خوض غمار مهالك لا يعلم مداها إلا الله تعالى، إن المقصد منه هو استقراء العظات والعبر من تاريخ هذه الأمة كي تضاف إلى كل العبر التى علمنا إياها القرآن الكريم من قصص الأمم الغابرة، لعل ذلك يكون معينا لأمتنا المعاصرة كي يتزود علماؤها وقادتها بمصابيح حسنة الإضاءة، تمكنهم من رسم طريق سليم للخروج من حالة الانهيار التام، والفتن التى تتلاحق فصولها، والخنوع التام أمام أعدائهم المتربصين بهم شراً من أجل ذلك كان هذا الجهد المبذول، وإذا كانت الفتنة التى أودت بحال المسلمين في نهاية خلافة عثمان ابن عفان رضي الله عنه وما أعقبها من أحداث، سهلت على المصطادين في الماء العكر تسديد رماحهم، واختراق جدار المسلمين وجعلهم أحزاباً وشيعاً ، فليس من الصعب على مريدي الخير أن يستفيدوا من ذلك ويحولوا مجرى التاريخ مرة أخرى، ويعيدوا للأمة مجدها وإشراقتها.

لذلك، وانسجاماً مع أهداف البحث، سنسجل المحاولة التالية، على طريق الاتعاظ والإفادة من أحداث التاريخ، لعل ذلك يختصر المسافة بين جيلنا وأوان العودة إلى سدة مجد الأمة، التى أراد الله ـ تعالى ـ لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

أولا: الوقوع في الفتنة من طبيعة البشر:

فتنة أولاد آدم عليه السلام:

(١) راجع : السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ١٥٦ ـ ١٦٠ راجع حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام ص ٣٥٥ ـ ٣٥٨ ـ وذلك للوقوف على وجهة نظر وليس لاعتبار رأيه سنداً فى هذه المسألة .

(٢) أخرجه البخارى (٧٠٦٨) .

لقد قصّ علينا القرآن الكريم ما حدث لابنى آدم ـ عليه السلام، والعظة الواجب الإفادة منها والتأسـي بهـا: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾(١) ونتيجة الاستسلام لنزوات الشيطان، ستكون حتماً الخسران المبين: ﴿.. قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

فتنـة أولاد يعقـوب عليه السلام:

لقد قص يوسف عليه السلام على أبيه نبى الله ـ تعالى ـ يعقوب ما رآه في المنام: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾(٢).

فكان جواب والده:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ ﴾(٣).

لقد تصور إخوة يوسف أنهم إذا قتلوه يخلص لهم أبوهم، الذي رأوا فيه حباً كبيراً لأخيهم، مع أنهم عصبة، واعتبروا أن أباهم في ضلال مبين: ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾(٤).

وبعد الرحلة الطويلة، واللقاء الذي تم بينهم وبينه في مصر، وعند وضعه الكيل في رحل أخيه، لحكمة أرادها عليه السلام، قالوا له مرة أخرى: ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾(٥).

وفي نهاية المطاف، فإن يوسف عليه السلام قابل شرهم، وهو قادر عليهم بالتسامح والطمع فى رضا الله عـز وجـل: ﴿ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ

---

(١) راجع الآيات من المائدة: ٢٨ ـ ٣١.
(٢) يوسف: ٤.
(٣) يوسف: ٥.
(٤) يوسف: ٩.
(٥) يوسف: ٧٧.

عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾[(١)].

ماذا قال لهم؟ قال عليه السلام: ﴿..لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾[(٢)].

وساعة قابلوا والدهم وطلبوا منه أن يستغفر لهم قال لهم: ﴿..سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾[(٣)].

لقد كانت نتيجة الحدث الذى حدث هي....، الندامة، كما حصل لابنى آدم، والاستغفار والتراحم، كما فعل يوسف مع إخوته ويعقوب مع أبنائه ـ عليهما السلام.

فتنة أصحاب موسى عليه السلام:

بينما كان موسى عليه السلام يكلم ربه، قال له البارئ ـ عز وجل: ﴿..فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ ﴾[(٤)] ولما عاد إليهم ورأى ما فعله لهم السامرى عندما صنع لهم عجلاً من ذهب وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ ﴾[(٥)].

ولما أنَّب موسى هارون ـ عليهما السلام ـ قائلاً له: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ ﴾[(٦)].

فكان جواب هارون: ﴿..إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾ ﴾[(٧)].

وحكم الله ـ تعالى ـ عليهم بأن يقتلوا أنفسهم، وبعد أن تطهروا من عبدة العجل غفر الله ـ تعالى ـ لهم إنه هو التواب الرحيم.

إن الفتنة ليست بعيدة عن بشرية البشر حتى ولو كانوا أبناء الأنبياء أو صحابتهم المجتبين.

---

(١) يوسف: ٩١، ٩٢.
(٢) يوسف: ٩٢ .
(٣) يوسف: ٩٨ .
(٤) طه: ٨٥ .
(٥) طه: ٨٥ .
(٦) طه:٩٢،٩٣ .
(٧) طه:٩٤ .

وهناك تعليل ورد على لسان برنابا أحد حوارى عيسى عليه السلام، يعلل فيه الحكمة من حصول عملية الصلب التى شبهت لهم من خلال عملية تشبه، حل فيها يهوذا الأسخر يوطي مكان عيسى عليه السلام، وحسبه الناس أنه هو.

يقول برنابا: إن هذه العملية تمت حتى تسقط الهالة من رؤوس الناس الذين كادوا أن يفتنوا بعيسى عليه السلام ويحسبوه إلهاً من دون الله ـ عز وجل.

إن البشرية تميل دائما لاتخاذ آلهة من حجر وشجر وجبال وأصنام وهوى وملوك .... و....

ثم ما الذى يمنع من أن تكون فتنة كتلك التى أصابت الصحابة إنما هي لتأكيد بشريتهم، وأنه لا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم.

مراحل فتنة استشهاد عثمان رضي الله عنه:

كـرة الثلـــج:

أ ـ تفاقم الهنات والاختلافات وبروز المطامع في الدنيا.

ب ـ إن إلقاء تبعات الفتنة على أشباح وأغيار وطابور خامس... لا يفيد شيئاً، بل بالعكس فإن ذلك يزيد من فداحة الخسارة، إذ لا يجوز أن ينسى أحد قوة الدولة الإسلامية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث كانت سيبريا في أقصى شمالي الكرة الأرضية ولاية إسلامية، ولولا أن خلافاً قد نشب في داخل مؤسسة الحكم لما كان بمقدور موتور، أو يهودى متلبس أو...أو ... أن يندس حتى يصل خنجره إلى صدر الخليفة.

جـ ـ لقد كان عثمان رضي الله عنه صادقاً ينفى علمه بمسألة الكتاب أو بالجهة التى أمرت الغلام بالتوجه إلى مصر، «**وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل**».

لقد تدحرجت كرة ثلج الفتنة، وانتهت فصولها إلى ما انتهت إليه من كارثة ما زالت آثارها تتوالد حتى يومنا هذا وإلى ما شاء الله ـ تعالى ـ أن تكون، ثم ما الذي حصده الناس نتيجة ذلك الاحتقان فيما بينهم؟ هل أدى الغضب الذى سيطر على سلوكهم إلى تحسين أحوال المسلمين؟ بالتأكيد لا..والخسارة كانت مؤكدة، فلماذا لا يستفاد من تلك التجربة؟ لماذا لا نحول تلك الدماء الزكية إلى مصابيح تنير لنا دروبنا وتحول دون الوقوع في حمأة الفتنة مرة أخرى؟

وخير ما نختتم به هذه الوقفة ما ورد عن رسول الله ﷺ! عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**من كره من أميره شيئاً فليصبر، فإنه من خرج من السلطان (طاعة السلطان) شبراً مات ميتة جاهلية**»، وفي رواية أخرى عنه قال: «**من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية**»[١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال: «**فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألاَّ ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان**»[٢] وأخيراً فإن إشراك العوام فى القضايا الكبرى للأمة فيه مهلكة وضياع لها، وهذا ما وقع فى فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه[٣].

ومسك الختام آخر خطبة خطبها الخليفة الشهيد!

«**..إن الله ـ عز وجل ـ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة وإن المصير إلى الله، واتقوا الله ـ عز وجل، فإن تقواه جُنَّةٌ من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**»[٤].

وفي إبان الشغب على باب الخليفة قال لهم ناصح: «**..يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم فو الله إن سللتموه لا تغمدوه، ويلكم إن سلطانكم اليوم بقوة الدرة، فإن قتلتموه لا يقم إلا بالسيف، ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركنها**[٥].

لقد تم انتقاء هذه النصوص كي نسلط الأضواء على نتائج الفتنة والفرقة.

كما أنه علنا بذلك نتمكن من قراءة الواقع قراءة سليمة ومنتجة، حيث إن المواقف المبنية

---

(١) أخرجه البخارى (٧٠٥٣)، (٧٠٥٤).

(٢) المرجع نفسه ويلاحظ أن الحديث يأمر بعدم الخروج على الأمير حتى ولو فضل أناساً على آخرين وأثرهم علينا.

(٣) أخرجه البخارى (٧٠٥٦).

(٤) انظر: ابن الأثير ـ الكامل فى التاريخ٣/ ٣٥٧.

(٥) الطبرى ـ المرجع السابق ـ ص ١٣٠.

على أسس ثابتة وواضحة تكون أجدى وأنفع لأصحابها.

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

بعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه، جاء الناس يُهرعون إلى علي رضي الله عنه، مطالبين إياه بقبول بيعتهم له كخليفة لعثمان، فما كان منه رضي الله عنه إلا أن قال لهم: «**ليس ذلك لكم، إنما ذلك إلى أهل بدر، فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة**» والسبب في جوابه ذلك إليهم، هو أنه لم يبق من المجلس الأعلى الذى كان يتحلق حول رسول الله صلى الله عليه وسلم من العشرة المبشرين بالجنة إلا الأقلون.

لهذا أعاد علياً رضي الله عنه الأمر إلى ما يشبه الهيئة التأسيسية، وهم المشاركون في معركة بدر الكبرى، وهذا يعنى المجموعة الأولى من المهاجرين والأنصار، وبهذا يضع حداً لمشاركة حديثي العهد بالإسلام أو الذين دخلوا فيه بعد الفتح راضخين للأمر الواقع، وقبل علي البيعة بعد أن أتته من البدريين، وكان أول عمل قام فيه هو التحقيق فى استشهاد أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فأخبرته زوجته بأنها لا تعرف الرجلين اللذين فعلا ذلك، غير أن ابن عساكر أورد رواية تقول: بأن القاتل هو رجل من أهل مصر أزرق أشقر يقال له: حمار[1].

انفراط حبات العقد:

عند تولية علي رضي الله عنه، كان أكثر الصحابة متفرقين في الأمصار، ولم يكن في المدينة منهم سوى عدد قليل وعلى رأسهم طلحة والزبير رضي الله عنهما.

واتخذ أمير المؤمنين علي قراراً بعزل الولاة الذين ولاهم عثمان والذين كانوا مثار الفتنة وسبب خروج البعض عليه، ولقد كان بعض الصحابة قد نصحوه بالتريث والإبقاء عليهم حتى تهدأ الحالة وتستقر الأمور.

ثم إن علياً رضي الله عنه عاد لسيرة عمر رضي الله عنه في تطبيق قواعد توزيع الأرزاق ،ثم قامت في وجه علي رضي الله عنه مطالبة بوجوب تعقب قتلة عثمان رضي الله عنه، ورأى علي في هذه المسألة وجوب اتباع الشرع وذلك بأن يقيم أهل الدم دعواهم، وأن تجرى المحاكمة «**إذ كان يرى أن**

(١) راجع: السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ١٦٠، ١٦١ .

القصاص من غير دعوى ولا إقامة بينة مخالف لكتاب الله» [١].

وبدأ صراع جديد وبدأت بقعة الزيت تنتشر وخرجت الخوارج، ونشبت بينهم معارك في النهروان وفي خطة دبرها هؤلاء عزموا فيها على اغتيال علي، ومعاوية وعمرو بن العاص، لكن عبد الرحمن بن ملجم وحده تمكن من تنفيذ اغتيال أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٢].

عـام الجماعـة :

بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بايع أهل الكوفة الحسن من بعده، وبعد ستة أشهر ونيف، قرر الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا يستعمل أحداً بقتال من أجل ملكه، وأنه ترك الإمارة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء لوجه الله تعالى.

وفي هذا العام اجتمعت الأمة على أمير واحد (٤١ هـ) وفي هذا العام ولى معاوية مروان بن الحكم إمارة المدينة المنورة [٣].

وتحقق حديث النبى ﷺ: **«ابنى هذا سيد، وسيُصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»** [٤].

دروس وعبـر :

إن العبرة الكبيرة التى يمكن اتخاذها والخروج بها من الفتنة هي عدم الدخول في فتنة، أما كيف ذلك، وما السبيل إلى عدم حصولها؟ فهذا أمر في غاية التعقيد والصعوبة، حتى أن المسلمين بعد تلك الفترة، كانوا يميلون إلى عدم الخوض فيها، ولقد قال سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تلك دماء طهر الله ـ تعالى ـ منها أيدينا فلنطهر منها ألسنتنا.

*****

---

(١) حسن إبراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٧،٢٦٨ .

(٢) السيوطى ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ١٧٤، ١٧٥ .

(٣) راجع: السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ١٩١ ـ ١٩٦ .

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

المبحث الثالث

الدولة الإسلامية في عهد الأسر المالكة

أولا: العهد الأموى «٤٠ ـ ١٣٢ هـ ـ ٦٦٠ ـ ٧٥٠م»:

ليست مهمة البحث العرض التاريخي لكل مراحل تطور مؤسسة الدولة الإسلامية بكل دقائقها، نحو الأحداث والردود عليها، وردها أو قبولها، وإنما مهمة البحث الأساسية هي رصد حركة ما حصل وما اعتبره أهل عصره حلاً مناسباً لمشكلاتهم، سواء بالرضا التام النابع من صميم قناعاتهم أو باللجوء للصبر والقبول بواقع أمر حالهم دَرْءاً للمفاسد وجلباً للمنافع.

إن التطور الجديد الذى طرأ على مؤسسة الدولة هو عهد معاوية لابنه يزيد من بعده بالخلافة، وتذكر المصادر أن المغيرة بن شعبة هو الذى أشار عليه بذلك، بحجة وجود مشاكل اجتماعية معقدة، وبسبب صراع التيارات الحزبية والقبلية على السلطة، وعدم وجود أسلوب محدد للوصول إلى الحكم، هذا بالإضافة إلى رغبة معاوية في إبقاء الخلافة في أسرته[1] ولقد أثار فعل معاوية ردة فعل ومعارضة حتى عند الأمويين أنفسهم كما عند أهل الحجاز، فالعُرْف القبلى يعترف بحفظ السلطة في القبيلة أو الفخذ، وليس من الأب للابن، ولهذا السبب كانت معارضة الأمويين، إلا أن الأمر استتب لخيار معاوية بعد تفاهمه مع القبائل وخاصة الشامية.

أما معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقد دافع عن قراره مستندا إلى أن أبا بكر قد صنع ما لم يصنعه رسول الله ﷺ باستخلافه لعمر بن الخطاب، وأن عمر صنع ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يضعونه للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من اختلاف[2] وبذلك يكون معاوية قد أدخل مبدأ الوراثة في تقاليد الخلافة بدلاً من الشورى، وتأكد مبدأ الوراثة عندما بايع يزيد لابنه معاوية بولاية العهد.

---

(١) انظر: الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك ٦/ ١٦٩ ـ والسيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ .

(٢) انظر: تطور الفكر السياسي عند أهل السنة، خير الدين يوجه سوى ـ دار البشير ـ ط ١ سنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م ـ ص ٤٨ ، ٤٩ .

غير أن معاوية الثاني رفض أن يعهد لأحد من بعده وترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاؤون وقال لهم: «**فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم**»[١].

وعند موت معاوية الثاني نشب صراع داخل الأسرة الأموية انعكس بدوره على عرب الشام ـ ولأول مرة ظهر الخلاف علانية بين القيسية الذين مالوا إلى عبد الله ابن الزبير، واليمنية الذين توحدوا حول مروان بن الحكم ـ وبدأ نزاع بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وتمت تسمية خالد بن يزيد وعمر بن سعيد بن العاص كوريثين من بعد مروان الذي كان طاعنا في السن[٢]..، وأصبح الحكم في الفرع المرواني من بنى أمية بدلاً من الفرع السفياني، وبالرغم من بيعة الناس للذين ذكرنا، إلا أن مروان خالفهم في ذلك وأخذ البيعة من بعده لابنه عبد الملك الذي خلفه ابنه الوليد على أن تكون ولاية العهد من بعده لأخيه سليمان، ولقد قام سليمان بتوليه عمر بن عبد العزيز بن مروان من بعده على أن يكون العهد من بعده لشقيق سليمان يزيد بن عبد الملك، ثم انتقل الحكم إلى هشام بن عبد الملك شقيق يزيد ومن بعده للوليد بن يزيد بن عبد الملك ثم لإبراهيم بن الوليد ومن بعده لمروان ابن محمد[٣].

ومن هنا نقول: إن إدخال الأمويين لمبدأ الوراثة في الحكم دفعهم إلى «**تأكيد مفهوم الدولة، والتركيز عليه، وتحقيق المركزية في إدارة الأطراف وترسيخها، وفرض سيطرة الدولة على الأمصار، وقد استوجب ذلك - بالضرورة - توسيع سلطات الخليفة وصلاحياته، كما استوجب مقابل ذلك تضييق المكان الذاتي للأمصار، والقبائل المتوطنة فيها**»[٤] كل ذلك كان سبباً للوقوف في وجه المعارضة الشديدة التى واجهتهم، وقد اتجهت الخلافة إلى تطوير الإدارة، فكان تعريب الدواوين والنقود، وتم ربط الأجهزة الإدارية بالخليفة، ولعدم وجود المؤسسات السياسية أصبح الخليفة هو المتفرد بالسلطة وحده.

---

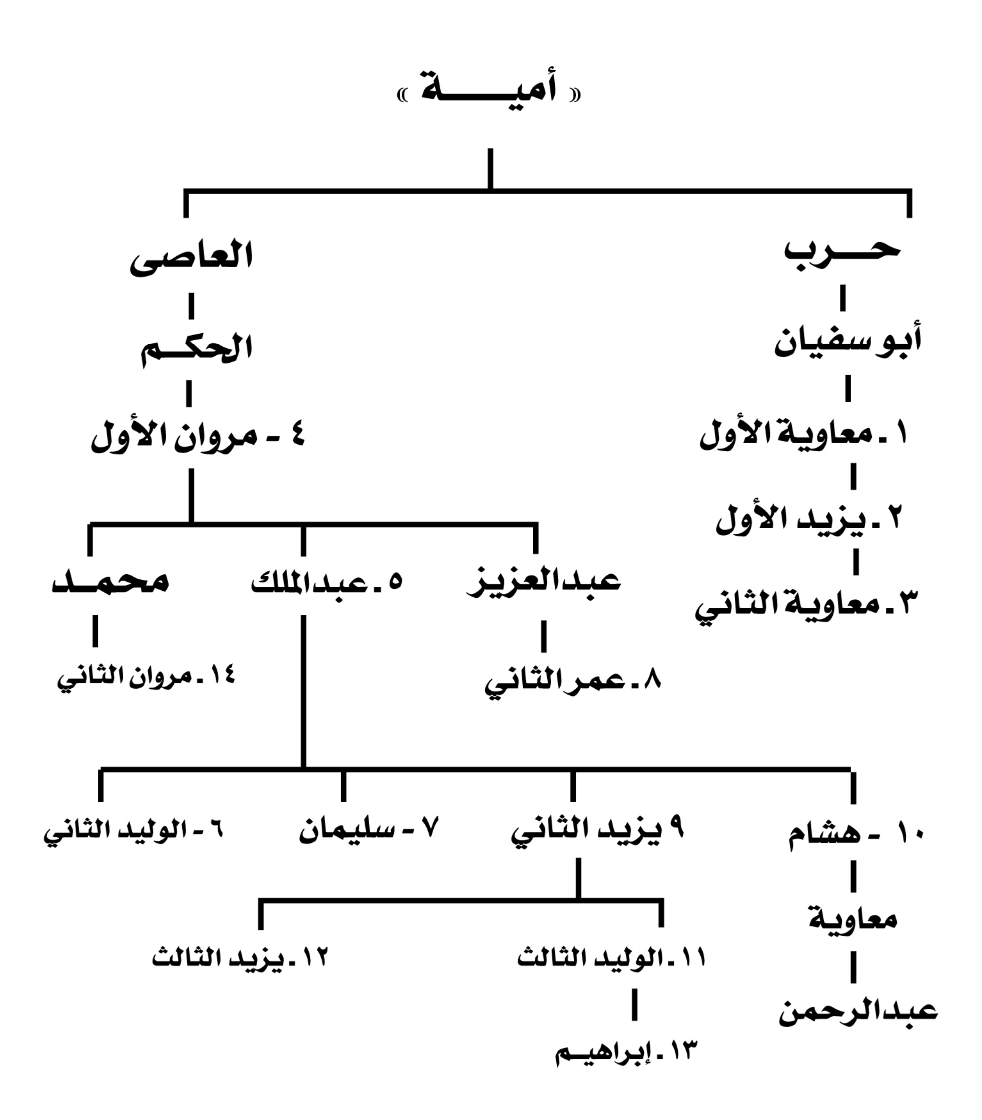
(١) حسن ابراهيم حسن ـ المرجع السابق ـ ص٢٨٧، ٢٨٨ .
(٢) المرجع نفسه ـ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٣) راجع: السيوطي ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٥ ـ ٢٥٥ .
(٤) خير الدين يوجه سوي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٦ .

ولقد رفع الأمويون في وجه معارضيهم شعار مصلحة الجماعة ووجوب الوحدة والطاعة وتجنب الفتنة، والرضا بقدر الله وعدم عصيانه وأكدوا أن خلافتهم قائمة بأمر الله، وأنها واجبة الطاعة، غير أن قوى المعارضة رفعت في وجه الحكم الأموي مبدأ الاختيار وحرية الإرادة، وهذا ما أدى إلى تأمين دعم لعهد جديد، سيطر على السلطة، وخلف الأمويين في حكمهم.

ومن المفيد أن ننقل رسماً يوضح انتقال الخلافة في بنى أمية[(١)] .

*****

(١) حسن إبراهيم حسن، بتصرف شديد ـ المرجع السابق ـ ص ٢٧٦ .


« أميــــة »
حــرب
العاصى
أبو سفيان
الحكـم
١ـ معاوية الأول
٤ ـ مروان الأول
٢ـ يزيد الأول
٣ـ معاوية الثاني
عبدالعزيز
٥ـ عبدالملك
محمـد
٨ـ عمر الثاني
١٤ـ مروان الثاني
١٠ ـ هشام
٩ يزيد الثاني
٧ ـ سليمان
٦ ـ الوليد الثاني
معاوية
١١ـ الوليد الثالث
١٢ـ يزيد الثالث
عبدالرحمن
١٣ـ إبراهيـم

ثانيا: العهد العباسى ١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ:

الشعارات جسر عبور:

إذا رأيت قصراً عظيماً ونال إعجابك، وأردت أن تعرف لمن سيؤول هذا القصر، ففتش عن الخدم فيه، فهؤلاء أو أمثالهم هم مَنْ سيرثه، وإذا رأيت سلطة قوية ومنيعة وفكرت من سيخلفها ففتش عن الموالي فيها، ويمكنك أيضا أن تفتش عن المضطهدين والمظلومين، فقد يكون منهم الحاكم وتكون منهم السلطة.

والمتطلعون إلى السلطة من المعارضة يركزون اهتمامهم على المستضعفين وأصحاب المظالم، والطامحين في تغيير واقعهم الاجتماعي والسياسي، من أجل ذلك فقد كان تركيز العباسيين على هؤلاء جميعاً.

فالفرس من المسلمين كانوا هم ملاك الأراضى، وقد أسند إليهم بنو أمية المناصب الإدارية الهامة، وأوكلوا إليهم جباية الخراج، لأن العرب كانوا لا يحترفون سوى مهنة الحرب وكانوا ينظرون إلى الموالى نظرة غير مساوية لهم! إنهم موالي[١] ولقد تمكن الموالى من إنهاك الخلافة الأموية بثوراتهم المتلاحقة[٢] وانتهى العهد الأموي الذى استمر منذ (٤٠هـ ـ ١٣٢هـ) كي يحل محله عهد العباسيين من بنى هاشم الذين عُمِّرَ عهدهم زهاء خمس مئة سنة كان الحكم فيها بداية للعباسيين فعلاً وإن كانت كل بطانتهم من الفرس والموالي، غير أن ذلك تحول إلى اسم دون مضمون، وتقلصت مهمة الخليفة حتى بات يخلع الألقاب ويقوم بإلباس بردة النبى ﷺ إلى القادة الجدد من أمراء الجند (غير العرب) الذين كانت تقوى شوكتهم وتؤول السلطة الفعلية إليهم.

إن العباسيين حرصوا منذ البداية على جعل الخلافة فيهم، وكرسوا المبدأ الوراثي بطريقة لم يشهد لها تاريخ الدولة الإسلامية مثيلاً، وطوى شعار الشورى والاختيار الذى كان سلاحاً كبيراً في يد المعارضة في العصر الأموي[٣]... وهكذا كان ذلك الشعار جسر

---

(١) انظر: حسن إبراهيم حسن ٢/ ١٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن ـ م.س ـ ص١٥

(٣) خير الدين يوجه سوى ـ المرجع السابق ص ٦٥، ولعلنا نقول: إن اختلاف الدرجة في الحكم الملكي الوراثي يبين المصطلحين الواردين في حديث النبي ﷺ «ستكون الخلافة ما شاء الله أن تكون» فالحكم العاض نموذج بنى أمية لما فيه من صور الحريات والملك الجبرى فى بنى العباس.

عبور ليس غير...

شجـرة الحكم الوراثى فى العهد العباسـى:

لقد كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبا العباس الـذى يعـود في نـسبه إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم، ووالـده هـو أول مـن قـام بمهمـة الـدعوة العباسـية فى أواخر العصر الأموي، ولقد عهد بالخلافة من بعده إلى شقيقه أبى جعفر المنـصور، ثـم إلى عيسى بن موسى ـ غير أن أبا جعفر المنصور قام بخلع ولي العهد وولى مكانـه ابنـه المهـدي والذى عهد لابنه الهادي ثم لهارون بعده، وعهد هارون الرشيد مـن بعـده لأبنائـه الثلاثـة «**الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن**» وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها القضاة والفقهاء وأكابر بنى هاشم وعلقها في الكعبة[١].

والأمين كان من السلالة الهاشمية لأمه وأبيه، يقول المسعودي ولم يكن فيمن سلف من الخلفاء إلى وقتنا هذا (٣٣٢هـ) من أبوه وأمه من بنى هاشم، إلا علي ابن أبي طالـب ـ كـرم الله وجهه ـ ومحمد ابن زبيدة[٢].

وخلف المأمون الأمين بعد صراعات وثورات عنيفة حدثت في أرجاء الدولة كلها، غير أن المأمون قام بخلع شقيقه المؤتمن ثالث أبناء هارون الرشيد المعهـود لهـم، وعهـد إلى عـلي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وقام بنو العباس بمبايعـة عـم المـأمون وهـو إبراهيم بن المهدي غير أن هذا الأخير توارى عن الأنظار واختفـى، وبعـد مـرض أصـاب المأمون عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه المعتصم الـذي أكمـل طريـق سلفه بـالقول بخلـق القرآن، واضطهد العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل، وهو أول من قـام بجلـب الـترك إلى الخدمة في الدولة الإسلامية وأدخلهم الديوان[٣] وخلفه ابنـه الواثـق بـالله الـذى حكـم

(١) انظر: حسن إبراهيم حسن ٢/ ٢١ ـ ٦٣.

(٢) انظر: السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص ٣٠٣، والمسعودي ـ مروج الـذهب ـ دار الأنـدلس ـ بيروت ـ ط ٥ سنة ١٩٨٣ ـ ٣/ ٣٨٧ـ ٣٩٦.

زبيدة هي بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور واسمها أمة العزيز، وزبيدة لقب لها ـ يقول عنه إسحاق الموصلي: «كان أحسن الناس وجها... وأشرف الخلفاء أبا وأماً...».

(٣) انظر: السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

الدولة العباسية ست سنين ولم يول عهده أحداً، ولما سئل أن يعهد لابنه قال: «**لا أتحمل أمركم حياً وميتا**»، وبموته انتهى العصر الذهبى للدولة العباسية بسبب إدخال والده المعتصم الترك وإحلالهم محل العرب من المسلمين... غير أن عهده شهد عمليات قتالية بين المسلمين وإزهاق أرواح كثيرة بسبب تعصبه للقول بخلق القرآن وبأن الله تعالى لا يُرى يوم القيامة»[١].

وعمَّر فقط ستا وثلاثين سنة، ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ويقول عنه ابن كثير: «**فهكذا أيام أهل الظلم والفساد والبدع قليلة قصيرة**»[٢].

وفي رواية: أنه تاب عند موته عن القول بخلق القرآن[٣].

وفي عهد الواثق بالله عام (٢٣٦ هـ) تجرأ المشركون والمجوس على مهاجمة بلاد المسلمين في الأندلس[٤] وبمساعدة الترك تم قتل الخليفة المتوكل الذى خلف شقيقه الواثق بالله وتقلد الخلافة ابنه المنتصر الذى بَعْدَ موته تمت مبايعة المستعين ابن عم المنتصر ثم آلت الخلافة لابن المتوكل المعتز ثم المهدي بن الواثق، ثم المعتمد ابن المتوكل شقيق المعتز، ثم المعتضد ابن شقيقه الموفق ثم خلفة ابنه المكتفى الذي خلفه شقيقه وعمره ثلاث عشرة سنة فتم خلعه وبويع مكانه المقتدر ثم الراضي بن المقتدر ثم المتقي والمستكفى وابنه المطيع ثم ابنه الطائع ثم ابن المتقى القادر ثم القائم ثم المقتدي ..

هكذا نرى مسيرة مركز الإمارة في العهد العباسي من (١٣٢هـ - ٤٤٧ هـ) «**٧٥٠ - ١٠٧٥ م**»، تنتقل بالعهد والوراثة، هذا في الشكل أما حقيقة السلطة الفعلية فقد آلت بعد المتوكل إلى الجند، وبدرجة أقل في يد الوزراء والكتاب، وبدأت السلطة الحقيقية للخليفة بالتلاشى مع بداية العهد البويهى، فالجند هم الذين يختارون ويبايعون، وإذا اضطروا فإنهم يلجؤون إلى سمل عيون الخليفة أو قتله، ونتج عن ذلك قيام إمارات مستقلة أو شبه

---

(١) انظر: ابن كثير - البداية والنهاية ١٠/ ٣٠٨.
(٢) المرجع نفسه - ص ٣٠٨ .
(٣) المرجع نفسه - ص ٣٠٩ .
(٤) ابن الأثير - الكامل في التاريخ ٧/ ١٦٠.

مستقلة مثل الأدارسة والأغالبة والطاهريين والصفاريين والسامانيين والطولونيين، وجاء أمير الأمراء الذى سلب الخليفة ما تبقى له من سلطة،وجعل الخليفة موظفاً يتقاضى راتباً شهرياً.. وتحولت السلطة إلى الجند بشكل نهائي تقريباً[١].

ثالثا: الدولة العثمانية :

قال تعالي: ﴿..فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ﴾[٢].

يرى ابن خلدون أن الترف ضرورة حتمية بعد عهد البداوة حيث الشدة وقوة البأس، وأن الأمم يأخذ منها الخلف عن السلف، فلقد أخذ العرب من حضارة الفرس والروم، وبالتالي فإنهم يخضعون لذات السنن[٣].

لقد بدأ العهد الأموى بمعاوية رضي الله عنه ، وتألّق نجم الدولة في طورها الأول، وانتهى عهدها بآخر خليفة، مروان بن محمد «١٢٧-١٣٢هـ / ٧٤٤ - ٧٤٩م» وهو طريد تلاحقه الرايات السود من خراسان، ويقتل في مصر.

وبدأ عهد الدولة العباسية قوياً باندفاع مجموعة جديدة إلى السلطة بقيادة أبى العباس «**١٣٢ - ١٣٦ هـ**» الذى أمضى معظم عهده في القضاء على القادة من الذين ساعدوا الأمويين، ثم تغيرت الأحوال وشوهد أحد خلفاء العباسيين «**القاهر**» يتسول بقرب المسجد في بغداد ثم أودعه المستكفي السجن حتى مات «**٣٢٩هـ**» وكانت نهاية العهد العباسي كما تم ذكره من قبل ...

ولما كانت نواميس التغيير تجرى في الدائرتين الكبرى والصغرى، فإنه أطَلَّ في سماء الدولة الإسلامية أحد قادة قبائل الترك الذين استعان بهم العباسيون ليحظى بمكافأة أحد أمراء السلجوقيين عقب مساعدة له على أحد خصومه، وذلك بإقطاعه عدة أقاليم ومدن،

---

(١) راجع: خير الدين يوجه سوي - مرجع السابق - ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) فاطر : ٤٤،٤٣ .

(٣) راجع: ابن خلدون - المقدمة - دار إحياء التراث العربي - بيروت - بدون تاريخ « ص ١٧٢ ، ١٧٣ » ولقد أورد وصفاً خيالياً للترف في بلاط الخليفة المأمون وفي دار عمه «والد عروسته» الحسن بن سهل..

بعد وفاته وهو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني «٦٨٧هـ / ١٢٨٨م» حيث عين الملك علاء الدين أكبر أولاده وهو «**عثمان**» وفي عهده قتل علاء الدين آخر أمراء السلاجقة على يد التتار وكذلك قتل ابنه غياث، عند ذلك انفتح المجال لعثمان كي يبدأ في بناء دولة جديدة، كان من نتيجتها أن وقع أمير المؤمنين العباسي «**المتوكل**» ضمن الأسرى الذين غنمهم السلطان سليم «**محرم ٩٢٣هـ / ١٥١٦م**» في معركة مرج دابق - فتم إكرامه وفي الأستانة تمت المبايعة منه للسلطان سليم العثماني[(١)] .

وتؤول تلك القوة العظمى التى اجتاحت بفتوحاتها الشرق والغرب، ليصل أحد خلفائها السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله - تعالى إلى أن يخلع من الخلافة على يد مجموعة من قادة الاتحاد والترقى، ذلك التنظيم اليهودي - الماسوني في ٢٤ نيسان ١٩٠٩م - ٧ربيع الآخر ١٣٢٧هـ، وغريب ما في الأمر أن يتم الخلع بفتوى يوقعها مفتى الإسلام ضياء الدين، ويتم الترحيب بما حصل من قبل جماهير وقادة الأمة عرباً كانوا أم عجماً دونما إدراك منهم لحقيقة ما حصل[(٢)] .

وتم تنصيب خلفاء من بعده، لم يكن لهم حول ولا قوة، وقضى أتاتورك على الخلافة نهائياً في عام ١٩٢٤ م.

لكن التغيير هذه المرة كان في الدائرة الكبرى، وانتقلت السلطة إلى الأوروبيين الغربيين الذين مدوا يد العون إلى اليهود وكل عوامل الهدم التى نخر سوسها في هرم الدولة الإسلامية.

نظام الحكم في الدولة العثمانية:

كان نظام الحكم وراثياً، فقد أوصى عثمان الأول بالحكم من بعده إلى ابنه أورخان الأول ثاني أولاده «**المولود سنة ٦٨٠هـ**» وذلك في٢١ رمضان عام٧٢٦ هـ، ومات عن عمر

---

(١) راجع: محمد فريد بن الحامي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار الجيل - بيروت - ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م ص ٣٨ - ٤٠ .

(٢) راجع: حساب حلاق - موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩ م، منشورات جامعة بيروت العربية ط ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م - ص٣١٨ - وما بعدها، مصطفي طوران - أسرار الانقلاب العثماني - دار السلام ترجمة كمال خوجة «١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م» ط١ - ص ٨٩ .

٨١ سنة واستمر حكمه ٣٥ عاماً ولقد عهد بالحكم من بعده إلى مراد خان الاول ٧٦١هـ/ ١٣٦٠ م الذى استشهد على يد أحد الجنود الصربيين «**ميلوك كوبلوفتش**» الذى كان ممدداً بَيْنَ القتلى والجرحى، حصل ذلك عندما كان السلطان رحمه الله تعالى يمر بين القتلى، فخلفه ابنه بايزيد خان الأول الذي مات أسيراً بين يدي تيمور لنك التترى في ١٥ شعبان «**٨٠٥هـ/ ٩ مارس ١٤٠٣م**» .

الفتوى الأولى بقتل أقرباء السلطان :

وبحق شقيق با يزيد الأول ـ يعقوب ـ صدرت أول فتوى من نوعها، عن أكبر مرجع إسلامي في الدولة، تقضى بقتل شقيق السلطان، وهو أصغر منه، كي لا ينازعه في الملك عندما يكبر، مع أنه كان شجاعاً ومتصفاً بالإقدام، والدولة بحاجة إلى أمثاله، وتم تعليل الفتوى بالحرص على عدم حصول أية فتنة في المستقبل، بناء على قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[(١)].

السلطان محمد جلبى يعيد توحيد الملك:

بعد موت با يزيد – تنازع من بقى من أولاده الملك حتى استقر لابنه محمد الذى تمكن من قتل إخوته الثلاثة «**عيسى وسليمان وموسى**» ثم أوصى بالملك من بعده لإبنه مراد خان الثاني الذي تزوج من بنت أمير الصرب المدعو «**جورج برنكوفيتش**» واسمها «**مارا**».

وأوصى بالعهد لابنه محمد الثاني الذى تولى العرش في محرم ٨٥٥هـ ـ ٩فبراير ١٤٤٥م»، وكان أول عمل قام به هو إرجاع زوجة والده الصربية «**مارا**» إلى والدها، وقتل أخ رضيع له اسمه أحمد «**ابن مارا**» **!!** [(٢)] وبعد عامين تمكن من فتح القسطنطينية ولقب بـ محمد الثاني الفاتح.

أول تمرد للانكشارية والتدخل بتعيين الخليفة :

عند موت السلطان الفاتح عين الانكشاريون حفيده كركود نائباً عاماً عن أبيه بايزيد خان الثاني حتى عودته غير أن أبناء بايزيد عصوا والدهم وحصلت بينهم حروب عديدة،

---

(١) راجع: محمد فريد بن المحامي ـ تاريخ الدولة العلية،ص ٤٨ والآية من سورة البقرة «١٩١» .
(٢) المرجع السابق ص٥٨ ـ ٥٩.

انتهت بدعم الانكشارية لابنه سليم وذلك عندما اضطروه للتنازل له عن العرش «**٨ صفر ٩١٨هـ/ ٢٥ نيسان ١٥١٢م**» ولقد انشغل السلطان سليم الأول بمحاربة أخوته وقضى عليهم وعلى كل أبنائهم[1] وفي عهده أصبحت القسطنطينية مقراً للخلافة الإسلامية.

السجل الأسود :

يهودية تدخل البلاط العثماني وتغير مجرى التاريخ :

تم إهداء السلطان سليمان القانوني فتاة يهودية روسية اسمها «**روكسلان**»، كانت قد أسرت فى إحدى غزواته، ولشدة جمالها افتتن بها القانونى فاتخذها زوجة له وسماها «**خرم سلطان**»، وبفضل نفوذها في القصر زوجت ابنتها مهرماه من الكرواتي رستم باشا، وتمكنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وتم تنصيب صهرها رستم باشا مكانه، وتمكنت بفضل مساعدته في أن توقع ولي العهد، الابن الأكبر لسليمان القانونى «**مصطفى**» في مكيدة جعلت والده يقدم على خنقه بواسطة بعض الحجاب في ١٢من شوال ٩٦٠ هـ / ٢١ من سبتمبر ١٥٥٣م، فاستشهد ـ رحمه الله ـ تعالى نتيجة لدسيسة «**روكسلان**» بواسطة صهرها رستم باشا «**الصدر الأعظم**» الذى أرسل تقريراً للسلطان يتهم فيه ولي العهد مصطفى بتدبير مؤامرة مع الانكشارية للإطاحة بوالده وبذلك تمكنت من جعل ولاية العهد لابنها سليم، الذي عرف فيما بعد بالسلطان سليم خان الثاني، وتمكنت أيضاً من قتل ابن مصطفى وهو طفل رضيع.

وبالرغم من احتجاج الانكشارية على رستم باشا، وإرغام السلطان على عزله وتعيين الوزير أحمد باشا مكانه، إلا أن زوجته اليهودية استطاعت قتله وإعادة صهرها لمكانه، ثم أعقب السلطان سليمان القانوني فعلته الشنعاء بقتل ابنه الثاني بايزيد وأولاده الخمسة ـ وذلك بدسيسة من سليم ابن روكسلان ومع وصول السلطان سليم خان الثاني للسلطة بدأت الدولة العثمانية، بالتقهقر والانحطاط [2].

وفي أواخر عهد سليمان القانوني أصبحت الانكشارية تخرج بغير قيادة السلطان، وكانَ

---

(١) تاريخ الدولة العلية ـ ص ٧٣ .

(٢) راجع: مصطفى طوران ـ أسرار الانقلاب العثماني، ترجمة كمال خوم ـ المرجع السابق ـ ص٦ .

هذا للمرة الأولى، اضمحل جهده العسكري تماماً، وتخلف السلطان عن حضور جلسة ديوان الوزراء وترك ذلك للصدر الأعظم.. وتحولت السلطة إلى غير الجنس العثماني، وباتت في أيدى أناس أسلموا ظاهرياً وهم من النصارى أو من غلمان السلاطين .

السلطان سليم خان الثانى «١٥٦٦ ـ ١٥٧٤»:

فى عهده بدأت الدولة العثمانية بالتراجع، وبدأ بتوقيع المعاهدات والمهادنات، وبدأت الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية، وأصبحت فرنسا ملكة التجارة في البحر المتوسط، ونتيجة للمعاهدات التى تم عقدها مع الدولة العلية، تم إرسال عدة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة التى يوجد بها مسيحيون ـ خصوصاً في بلاد الشام ـ لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا، وكانت هذه الامتيازات الموجبة لضعف الدولة بسبب تدخل القناصل في الإجراءات الداخلية بدعوى رفع المظالم عن المسيحيين، واتخاذها لها سبيلاً لامتداد نفوذها بين رعايا الدولة المسيحيين.

وهذه الإرساليات تمكنت من حفظ هوية هؤلاء ومساعدتهم على الاستقلال فيما بعد.

وفي عهده تمكن الفرنجة من إحراز أكبر انتصار عرفوه على الدولة العثمانية وأسروا ١٣٠ سفينة عثمانية، وأحرقوا وأغرقوا ٩٤، وغنموا ٣٠٠ مدفعاً و٣٠ ألف أسير، وفى عهده أيضا أفرط الإنكشارية فى شرب الخمور.

السلطان مراد خان الثالث: «٩٨٢ ـ ١٠٠٣ / ١٥٧٤ ـ ١٥٩٦»:

تزوج من جارية من البندقية اسمها «**بافو**» سباها قراصنة البحر وبيعت في السراى السلطانية، ولقد تدخلت كثيراً في السياسة وساعدت بلادها كثيراً وهي والدة السلطان محمد الثالث[١].

السلطان محمد الثالث: «١٠٠٣ ـ ١٠١٢ / ١٥٩٦ ـ١٦٠٣»:

هو ابن الإيطالية الأصل «**بافو**» ولما مات والده كان له تسعة عشر أخاً غير الأخوات، فأمر بخنقهم قبل دفن أبيه، ودفنوا معاً تجاه أياصوفيا، ومع أنه أنجز انتصارات عسكرية

---

(١) مرجع سابق ـ أسرار الانقلاب ـ ص ١١٧.

باهرة إلا أن الفوضى دبت في البلاد، وكانت وفاته عن سبعٍ وثلاثين سنة ـ وحكم تسع سنوات.

العبث فى استعمال الوراثة:

السلطان أحمد خان الأول «١٠١٢ ـ ١٠٢٦ هـ»:

تولى الحكم وعمره أربع عشرة سنة، ومن محاسنه أنه لم يأمر بقتل أخيه مصطفى بل أمر بحجزه، وفي عهده ازدادت الاضطرابات وأرغمه الانكشارية على إلغاء فتوى المفتى التى منعت إدخال الدخان إلى الدولة، ووافق على إباحته، مات عن ٢٨ سنة، وأوصى بالملك مِنْ بعده لأخيه بسبب صغر سن ابنه الأكبر.

السلطان مصطفى خان الأول «١٠٢٦ - ١٠٢٧هـ / ١٦١٧ - ١٦١٨»

تولى السلطة ثلاثة أشهر فقط ولم يتعاط أشغالاً مطلقاً، ولم يعلم من أمور المملكة شيئاً، كما كانت عادة ملوك بنى عثمان، وهي أن كل سلطان يتولى يأمر بقتل أخوته أو يحجزهم في السراي[1].. عزله المفتي بمساعدة الانكشارية.

السلطان عثمان خان الثاني خلعه ثم قتله: «١٠٢٧-١٠٣١/ ١٦١٨-١٦٢٢»

ولد عام ١٠١٣ هـ وتولى السلطة عام ١٠٢٨ هـ أي أن عمره كان خمس عشرة سنة وبالرغم من صغر سنه، فقد حاول ضم بولونيا إلى مملكته العلية، ولما فشل جيشه بذلك بسبب مصالحة الانكشارية للبولونيين، حاول أن يحشد جيشاً جديداً، فعزلته الانكشارية، وأعادوا السلطان مصطفي الأول ثم قتلوه بطريقة مشينة ومستقبحة في عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م بعدما حكم أرْبع سنوات وأربعة أشهر.

ولقد حاول في حياته الحد من صلاحية المفتى في عزل السلطان.

السلطان ألعوبة بيد الانكشارية :

لقد تحولت الانكشارية إلى سلطة فعلية، لكن بفوضى وعدم تنظيم، وبات حال السلطان العثماني كحال خلفاء بنى العباسى في آخر أيامهم على أيدى الترك.

---

(١) محمد فريد علي المحامي . تاريخ الدولة العلية ـ ص ١٢٢ - ١٢٣.

وعلى أثر اضطرابات مروعة في عهد السلطان مصطفى الأول، وكان ضعيفاً للغاية تم خلعه، وولوا مكانه ابن السلطان أحمد الأول بن السلطان محمد الثالث سنة ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢م، ولقد كان تحت رحمة الانكشارية أيضاً وبقى الحال كذلك عشر سنوات، وكي لا نطيل البحث، فإنه من المفيد قراءة الصفحات الأخيرة من أيام الأمويين ثم الأكثر فالأكثر من أيام العباسيين ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ (١).

كما أن شاه العجم قد أنهك الدولة العلية في حربه المستمرة، غير أن السلطان مراد الرابع أعاد في آخر أيامه هيبة الدولة العلية، لكن المنية وافته وهو في الواحد والثلاثين من عمره، وليس له أولاد، فتولى مكانه أخوه إبراهيم الذى أبلى بلاء حسناً في فتح جزيرة كريت معيداً ما فعله المعتصم في فتح عمورية، غير أن تحالف المفتى عبد الرحيم أفندى والانكشارية قَرَّرَ خلعه وتولية ابنه مكانه وهو لم يتم السابعة من عمره، ثم أعادوا إبراهيم للسلطة إلا أنهم خافوا من انتقامه فقتلوه في ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م عن عمر ٣٤ سنة، وبسبب طفولة السلطان الجديد محمد الرابع عادت الفوضى سيرتها الأولى قبل استرداد مراد الرابع لهيبة الدولة، وأخذ الأعداء يسقطون بلاد المسلمين الواحدة تلو الأخرى.. حتى تولى الوزير محمد باشا منصب الصدر الأعظم، فتمكن من إعادة الهدوء والأمن للبلاد ثم خلفه في ذلك ابنه أحمد باشا، وعند عودة الفوضى إلى الدولة بعد الهزائم التى حلت بجيشها، قرر العلماء مع الوزير الثاني عزل السلطان محمد الرابع ١٠٩٩هـ/ ١٦٨٧م بعد حكمه الذى استمر أربعين سنة وخمسة أشهر، وولوا بعده أخاه سليمان خان الثاني الذى خلفه أخوه أحمد خان الثانى لأنه مات بلا عقب(٢).

هذه لمحات أساسية من طبيعة نظام الحكم في الدولة العثمانية، وبسبب انعدام وجود المؤسسة السياسية التى تدير الدولة، وتحول دون التأثير السلبى للسلطان، إن كان ضعيفاً، ودون استبداده إن كان ظالماً، ودون تخلف الدولة إن كان جاهلاً، وتعمل على تأمين تجددها باضطراد، وإسباغ حياة الشباب الدائم عليها بفضل ما يفيض من عبقرية وخبرة

(١) آل عمران: ١٤٠.

(٢) راجع محمد فريد بن المحامي - المرجع السابق ص ١٣٩ - ١٤٠.

أعضاء المؤسسة الذين يتم اختيارهم من أصحاب الكفاءات العالية والصفات المميزة.

إن عدم وجود هذه المؤسسة ربط حياة الدولة التى يرث الحكم فيها الابن عن أبيه بشكل تلقائي، بحياة الأسرة الذى ألمح إليه ابن خلدون في سفره القيم «**المقدمة**».
إن جعل السلطة بيد حاكم فرد دون تشكيل مجلس للشورى يعينه في تصريف شؤون الدولة والتخطيط لما يجب أن يكون، يؤدى بالدولة إلى الانحطاط والانحدار، وينطبق ذلك على الحكم بالوراثة أو بالاختيار، طالما تم تغييب المؤسسة السياسية التى ترفد الدولة بكل الطاقات والإمكانيات.

مؤامرة على الأمة :

عندما اقتنع السلطان عبد العزيز خان ـ رحمهُ الله تعالى ـ[1] بأن تحالفات الدول الأوربية مع الدولة العلية لم تؤدِ إلا إلى إضعافها بسبب التدخل في شؤونها الداخلية، ومساعدة الطوائف المسيحية الخاضعة لها على الانشقاق عنها، وبث الروح الطائفية والفتن، كما حصل في البلاد والولايات الشرقية للدولة العلية، عندما علم السلطان بذلك وغير من توجه الدولة وأراد التفاهم مع روسيا المستفيد الأول من الاضطرابات، ثارت عند ذلك ثائرة الدول الأوربية وخاصة إنجلترا التى راحت تبث عبر سفرائها وعملائها السريين الوساوس في عقول السذج من أهل الأستانة بأن السلطان مبذر ومسرف، حتى اقتنع الوزراء بوجوب عزله، والجدير بالذكر أن علماء المسلمين في داخل الدولة هم الذين كانوا أكثر استجابة لتلك الحملة الإنجليزية والأوربية ضد السلطان فأصدر شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى فتوى بوجوب خلعه بناء على الإيحاء الوارد في السؤال: «**إذا كان الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له إلمام في الأمور السياسية، ومابرح ينفق الأموال الأميرية في مصاريفه بدرجة لا طاقة للملك والملة على تحملها، وقد أخَلَّ بالأمور الدينية والدنيوية وشوشها وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضراً بها فهل يصح خلعه؟**

وكان جواب شيخ الإسلام: يصح، ووقع الفتوى كما يلى «كتبه الفقير حسن خيرالله»

---

(١) السلطان عبد العزيز خان شقيق السلطان عبد المجيد خان ولد في ١٤ شعبان ١٢٤٥هـ / ٩ فبراير ١٨٣٠م، وتقلد السيف السلطانى في ١٨ من ذي الحجة ١٢٧٧هـ / ٢٦ من يونيو ١٨٦١.

كان ذلك في يوم ٦ جمادى الأول ١٢٩٣ / ٢٩ مايو ١٨٧٦م[١] هذه هي فتوى شيخ الإسلام، بينما حقيقة الأمر تفيد بأن المؤامرة دبرت بإيحاء أوربي بريطاني، وعمل على تنفيذها الصدر الأعظم، وناظر الحربية، وناظر البحرية أحمد مدحت، وبطريقة انقلابية تمت محاصرة قصر السلطان واحتجازه، ثم البيعة لمراد خان الخامس بن السلطان عبد المجيد، وبعدها تم إبلاغ السلطان المخلوع بالخبر فاستسلم للأمر الواقع، ولقد أيد جميع القناصل الأوربيين ما حصل، إن الفتوى التى صدرت عن شيخ الإسلام حسن خير الله أفندى إنما صدرت عن نص أرسطى الأسلوب، مقدماته تحتم نتائجه، لكن هل تلك الصورة التى صورها النص هي من نسج أعداء الدولة العلية، أم أنها من ملاحظات واستنتاجات سماحته الدقيقة؟

إن النتائج التى آلت إليها الدولة العلية تثبت خطأ ما ذهب إليه السادة العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام، وأن فتواه لم تكن إلا جِسْراً لعبور الدول الأوربية إلى العالم الإسلامي واحتلاله والقضاء على كيانه، والدليل على عدم صدق نص الفتوى ما حصل عقب خلع السلطان عبد العزيز من سفك دماء في داخل القصر، حيث قتل حسين عونى، الذي أنيط به تنفيذ مهمة الخلع، وكذلك محمد راشد باشا ناظر الخارجية، وأحمد باشا قيصرلي ناظر البحرية ومدحت باشا...

وبعد ثلاثة أشهر تصدر الفتوى من شيخ الإسلام والعلماء بخلع السلطان مراد

---

(١) راجع محمد فريد بن المحامى ـ تاريخ الدولة العلية ٣١٩ ـ ٣٢٠ لقد أفاد المتآمرون من حضور السلطان لمسرحيات راقصة في فرنسا، فأوغروا صدر العلماء عليه، وحدث ما كان .. وبعد خلعه مات في ظروف غامضة، وبالرغم من ترويج أجهزة الإعلام «الصحف يومها» إلى أنه أصيب بالجنون بعد خلعه، غير أن هذا غير مؤكد، ذلك أن الرسالة التى كتبها قبل يوم واحد من موته تؤكد عدم صحة جنونه، ولقد أرسلها إلى السلطان الجديد «بعد اتكالى على الله تعالى وجهت اتكالي عليك فأهنئك بجلوسك على تخت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أنى لم أقدر على أن أحترم الأمة حسب مرادها، فأؤمل أنك أنت الذى تبلغ هذا الأرب وأنك لا تنسى أنى تشبثت بالوسائل الفعالة لصيانة المملكة وحفظ شرفها، وأوصيك أن تتذكر أن من صيرنى إلى هذه الحالة هم العساكر الذين سلحتهم أنا بيدى وحيث كان من دأبى دائما الرفق بالمظلوم وشملهم بالمعروف الذى تقتضيه الإنسانية أرغب إليك أن تنقذنى من هذا المكان الضيق المعنيَّ «بتشديد النون» الذى صرت إليه وتعين لي محلاً أكثر ملاءمة لى وأهنئك بأن الملك انتقل إلى ذرية أخي عبدالمجيد خان. الإمضاء/ عبد العزيز«المرجع السابق ص٣٢٢».

الخامس وكان السؤال «**إذا جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟** «**الجواب**»: يصح والله أعلم «**كتبه الفقير حسن خير الله عفي عنه**».

مع العلم بأن السلطان مراد كان معروفاً بحبه للإصلاح والمساواة، وكان متعلماً ومهذباً ومحباً للشرع والحرية، غير أن حالته الصحية تغيرت بعد أسبوع من ولايته، ثم حصول المجزرة التى قتل فيها الذين أوصلوه إلى العرش..والطبيب الذى حكم بعدم لياقته هو النمساوى ليدزورف[١].

فماذا حصل لهذا السلطان الطيب، الذى طلب شقيقه عبد الحميد عندما عرضوا عليه السلطة التمهل وعدم التسرع لعل الله ـ تعالى ـ يعيد له عافيته؟

فماذا كان يحدث في رأس سلطة الدولة العلية؟

إن المعلوم هو أن الصخرة الثابتة بدأت تتحرك.. وكرة الثلج الصغيرة بدأت تتدحرج..

السلطان عبد الحميد الثاني:

لقد تولى السلطان عبد الحميد الثاني الخلافة في ١٨من شعبان ١٢٩٣ هـ/ ٦من أيلول ١٨٧٦م، وتقلد سيف السلطة باحتفال لم يُشهد له مثيل.

لقد أراد السلطان عبد الحميد الثاني ـ رحمهُ الله ـ تعالى إعادة الخلافة إلى مكانتها اللائقة، وكان يبغى استعادة ثقة المسلمين بدولتهم وتثبيت حكمها بين الأمم[٢] وفى آخر أيامه تم ربط مكة المكرمة بكامل بلدان العالم الإسلامي بواسطة سكة حديد الحجاز التي بدأ العمل فيها ربيع ١٩٠١ وانتهى خريف ١٩٠٨[٣] وحاول إيجاد مؤسسة تدير الخلافة ففى نوفمبر ١٨٧٩ أمر بتنظيم مجلس عمومى «**البرلمان**»، يكون مِنْ مجلسين ينتخب أحدهما من الأهالي «**مجلس المبعوثان**» وآخر يعين من الدولة «**مجلس الأعيان**»، وعزم على تطبيق الشورى في

---

(١) انظر: جورج أنطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين ـ بيروت ط ٧ سنة ١٩٨٢ ص ١٢٨.
انظر: محمد فريد بك المحامي ـ تاريخ الدولة العلية – ص ٣٢٥ – ٣٢٦ .
انظر: الأميرة عائشة عثمان أوغلى، والدة السلطان عبد الحميد ص١٤.
(٢) راجع: جورج أنطونيوس ـ المرجع السابق ـ ص١٣٧ – ١٣٨.
(٣) المرجع نفسه ص ١٤٢ .

الحكم، وفي هذه الأثناء كانت كرة الثلج تكبر وتكبر، وازداد النفوذ الأوربي، واشتد عَضُدُ غير المسلمين في أرجاء الدولة العلية، وبدأت القوميات في الانتعاش، وبدأ النواب المسيحيون يتحدون النواب المسلمين في المجالس، وكان المجتمع الإسلامي يعانى من نقص كبير في عدد المثقفين؛ لذلك كان لا بد من إنشاء المعاهد والكليات لتحديث الدولة، غير أن السلطان كان يدرك أن المناطق ذات الأكثرية المسيحية ستخرج عن سلطة الدولة، وكان يعد نفسه لذلك، غير أن قدرة الأوربيين كانت أقوى من كل محاولة من جانب السلطان عبد الحميد الثاني لإعادة الحياة إلى الدولة العلية.. وبدأت الأحداث والمناوشات، وأخذت جمعية الاتحاد والترقى تقبض على زمام المبادرة داخل الجيش عبر عملية تسلل مخططة ومدروسة، ساهم فيها اليهود مساهمة قوية[١].

يقول زين نور الدين زين عن المخطط الذى تم إعداده لتدمير الدولة العلية: «..**ولم يكن هنالك من قاسم مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى (العروبة)، فالعروبة كشعار كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية.. وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية الثورية السرية أن السبيل الوحيد للتحرر من الحكم التركي.. هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة وتستطيع أن تقف في وجه الأتراك، ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى، هي إدخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت ..**».

وكانوا يأملون في استمالة المسلمين بعد انضمامهم للمحافل الماسونية، لينضموا إلى الجمعية الثورية السرية.. هكذا كان[٢] .. وفي أفضل دراسة وثقت لعهد السلطان عبد الحميد الثاني ودور جمعية الاتحاد والترقي يقول المؤرخ حسان حلاق: «**وبواسطة المحافل الماسونية تمكن ضباط الاتحاد والترقي من التحرك بفعالية أكثر لأن وجودها في سلانيك كان يضمن لها الحماية الدولية على اعتبار أنها إحدى الولايات الثلاث الخاضعة للمراقبة الدولية**[٣].

(١) انظر: المرجع السابق - ص١٤ - ٣٨.
(٢) راجع: زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية - دار النهار - بيروت ط٣ سنة ١٩٧٩ - ص٦١ .
(٣) من أجل ذلك نسمع دائما بالرغبة الأوربية في تدويل أماكن المسلمين المقدسة مثل القدس.

وعلى هذا يمكن أن نستخلص من دراسة الوثائق التي بين أيدينا أن ثورة الاتحاد والترقى هي ثورة يهودية - دولية قبل أن تكون ثورة تركية أو عثمانية، لأن لجنة سالانيك الاتحادية تكونت تحت رعاية ماسونية دولية وبتأييد من اليهود ويهود الدونمة والجيش الزاحف باتجاه العاصمة كان بقيادة رمزى بيه وهو أحد يهود الدونمة»[١].

ويقول السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله تعالى - فى مذكراته: «**علينا أن نعترف - وبكل أسف - بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وظهر في سورية بوادر تحرك مماثل**»[٢].

فتوى شيخ الإسلام تقضى على دولة الإسلام:

يجب ألا يكون مستغرباً إذا تم فتح ملفات التاريخ الإسلامي وخصوصاً ما نحن بصدد بحثه وهو تاريخ الدولة الإسلامية، فإن ذلك قد يكون ثقيلا على السمع عسيراً على الجوارح أن تتقبل هذا الأسلوب، غير أنها هى الحقيقة وعبثاً تحاول أمة أن تصحح مسرى حياتها إذا لم يكن أهلها على بينة من أمرهم.

وكل إنسان يؤخذ منه ويرَدُّ عليه إلا صاحب هذا القبر، قبر محمد ﷺ كما قال الإمام مالك - رحمه الله.

وبينما مسرى الدولة الإسلامية في العصر العثماني يقترب من نهاية السقوط والانحدار، كانت المشاكل تتفاقم والتدخلات الأجنبية تزداد.. وكرة الثلج تتحرك...قالوا، وأفتى بذلك شيخ الإسلام، أن السلطان عبد العزيز مبذر ومختل العقل عندما فكر في الحد من تدخلات الدول الأوربية بشأن الدولة العلية، بينما السلطان عبد الحميد الثاني - رحمه الله تعالى - كان يقول عنه عكس ذلك - ويقول بأن الأوراق التى نسبوها إليه مزورة بينما الوصية الحقيقية لم يعثر عليها حتى زمانه، وأنه متأكد من سلامة مسيرته والقواعد التى كان يرتكز عليها[٣].

---

(١) راجع: حسان حلاق، مرجع سابق ص٣٤٤ - ٣٤٥.
(٢) السلطان عبدالحميد الثاني - مذكراتى السياسية - مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م - ص ١٧٧.
(٣) السلطان عبدالحميد الثاني ، مذكراتي السياسية - ص ١١٤ - ١١٥.

ثم جاء دور السلطان عبد الحميد الثاني، وبعد الفتن والمجازر التى افتعلتها عصابات الاتحاد والترقى، رأت هذه الجمعية أنه يجب إلقاء المسؤولية على السلطان، وبالتالى يجب خلعه، مع أن السلطان لم يكن له يد في تلك الأحداث من قريب أو بعيد .

غير أنه ليس بمقدور الاتحاد والترقى خلع السلطان بدون فتوى شرعية، فاستفتوا أوَّلاً أحد النواب المعممين من مجلس المبعوثان، وهو شاب يدعى ألمالى حمدى أفندى، وكان من نتيجة ذلك أن قرر المجلس الوطني العام، بناء على فتوى موقعة أيضا من شيخ الإسلام محمد ضيا أفندي، خلع السلطان وتولية ولي العهد محمد رشاد أفندى مقامي السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية باسم السلطان محمد الخامس[١] .

حصل ذلك والدولة على أبواب الحرب العالمية الأولى.. والدولة أمامَ استحقاق مميت.

إلغاء الخلافة فى آذار ١٩٢٤ :

بأكثر من ألف طريقة وطريقة تم تصنيع مصطفى كمال بطلاً أسطورياً وذلك من خلال انتصاره في بعض معارك الحرب العالمية الأولى ضد الجيش الإنجليزي، ثم بعد ذلك أخذ يتحدث عن ضرورة الانسحاب من الحلف مع الألمان وأن المصلحة تقضى بمصالحة الإنجليز.

وبعد أن عزم على إلغاء الخلافة، وتحويل تركيا إلى بلد جمهورى، قامت في وجهه عاصفة المعارضة، فلجأ الإنجليز إلى طريقة في منتهى الدهاء، إذ رفعت بريطانيا «**أغا خان**» زعيم الطائفة الإسماعيلية في الهند ومعه أمير علي كي يرفعا خطاب احتجاج باسم مسلمي الهند يطالبان فيه باحترام مقام الخليفة، فأفاد مصطفى كمال من ذلك، وراح يشرح تاريخ «**أغا خان**» السيئ وعلاقته بالإنجليز، وأنه يعيش في إنجلترا ثم أخذ يثير حماس المجلس الوطنى ضد الخليفة ورجال الدين، وأصدروا قراراً يقضى بالموت على كل من يتعاطف مع السلطان ـ وعندما تحدث بعض النواب عن فائدة الخلافة لتركيا من الوجهة الدبلوماسية خطب مصطفى كمال وقال: «**أليس من أجل الخلافة والإسلام ورجال الدين قاتل**

---

(١) راجع الأميرة عائشة عثمان أوغلي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٨ .

القرويون الأتراك، وماتوا طيلة خمسة قرون؟

لقد آن الأوان لتنظر تركيا إلى مصالحها، وتتجاهل الهنود، والعرب وتنقذ نفسها من تزعم الدول الإسلامية[١].

على إثر إفادته من خطاب أغا خان، استصدر يوم ٣ آذار ١٩٢٤ قراراً من الجمعية الوطنية بإلغاء الخلافة، وفي منتصف الليل جاءت سيارة إلى قصر يلدز بصحبة حامية من رجال البوليس والجيش فحملت السلطان عبد الحميد في ثياب نومه ومعه جميع أفراد آل عثمان وآخرجوهم خارج الحدود.

ومع خروج آل عثمان من بلادهم وتشردهم في الأرض أسدل الستار على تاريخ أسرة عظيمة خدمت الإسلام في كثير من الأوقات ورفعت رايته في كثير من البلدان..وبدأ عهد النموذج الأول - الرجل والتجربة - الذي أقامه الغرب مثالاً تحتذيه دول الشرق الإسلامي[٢] والإجراءات التى اتخذها مصطفى كمال هي:

١ - فصل الدين عن الدولة واعتماد القانون المدنى السويسرى وقانون العقوبات الإيطالى، والقانون التجاري الألماني بدلاً من الشريعة الإسلامية.

٢ - إلغاء الحروف العربية، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية وتصفية اللغة التركية من الكلمات العربية.

٣ - الأذان باللغة التركية وكذلك ترجم القرآن لهذه اللغة.

٤ - الأحد عطلة أسبوعية بدلا من يوم الجمعة.

٥ - إلغاء الطربوش وحجاب المرأة المسلمة.

٦ - إلغاء وزارة الأوقاف والمدارس الدينية.

٧ - إحلال التقويم الأوربي محل التقويم الهجري الإسلامي.

---

(١) انظر: عبد القديم زلوم، كيف هدمت الخلافة - دار الأمة للطباعة والنشر - بيروت - ط٣/ ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م - ص ١٨٤ - ١٨٦.

(٢) انظر: مصطفى العثمان - الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ط١ - ألمانيا الغربية سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م - ص٩٨ - ١٠٠.

٨ ـ قبول نظم الحضارة الغربية بلا تحفظ.

٩ ـ الاتجاه كليا نحو أوربا والانفصال عن العالم الإسلامي.

١٠ ـ إلغاء الخلافة.

١١ ـ طرد آل عثمان من تركيا.

ولقد سقط أكثر من نصف مليون شهيد في معارضة أتاتورك في هدم الخلافة، وتم تشكيل محاكم ثورية شعبية متنقلة تقوم بإعدام المعارضين في محاكمات هزلية صورية[١].

*****

(١) مصطفى محمد طحان ـ القومية بين النظرية والتطبيق ـ دار الوثائق الكويت ـ ط ١ سنة ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م ـ ص٣٠٢ ـ ٣٠٤.

خلاصة الفصل الأول
المبحث الرابع
النظرية السياسية فى الإسلام
«الخلافـة»

مقدمة:

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الشريفة تعريف جامع مانع لشكل النظام السياسي الإسلامي، إنما أساس هذا النظام هو الشورى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾[١].

إن هذا التعبير يجعل أمرهم كله شورى، والأمر من الإمارة كما سلف، وذلك كي يصبغ الحياة كلها بهذه الصبغة، والوصف هنا هو للأنصار الذين استجابوا إلى الإيمان بالله ـ تعالى ـ حين أنفذ الرسول ﷺ اثنى عشر نقيباً منهم قبل الهجرة، فإن سمة تدبر أمورهم السياسية الشورى «**فكانت الأنصار قبل قدوم النبى ﷺ إليهم إذا أرادوا أمراً تشاوروا فيه ثم عملوا عليه، فمدحهم الله ـ تعالى ـ به.. وقال الحسن: أي: أنهم لانقيادهم إلى الرأي فى أمورهم متفقون لا يختلفون، سبب ذلك أنه: «ما تشاور قوم قط إلا هُدوا لأرشد أمورهم**»[٢] ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،فتصبح الشورى أمراً لكافة المؤمنين وليس للأنصار فقط.

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى: «**ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكراً، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها، إنه طابع ذاتى للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية وهي من ألزم صفات القيادة**».

وأما عن الشكل الذى تتم به الشورى فقد قال عنه: «**أنه ليس مصبوباً فى قالب حديدى، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية، والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية،**

(١) الشورى: ٣٨.

(٢) تفسير القرطبى ١٦/ ٣٦، ٣٧، دار الكاتب العربي ـ القاهرة ـ ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

إنما هي قبل كل شيء روح تنشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة»[١].

لكن الهدف محدد، ولا يجوز على الإطلاق التخلي عنه، أو التنكب عن أية طريقة موصلة إليه، إنه وجوب الحصول على أرشد آراء أهل الجماعة المسلمة ـ إنها المسؤولية الكبرى التى إن لم تحصن وتؤدَ بأمانة، فإن مآل أهلها إلى الفشل والخسران المبين.

وعندما تتوفر القيادة الحكيمة العالمة التى تسوس الأمة بشرع الله عز وجل، مؤمنة كل الأسباب العقلية التى تنسج المجتمع، فتحيله إلى مجموعة متناسقة ومتوافقة، مطمئنة القلب، تسير على هدى من أمرها، فإن هذه القيادة تفضى بهم إلى السعادة في آخرتهم أيضاً، فشرع الله مالك الملك ينفع في الحياة الدنيا وفي الآخرة[٢]، وأما القيادة التى تكون بمقتضى القهر والتغلب وإهمال القوة العصبية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عنده «**أى عند الله تعالى**» كما هو مقتضى الحكمة السياسية، والله ـ سبحانه ـ هو الأعلم «**بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم**».

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾[٣].

وهذا يقودنا إلى وجوب معرفة معنى الخلافة.

الخلافة[٤]:

يقول الماوردى: إنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا[٥].

ويعرف ابن خلدون هذا المصطلح السياسي بأنه «**حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها**»[٦] وبذلك تكون الخلافة قد جمعت بين النظر العقلى في تطبيق الشرع وحمل الناس في مصالحهم على أساس شرعى، فأبعدت

---

(١) في ظلال القرآن ٢٥/ ٤٦، ٤٧، الطبعة الخامسة، ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م.
(٢) الاقتباس من «ابن خلدون ـ المقدمة، ص ١٩٠ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٩ والآية من سورة النور: ٤٠ .
(٤) مصطلح الخلافة ـ هو ذاته مصطلح الإمارة أو الإمامة .
(٥) الأحكام السلطانية، الماوردى ص٥، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٧١.

الشهوة، وقربت المصلحة التى تجمع ما بين سعادتَىْ الدنيا والآخرة.

وجوب الخلافة :

جاء في كتاب الخلافة للشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى: «**أجمع سلف الأمة ، وأهل السنة، وجمهور الطوائف الأخرى على أن تنصيب الإمام أى توليه على الأمة واجب على المسلمين شرعاً و عقلاً**» ونقل عن متن كتاب مقاصد الطالبين لسعد التفتازانيمبررات وجوبها بـ:

الأول: الإجماع، هو إجماع الصحابة حتى أنهم قدموا اختيار الخليفة على دفن النبى ﷺ .

الثاني: أنه لا يتم إلا به ما وجب من إقامة الحدود وسد الثغور ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام .

الثالث: أن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تحصى، وذلك واجب إجماعاً.

الرابع: وجوب طاعته ومعرفته بالكتاب والسنة يقتضي وجوب حصوله وذلك قبل تنصيبه.

ويخرج محمد رشيد رضا إلى أن المعرفة بالكتاب والسنة هي من أهم الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى أمر الأمة[١] .

إن الخطبة التى ألقاها الخليفة الأول ، أبو بكر رضي الله عنه تؤكد إجماع الصحابة على وجوب إقامتها: «**إن محمداً قد مضى بسبيله، ولا بُدَّ لهذا الأمر من قائم يقوم به**» وفي هذا دلالة على إجماعهم عن بكرة أبيهم، والإجماع على هذا الوجه دلالة على وجوب الخلافة[٢] والقرآن الكريم بين أن التفويض هو لولى الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[٣] وكذلك فإن الرسول ﷺ ألزم المسلمين بالتزام الجماعة وإمامهم، وفي حديث رواه مسلم: «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[٤] .

---

(١) الخلافة، الشيخ محمد رشيد رضا، ص١٠، ١١، المنار ـ مصر ـ ١٣٤١ هـ.

(٢) نظام الحكم الإسلام مقارنة بالنظم المعاصرة ، ص٥٨، ٥٩، دار الفكر القاهرة الطبعة الثانية، ١٩٧٣م .

(٣) سورة النساء ٥٩ .

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥١).

كيف تنعقـد الإمارة :

إن انعقاد الإمارة «**هو فَرْض كفاية**» وراجع إلى اختيار أهل الحل والعقد الذين يتعين عليهم تنصيبه، وبعد ذلك يجب على الخلق جميعاً طاعته[١].

يقول الماوردى: والإمامة تنعقد من وجهين: أحدهما: باختيار أهل العقد والحل. والثاني: بعهد الإمام من قبل[٢].

وعن المبررات الشرعية لحكم العهد يقول: «**وأما انعقاد الإمامة بعهد من قبله فهو مما انعقد الإجماع على جوازه ووقع الاتفاق على صحته لأمرين عمل المسلمون بهما ولم ينكروهما، أحدهما: أن أبا بكر رضي الله عنه عهد إلى عمر رضي الله عنه فأثبت المسلمون إمامته بعهده، والثاني: أن عمر رضي الله عنه عهد بها إلى أهل الشورى فقبلت الجماعة دخولهم فيها وهم أعيان العصر اعتقاداً لصحة العهد بها**»[٣].

ويقول أبو يعلى الفراء الحنبلى: «**ويجوز للإمام أن يعهد إلى إمام من بعده، ولا يحتاج إلى شهادة أهل الحل والعقد..**» ويقول: «**ويجوز أن يعهد إلى من ينتسب إلى شهادة أهل الحل والعقد..**» ويقول: «**ويجوز أن يعهد إلى من ينتسب إليه بأبوة أو بنوة، إذا كان المعهود له على صفات الأئمة، لأن الإمامة لا تنعقد للمعهود إليه بنفس العهد، وإنما تنعقد بعهد المسلمين**» وكأنه يقصد البيعة من المسلمين بعد العهد عقب موت الإمام، ولا يجوز العهد للصغير، حيث إن الشروط يجب أن تكون متوفرة وقت العهد، وإن من حق الخليفة أن يَنُص على أهل الاختيار؛ لأن ذلك من حقوق خلافته[٤] إن النظرية الإسلامية في شأن الحكم لم تقف عند شكل معين من أشكاله فلقد قالوا بالاختيار وبالعهد أي الوصية معاً، وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أكد أنه لا تنعقد بيعة إلا بمشورة من المسلمين، ففى حديث رواه البخاري قال عمر: بلغنى أن قائلاً منكم يقول: والله لو مات عمر لبايعت فلانا فلا يَغْتَرَّنَ امرؤ أن يقول: إن بيعة أبى بكر كانت فلتة فتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك ولكن وقى الله المؤمنين

---

(١) المقدمة، ابن خلدون، ص ١٩٣ .

(٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ـ المرجع السابق ـ ص ٦ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٠ .

(٤) الأحكام السلطانية، أبو يعلى الفراء، ص ٢٦ .

شرها ، وليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر - من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فلا يبايع هو ولا الذي بايعه تغرة أن يقتلا.

ومن خلال رصد شامل للطرق التى اتبعت في انعقاد الخلافة نجدها في غالبها الأعم كانت بالعهد..والمسلمون راضون عن ذلك.

ولقد اشترط الفقهاء شروطاً يجب توافرها في الخليفة، وفقدان أحدها يُخِلُّ بإمامته، وهكذا فقد تساهلوا في الوسائل والأشكال وتشددوا في الصفات التى حصروها بـ:

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة.

٢ ـ العلم المؤدى إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام.

٣ ـ سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح معها مباشرة ما يدرك بها.

٤ ـ سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة وسرعة النهوض.

٥ ـ الرأي المفضى إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح.

٦ ـ الشجاعة.

٧ ـ النسب وهو أَنْ يكون من قريش[١].

ابن تيمية: الولاية للأصلح :

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «**يجب على ولي الأمر أن يولى على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل، قال النبى ﷺ: «من ولى من أمر المسلمين شيئاً فَوَلّىَ رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله**» وفي رواية: «**من قلد رجلاً عملاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة أَرضى منه، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين**»[٢].

(١) الأحكام السلطانية، الماوردى، ص ٦ . وخلاصة مايراه ابن خلدون فى موضوع القرشية : أن هذا الشرط هو من باب المصلحة بسبب ما كانت عليه قريش من قوي، بحيث إن الأمة تجتمع عليهم، وأن الفائدة من النسب هى العصبية، وعندما تذهب الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت الكفاية. المقدمة ص ١٩٤ ـ ص ١٩٥ .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١١٨)، والحاكم فى المستدرك (٧٠٢٣)، وصححه، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (٥٤٠١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**من ولي من أمر المسلمين شيئاً فَوَلّى رجلاً لمودة أو قرابة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**».

وقياساً على واجب الإمام في ولاية الأصلح من المسلمين يُمكن أن يسقط الحكم نفسه على أهل العقد والحل، فهؤلاء أيضاً عليهم أن يولوا الأصلح والشروط التى ذكرت آنفاً كما أوردها الماوردى تؤمن هذا المطلب عند التقيد بها.

وأمور الأمة هي أمانة في أعناق أصحاب القرار فيها، والله ـ تعالى ـ يقول في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[١].

وعكس خيانة الأمانة هو أداؤها على حقها، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «**إن المؤدى للأمانة مع مخالفة هواه يثبته الله فيحفظه في أهله وماله بعده، والمطيع لهواه يعاقبه الله بنقيض قصده فيذل أهله، ويذهب ماله**[٢] **وما حدث لعمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه **مع أبنائه خير شاهد على ذلك حين قال عن أولاده...«وإنما هم أحد رجلين إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله»**.

وعند تعذر وجود الأصلح يتم اختيار الأمثل فالأمثل، والله ـ تعالى ـ يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٣].

وضبطاً للمصلحة فإنه يقدم لإمارة الحروب الرجل القوى الشجاع وإن كان فاجراً، على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً.

وقد قال ﷺ: «**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**» وروى: «**بأقوام لاخَلاقَ لهم**»[٤]، وروى مسلم أن الرسول ﷺ قال لأبى ذر: «**يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أُحِبُّ لَك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين مال يتيم**»[٥].

---

(١) الأنفال: ٢٧ .

(٢) السياسة الشرعية، ص٩، ١١ .

(٣) التغابن: ١٦ .

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥)، وقال الأرناؤوط: «صحيح لغيره».

(٥) أخرجه مسلم (١٨٢٦).

وهكذا نجد التشدد في ضبط المصلحة، دون وضع أُطرٍ محددة لشكل وممارسة الحكم.

يقول الماوردي: «**فإذا اجتمع أهل العقد والحل للاختيار وتصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً، وأكملهم شروطاً، ومن يسرع الناس إلى طاعته ولا يتوقفون عن بيعته، فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره عرضوها عليه**»[1].

ويراعى في الاختيار «ما يوجبه حكم الوقت» فإن كانت الحاجة لقيادة الحروب كان اختيار الأشجع أولى، وإن كانت الحاجة إلى فضل العلم..كان الأعلم أحق[2].

عزل الأمير أو الثورة عليه:

يقول الماوردي «**وإذا قام الإمام بما ذكرنا من حقوق الأمة فقد أدى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله**».

والحقوق الواجبة للأمة على الإمام هي: حفظ الدين وحراسته وإقامة الحدود، ثم تنفيذ الأحكام بين المتخاصمين وإقرار العدل، وحماية التجارة ونشر الأمن في ربوع البلاد، والدفاع ضد كل عدوان خارجي، وجباية الضرائب والصدقات، وإنفاقها على مصارفها، ومن كبرى الواجبات: تقديم الأمناء والنصحاء وتقليدهم أمور الأمة، وعلى الإمام أن يقوم بنفسه بتفحص الأحوال «**لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين ويغش الناصح**».

هذه عناوين رئيسة للحقوق التى لخصها الماوردى، فإذا عجز الإمام عن القيام ببعضها فإن حاله يتغير، فيفقد مبرر وجوده كإمام للأمة «**والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان: أحدهما: جرح في عدالته. والثاني: نقص في بدنه**» والجرح في عدالته يكون باقترافه محظوراً وإقدامه على منكر ينقاد فيه للهوى والشهوة، والأمر الثاني أن يؤول به تفكيره إلى الكفر.

---

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي ، ص ٧

(٢) المرجع نفسه ص ٧ .

وأما النقص في البدن فيخرجه من الإمامة إذا كان يؤثر على مباشرته عمله، مِثل زوال العقل أو ذهاب البصر.

ومن الأمور التى تخرجه من الإمامة: الحجر والقهر، كأن يستبد به بعض أعوانه ويسيطرون على أموره والتصرف بها في معصية، وذلك بالخروج عن حكم الدين ومقتضى العدل، والقهر هو الوقوع بالأسر في أيدى الأعداء، سواء كانوا مشركين أوْ مسلمين، ويعود لإمامته في حالات منها ألا يكون ميؤوساً من خلاصه وفكاكه(١).

والجهة التى تقرر تغير حال الإمام، وإن لم يقل ذلك صراحة الماوردي، هي: أهل العقد والحل، تعقد للإمام وتحله من إمامته، أي: أنها مؤسسة متكاملة تنظر في أمور الخليفة، وفي هذه الحالة فلا مبرر لحديث عن ثورة أو مقاومة ضد رأس الدولة، وهكذا يكون الماوردي رحمه الله ـ تعالى ـ قد سبق أكثر أنظمة العالم انضباطاً ورقياً في إيلاء أمر الأمة إلى مؤسسة سياسية مؤلفة من مجموعة، يحمل الفرد فيها صفات مشابهة إلى تلك التى يجب توافرها في الإمام، كالعدالة الجامعة لشروطها، والعلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحقها على الشروط المعتبرة فيها، والرأي والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وتدبيره للمصالح أقوم وأعرف(٢).

إن دولة تقوم على مثل هذا النظام السياسي من الصعب أنْ تجرى عليها التطورات الطبيعية أو المراحل التى تحدث عنها ابن خلدون في عمر الدولة، لأن أولى النهى، أى أولى العلم والمعرفة سيجددون حياتها المرة تلو الأخرى، وذلك بما يرفدونها به من حصافة الرأى، ونضج الخبرة، وشفافية الرؤية والتوقع، معالجين الحاضر بما يلزم ومعدين للمستقبل ما يستوجب..إلا أن النظرية السياسية عند الماوردي ما زالت في حاجة إلى تحديد الكيفية التى تشكل فيها هذه المؤسسة «**أهل العقد والحل**» وهذا ما يستوجب اجتهاداً، ليس من الصعب استكماله، وعندها يستطيع المتبصر في الأمور أن يأمن إلى حاضر دولته ومستقبلها، وهذا ما يجب التركيز عليه فى محاولة ضمان واقع مستقر ومتقدم في طريق

(١) المرجع نفسه، ص ١٥ ـ ٢٠، بتصرف .
(٢) المرجع السابق ـ ص٦ .

استعادة وجود الدولة الإسلامية، وضمان استمرارها وتقلدها موقعها الطبيعي بين أمم العالم المعاصر .

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾[١].

ولقد ذهب المسلمون مذاهب شتى في شأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ لخصها تحت عنوان «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**»[٢].

وفى هذه المسألة مذهبان[٣]: مذهب الصبر، ومذهب السيف.

حجة المذهب الأول :

احتج هؤلاء بحديث رسول الله ﷺ: أنقاتلهم يا رسول الله؟ قال: «**لا، ما صلوا**»[٤]، وفي بعض الأحاديث «**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان**»[٥].

وفي بعضها: «**فإن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فاطرح ثوبك على وجهك يبوء بإثمك وإثمه**» [٦]، وقال في بعضها: «**كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل**»[٧]، وإخبار القرآن الكريم عن قصة ابنى آدم تؤكد ماذهبوا إليه [٨].

حجة المذهب الثانى:

يُعبر ابن حزم عن هذا المذهب فيقرر أنه لايجب السكوت عن الإمام الذى يأمر بالمعصية «**فمعاذ الله أن يأمر رسول الله ﷺ بالصبر على ذلك**»[٩] ويستشهد بقول الله ـ عز

---

(١) آل عمران: ١١٠ .

(٢)انظر: الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ابن حزم، ٣/ ١٧١ ـ ١٧٦، دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية، سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

(٣) للإمام الشاطبى نظرة خاصة فى كل مذهب، وما ساق من أدلة من الكتاب والسنة والعقل فيقرر فى موافقاته: أنه لا تعارض بين النصوص ، وأن المسألة قائمة على قاعدة المصالح والمفاسد.

(٤) أخرجه مسلم (١٨٥٤).

(٥) أخرجه البخارى (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، وصححه الألبانى.

(٧) أخرجه أحمد (٥/ ١١٠)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح ».

(٨) الفصل فى الأهواء والملل والنحل، ابن حزم.

(٩) الفصل فى الأهواء والملل والنحل، ابن حزم.

وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[١].

ويعتبر أن المظلوم الذى يستطيع أن يرفع الظلم ويرده عن نفسه ولا يفعل فإنما هو معاون لظالمه على الإثم والعدوان، وهذا حرام بنص القرآن.

ويرى ابن حزم بأن مسألة ابني آدم هي شريعة أخرى غير شريعتنا، وأما الأحاديث فقد صح عن رسول الله ﷺ قوله: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[٢]، ويستشهد بقول الرسول ﷺ: «**لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف.. فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة..**»[٣] ثم الحديث: «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعذبكم الله بعذاب من عنده**»[٤].

إن ابن حزم تكلم عن وجوب مقاومة الظلم، وهذا لا خلاف فيه، لكنه لم يضع ضوابط تضمن المصلحة وتبعد المفسدة، فإذا حصل منكر من الإمام، فكيف تتم مقاومته؟ هل يحصل ذلك بعشوائية جماهيرية، أو أن هناك مؤسسة تتولى التصحيح أو تقرر العزل وهي الجهة المخوَّلة بالرقابة والتسديد والعقد والحل..؟

وهنا يُضرب مثل فى إقامة الحدود وهو: هل يجوز لأى فرد من المسلمين أو مجموعة أن تقوم بتنفيذه دون تكليف من الإمام أو الجهة المخوَّلة بحفظ الأمن مفوضة من رأس الدولة؟

إن تنفيذ الحدود لا يكون إلا بوجود الإمام وبأمر من سلطته، والوقوف في وجه الإمام لا يكون إلا لأهل العقد والحل، يسددون له مسيرته أو يحلونه من البيعة إن رأوا لذلك ما يبرره.

إن العشوائية في طرح الأحكام واستصدار الاستنتاجات أوقعت جماهير الأمة المسلمة في حيرة من أمرها، وضيعت عليهم وحدتهم، وأفقدتهم نتائج اجتهاد علمائهم وتركت

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩).

(٣) أخرجه البخارى (٢٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٣٦)، والترمذى (٢١٦٩)، وقال: «حسن»، وحسنه الألبانى.

العوام يهيمون في كل منعطف وواد..

إن النظرية السياسية التى طرحها الماوردي ـ رحمهُ الله تعالى ـ تضمن استقرار الدولة وتحول دون ظلم الإمام، وتبعد العوام عن القيام بردات فعل بحجة الجهاد في وجه السلطان الجائر.

إن كارثة المسلمين في استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه وما أعقب ذلك الحدث من فتن لم يخمد لهيب نيرانها حتى اليوم، إن تلك الكارثة كافية لأن تجعل المسلمين يلتزمون في مؤسستهم السياسية أهل العقد والحل، ويطورونها، ويضعون لها الأطر والتنظيمات التى إن تم الالتزام بها، أَمَّنَتْ لهم حياة فيها من السعادة والاستقرار ما يصعب تصوره.

ثم إن من المنكر أن تترك الفرصة للأفراد كى يقترفوا أعمالاً ما تحت شعار حديث رسول اله ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**» والمقتول دون مظلمته شهيد[١].

فلا بد من قيام المؤسسة السياسية في الدولة بهذه المهمة هذا هو الأولى والأنفع، وإلا فما يدرينا أن يكون الأعداء قد خططوا من وراء ذلك لإيقاع المسلمين في دوامة من الحرب الداخلية؛ وذلك بزرعهم عناصر من الشعْب مظهرة الإسلام أو الغيرة عليه، وهكذا تقع الأمة في دوامة، الحليم فيها حَيران.

إن مسألة الثورة على الإمام تم الاستدلال عليها من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لكن القائمين بها لم يضعوا ضوابط وأُطراً تحول دون الوقوع في الفتنة وسفك الدماء، وهذا ما كان يحصل دائما، لا بل إن ما حصل أكثر من ذلك، فإن ممارسة الثورات كانت دائما وراء تدمير قوة الأمة وإنهاك أهلها.

غير أن الجميع اتفقوا ـ بلا كيف ـ ما عدا الماوردى، وبعض التلميحات عند ابن حزم، على وجوب عزل الإمام المجاهر بالمعصية والذى يحكم بغير حكم الله تعالى، ولم يتفقوا على مصير الإمام الذى يرتكب الفسق ولا يجاهر به أو الإمام الذى لا يعتبر أهلا للخلافة في نظر البعض دون البعض الآخر[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٧٣، والحديث أخرجه البخارى (٢٤٨٠)، ومسلم (١٤١).

(٢) نظام الحكم في الإسلام، محمد فاروق النبهانى، ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

خصوصية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى: إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ،وإنما يقوم به السلطان إذ كانت إقامة الحدود إليه، والتعزير إلى رأيه، والحبس والإطلاق له، والنفى والتغريب، فينصب في كل بلد رجلاً صالحاً قوياً عالماً أميناً ويأمره بذلك..قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾[1].

ويرى في تفسيره لمطلع الآية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾[2] «**أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماءَ**»[3] وأما إجماع المسلمين على إنكار المنكر نزولاً عند حديث رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[4] فهذا أمر يحتاج إلى حكمة وعلم ومعرفة، ولا يجوز أن يتحول إلى حالة مرضية أو إسقاطية، كما يتصرف الكثيرون ممن ابتلوا بالجنوح أو الهوس العقلى، فيتحولون إلى لوامين وزاجرين للآخرين تحت شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، حتى أن العلماء قالوا : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء، وباللسان على العلماء، وبالقلب على الضعفا ء، يعنى عوام الناس[5].

ولقد قال سهل بن عبد الله: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يأتونه، وليس على الناس أن يأمروا السلطان، لأن ذلك لازم له واجب عليه، ولا يأمرون العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم[6].

وإلى هذا يذهب ابن تيمية رحمهُ الله تعالى: «**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإقامة الحدود واجبة على**

(١) تفسير القرطبى ٤/ ٤٧، الآية من سورة الحج :٤١ .
(٢) آل عمران: ١٠٤ .
(٣) تفسير القرطبي ٤/ ١٦٥ .
(٤) أخرجه مسلم (٤٩).
(٥)المرجع نفسه ص ٤٩ .
(٦) المرجع نفسه ٢/ ٧٣ .

ولاة الأمور، وذلك يحصل بالعقوبات على ترك الواجبات وفعل المنكرات»[١].

ويقول ابن خلدون: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو مهمة أو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلا له [٢] [*].

إن مقتضيات البحث تقضى بالتوقف عند هذا الحد في تبيان مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذلك إلى فصل آخر يصار فيه إلى إظهار النتائج التى آلت بالأمة إلى ما يشبه زوال الحال بسبب سوء فهم هذه المسألة وتركها جُرْحاً مفتوحاً، تندس منه جراثيم العابثين والطامحين بلا علم ولا معرفة، وذلك تحت عنوان «**دعاة الإصلاح في قفص الاتهام**» بحيث يتناول تجارب معاصرة أو قريبة من ذلك.

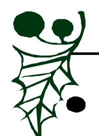
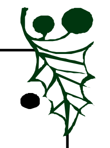
*****

---

(١) الحسبة، ابن تيمية، ص ٢٧.

(٢) المقدمة ، ابن خلدون، ص ٢٢٥ .

(*) إن قضية الاحتساب على الأئمة، ومدى مشروعية عزلهم بالفسق، وبيان مذاهب أهل العلم بالتفصيل، من القضايا الرئيسية التى نأمل أن نكتب فيها بحثاً مستقلاً إن وسع الأمر، وهنا نحيل إلى مراجع كتبت فى ذلك: كتاب للدكتور عارف آبو عيدو للشيخ سالم طعمة الشحرى .
أما عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من غير إقامة الحدود والتعازير فهذا واجب على كل مسلم فى حدود الاستطاعة لقوله ﷺ « **بلغوا عنى ولو آية** » ولقوله ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع** .....» والذى يحتاج إلى إذن عند القائلين به هو المتعلق بالحدود والتعازير، وهذا منوط بالمؤسسات المقننه فى الدولة .

الفصل الثانى :
حركات إصلاحية ودولة إسلامية

المبحث الأول: واقع وتاريخ « **دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى**».

المبحث الثاني: الدولة السعودية والحركة الوهابية.

المبحث الثالث: دعوات بين الإصلاح والدولة.



المبحـث الأول
واقع وتاريخ الإمام المجدد
الشيخ محمد بن عبد الوهاب
« ١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ » «١٧٠٣ ـ ١٧٩١م»

نجد قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

يبدو أن حالة التخلف على الصعيدين الدينى والاجتماعى قد طبعت الحياة فى نواحى نجد، وهذا واقع تترافق معه بشكل تلقائى العودة إلى بدائية جاهلية كان قد بددها الإسلام من قبل.

فقد كثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار والقبور، والبناء عليها وكذلك التبرك والنذر لها، والاستعاذة بالجن والذبح لها، ووضع الطعام وجعله في زوايا البيوت لشفاء المرضى ونفعهم..هذا الواقع يرى فيه ابن بشر إفشاء للشرك في نوعيه الأكبر والأصغر[١].

وأما عبد الرحمن آل الشيخ فإنه يؤكد ظهور الشرك فعلاً وذلك من خلال عبادة المخلوقات، ولقد استنتج نظرته تلك من خلال ما كان الناس يفعلونه على قبر زيد بن الخطاب يسألونه قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وقبرٍ يزعمونه لضرار ابن الأزور «**استشهد يوم اليمامة**» وشجرة تسمى «**الطرفية**» يعتقدون فيها كما اعتقد قبلهم في ذات أنواط مشركو الجاهلية، ومغارة يسمونها مغارة بنت «**الأمير**» لها قصة ـ على زعمهم ـ تاريخية، وطاغوت عندهم يسمى «**يوسف**»، وثالث يسمى «**شمسانا**» يعبدونهم زاعمين أن لهم تصرفاً ونفعاً، وفحول نخل يختلف إليها نساؤهم إذا لم يلدن، أو لم يتزوجن، يقلن له: يا فحل الفحول نريد ولداً أو زوجاً قبل الحول[٢].

ويذهب بعض الكتاب إلى المقارنة بين عصر الرسول ﷺ وعصر الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] أن وجه المشابهة تلخص فى الفساد في العقيدة والعادات والتوجه إلى الوثينة،

---

(١) الشيخ عثمان بن بشر، عنوان المجد فى تاريخ نجد، وزارة المعارف السعودية ـ ١٣٨٧هـ ـ ص١٦.

(٢) عبدالرحمن بن عبد الله آل الشيخ ـ مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ـ ط ٢ سنة ١٣٩٤هـ.

(٣) الشيخ أحمد بن حجر آل بن علي ـ الشيخ محمد بن عبد الرهاب، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية ـ ١٣٩٣هـ ـ انظر كامل المقارنة من ص ـ ٧١ ـ ٧٤.

وفي الحاجة إلى من يخلصهم مما هم فيه من جهالة.

وعن الواقع السياسى للجزيرة العربية، ينقل مصطفى الرافعى عن «**لادى بلنت**» قولها بأن الجزيرة العربية لم تكن خاضعة للسلطنة العثمانية المركزية، وكانت كل بلدة تبدو مستقلة بذاتها، وأنَّ أمر الدين تقهقر، وأصبح عنصر البداوة هو المسيطر «**فكانت كل مدينة، بل كل قرية في جزيرة العرب، تعد ملكاً أو إقطاعاً لأحد شيوخ العشائر**»[(١)].

شهادة ميلاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب[(٢)]:

ولد في بلدة العيينة القريبة من الرياض، وتلقى علومه الأولى على والده دارساً شيئاً من الفقه الحنبلى والتفسير والحديث، ثم انتقل إلى المدينة المنورة ليتزود بالعلم الشرعى، وفيها التقى بشيخه محمد حياة السندى «**ت - ١١٦٥هـ**» صاحب الحاشية على صحيح البخارى وكان تَأَثُّرهُ به عظيماً.

وبعد عودته إلى «**العيينة**» توجه إلى البصرة وبغداد والموصل، حيث تلقى العلوم على مشايخها وأخذ عنهم، ثم غادر البصرة إلى الإحساء، ثم إلى حريملاء التى كان والده يعمل فيها قاضياً، لكنه ما لبث أن غادرها بسب تآمر نفر من أهلها عليه لقتله.

ثم وجَدَ معينا له في «**العيينة**» مسقط رأسه، وذلك من أميرها «**عثمان بن معمر**» الذى قام معه بهدم القبور والقباب، وأعانه على رجم امرأة زانية جاءته معترفة بذلك[(٣)].

وجاء في قاموس الأعلام للزركلى أنه بعد انتقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى العيينة، نهج منهج السلف الصالح، داعياً إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، وهذا كان سببا في ارتياح أمير العيينة «**عثمان بن معمر**» إلى دعوته فناصره، إلا أنه تخلى عنه بعد ذلك، فتلقاه أمير الدرعية في نجد سنة ١١٥٧ هـ محمد بن

---

(١) مصطفى الرافعى - الدعوة والدعاة في الإسلام - دار الشمال لبنان - ط ١ - سنة ١٩٧٧ ص١٠٣، ١٠٤ .

(٢) انظر ، مجلة المجتمع د. عجيل النشمى - ظهور حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عدد ٤٩٢ - تاريخ ٥/ ٨/ ١٩٨٠ - ص ٤٤ - ٤٦ .

(٣) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض - ط ١ سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م - ص ٢٧٣ .

سعود وقبل دعوته وآزرها[١] غير أن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تنبئ عن نبوغ مبكر له، يقول شقيقه الشيخ سليمان: «**كان أبوه يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه**» ومن المعلوم أن والده كان مفتياً وقاضياً، وكذلك جده الذي شغل منصب مفتى جميع الديار النجدية[٢].

والواضح هو أن المترجم له نشأ فى بيئة حنبلية كانت معروفة بإنكارها للبدع، وفي جو من البداوة يجعل إمكانية التغيير أسهل منها عند أهل المدن «**والبدو لا يجمدون على علم كما يجمد الحضر، فتكون زحزحتهم عن الجمود أسهل زحزحة مِنْ غيرهم**».

ويبدو أن كثرة أسفار الشيخ محمد بن عبد الوهاب أكسبته شخصية مميزة، وهذه هى سمة العلماء من قبل «**قيل للإمام أحمد: رجل يطلب العلم، يلزم رجلاً عنده علم كثير، أو يرحل؟ فقال أحمد: يرحل.. يكتب عن علماء الأمصار**» ومما اشتهر به أئمة الحديث كثرة الارتحال وملازمة الأسفار، متأسين بالصحابة والتابعين «**فقد كان الواحد منهم يبلغه الحديث بطريق الثقات فلا يكتفى بهذا، بل يرحل الأيام والليالى حتى يأخذ الحديث عمن رواه بلا واسطة**»[٣] ولقد شملت رحلة الشيخ بغداد، وكردستان وهمدان وأصفهان، والرى وقم فى إيران ثم توجه إلى تركيا ومنها إلى حلب ودمشق والقدس، وبعدها توجه إلى مصر حيث مكث فيها سنتين وأياماً، وكان مسكنه الجامع الأزهر، وبعد رحلة طويلة عاد إلى مسقط رأسه في الجزيرة العربية. وإن كان منير العجلاني ينقض بعض هذه الرواية فيشكك في سفر الشيخ إلى اليمن ومصر[٤].

وقفة تأمل :

يحار الباحث فى حقيقة الواقع الذى كانت عليه بلاد نجد إبان بداية دعوة الشيخ محمد

---

(١) انظر: خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم - دار العلم للملايين بيروت - ط٥ سنة ١٩٨٠ ، م٦ ، ص ٢٧٥ .

(٢) عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، مشاهير علماء نجد وغيرهم، دار اليمامة في السعودية، ط ٢ - سنة ١٣٩٤هـ - ص ٢١ .

(٣) انظر: منير العجلانى، تاريخ البلاد العربية السعودية، بدون ناشر - ط ٢ سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣، جـ١ - ص ١٨٣.

(٤) انظر: المرجع نفسه - ص ١٨٨ - ٢٠١ .

ابن عبد الوهاب، فقد صورت حالة تلك البلاد بالجاهلية التي تعود لما قبل الإسلام[١]، «**وأما من الناحية الدينية، فكانت تشبه حال الجاهلية، إلا من عصم ربك،... ذلك أن عبادة الجن، في ظل شجرة وفي أعماق كهف، وتقديس الموتى.. كل أولئك كان يختلط عند أهل نجد بعادات** «**للصابئة**» قديمة أحيوها، بينما أهملوا القرآن، وما عادوا يعرفون في أية جهة تقع القبلة، وتناسوا الزكاة والصيام والحج..»[٢] ونجد صورة أخرى معاكسة لها تماماً، وذلك في المرجع نفسه، لقد رسم منير العجلاني المحيط الأوسع الذي ترعرع فيه الشيخ ابن عبد الوهاب بأبهى حلة وأروع بيان: «**وحيثما أدار طفلنا النابه نظره ـ بين أقربائه من بيوت آل مشرف ـ لا يقع إلا على قاضٍ أو فقيه أو طالب علم: فأبوه** «**عبد الوهاب**» قاضي العيينة وعالمها، وعمه «**إبراهيم**» عالم فقيه، وابن عمه «**عبد الرحمن إبراهيم**» عالم فقيه، وأخوه «**سليمان**» مقبل على العلم، وكل هؤلاء مشهود لهم بالخلق والذكاء، وهناك عشرات غيرهم»[٣].

إن هذا الأسلوب في عرض الأشخاص أو الأفكار التى يدعو لها، إنما وقع فيه حتى أولئك الذين كتبوا عن فجر الدعوة الإسلامية لقد ظن البعض خطأ، أَنَّ البون الشاسع جداً بين البيئة قبل نشوء الدعوة وحالها بعد ذلك إنما يخدم مصلحة الدعوة الناشئة، ويظهر عظمتها وقدرتها على اختراع المعجزات، ومن هذا المنظور تم تصوير المجتمع في مكة والجزيرة العربية قبل الإسلام بأبشع صورة وأكثرها وحشية، مع أن الحقيقة قد لا تصل إلى ذلك الحد، والمصلحة غير ما تم تخيلها أيضاً.

إن تفوق داعية ما، أو سمو دعوة ما، أو إنجازات رسول ما بين قوم كانوا على مستوى من الوعي والدراية هو أعظم بكثير من تفوق آخر على جاهلين ومتخلفين ومتوحشين.. إن عظمة المرء أكبر وأجل عندما يصبح عملاقاً في وسط أقوياء وعمالقة....

---

(١) انظر: الشيخ عثمان بن بشر، المرجع السابق ـ ص ١٦ .

(٢) انظر: منير العجلانى ـ المرجع نفسه السابق ـ ص ٣٧ .

(٣) انظر: منير العجلانى ـ المرجع نفسه ـ ص١٨٠ ـ وانظر: مجلة المجتمع ـ د. عجيل النشمى ـ الوهابية أولى الحركات الإسلامية ـ العدد ٤٩١ ـ تاريخ ٢٩/ ٧/ ١٩٨٠م ـ ص ٤٥ ـ ٤٧.

إن المجتمع الجاهلي الذى سبق الإسلام عرف أموراً كثيرة هي منتهى السمو والإنسانية، حيث كانت بقية الحنفية، دين إبراهيم عليه السلام ومجاورة اليهودية والنصرانية وإن كان لليهودية وجودها الذى لم يغفله مؤرخ عن الجزيرة العربية، وكان العرب يتمتعون بشهامة قَلَّ نظيرها، ينتصرون للمظلوم ويكرهون الظلم، عندهم شرعة الإجارة التي لم يرق إليها نظام اللجوء السياسى فى العالم المعاصر، وكذلك الأشهر الحرم، حيث تنعم تلك الأصقاع بسلم شامل تتوقف فيه كل الصراعات، ولا يخاف فيها إنسان على نفسه حتى من ألد خصومه..مها كانت جريمته، ويتعدى ذلك السلم البشر حتى يصل إلى الحيوانات «**غير المؤذية**»، ولحاء الشجر المحيط بالكعبة[1]، وكان عندهم الذوق الأدبى والخيال الخصب الذي يُحيل قصائدهم إلى لوحات ينبعث من بين أبياتها أريج الأنفة والشهامة والسمو....

في ذلك الجو كان رسول الله ﷺ، ومن ذلك الواقع أرسى الإسلام بناء شامخاً، حالت عظمته دون أية رؤية جمالية في العهد الذي سبقة...

وهكذا فالباحث يجد نفسه أمام الإشكالية ذاتها وتطابق المنهج في التفكير عندما يقرأ عن نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآل سعود :

بعد أن اضطهد الشيخ في بلدة العيينة، واضطر للخروج إلى الدرعية مقر آل سعود، حيث تقبل أميرها دعوته وتعاهدا على الدفاع عن الدين ومحاربة البدع[2].

وبفضل الله ثم جود ابن سعود وصلت الدعوة الإصلاحية التى قادها وحمل لواءها الشيخ محمد إلى أكثر مناطق شبة الجزيرة العربية، ووصل تأثيرها إلى دمشق وجنوب العراق.

ولما استولى ابن سعود على مكة عام ١٢٢٠هـ ومنع الحجاج من ممارسة عادات وتقاليد

---

(١) كان الناس يتخذون من لحاء الشجر حول الحرم عقوداً يعلقونها في رقابهم كي يصبحوا في مأمن من الاعتداء عليهم حتى بعد انقضاء الأشهر الحرم .

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية ـ ط ٣ سنة ١٩٧١م ـ ص ٢٠ .

دأبوا عليها منذ فترة مثل اصطحابهم الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع، عندها شعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها، فأرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا والى مصر أن يسير جيوشه لمقاتلة «**الوهابيين**»، وكذلك تم بث الدعاية في جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير مُتبعيها، وحمل عليها علماء المسلمين حملات منكرة، وألفت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها.

ومما قاله محمد علي باشا فى أعيان الديوان: «**لا يخفاكم أن الحرمين استولى عليها الوهابيون ومشوا أحكامهم بها، وقد وردت الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج إليهم ومحاربتهم وإجلائهم وردهم عن الحرمين الشريفين**»[1].

الجبرتى يقارن بين جيش محمد علي وجيش ابن سعود:

في أعقاب الهزائم التي أصيب بها قائد جيش محمد على باشا «**طوسون**»، انزعج محمد على كثيراً، يقول الجبرتي: إن بعض الصالحين من قادة ذلك الجيش قال له: «**أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً وصحبتنا صناديق المسكرات، ولا يسمع في معسكرنا آذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين، وأما عن حال أهل الحجاز ممن هم في عداد جيش ابن سعود فهم «إذا دخل الوقت أذن المؤذن فينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائمة أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طائفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك، لأنهم لم يسمعوا به فضلاً عن رؤيته، وكان جنود ابن سعود أيضاً يحضون بعضهم بعضا على القتال ضد «..المستبيحين للزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات**» وأنهم قد كشفوا عن كثير من القتلى فوجدوهم غير مختونين.

وأما جيش محمد على باشا فإنه سيطر على «**بدر**»، والقرى التى حولها، يقول الجبرتى: «**وبها خيار الناس وبها أهل العلم والصلحاء**» فإن هذا الجيش ارتكب الموبقات «نهبوهم

---

(١) انظر: منير العجلاني ـ المرجع السابق ٣/ ٩١ ـ ٩٣ ـ انظر: أحمد أمين ـ المرجع السابق ـ ص٢١، وانظر: الشيخ عبد الرحمن الجبرتى، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ـ دار الجيل ـ بيروت ـ بدون تاريخ ٣/ ٢٣٥.

وأخذوا نساءهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون هؤلاء الكفار الخوارج» وفي أبشع صورة وأعظم مأساة يقول الجبرتي: **«حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحاء طلب من بعض العسكر زوجته فقال له حتى تبيت معى هذه الليلة وأعطيها لك من الغد»**(١).

وعن معاملة الوهابيين للحجاج قال الجبرتى: إنه في الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٢٧ هـ وصل الحجاج المغاربة الذين أتوا عن طريق الشام **«وأخبروا أنهم قضوا مناسكهم وحجوا وزاروا المدينة وأكرمهم الوهابية إكراماً زائداً**(٢)**»**.

وأما حال جيش محمد علي باشا فى مصر فكان مدعاة للأسى والحزن، ففى مناسبة شهر رمضان حيث كانت ترسل نجدات لجيش إبراهيم باشا في الحجاز، فإنَّ الجموع المحتشدة فى مصر استباحوا **«الفطر في رمضان بحجة السفر فيجلس الكثير منهم بالأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع وبأيديهم أقصاب للدخان والتتن من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم»** والغريب العجيب أن هؤلاء **«فى اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الإسلام»**(٣) وأما عن البذخ فى إطلاق المدافع وإقامة الاحتفالات فى كل مرة تأتيهم أخبار عن انتصارات جيشهم المهاجم لبلاد الحجاز، فإنه أمر في غاية الصعوبة وإمكانية التصور **«بحيث إنهم يضربون المدفع الواحد اثنتى عشرة مرة، وقيل: أربع عشرة مرة في دقيقة واحدة، فعلى هذا الحساب يزيد ضرب المدافع فى تلك المدة على ثمانين ألف مدفع بحيث يتخيل الإنسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين رعوداً هائلة**(٤).

وفي أواخر أيام عام ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م تمكن جيش محمد على باشا من تدمير الدرعية،

---

(١) انظر: الجبرتي، المرجع السابق ٣/ ٣٤١، ٣٤٢.

(٢) الجبرتي ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤٥.

(٣) المرجع نفسه ـ ص٥٨٠.

(٤) المرجع نفسه ـ ص٥٩٢ ـ ٥٩٤.

يتساءل الباحث أين كانت هذه القوة وثغور المسلمين كانت تسقط الواحد تلو الآخر؟ «!!»، ولماذا لم تستعمل إلا فى داخل الدولة الإسلامية ؟.

وأسر عبد الله بن سعود الذى مُنح الأمان وأحضر إلى مصر، ثم أرسل إلى السلطان العثمانى فى إستانبول «الآستانة» حيث تم قتله مع أعوانه هناك[١]، علماً بأن الأمير السعودى كان يعترف بسلطة السلطان العثمانى، ويعتبر نفسه كأحد ولاته، ومن بين الرسائل التى خاطبه بها ما يثبت ذلك «..**فإنى أطوف حول كعبة آمال العبيد التى هى أعتاب دولة مولانا قطب دائرة الوجود، وروح جسد العالم الموجود، وملاذ الحاضر والبادى، ومحط رحال آمال الرائح والغادى.. من نام فى ظل عدله كل خائف، ولجأ إلى حماه كل عاقل عارف، ذى الأخلاق التي هى أرق من نسيم الصبا، مع الهيبة التى تحل من أجلها الحبا، سلطان البرين وخاقان البحرين، الذي برزت بطلعته طالع السعود السلطان بن السلطان سيدنا السلطان محمود الغازى**»[٢].

الشيخ وابن سعود والإمارة:

إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته الإصلاحية ليست هي سبب وجود آل سعود على مسرح الحياة السياسية فى الجزيرة العربية، فإمارة آل سعود كانت موجودة قبل وصول الشيخ إلى الدرعية حيث أتاها فاراً من اضطهاد أمير العيينة عثمان بن معمر، الذى كان يخضع لأمير الإحساء ابن عريعر الذى أرسل له كتاباً جاء فيه:

«**إن المطوع الذي عندك قد فعل ما فعل، وقال ما قال، فإذا وصلك[٣] كتابى فاقتله، فإن لم تقتله، قطعنا خراجك الذي عندنا فى الإحساء**» والغزو والصراع إنما كان شأن كل الإمارات، فلقد اعتاد حكام الإحساء -عبر التاريخ- أَنْ يغزوا نجداً وينهبوا قبائلها..وسيطر هؤلاء وأقاموا إمارات موالية لهم[٤].

---

(١) راجع: الجبرتي - م . س - ص٦٠٠، راجع: منير العجلانى م.س ٤٥/ ١٢٦، ١٢٧.

(٢) انظر: مجلة المجتمع، د. عجيل النشمى، العلاقة بين دولة الخلافة والحركة الوهابية، ص ٣٨ - انظر: عنوان المجد فى تاريخ نجد، ابن بشر ١/ ١٨٥.

(٣) راجع: أحمد بن حجر بن محمد .. آل بن علي، الشيخ محمد بن عبدالوهاب المملكة السعودية، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية .. ط٢، سنة ١٣٩٣هـ - ص٢٣.

(٤) انظر: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، صراع الأمراء: علاقة نجد بالقوى السياسية في الخليج العربي، دار الساقي، لندن - ط١ - سنة ١٩٩٠ - ص١٣ وما بعدها.

إن وجود أمراء إقطاعات لم يكن حال الجزيرة العربية فحسب، بل كان حال الدولة العثمانية عامة، ومن ذلك ولاية محمد على باشا الذي آل أمره إلى أن أصبح عدو الدولة اللدود وبسبب تحركات جيشه ضعفت الدولة المركزية، حيث إنه زحف إلى بلاد الشام ووصل حتى أضنة التركية، وهدد إستانبول بالسقوط وهذا ما عَجَّلَ بالتدخل الروسى، ثم بالتالى التدخل البريطانى ضده[١]، زد على ذلك إمارة الشهابين الجنبلاطيين والمعنيين في جبل لبنان، وآل سيفا وآل عمار في ولاية طرابلس....

تبين مما سبق أن كل ما فعله من جديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو الدعوة إلى عودة الدين إلى أصله، فهو «**لم يدع إلى حاكم بعينه أو إلى منطقة بذاتها، إنما دعا إلى فكر بعينه، واستنصر شيوخ نجد وحكامها واستنفرهم يبشر من يستجيب منهم بالعز والتمكين، وبهذا خرجت دعوة الشيخ من إطار الإقليمية الضيقة والوطنية المحدودة إلى دعوة للرجوع إلى السلف الصالح..**»[٢].

إن الأثر الذي تركه الشيخ ـ رحمهُ الله تعالى ـ يدل على طبيعة دعوته، فقد تأثر بها رجال الإصلاح «**في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظهر الألوسى الكبير فى بغداد، وجمال الدين الأفغانى فى أفغانستان، ومحمد عبد ه بمصر، وجمال الدين القاسمى بالشام، وخيرالدين التونسى بتونس، وصديق حسن خان فى بهوبال، وأمير على فى كلكتة... وعرف من والاه وشد أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد «إخوان من أطاع الله»** وسماهم خصومهم بالوهابيين «**نسبة إليه**» وشاعت التسمية الأخيرة عند الأوربيين فدخلت معجماتهم الحديثة،وأخطأ بعضهم فجعلها «**مذهباً**» جديداً في الإسلام، تبعاً لما افتراه خصومه»[٣].

وهذا ما أكده حديثاً خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز في المؤتمر الأول لوزراء الإعلام في الدول الإسلامية بتاريخ ١/ ٣/ ١٤١٠هـ حيث قال: «**لقد درجت كثير**

---

(١) انظر: جورج أنطونيوس، يقظة العرب ـ ص ٩٣.

(٢) راجع: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، صراع الأمراء، المرجع السابق، ص١٥.

(٣) خير الدين الزركلي ـ الأعلام ... مرجع سابق ٦/ ٢٥٧.

من الصحافة في عالمنا الإسلامي أو فى عالمنا العربى أو العالم الغربى أو العالم الشرقى على نعت هذه الدولة بأنها «وهابية»، إن منهم مَنْ يعتبر هذا مديحاً إذا رضى، ومَنْ يعتبره ذماً إذا غضب، ويرى أن «**الوهابية**» مذهب يخالف مذهب أهل السنة والجماعة، ويخالف مذهب السلف الصالح..» وأنهى كلامه بهذا الخصوص قائلاً: «..**ليس هناك شيء اسمه وهابية**» وبين أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد تعلم على يد علماء مسلمين أجلاء في الحرمين الشريفين، وكذلك فإنه تلقى علومه في أماكن أخرى من العالم الإسلامى إما عن طريق الوافدين لزيارة الحرمين أو من خلال أسفاره، وكان كل همه أَنْ يبرز المفهوم الصحيح للعقيدة الإسلامية، وكان من أجل ذلك لقاؤه مع الأمير محمد بن سعود رحمهم الله تعالى[1].

آل سعود وانهيار الدولة العثمانية :

إن معاداة السلطة العثمانية لآل سعود إنما كانت تندرج فى عداد شرعة العلاقات التى كانت تقوم بين هذا الأمير أو ذاك وبين السلطة المركزية، بحيث قد تؤيد أميراً ضد آخر، وتقر إمارة منتصر وتسحب اعترافها بالمنهزم، تلك هى نواميس الدولة التى تبسط سلطانها بواسطة «**الأمراء والمقاطعجية...**» وتأييد السلطة المركزية لأمير ما لا يعنى تبرأته من العمل على هدمها، وليس ذلك تشريفا وتنزيها له، وذلك ماثل للعيان من خلال تأييدها لمحمد على باشا حينا والاستعانة به حينا آخر، ثم الاستعانة بالإنجليز على ضربه فى النهاية.

وكذلك فإن تأييدها للشريف حسين وأبنائه فى مكة ضد آل سعود لا يعنى إطلاقا تنزيها له وتبرئةً ليديه من معاداة الخلافة والقضاء عليها، وهذا ما أثبتته الأحداث فيما بعد.

إن الشريف حسين تحالف مع الإنجليز، وقاد الثورة ضد جيش الدولة المركزية، وأطلق عليهم رصاصة الرحمة من قصره فى مكة، وقاد أبناؤه القبائل العربية ضد الدولة العثمانية تحت إشراف ضابط إنجليزى، جهزته المخابرات البريطانية، وأرسلته إلى بلاد الحجاز[2].

---

(١) راجع: مجلة الرابطة الإسلامية، العدد ٢٨٦ السنة ٢٧ مرجع سابق، ص٩.

(٢) راجع: ت . أ . لورنس، أعمدة الحكمة السبعة، منشورات، المكتبة الأهلية، بيروت ، ط ٢ ـ ١٩٧١م.

وعن علاقة الملك عبد العزيز ـ رحمهُ الله تعالى ـ مع الإنجليز نرى أن السير برسي كوكس فى أول اجتماع له مع ابن السعود حاول أن يغريه بإعلان الحرب على الأتراك، وأن بريطانيا ستساعده بالمال والسلاح، ولكنه اعتذر عن ذلك...، والواقع أظهر بأن عبد العزيز كان صديقاً للأتراك، فهذا جمال باشا يلتمس العذر لعبد العزيز بن سعود فيقول على الرغم من قربه من الإنجليز الذين كان فى استطاعتهم إيصال الأذى إليه: كان شخصاً نافعاً جداً لنا إذ أرسل الجمال للجيش وسمح بتصدير التجارة من بلاده إلى سورية، كان ذلك في أواخر ١٩١٤م عندما أرسل الأتراك وفداً من المدينة المنورة إلى ابن السعود ومع الوفد عشرة آلاف ليرة التى يرجح بأنها كانت ثمن الجمال[١].

وقيل بأن غالب باشا والى الحجاز أدرك في ١٩١٥م شيئا مما يبطنه الشريف بسبب مجىء الرسل ورواحهم من بور سودان إلى الحجاز فأرسل إلى ابن السعود رسالة مؤداها: «**إنك تعلم بأعمال الشريف وأنا الآن أزيدك علماً أنه يفاوض الإنجليز وهو على وشك أن يخون الدولة ويفتح لأعدائها الحرمين، فإذا قدمت إلى الحجاز أسلمك الحرمين وأساعدك بكل ما لدى من قوة....**»[٢].

*****

(١) انظر: سليمان موسى، الحركة العربية «١٩٠٨ ـ ١٩٢٤».

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٣.

خلاصة القول في دعوة الشيخ
محمد بن عبد الوهاب والحركة السياسية معها

أولا: من المستغرب أن يعاب على آل سعود توحيد بلاد نجد وحتى الشام واليمن بحجة أن ذلك كان بالقوة، فالسؤال هل كان بالإمكان توحيد تلك البلاد إلاّ بالقوة؟

ولماذا يشاد بالسطان سليم لأنه وحد الولايات تحت سلطته وأسس الدولة العثمانية، وكذا فعل من قبله صلاح الدين وغيرهما من المشاهير الذين أسهموا في بناء قوة ذات فعالية فى العالم..؟

لماذا يمتدح محمد على باشا ويذم آل سعود؟ مع أن الصراع بقى سجالا مع بقية الأمراء وأشهرهم آل الرشيد والأشراف...

ثانياً: إن المحب المفرط والمريد الجاهل والمنافق المتزلف يحمل متبوعه ما لم يحمل، ويقوله ما لم يقل، ويبالغ في مدحه، حتى أنه يمكن تصوره فى حالة هيجان عاطفى غير عقلانى وهذا ما يؤدي إلى الخيال في الوصف ويصل حد التأليه أحيانا «**تنزه الله عز وجل**» ومن ثم إلى ارتكاب العنف.

لم يختلف اثنان على أنه في الحقبة التى ظهر فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهُ الله تعالى ـ كان العالم الإسلامي يشهد فيها تمزقاً لا مثيل له، وكان القوي ينال ما ينال بقوته، وما على الدولة المركزية إلا أن تقر له بالإمارة على المناطق التى يسيطر عليها.

وإذا كان ما فعله السنوسيون فى شمال وداخل القارة الإفريقية مدعاة لمدحهم، فالحركة الوهابية المندمجة مع إمارة آل سعود لها الحق فى مثل ذلك.

فالقبح قبح لذاته، ينكر وجوده أينما وجد وحيثما تلبَّسَ به متلبس، والجمال جمال بذاته يُحْمَدُ وجوده حيثما تم الاتصاف به، فإذا كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد نهج على مذهب الإمام أحمد ـ رحمهُ الله تعالى، فما الجديد الذى أحدثه؟ يقول رحمهُ الله: «**أما ما ذكرته من حقيقة الاجتهاد فنحن مقلدون السنة وصالح سلف الأمة، وما عليه الاعتماد من أقوال الأئمة الأربعة أبى حنيفة... ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس وأحمد بن حنبل رحمهم الله**

تعالى[١].

ثالثا: وأما بخصوص الخلاف مع السلطة المركزية، فليس بالضرورة أن يكون العقوق من الأصغر تجاه الأكبر، بل العكس قد يحصل وهذا يسبب جنوحاً فى داخل الأسرة الأصغر، وأن يقال: بأن الحركة الفلانية ثارت على الدولة العثمانية وكانت سببا فى إضعافها وتمزقها، فلماذا لا يُقال العكس وهو: إن الذين كانوا في سدة الحكم والمسؤولية أحرجوا الناس فأحرجوهم؟

إن العدل وحسن القيادة، والمعرفة فى تصريف الطاقات وإعداد ما يجب أن يعد، هو أسهل على السلطة من تحمل الأفراد لكل الظلم والإقصاء عن مسرح الحياة، وهم يرون دولتهم آيلة إلى الانهيار، وإن الأمم الأخرى تتكالب عليهم وليس من حام للحمى.

ما عساه أن يفعل مَنْ يرى الخلافة تتهاوى بطريقة توحى للرائى وكأن إعصاراً قد هب عليها من كل جانب، أليس عنده غريزة الخوف؟ إنَّ الأمر الطبيعى أنه سيتصرف، وقد يخطئ لكن المسؤول الأول هو أولى بتحمل تبعة ما يحصل من ضياع.

يقول أد.عجيل النشمى: «..أما وضع دولة الخلافة في تلك الفترة... فإن ما فيه من عدم الاستقرار الشرعى.. والوضع المناخى فى كثير من جنباته لما يستلزم السير على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، بل إن بصمات القانون كانت واضحة فيما خلا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية... وتجنيب كتاب الله وسنة رسوله سدة الحكم لا يعلوه ذنب، أضف إلى ذلك الممارسات السلطانية الخاطئة... »[٢]، ويقول أد.النشمى عن خروج الحركة الوهابية على الدولة «... ذلك أن إجماع المسلمين الواعين الرامين إلى عز الإسلام وحفظ بيضته من أن تُثْلَم أو تهدم كان مستقراً على أن وضع الخلافة العثمانية ينبغي إصلاحه لا هدمه... »[٣].

(١) انظر: المجتمع، د. عجيل النشمى، الحركة الوهابية في الميزان «الشبهات» العدد ٥٠١ ـ تاريخ ١٤ أكتوبر ١٩٨٠م، نقلا عن الرسائل ٩٦.

(٢) المجتمع، د. عجيل النشمى، العلاقة بين دولة الخلافة ـ والحركة الوهابية، العدد ٥٢٢ ـ تاريخ ٣١ مارس ١٩٨١م.

(٣) المرجع نفسه ـ ص ٣٧.

المبحث الثاني
الدولة السعودية والحركة الوهابية

تأسيسها:

لقد دفعت مصر ثمناً باهظاً بسبب التكاليف التى تكبدها محمد على باشا من أجل تحقيق رغبات الأوربيين فعلياً، وفي الظاهر تحقيق رغباته في التوسع والسيطرة، وكان ذلك سببا في إيقاع مصر في عجز مالي كبير، وأما فى نجد فقد آل الأمر إلى آل الرشيد مكان آل سعود الذين لجؤوا إلى أمير الكويت.

ولما بلغ الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل السعود رشده ،بدأ يعد العدة لاستعادة نجد واستعادة الرياض، ولم يكن معه سوى أربعين رجلاً، لكنه تمكن معهم من الاستيلاء عليها فى السادس من يناير عام ١٩٠٢م[١].

ولقد رفضت الدولة العثمانية في بداية الأمر الاعتراف به، فأبدى المرحوم الشيخ رشيد رضا انتقاده لموقفها المعارض لابن سعود،.. معلنا أن كلمة القبائل قد اجتمعت عليه، وأن ابن سعود يتمنى الاتصال بالدولة العثمانية.

وحذر رشيد رضا العثمانيين من مساندتهم لآل الرشيد بقوله: «**وعسى أن تظهر الحقيقة للدولة لتعلم أن استمرار انتصارها لآل الرشيد خطر عظيم، وأن السياسة المثلى فى إعادة نجد إلى آل سعود كما كانت، فهم أقدر على حفظها تحت رايتها وحمايتها وإن كانت فى ريب من أمره** «**عبد العزيز**» فلترسل له من أهل العلم والدين من تثق بهم ليقفوا على صحة ما قلناه[٢].

إلا أنه بعد هزيمة ابن الرشيد عقدت الدولة المركزية معاهدة مع الأمير عبد العزيز اعترفت بموجبها له ولذريته من بعده بإمارة نجد، ويقول رشيد رضا: إن ابن سعود كان يريد أن يكون تحت سيادة الدولة العثمانية، وليس راغباً فى مساعدة الإنجليز، وأن كل ما

(١) وزارة الإعلام، المملكة العربية السعودية، مرجع سابق - ص ١٧ .

(٢) انظر: رشيد رضا، المنار، مج٧، ص ٧٢٠ و ٧٦٠، وانظر: مجلة التقوى، لبنان، محمد درنيقه، موقف الشيخ رشيد رضا من الدعـوة الوهابية، العدد ٣١ صفر ١٤١٤هـ آب ١٩٩٣ـ ص ٣٨ـ ٣٩.

يطلبه منها أن تترك أهالى نجد يحكمون أنفسهم بالقرآن والسنة، والنجديون يفضلون الموت على الالتجاء إلى الإنجليز يطلبون حمايتهم مع معرفتهم بدعم الدولة العثمانية لابن الرشيد.

وكان من ثمار سيطرة ابن سعود أن أصبحت المنطقة آمنة، وصار الحجاج يخرجون آمنين مطمئنين، لا يصيبهم أذى، بعد أن كانت مَثَارَ المخاوف[1] ولقد وصف الشيخ رضا المرحوم عبد العزيز آل سعود بصفات حميدة وفى رأسها مخافة الله عز وجل.

الأمير عبد العزيز يرد على افتراءات الشريف حسين:

مما سبق بَيَّنَ البحث أن المسألة هى مسألة صراع بين أمراء الجزيرة العربية، ليست لها فى الدائرة الداخلية أكثر من ذلك البعد، لقد استطاع آل الرشيد أن يحافظوا على علاقتهم مع السلطة المركزية في الدولة العثمانية، وكذلك أشراف مكة والحجاز، وحُشِرَ آل سعود خارج هذه الدائرة، لكن عندما هَزَمَ الأمير عبد العزيز آل سعود آل الرشيد اعترفت بهِ الدولة العثمانية. وفي ١٩١٥م حيث أضحت السيطرة الفعلية لبريطانيا في المنطقة، عقد عبد العزيز آل سعود معاهدة معها فى الثانى من كانون الأول ١٩١٥[2]، والظاهر من بنودها أن ابن سعود تصرف بحكمة كى يجنب إمارته ويلات الحرب العالمية الأولى، وهى في مجمل بنودها لا تخرج عن كونها عموميات وتحييد لإمارة نجد.

بينما كان الشريف حسين قد غرق فى اتفاقات مع الإنجليز تبنى بموجبها الحرب ضد الدولة العثمانية، التى طالما أغراها ضد آل سعود، متوهماً بذلك أنه سيتوج خليفة عربيا على المسلمين[3].

وبالرغم من كل المتغيرات فإن الشريف حسين لم يفكر فى تجميد صراعه مع آل سعود،

---

(١) المرجع السابق، المنار مج ٧ ـ ص ٨٦٠ ـ ٨٦٩.

* الملك عبد العزيز آل سعود، «١٨٨٧ـ١٩٥٣م» كان أميراً لنجد من ١٩٠٢ـ١٩٣٣، ثم ملكاً للعربية السعودية منذ ١٩٣٣ حتى ١٩٥٣ م وفي ١٩٢٦ أنهى سيطرته على بلاد الحجاز بعد أن كان أمير مكة الشريف حسين قد أخرج منها عام ١٩٢٤، وأوصى بالعرش من بعده لابنه سعود عام ١٩٣٢.

(٢) انظر: نص المعاهدة فى الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب، إصدار جريدة الأيام ـ دمشق.

(٣) المرجع نفسه ـ ص ٢.

بل بدأ يصدر المناشير من على صفحات جريدة «**القبلة**» التى كانت تصدر فى الحجاز، يكفر فيها الوهابيين، ويدعو إلى قتالهم باسم الدين تارة، واقتداءً بمحمد على باشا تارة أخرى «!!»، وبعد أن عَلمَ الأمير عبد العزيز بتكوين جيش من بلاد الشام لمقاتلته، ومساعدة ملك الحجاز «**الشريف حسين**» فى حربه ضد الوهابية، وجَّهَ خطاباً إلى رؤساء بلاد الشام، بين فيه أن السعوديين كانوا يحكمون بلاد نجد منذ مئات السنين، وأن الحرب الأولى قد مزقت شمل الأمة، وفرقت وحدتها، ثم فند ادعاءات ملك الحجاز، وتحريضه المسلمين لقتال الوهابية بقوله: «**نحن نعلم أن ذلك الأمير يُلَفِّقُ علينا مقولات ويرمينا بالمروق من الدين ويدعونا** «**وهابية**» ليستفز ثائرة المسلمين علينا ويجمع الجند منهم، ويقاتلنا بهم، فيريد بذلك نشر الفتنة، وتعظيم الخلاف، فيا أبناء الشام، وأهل باب كعبة رب الأنام، نحن مثلكم مسلمون مؤمنون موحدون، ندين بدين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، ونقر بترتيب الأصحاب كما جاؤوا فى الحكم والاستخلاف، ونقلد فى عبادتنا الإمام الأعظم أحمد بن حنبل، ونعترف أن إخوانه الأئمة الباقين هم مثله فى العظمة والصدق والصحة، فحذار ثم حذار أن يغركم ويفسدكم ويفتنكم، فتعطوه جنداً ومالاً فما أمامكم إلا إخوانكم فى الله يجاهدون فى الله، ولم يسبق بيننا وبينكم عداوة، ولا نحن طامعون فى بلادكم، فخلوا بيننا وبينه ليزول الأعجل، ويقضى الله أمرا كان مفعولاً، أما إن كانت لكم كلمة نافذة فاصرفوها فى سبيل إحقاق الحق، وبعد فإن من يتجند إلى قتالنا...فحسبنا الله عليه والسلام على من سمع فوعى[(١)]».

الأمير عبد العزيز يسيطر على بلاد الحجاز:

وفي شعبان ١٣٣٧هـ ـ آيار ١٩١٩م تمكنت قوات عبد العزيز آل سعود بقيادة خالد بن منصور بن لؤى، وسلطان بن بجاد من الانتصار في «**معركة تربة**»[(٢)] وفي عام ١٣٤٢ هـ اجتمع كبار نجد بالإمام عبد العزيز وبحثوا وإياه موضوع الحج الذى منعهم منه الشريف

---

(١) محمد رشيد رضا، مجلة المنار، دار المنار، مصر ٣٥ مجلداً مج ٢١ ص ٢٤٩ .

(٢) إبراهيم عبدالرحمن آل خميس، أسود آل سعود، دار النجاح بيروت، ط ١٩٧٢م ـ ص١٤٧ ـ ١٥١ «والمؤلف كان أحد جنود آل سعود وقد حضر الوقعة شخصياً».

حسين، واتفقوا على غزو الحجاز واستخلاص مكة من أيدى الأشراف، وكان على بن الحسين قد تولى الملك بعد أبيه الذى اضطر للتنازل عن العرش، ووصل موكب السلطان عبد العزيز مكة في ٧ جمادى الأولى عام ١٣٤٣هـ «١٩٢٤م»، وترك الشريف على بن الحسين جدة في ٦ جمادى الثانية عام ١٣٤٤هـ وذهب إلى العراق بحراً حيث نزل ضيفاً على شقيقه الملك فيصل إلى أن توفى[1].

ويذكر رشيد رضا الأسباب العامة التى دفعت بسلطان نجد إلى تخليص الحجاز من حكم الملك **حسين وهى**:

١ ـ موالاة شريف مكة وأولاده للدولة البريطانية وحلفائهم فى الحرب، وأنه كان يهنئ بريطانيا كلما احتلت مدينة من مدن فلسطين.

٢ ـ الإصرار على موالاة الحلفاء الأجانب، ومساعدتهم على تثبيت أقدامهم في البلاد الإسلامية والعربية.

٣ ـ تعهد بريطانيا بالمحافظة على مملكته داخلياً وخارجياً.

٤ ـ رضاه باستخدام بريطانيا لأولاده في العراق وشرق الأردن من أجل تحقيق أطماع هذه الدولة في البلاد الإسلامية والعربية.

٥ ـ لا يجوز أن يكون الحجاز مركزاً حربياً، أى عرضة للحرب، وإنما مصلحة المسلمين تكمن في جعله قُطْرَ حياد وسلام.

٦ ـ إصراره على تسمية نفسه ملك العرب وملك البلاد العربية.

٧ ـ تحكمه بهواه في أمر فريضة الحج، فهو يمنع منها من اتخذهم أعداء له، وفرض الضرائب الباهظة على الحجاج.

٨ ـ تكفيره للأتراك والمصريين والنجديين، وادعاؤه بأن حكومته وحدها تقيم الحدود

---

(١) أحمد السباعي، تاريخ مكة، مصر، ١٣٧٢ هـ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ وكانت نهاية الملك حين أرغمه البريطانيون على ترك العقبة التى وصلها ١٦ ربيع الأول ١٣٤٣ هـ، وذهب إلى قبرص وبقى فيها خمس سنوات، وعند اشتداد المرض عليه نقل إلى شرق الأردن حيث مات هناك عند ابنه عبد الله، عن عمر يناهز ٧٨ سنة، ودفن في القدس «المرجع نفسه ص ٤٣٦».

وتلتزم أحكام الشرع.

٩ ـ ادعاؤه الخلافة، الأمر الذى يجعل كل من يخالفه من الخوارج البغاة الذين يجب قتالهم[١].

وأما عن الأسباب المباشرة فيحصرها رشيد رضا بما يلي:

١ ـ بعد استلامه المدينة المنورة وجه كافة الجنود للزحف على نجد، ومباغتته أهلها أولا ثم انهزامه أمام النجديين.

٣ ـ طعنه المستمر فى دين الوهابية وعقائدهم ورميهم بالكفر تمهيداً لقتالهم واحتلال بلادهم.

٤ ـ شنه الغارات على السعوديين، وقيام ابنه وولى عهده الأمير عَلِيّ بحملة على الوهابيين بالقرب من خيبر[٢].

عبد العزيز آل سعود في مكة المكرمة :

غداة دخوله مكة المكرمة والمدينة المنورة قال السلطان عبد العزيز «**الملك فيما بعد**» مخاطباً المسلمين كافة: «**إن أعداءنا يشيعون أننا إذا استولينا على المدينة سنهدم روضة رسول الله ﷺ، وحاشا أن تحدث نفس مسلم بذلك، وإنى أفتديها بنفسى وولدى ومالى ورجالى، إن الشريعة الإسلامية هي القانون العام الذي يجرى العمل على وقفه في البلاد المقدسة، وأن السلف الصالح وأئمة المذاهب الأربعة هم قدوتنا فى السير على الطريق القويم، وسيكون العلماء المحققون من جميع الأمصار هم المرجع لكل المسائل التى تحتاج إلى تمحيص ونظر ثاقب**»[٣].

وعند دخوله للمدينة المنورة التى حرص على دخولها سلماً، سار مباشرة إلى مسجد الرسول ﷺ فصلى فيه، ثم أتى قبره الشريف فسلم، ثم رجع بعد أن أمر بمواساة

---

(١) رشيد رضا، المنار، مرجع سابق، مج ٢٥ ص ٥٥٧ راجع ،مجلة التقوى، العدد «٣٢» ربيع أول ١٤١٤هـ ـ أيلول ١٩٩٣م محمد درنيقه، موقف الشيخ رشيد رضا من الدعوة الوهابية، ص٣٨.

(٢) رشيد رضا، المرجع نفسه مج ٢٥ ص ٦٠٥ ـ ٦١٢، مجلة التقوى ـ المرجع نفسه ص ٣٨.

(٣) المرجع نفسه، مج ٢٦ ص ٣٢٠ «راجع مجلة التقوى المرجع نفسه».

الأهالي[١].

وبعد سيطرة آل سعود الكاملة على الحجاز وجه الأمير عبد العزيز نداء لجميع المسلمين أعلن فيه أن الأمن والعدل قد خيما على الأراضى المقدسة، مع تأمين الراحة وكل ما يلزم من الخدمة.

طبيعة الحياة بين الصواب والخطأ:

«إن محض الخير أو محض الشر لا تحصل إلا للمخلدين فى الجنة خير محض، وللمخلدين في النار شر محض»[٢].

وما عدا ذلك فإن فيه امتزاجاً لكنه في الآخرة خاص بالموحدين الذين ينالون قسطاً من العذاب ثم يعادون برحمة الله تعالى إلى الجنة، أما فى الحياة الدنيا فليست هناك مفاصلة تامة، بل المسألة مسألة تغليب جانب على الآخر، **«ليس في الدنيا محض مصلحة ولا محض مفسدة، والمقصود للشارع ما غلب منهما»**[٣].

يقول الشاطبي: **«فالمصالح والمفاسد الراجعة إلى الدنيا إنما تفهم على مقتضى ما غلب، فإذا كان الغالب جهة المصلحة فهى المصلحة المفهومة عرفاً، وإذا غلبت الجهة الأخرى فهي المفسدة المفهومة عرفاً»**...

«ولذلك كان الفعل ذو الوجهين منسوباً إلى الجهة الراجحة، فإن رحجت المصلحة فمطلوب، ويقال فيه إنه مصلحة ، وإذا غلبت جهة المفسدة فمهروب عنه، ويقال إنه مفسدة».

وهذا وجه النظر فى المصلحة الدنيوية والمفسدة الدنيوية، من حيث مواقع الوجود في الأعمال العادية[٤].

«وأما النظر الثاني فيها من حيث تعلق الخطاب بها شرعاً: فالمصلحة إذا كانت هى

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٨١.

(٢) راجع: الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، بيروت بدون تاريخ، «٤ مجلدات»، مج٢ ص ٣٢-٣٣.

(٣) راجع: الشاطبى، المرجع نفسه، ص ٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٦.

الغالبة عند مناظرتها مع المفسدة فى حكم الاعتياد، فهى المقصودة شرعاً ولتحصيلها وقع الطلب على العباد...» [(١)].

إن النظر فى الأمور خارج الأطر الشرعية التى تحاكم الأمور بالترجيح، كما هو واضح فيما أورده الشاطبي رحمهُ الله تعالى، إنَّ غير ذلك إِنْ حصل فهو تنطع، وخروج عن الواقعية.

وعندما ننظر فى شأن جهد ما يجب ألا تكون عملية التقويم لفكرة في الرأس غير مطابقة على المراد، وهكذا فإذا أريد الحكم على منهج دولة ما، أو مجموعة ما...أو فقيه ما، أو مفكر ما، فإنه يجب محاكمته بالتدريج، والسؤال الأول هو عن تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة الخاصة والعامة، ثم يتم الانتقال إلى الخيرية «**والوسطية**» والشهادة على الناس والتى يمكن تلخيصها بالسيادة على دار الإسلام، وحماية الثغور، ووضع الأمة في موقع الريادة والسيادة بين الأمم وأكثر... قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾ [(٢)]،﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...﴾ [(٣)].

إن الباحث في الحقبة الأخيرة للدولة العثمانية إلى واقعنا اليوم يرى بوضوح الجهد المشترك الذى بدأه الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع محمد ابن آل سعود ـ رحمهما الله تعالى ـ في حمل راية الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والحكم بشريعته، لكن ذلك لم يكتب له العمر الطويل وهنا خواطر ترد في ذهن المتتبع لحال الأمة الإسلامية:

أ ـ غياب نجم الدولة الإسلامية العالمية وفقدان الأمة لوحدتها.

ب ـ البلدان الإسلامية التى سقطت فى يد أعداء الإيمان وتوحيد الله عز وجل.

جـ ـ دور الأمة في التقدم الصناعى الذى تشهده المعمورة على أيدى غير المسلمين الذين لم يعد لوجودهم من معنى إلا الاستهلاك ومظاهر التخلف.

---

(١) الشاطبي، المرجع السابق، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) آل عمران: ١١٠

(٣) البقرة: ١٤٣

د ـ انتشار المفاسد في طول الأرض وعرضها على مساحة أرض الإسلام.

هـ ـ تراجع مهمة الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ والعمل على خلاص الإنسان والأخذ بيده إلى الرشد في الدنيا والجنة فى الآخرة ...

هذه أمور لا يتحمل مسؤوليتها طرف دون آخر.

نظام الحكم فى المملكة العربية السعودية:

«في عام ١٩٣٢م أصدر الملك عبد العزيز مرسوماً ملكياً ينص على أن الحكم سيكون طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ[١].

والعلم «أخضر اللون تتوسطه عبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله»

وتحت عنوان: نظام الحكم جاء ما يلى:

نظام الحكم في المملكة العربية السعودية ملكى، مبنى على القوانين الإسلامية «**الشريعة**» التى تنظم كل المسائل العامة تقريباً، .. وبالإضافة إلى أن الحكومة تستمد سلطتها السياسية من الشريعة الإسلامية التى تحدد الأطر السياسية فى جميع مجالاتها، فإن القواعد التالية تشكل العمود الفقرى لبناء الأمة في المملكة العربية السعودية.

١ ـ **الاستقرار**: وذلك عن طريق تعميق الحس الدينى لدى الشعب وتطبيق الشريعة، وتطوير وتحديث الأنظمة.

٢ ـ **سهولة الوصول إلى الحكام**: وبمقدور كل المواطنين أن يتصلوا بحكامهم وينقلوا لهم مظالمهم.

٣ ـ تعزيز التكامل والوحدة الوطنية بالتوزيع العادل للثروة وتوفير الخدمات في سائر أنحاء المملكة.

٤ ـ تقسيم الدولة إلى ١٤ إمارة كى يسهل حكمها وتقديم الخدمات لها[٢].

وأما السلطة القضائية ونظام الحكم فإن المحاكم الشرعية تقوم بمعالجة القضايا المدنية

---

(١) ملامح عن المملكة العربية السعودية، ص ٤.

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٦، ٧.

وقضايا الإجرام حسب الشريعة الإسلامية[١]...

جاء في المادة «٥٢» من نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعى فى معرض تحديد اختصاصات رئيس المحكمة الكبرى:

«**النظر في جميع القضايا والمخاصمات والمعاملات وفق أحكام الشريعة الإسلامية..**»[٢].

ولقد عملت المملكة على إصدار لوائح أساسية لأحدث وأرقى النظم فى ممارسة القضاء، ولقد جاء فى المادة «٥٢» من تنظيم الأعمال الإدارية فى الدوائر الشرعية «**الأحكام التى تصدر في سائر المدن الحجازية في قضايا القتل والقطع والرجم لا تنفذ إلا بعد عرضها على رئيس القضاة وتصديقها منه ومن هيئة التمييز**».

وأما الأحكام التى هى دون ذلك المستوى فقد جاء فى المادة «٥٣»: الأحكام التى تصدر فى المدينة المنورة أو فى غيرها من البلدان التى فيها أكثر من قاض واحد في قضايا الجنح والتعزيرات والحدود ما عدا القتل والقطع والرجم المنصوص عليها في المادة «٥٢» لا تنفذ إلا بعد إقرارها من أكبر قاض فى تلك البلدان[٣] وجاء فى اللائحة التنفيذية لنظام مكافحة الغش التجاري في المادة الثالثة: «**تعتبر السلعة غير مطابقة للمواصفات المقررة مغشوشة أو فاسدة في الأحوال الآتية:**

أ ـ ....

ب ـ إذا كانت السلعة من المواد المحرمة شرعاً أو الممنوعة نظاماً أو احتوت على شيء من ذلك[٤].

وجرياً على اقتطاف عناوين عريضة للوائح والنظم المطبقة في المملكة العربية السعودية،

---

(١) ملامح عن المملكة العربية السعودية ، م.س: ص ٧.

(٢) المملكة العربية السعودية، نظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعي، رقم ١٠٩ في ٢٤/ ١/ ١٣٧٢هـ، ط٤ ـ الرياض ١٣٩٨هـ ـ ص ٩.

(٣) المملكة العربية السعودية، تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية، رقم ١٠٩ في ٢٤/ ١/ ١٣٧٢ هـ، ط ٥ ـ الرياض ١٣٩٨ هـ ـ ص ١١.

(٤) المملكة العربية السعودية ، مجلس الوزراء، شعبة الخبراء، نظام مكافحة الغش التجاري ولائحته التفيذية ـ ط ٢ ـ الرياض ١٤١٣هـ ـ ص ٣١.

نذكر بعض السياسات الخاصة بالدولة، ففي السياسة التعليمية مثلاً، جاءت الخطوط الأساسية كما يلي:

«والسياسة التعليمية في المملكة العربية السعودية تنبثق من الإسلام، الذي تدين به الأمة عقيدة وعبادة وخلقاً وشريعة وحكماً ونظاماً متكاملاً للحياة، وهى جزء أساسى من السياسة العامة للدولة»[1]..

وشمل الباب الأول الأسس العامة التى يقوم عليها التعليم:

١ ـ الإيمان بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

٢ ـ التصور الإسلامى الكامل للكون والإنسان والحياة، وأَنَّ الوجود كله خاضع لما سَنَّهُ الله تعالى...

٣ ـ الحياة الدنيا مرحلة إنتاج وعمل... فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل.

٤ ـ الرسالة المحمدية هى المنهج الأقوم للحياة الفاضلة...

ومما جاء في الفقرة «١٠»: طلب العلم فرض على كل فرد بحكم الإسلام، والفقرة «١١» العلوم الدينية والثقافة الإسلامية أساسية فى كل مراحل التعليم، والفقرة «١٢» توجيه كل العلوم والمعارف وجهة إسلامية فى معالجة قضاياها ...

والفقرة «**٢٣**»: شخصية المملكة العربية السعودية متميزة بما خصها الله به من حراسة مقدسات الإسلام وحفاظها على مهبط الوحى، واتخاذها الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة ودستور حياة، واستشعار مسؤوليتها العظيمة فى قيادة البشرية بالإسلام وهدايتها إلى الخير، « **والفقرة «٢٥»** أناطت بهم مهمة الدعوة إلى الله تعالى فى مشارق الأرض ومغاربها، والفقرة «**٢٦**» الجهاد فى سبيل الله فريضة محكمة وسنة متبعة وضرورة قائمة وهو ماضٍ إلى يوم القيامة[2].

(١) سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية ـ ط ٣ ـ سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ ص ٧.

(٢) سياسة التعليم، المملكة العربية السعودية ـ م . ج ـ ص ٨ ـ ١١.

وجاءت أهداف التعليم في كل مرحلة كما يلي:

١ ـ **دور الحضانة**: ٦٣ ـ صيانة فطرة الطفل، ورعاية نموه الخلقى والعقلى والجسمى فى ظروف طبيعية سوية لجو الأسرة، متجاوبة مع مقتضيات الإسلام.

٢ ـ **الابتدائى**: ٧٣ تعهد العقيدة الإسلامية الصحيحة فى نفس الطفل، ورعايته بتربية إسلامية متكاملة فى خُلقه وجسمه وعقله ولغته وانتمائه إلى أمة الإسلام.

٣ ـ **المتوسط**: ٨٣ ـ وتنمية محبة الله وتقواه وخشيته في قلبه.

٤ ـ **الثانوي**: ٩٤ متابعة تحقيق الولاء لله وحده، وجعل الأعمال خالصة لوجهه ومستقيمة فى كافة جوانبها على شرعه.

٥ ـ **التعليم العالي**: ١٠٩ ـ تنمية عقيدة الولاء لله .... [١].

وفي القضايات المالية، فقد تم تأسيس مصلحة مستقلة فى وزارة المالية اسمها: «**مصلحة الزكاة والدخل**»[٢].

هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

إنها سلطة شرعية، مستقلة عن السلطات الأمنية الأخرى، ومن حقها أن تطلب من بقية الإدارات ما تراه ضرورياً، حتى الإحالة على المحاكم الشرعية، وللرئيس العام لهذه الهيئة:

أ ـ التحقيق فى القضايا والمخالفات المحرمة.

ب ـ التحقيق في القضايا الأخلاقية، وقضايا التهم وتحديد نوع العقوبة التى لا تزيد عن الحبس ثلاثة أيام.

وفي صلاحيات الرئيس العام نصت المادة الخامسة على أنه يرتبط مباشرة برئيس مجلس الوزراء، وله ما للوزير من صلاحيات فى وزارته، وجاء فى المادة السادسة أن من حقه أن

---

(١) يراجع سياسة التعليم ـ المرجع السابق في كل فقراته.

(٢) يمكن مراجعة نظمها في: مجموعة أنظمة ضريبة الدخل، وضريبة الطرق وفريضة الزكاة لغاية نهاية عام «١٣٩٦هـ» ـ ط ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

يطلب من إمارة المنطقة إحالة القضية التى يرى إحالتها إلى المحكمة الشرعية.

ونصت المادة التاسعة على أن «**من أهم واجبات هيئات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إرشاد الناس، ونصحهم لاتباع الواجبات الدينية المقررة فى الشريعة الإسلامية، وحمل الناس على أدائها، وكذلك النهى عن المنكر بما يحول دون ارتكاب المحرمات والممنوعات شرعاً..**».

وجاء في المادة العاشرة: «**على الهيئات القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل حزم وعزم مستندة إلى ماورد في كتاب الله، وسنة رسوله، ومقتدية بسيرته ﷺ وخلفائه وطرق إنكارها، وأخذ الناس بالتى هى أحسن، مع استهداف المقاصد الشرعية فى إصلاحهم**».

وألزمت المادة «١٦»: المحاكم الشرعية بإخطار الهيئة عن الأحكام التى تصدرها لمتابعة تنفيذها، وألزمت المادة «١٨» الجهات الحكومية والأهلية بالتعاون مع هيئات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١].

هذا، وإن اللائحة التنفيذية تحفظ كل الحرمات، حرمة البيت، وحرمة الفرد، وحرمة النساء والأطفال، وعدم ترويع أحد أثناء عمليات الدهم والتفتيش عند الاشتباه بوجود منكرات[٢].

ديوان المظالم:

جاء في المذكرة الإيضاحية لنظام ديوان المظالم:

١ - يتطلب نظام الحكم فى الإسلام وجود قاضٍ للفصل فى المنازعات التى تثور بين الأفراد بعضهم بعضاً، أو بين الأفراد والدولة ممثلة فيمن يتولى إدارة مرافقها.

---

(١) المملكة العربية السعودية - مجلس الوزراء، نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولائحته التنفيذية - الرياض - ١٤١١هـ - ط١.

(٢) راجع: المرجع السابق - المواد: ١ - ٢ - ١٤ - ١٥ - ١٧ وفي مجال حرمة النساء، نصت المادة «٤٩»: «لا يجوز إجراء التحقيق مع النساء إلا بحضور محضر لهن، أو من يقوم مقامه...»

والمادة «٥٠»: «لا يجوز احتجاز النساء بمراكز الهيئة إلا وقت إجراء التحقيق، وفيما عدا ذلك وبشكل خاص بعد الغروب يوميا يتم ترحيلهن إلى دور التوقيف المخصصة لهن ...إلا في السجون المخصصة للنساء».

والقرآن الكريم لم يضع تنظيماً مفصلاً للسلطة القضائية، وتم ترك ذلك للأمة الإسلامية كي تفعل ما يتناسب مع كل عصر وظرف.

«**وقد عرف نظام الحكم فى الدولة الإسلامية تنظيماً مميزاً أطلق عليه ولاية المظالم، وبدأ هذا التنظيم فى عهد رسول الله ﷺ، وتطور مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتعدد وظائفها**» فقد كان عمر رضي الله عنه يستدعى الولاة فى موسم الحج ليحاسبهم، وكذلك أنشأ الأمويون دار المظالم، وكذا فعل خلفاء بنى العباس ومع اتساع الدولة الإسلامية كان لا بد من تخصيص قاض للمظالم إلى جانب القاضي العادى.

وجاء فى الفقرة «**٢**»: «**وإن المملكة العربية السعودية وقد نشأت نشأة إسلامية، عملت على إرساء قواعد العدالة بالنسبة للمواطنين كافة، واقتضى ذلك الاهتمام بولاية المظالم، حيث جعل المغفور له الملك عبد العزيز بابه مفتوحاً لأصحاب المظالم، ودعا الناس أنْ يأتوه بمظالمهم، وأن يضعوا شكواهم في صندوق الشكايات المعلق على دار الحكومة**[1]».

وجاء فى المادة «**١**» من نظام ديوان المظالم: «**ديوان المظالم هيئة قضاء إدارى مستقلة، ترتبط مباشرة بجلالة الملك، ويكون مقره مدينة الرياض، ويجوز بقرار من رئيس الديوان إنشاء فروع له حسب الحاجة**».

وهكذا فإن المؤسسات القضائية إلى جانب هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تبرز وجهاً رائعاً لممارسة أحكام الشريعة الإسلامية في عالمنا المعاصر.

*****

---

(١) المملكة العربية السعودية نظام ديوان المظالم ومذكرته الإيضاحية المرسوم الملكى رقم م/ ٥١ تاريخ ١٧/ ٧/ ١٤٠٢ هـ الرياض - ص ٢٠ .

المبحث الثالث
دعوات وحركات عاشت
بين الإصلاح والدولة

أولا: الحركة السنوسية: ١٢٠٦هـ - ١٢٧٦ هـ

بعد المرحلة الأولى لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاءت المرحلة الثانية التى بدأت باتفاق الدرعية سنة ١١٥٨ هـ سنة ١٧٤٠ ميلادية بين كل من الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - والإمام محمد بن سعود - رحمه الله، وقد رتب شقيقا الإمام محمد بن سعود «**ثنيان، ومشارى**» اللقاء وكان مما دار بين الرجلين:

بادر ابن سعود الشيخ بالسلام وقال له:

أبشر بالخير والعزة والمنعة فرد عليه الشيخ قائلاً: وأنت أبشر بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد، إنها كلمة لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل لها ونصرها ملك بها العباد والبلاد.

ومما قاله الشيخ رحمه الله: أنت ترى بلاد نجد من أقصاها إلى أقصاها قد انغمست فى الوثنية وغرقت فى الضلال والشرك وعميت بصائرها عن طريق الحق والهدى، وقد استباحوا المحرمات وعادوا إلى حياة الجاهلية، يقتل بعضهم بعضا لأتفه الأسباب وأحقر الحوادث.

ولكى يعقد الاتفاق طلب محمد بن سعود من الشيخ شرطين جاءا بالصيغة التالية:

إن لى عليك شرطين لا بد من الوفاء بهما إذا نحن قمنا بنصرتك والجهاد فى سبيل الله - تعالى - وهما:

أولاً: أن تظل لدينا إن فتح الله لنا البلاد ولا تستبدل بنا غيرنا.

ثانياً: إن لى على أهل الدرعية خراجا أتناوله منهم وقت جنى الثمار فلا تمنعنى من أخذه.

فأجاب الشيخ: أما عن الأولى فامدد يدك، فمدها فقبضها وقال: الدم الدم والهدم الهدم.

وأما عن الثانية فقال: لعل الله يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ما هو خير من الخراج.

هذا الاتفاق كان الأساس الذى رفعت عليه قواعد الدولة السعودية.

وبعد فتح الرياض سنة ١١٨٨هـ اعتزل الشيخ محمد بن عبد الوهاب الحكم بعد أن اطمأن إلى أن الدعوة استقرت وتأمنت سبل نشرها، وجعل الحكم كله بيد الإمام محمد بن سعود، وفوض إليه أمور المسلمين وأمور بيت المال، ثم لزم الشيخ العبادة ونشر العلم حتى أصبح الكتاب فى يدى كل إنسان فى الدرعية، حتى الراعى مع غنمه، وأصبحت الدرعية مركزاً لكل طالب علم، وهكذا حركة إصلاحية تكونت منها دولة لا زالت في قوتها حامية للحرمين الشريفين.

وهنا نقول: إن كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ قد أدت إلى قيام الدولة السعودية فى المشرق ففى المغرب ـ وبتحرك تكاملى استفاد اللاحق فيه من السابق ـ كانت الدعوة السنوسية التى بدأت على يد السيد العلامة محمد بن على السنوسى الذى ولد فى ربيع الأول سنة ١٢٠٢ هـ الموافق ١٧٨٧م، وتوفى سنة ١٨٥٩ ميلادية، وكان مولده ـ رحمه الله ـ فى بلدة مستغانم الواقعة على الساحل الجزائرى، وقد بدأت الدولة السنوسية فى بداية تفكير السيد محمد ابن على السنوسى في أمر هذه الأمة، فيروى أنه حدث ذات مرة أن وجده بعض الشيوخ جالساً فوق كثيب من الرمال تبدو عليه علائم التفكير، فلما استوضحوه عن السبب فى ذلك كان جوابه: إنه إنما يفكر فى حال العالم الإسلامى الذي لا يعدو عن كونه قطيعا من الغنم لا راعى له، على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه ومشايخ طرقه وعلمائه... ومع وجود كل ذلك فإن العالم الإسلامى لا يزال مفتقرا أشد الافتقار إلى مرشد حقيقى يكون هدفه سوق العالم الإسلامى أجمع إلى غاية واحدة ونحو غرض واحد فلما سألوه: وماذا يجب على المسلمين عمله لتلافى هذا الواقع؟ قال: سأجتهد، سأجتهد.

العوامل التى أثرت فى شخصيته:

١ ـ نقم على الأتراك لما كان يراه من ظلم الولاة، والذى نمّى ذلك عنده شيخه

«**القندوز**» الذى قتل على يد الوالي التركى حسن بك عندما وجد فيه خطراً عليه.

٢ـ أن إحساسه بنسبه للأدارسة الذين حكموا المغرب من جهة، وللبيت النبوى الشريف أيضا من جهة أخرى قد أثر تأثيرا كبيراً فى إشعاره بمسؤوليته فى الإصلاح.

٣ـ حدة الذكاء عنده وتربيته فى أسرة علم ودين.

رحلاته:

فى عام ١٢٠٠هـ غادر بلده إلى فاس كى يدرس فى جامعها المشهور «**القرويين**».

وهناك فى فاس أخذ يدرس على مشاهير رجال العلم الذين يؤمون جامع القرويين الذى يعتبر أول جامعة علمية عرفها العالم، وفى تلك الفترة التى قضاها فى فاس توضحت بشكل أبين الاتجاهات الإصلاحية فى شخصيته الفكرية والعلمية.

وتبلورت أفكاره في التجديد والإصلاح، وقد رسمت شخصيته **بالخطوط التالية:**

١ـ **الصوفية**: التى كانت لها أهمية ليس فى فاس فحسب، بل فى شمال أفريقيا كلها، وبذور الصوفية عنده نشأت منذ صباه فى بلدة مستغانم.

٢ـ **الدراسات الفقهية**: درس الفقه على المذهب الملكى، وتبين تآليفه فيما بعد سعة إطلاعه على الفقه المالكى وفقه المذاهب الأخرى.

ومن دراسة شخصية الرجل تبين أنه لم يكن صوفياً غارقاً فى شطحاتها، ولا فقيهاً يقف عند حد الحروف الفقهية ولم يتجمد فى فهم أحكامها، بل زاوج بين دراسته واتجاهه، فأكسب صوفيته طابع السنة، ولجمها بحدود الشرع وأكسب فقهه طابع الروحية المتألقة.

٣ـ **الخط الثالث**: هو اهتمامه بالحركات السياسية أو العمل لإصلاح الأوضاع المختلفة، مما دفعه إلى إيجاد تنظيم شعبى يسند هذه المطالب.

ومما ساعده على فهم عقلية الجماهير عمله في التدريس فى الجامع الكبير فى مدينة فاس حيث مارس الوعظ والدعوة إلى الله، وقد نجح فى كسب ثقة العامة وفى توجيههم، إلا أن ذلك الواقع الجديد أزعج السلطة التى زادت فى مراقبته مما اضطره إلى مغادرة فاس.

ومن فاس توجه إلى الأغواط (فى الجزائر) ومنها توجه إلى قابس فطرابلس الغرب

وبنغازى، ميمماً شطر الأزهر فى القاهرة، إلا أن إقامته لم تطل، فقد أثار حفيظة علماء الأزهر بآرائه، فغادرها إلى الحجاز عام ١٨٣٠م، بعد زيارة إلى اليمن برفقة الإمام أبي العباس أحمد بن عبد الله الفاسى، عاد إلى مكة حيث أنشأ زاويته الأولى فى جبل أبى قبيس عام ١٨٣٧ وأتبعها بزوايا عدة فى الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع.

وعاد إلى مصر عام ١٨٤٠ فى طريقه إلى الجزائر، فعرج على طرابلس الغرب، ولكنه عاد إلى تونس خوفا من الفرنسيين الذين كانوا قد احتلوا الجزائر، ثم إلى بنغازى حيث وصلها عام ١٨٤١م، ثم قرر الإقامة نهائيا فى ليبيا، وأنشأ عام ١٨٤٣م «**الزاوية البيضاء**» فى الجبل الأخضر فكانت أول زاوية سنوسية فى شمال إفريقيا، وزار الحجاز مرة ثانية وعاد منها إلى ليبيا عام ٦٥٨١ م، وقرر نقل مركز دعوته من «**الزاوية البيضاء**» إلى واحة الجغبوب البعيدة عن أنظار السلطة الفرنسية فى الجزائر، والحكومة المصرية، والحكومة العثمانية، التى أعادت السيطرة على ولاية طرابلس الغرب عام ٤٣٨١م آخذاً بعين الاعتبار توسط الجغبوب وسهولة اتصالها ببرقة وطرابلس والسودان الغربى، وأقام السنوسي فى الجغبوب مدرسة دينية كبيرة يتعلم فيها الأتباع أصول الدعوة السنوسية ويتخرجون منها لنشرها فى البلاد المجاورة.

توفى السنوسى الكبير فى الجغبوب عام ١٨٥٩ م بعد أن انتشرت دعوته فى برقة وطرابلس، وخلفه فى زعامة الحركة ابنه المهدى (١٨٥٩ـ١٩٠٢)، وفى عهده بلغت السنوسية ذروة نشاطها وانتشارها، إذ انتقل مركزها من الجغبوب إلى الكفرة ٦٠٠ كم عن طرابلس عام ١٨٥٩م مما ساعد على انتشار الدعوة في بلاد كورد، وبستى، وبركو واندى، ودارفور، ووداى، وكانم ، وتشاد، وزاقر، وبغرمى.

وقد رفض المهدى السنوسى التحالف مع المهدى فى السودان ومساعدة العُرابيين فى مصر عام ١٨٨٢ والتفاهم مع الإيطاليين لإيقاف التوسع الفرنسي فى تونس عام ١٨٨١م، ومعونة السلطان العثمانى فى حربه مع روسيا القيصرية (١٨٧٦ـ ١٨٧٨) وعروض الألمان فى إيقاف النفوذ الفرنسي فى إفريقيا عام ١٨٨٢م، محاولاً بذلك الابتعاد عن النزاعات الدولية وواضعاً نصب عينيه، نشر الإسلام فى إفريقيا.

إلا أنه لم يتمكن من التمسك بمبدأ الحياد هذا، عندما تقدم الفرنسيون فى أواسط أفريقيا فاضطر إلى محاربتهم وعند وفاة المهدى عام ١٩٠٢، كان للسنوسية ١٤٦ زاوية موزعة كما يلي: برقة ٤٥، مصر ١٢، الجزائر ٧١، طرابلس الغرب ٨٢، فزان ١٥، الكفرة ٦، السودان ٤١[١].

الزاوية عند السنوسي[٢]:

تقوم الزاوية عند السنوسى على قطعة من الأرض، **وتتألف من مجموعتين من الأبنية:**

الأولى: مخصصة لمسكن شيخ الزاوية وأسرته، **والثانية** تشمل المسجد والمدرسة والمضافة، ويحيط بالزاوية سور تعلوه أبراج للدفاع عنها فى حالات الهجوم، وللزاوية أراضى زراعية وآبار جوفية وصهاريج للماء، أما المسؤول فهو شيخها «**المقدم**» يساعده مجلس يتألف من وكيل الزاوية وشيخ وأعيان القبيلة المرتبطة بها، ووجهاء المهاجرين إليها، ذلك أنه كان لكل قبيلة زاوية أو أكثر، وينظر مجلس الزاوية فى قضايا الأهالى، وفض المنازعات بينهم، أما المقدم فهو القيم على الزاوية والمكلف برعاية أمور القبيلة وتبليغ الأوامر الصادرة عن رئيس النظام (أي زعيم الحركة السنوسية) وإلى جانب المقدم يوجد وكيل الداخل والخارج الذى يشرف على جميع الأمور الاقتصادية فى الزاوية ولكل زاوية شيخ للمسجد، يعلم أطفال القبيلة، ويعقد عقود الزواج، ويصلى على الجنائز، أما خطبة الجمعة فيلقيها المقدم بصفته ممثلَ رئيس الحركة.

والزاوية مصدر السلطة فى القبيلة والمركز التعليمى والثقافى والاقتصادى للمنطقة المحيطة بها (فهى سوق هام تقع عادة على مركز تقاطع طرق القوافل)، كما أنها فى الوقت نفسه حصن دفاعى، مهمته دفع خطر الأعداء وصد هجماتهم.

وتنحصر موارد الزاوية السنوسية فى المحصولات الزراعية من حبوب وتمور ومواشى، والهبات الخيرية، والزكاة التى تجبى رسميا من القبيلة.

---

(١) المحافظة على الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة ١٧٩٨ـ ١٩١، الأهلية للنشر ص٥٥ـ٥٧ .

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٢٣٦ ـ ٢٤٩، وانظر: على حاف/ و المرجع السابق ص ٥٨،٥٩.

ويحق لمقدم الزواية أن يحتفظ بعشر المحصولات للإنفاق على شؤونه الخاصة ويبعث بالفائض إلى المركز الرئيسى.

أما التنظيم الهرمي للحركة السنوسية فهو كالتالي:

١ـ شيخ الطريقة أو رئيس النظام وهو الرئيس الأعلى.

٢ـ مجلس الخواص وكان يتألف فى البداية من أشخاص لا ينتمون إلى السنوسية، ومهمته مساعدة شيخ الطريقة فى تعيين شيوخ الزاوية.

٣ـ شيوخ الزاوية.

٤ـ الإخوان ومهمتهم كسب الأعضاء العاديين إلى الحركة أو الطريقة.

مبادئ الحركة السنوسية:

وتقوم السنوسية على المبادىء التالية:

١ـ العودة بالإسلام إلى نقائه الأول.

٢ـ اعتبار الكتاب والسنة مصدرا الشريعة الاسلامية، وهى في هذا متأثرة بآراء شيخ الإسلام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب، التي اطلع عليها محمد ابن على السنوسى أثناء إقامته بالحجاز.

٣ـ فتح باب الاجتهاد في الإسلام، واعتبار إغلاق هذا الباب سببا فى تحجير الفكر الإسلامى ودخول البدع إليه.

٤ـ تنقية الدين مما علق به من بدع وضلالات.

٥ـ الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف.

٦ـ حصر الإمامة فى قريش.

٧ـ المهدوية: ظهرت فكرة الإيمان بالمهدى المنتظر عند السنوسيين فى عهد محمد المهدى السنوسى، وقال بها علماؤهم وعامتهم ولم تظهر هذه الفكرة عندهم قبل ذلك.

محمد المهدى السنوسى: ١٢٦٠ هـ ـ ١٨٤٤ـ ١٩٠٢ م):

هو الابن الأكبر لمحمد بن على السنوسى وخليفته فى رئاسة الحركة السنوسية ومحمد

الشريف كان الشقيق الوحيد له.

أما محمد المهدى فلقد تلقى علومه فى الحجاز،وكذلك شقيقه محمد الشريف، وكان المهدى فى طفولته ذكياً، حسن الخلق، رفيع التربية، وهذا ما يفسر لنا إعجاب والده به، وكان والده يكثر من سؤال الإخوان الذين يشرفون على تربيته وتعليمه عما وصل إليه، فكانوا يبدون إعجابهم به.

وقد حرص ابن السنوسى أن يزوج ابنه المهدى فى حياته، فزوجه وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره بفاطمة بنت عمران بن بركة وذلك سنة ١٢٧٥ هـ ـ ١٨٥٨م وقد أنجبت للمهدى عدة أولاد وتوفيت فى حياته سنة ١٨٩١م.

منجزات السنوسي:

عند دراسة هذه الحركة يمكننا أن نلاحظ نجاحها فى تحقيق عدة أمور منها:

١ـ نجاحها فى إصلاح المجتمع البدوى بأن حولت الأفراد إلى العمل والإنتاج، وبثت فى نفوسهم عقيدة دينية، نظمت تصرفاتهم ووجهتها إلى طريق البناء، فتكون فى الصحراء مجتمع متكامل متعاون تسود فيه روح الأخوة والسلام.

٢ـ كما أنها نجحت فى إقامة سلطة تمسك بزمام جميع الأمور وتشرف على الفرد والمجتمع وتعمل على تحقيق أهداف الحركة،ولم تفرض هذه السلطة نفسها بالقوة على الأفراد، وإنما تبعوها راضين من أنفسهم لأنها نبعت من إيمانهم بها.

٣ـ وقد نجحت كذلك فى القيام بنشر الإسلام بين القبائل الوثنية.

كما أنها تميزت بأنها حركة سلمية شعارها الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبأنها حركة علمية جددت فى الإسلام وفتحت باب الجهاد وخلصت الصوفية من الشوائب التي علقت بها وعملت على نشر العلم والكتاب(١).

قال الرحالة الفرنسي دوفرير:

إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التى قامت ضد فرنسا فى الجزائر،

---

(١) أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت ط ١٩٦٧.

واليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا فى الشمال الأفريقى وفى السنغال.

ثم يقول: إن الحقيقة التي يجب ألا نغفل عنها أن الطرق السنوسية هى أخطر أعداء نفوذنا وأنها العقبة فى سبيل توسعنا السياسى والاقتصادى داخل أفريقيا، وعائق فى طريق أهدافنا فى القارة الواسعة شمالى خط الاستواء وإن السنوسية هى القوى المحركة لجميع الحوادث التى وقعت فى البلاد الإسلامية للحيلولة دون انتشار النفوذ الأوربى(١).

الحركة السنوسية والدولة العثمانية:

تعتبر الحركة السنوسية من الحركات الناضجة التى شهدها القرن الثالث عشر للهجرة الشريفة، لقد عملت فى شمالى وعمق إفريقيا وأسست الزوايا «**الرباط**» التى كانت تقام على مفارق الطرق وفى الأماكن الاستراتيجية وكانت مؤلفة من جهاز متكامل، المقدم، والمزارعين والمدرسين، أى المزرعة والمدرسة ـ ومن أَجَلّ أعمال الزاوية شراء الرقيق وتعليمهم ثم إرسالهم دعاة إلى بلادهم فى أواسط إفريقيا.

وأما الذي يعنى البحث فهو موقف السنوسى من دولة الخلافة، فبالرغم من اقتناعه بأن الخليفة يجب أن يكون قرشياً، لم يُثِرْ هذا الموضوع إطلاقاً حرصاً على استقرار الدولة العثمانية ـ ولعدم فتح باب النزاع حرصاً على مصلحة المسلمين أجمع.

لقد كان السنوسي يرى أن أى خلاف مع دولة الخلافة يتنافى وهدف الحركة الذى يتلخص فى إيجاد دولة إسلامية قوية تكون عوناً للدولة الأم، وتعيد لها قوتها وثقة الناس بها.

لقد أحجم السنوسى عن الإقدام على أى صراع مع دولة الخلافة ـ وكان يعترف بسلطتها وشرعيتها،ولم يكن يبغى قيام دولة منفصلة عنها، بل كان يعمل تحت لواء دولة الخلافة، على تقويتها وتأكيد سلطتها على البلاد الإسلامية، لذلك لم يتبع السنوسى أساليب الإضعاف للدولة العثمانية، فلم يشعل الثورات ولم يسمح للدول المسيحية أن تنتقص من حقها بالرغم من كل محاولات هذه الدول للإيقاع بين السنوسية ودولة

(١) أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين ص ٤٠١.

الخلافة، ولقد بادلت دولة الخلافة الحركة السنوسية التحية بمثلها، وجريا على منهجها في توثيق عرى الوحدة بين أقاليمها،فقد أعلنت اعترافها بالحركة إلا أن السنوسى لم يقبل أن يرسل مجاهدين لمساعدة دولة الخلافة فى حربها مع روسيا، جرياً على منهجه فى العمل الداخلى، ولعل ذلك يرجع إلى أن إفريقيا كانت ثغراً مهماً ـ يجب عدم الانصراف عنه، كما أنه كان يتجنب الاحتكاك بالدول الأوربية، ومع ذلك فالحركة لم تنجُ من حربهم، فكان لها شرف الجهاد ضد الصليبيين، وقد حرصت الحركة ألا يكون في عنقها دم مسلم، خاصة وأن دماء مجاهديها كانت تنزف فى جهادهم للصليبيين، وهذا مسلك عظيم للحركة السنوسية[1].

إلا أن دولة الخلافة وقفت مع الحركة يوم أخذت على عاتقها مجاهدة الإيطاليين، وأمدتها بالمال والسلاح والضباط ثم تم إرسال مقاتلين، وكان ذلك بتنسيق من شكيب أرسلان رحمه الله تعالى، الذي شارك بنفسه فى شرف الجهاد جنباً إلى جنب مع مجاهدى الحركة السنوسية، غير أن إعلان دول البلقان «**بلغاريا وصربيا واليونان والجبل الأسود**» الحرب على تركيا بتدبير من روسيا، دفع بالسنوسيين إلى أن يحاربوا وحدهم بسبب انشغال الدولة بحرب البلقان، ومع ذلك فقد استمر أحمد الشريف يحارب الإيطاليين حتى نشب صراع بينه وبين ابن عمه السيد محمد إدريس فقل أنصاره وتم استدعاؤه إلى الآستانة عام ١٩٢٢ م.

إن خطة الحركة السنوسية كانت تتلخص في إيجاد الإسلام الصحيح فى أرضه بحيث يكون قوياً متيناً، ومنها يكون الانطلاق إلى غيرها، وبالتالى يكون السنوسيون عوناً لدولة الخلافة الإسلامية التى كانت في طور الضعف والاضمحلال، وإن التنظيمات الداخلية التى نفذتها والعلاقة بين السنوسى وأتباعه كانت خير وسيلة لإقامة ذلك البنيان الذى استعصى على أقوى الدول الأوربية فى مطلع القرن العشرين للميلاد..

لقد كان رأى محمد على السنوسى وابنه من بعده أن بقاء دولة الخلافة هو السياج

---

(١) يراجع: أحمد صدقي الدجاني ـ الحركة السنوسية ـ دار لبنان للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٤٧ ـ ص١٩٨ ـ بتصرف.

الحافظ للبلاد الإسلامية الأخرى، وأن زوالها لن يكون فى صالح المسلمين إطلاقاً، بل سيكون فى صالح الدول الاستعمارية التى تتحين الفرصة لإسقاط الخلافة، وابتلاع ما تبقى من دويلات إسلامية، وكان يرى فى حرب دولة الخلافة ومعاداتها إضعافاً للمسلمين، وللحريات الإسلامية الرامية إلى إعادة الخلافة إلى قوتها وهيبتها، فأى جهد ضدها إنما هو بمثابة معول هدم لصرح الإسلام والمسلمين، والعلاج يكون بالإصلاح والمساندة وليس بالهدم والمعاداة.

رحم الله تعالى محمد بن على السنوسي وخلفاءه الذين تركوا بمواقفهم تراثاً فريداً من نوعه فى زمن كانت الفتن تأكل الأخضر واليابس في بلاد المسلمين وفى أوقات حرجة كانت فيها دولة الخلافة تحتضر، وكأنهم تمثلوا قول الرسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت**»[1] وهكذا يمكن ذكر مآثر الحركة وفضائلها.

إن الحركة السنوسية كانت حركة حملت مواصفات كثيرة للحركة الإسلامية الناجحة، من حيث المنهج والأسلوب الحركى، وكانت على مستوى الأحداث الجسيمة التى كانت تعيشها الأمة الإسلامية وقتها، فاستطاعت أن تسدد وتقارب فى الوصول إلى هدفها الكبير، وأَنْ ترهب الدول الصليبية وتشتت جهودهم بين الآستانة وطرابلس، أو بمعنى أصح بين قارتى آسيا وأفريقيا، وأعادت إلى المسلمين بعض الثقة في نفوسهم وفى دولة الخلافة ... ومع ذلك فلم تمت تلك الحركة فهى التى انتزعت استقلال ليبيا من الإيطاليين الذين قتل لهم فى طرابلس أكثر من عشرة آلاف على يد السنوسيين بقيادة الملك الراحل محمد السنوسى رحمه الله.

*****

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٨).

الحركة المهدية فى السودان
٢٧ رجب سنة ١٢٦٠ هـ إلى ٤٢ نوفمبر١٨٩٩م

مؤسس الدولة ـ اسمه وحياته:

محمد بن أحمد بن عبد الله، من قبيلة ناقلة، حيث ولد للسيد محمد بن الحاج شريف ولد أسماه عبد الله، وهو والد المهدى وكان صانعا ماهرا، حذق هو وبعض أفراد أسرته حرفة النجارة، وصناعة السفن، وكانت المنطقة التى يعيشون بها بدنقلة لا تسعفهم بالأخشاب الصالحة لمزاولة مهنتهم، فارتحل عبد الله هذا ومعه أسرته إلى المدينة «**كررى**» الواقعة على بعد خمسة عشر ميلا شمالى «**أم درمان**»، والتى كانت أخشاب غاباتها موائمة لمهنته، وقد صحبه فى هذه الرحلة التى لا تخلو من الخشونة وَلَدُه محمد أحمد، وظل عبد الله يزاول مهنته بمدينة «**كررى**» حتى عام ١٢٦٥هـ ـ١٨٥١م حيث توفى تاركا ولده محمدا فى سن الخامسة، ولسبب لا نعلمه ـ ربما كان نقص الأخشاب أو مجرد الانتجاع والظعن، حيث يدلنا تاريخ الأسرة على أنها بدوية رحالة لا تكاد تعرف الاستقرار ـ هاجرت الأسرة بعد موت عاهلها عبد الله إلى الخرطوم، وهناك راحوا يزاولون مهنتهم ببلدة «**المنجرة**» عند «**المقرن**» (اقتران النيل الأبيض بالأزرق)، وبعد سنوات ست من وفاة عبد الله، لحقته زوجه «**آمنة**» والدة محمد أحمد عام ١٢٧١هـ ـ ١٨٥٧م، ودفنت بمقبرة الخرطوم القديمة.

أما ابنها محمد أحمد الذى يُعتبر هو المؤسس للدولة المهدية، فقد ولد ليلة السابع والعشرين من رجب عام ١٢٦٠هـ ـ أكتوبر عام ١٨٤٥م، بدنقلة بجزيرة «**لبب**» إحدى جزائر الأشراف الثلاث، وقد أطلق عليه والده عبد الله اسم «**محمد أحمد**» وظل يعرف به إلى أن جهر بدعوى «**المهدية**» فى الثامنة والثلاثين من عمره، حيث نقش على خاتمه «**لا إله الا الله محمد رسول الله، محمد المهدى بن عبد الله**»، وبعد وفاة أبيه وأمه كفله أخوه الأكبر السيد محمد، ثم تزوج بامرأة اسمها عائشة وكناها بأم المؤمنين..وقد كان محمد أحمد ميالا منذ طفولته لحياة التدين والزهد التى انحدرت إليه بذورها من جده الأعلى الشيخ الصالح السيد حاج شريف، فالتحق بكتاب شرقى النيل بقرية محاذية لمدينة «**كررى**»، ويدعى صاحبه «**الفقيه الهاشمى وقد كان مشهوراً فى تلك الجهة بتعليم القرآن بغير أجر، وقد**

مكث فيه مدة من الزمن»[١].

تلقيبه بالمهدى:

فى سنة ١٢٩٨هـ الموافق ١٨٨١م لقب محمد أحمد نفسه بالمهدى وكتب إلى فقهاء السودان يدعوهم لنصرته، فلاقت دعوة المهدية ذيوعا وانتشارا، قام على إثرها بسياحة فى أنحاء السودان، يبشر فيه بدعوته ويبثها بين رؤساء القبائل وزعماء العشائر، وأخذ يوحى إلى الجماهير فى منشوراته أنه مكلف بأداء هذه الرسالة من قبل السماء، وسنسوق هنا واحدا من كتبه كمثال للمبادئ التى نادى بها، يقول المهدى:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد:

فمن العبد المفتقر إلى الله المهدى بن عبد الله، إلى أحبابه فى الله المؤمنين بالله وبكتابه، أما بعد: فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن، بل أحق أن يترك ذلك.

دعوته وعمله:

عمل مع عمه فى نجارة السفن مدة قصيرة، وذهب إلى الخرطوم فقرأ الفقه والتفسير، ثم تصوف وانقطع فى جزيرة «**أبا**» فى النيل الأبيض مدة خمسة عشر عاماً للعبادة والدرس والتدريس وسافر إلى «**كردفان**» فنشر فيها «**رسالة**» من تأليفه يدعو فيها إلى تطهير البلاد من مفاسد الحكام، وكان جل عمله مبنياً على الجهاد، حيث كان يبث أتباعه «**ويعرفون بالدراويش**» بين القبائل يحضون على الجهاد[٢].

ولنرى جدية أمره بالنسبة للجهاد نقرأ نداءه بالنسبة للمرأة حيث يقول: (وعلى النساء الجهاد فى سبيل الله، فمن صارت قاعدة وانقطع منها أرب الرجال فلتجاهد بيديها ورجليها، والشابات فليجاهدن نفوسهن، ويسكن بيوتهن، ولايتبرجن تبرج الجاهلية

---

(١) المهدية في الإسلام ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٢) الأعلام ٦/ ٥٤٢.

الأولى، ولا يخرجن الا لحاجة سريعة، ولا يتكلمن كلاما جهرا، ولا يُسمعن الرجال أصواتهن إلا من وراء الحجاب،ويُقمن الصلاة، ويطعن أزواجهن، ويسترن بثيابهن، فمن قعدت كاشفة، فاتحة رأسها ولو لحظة عين، فتؤدب وتضرب سبعة وعشرين سوطا، ومن تكلمت بفاحشة فعليها ثمانون سوطا) [(١)].

جهاده ضد الإنجليز:

بعد أن انتشر أمره وذاع صيته بين القبائل وعوام الناس فى السودان سمع عنه رؤوف باشا المصرى (حاكم السودان العام) فاستدعاه إلى الخرطوم فامتنع فأرسل رؤوف قوة تأتيه به، فانقض عليها أتباعه في الطريق وفتكوا بها، وساقت الحكومة المصرية جيشا لقتاله بقيادة جيفلر باشا البافارى، فهاجمه نحو خمسين ألف سودانى وهزموه، واستولى المهدى على مدينة «**الأبى**» سنة ١٣٠٠ هـ، وهاجمه جيش مصرى ثالث بقيادة هيكس باشا فأبيد، وهاجم بعض أتباعه «**الخرطوم**»، وفيها غوردن باشا فقتلوه، وحملوا رأسه على حربة، سنة (١٣٠٢ هـ) وانقاد السودان كله للمهدى، وكان فطنا فصيحا قوى الحجة، قطن المهدى «**أم درمان**» المقابلة للخرطوم، وأقام يجمع الجموع ويجند الجنود لأجل التغلب على الديار المصرية، وأرسل مكاتبات من طرفه للخديوى، والسلطان عبد الحميد، وملكة إنجلتر، يشعرهم بدولته ومقر سلطنته[(٢)].

نهاية دولة المهدى:

فى ليلة الأربعاء لليالٍ خلون من شهر رمضان عام ١٣٠٢ هـ، أصيب المهدى بحمى التيفود، وذاع خبر مرضه بين الناس فلم يكترثوا به، لأنهم واثقون بما كان يعدهم به من أن المنية لا تدركه قبل أن يفتح مصر والشام والكوفة والحجاز، وفى صبيحة يوم الجمعة عندما أحس بدبيب الموت يسرى فى عروقه، استخلف من بعده صاحبه «**عبد الله التعايشى**»، وأمره أن يخلفه في صلاة الجمعة، فقيل له: إن الخليفة عبد الله أُمّى لا يعرف الكتابة والقراءة فكيف يخطب الناس؟ فقال لهم: ادفعوا له ورقة الخطبة فليقرأ منها كلمتين أو

---

(١) المهدية في الإسلام ص ٣٢٢.

(٢) الأعلام ٦/ ٢٤٥ ـ حاضر العالم الإسلامي ٢/ ١٩٥، ١٩٦.

كلمة، فدفعوا له الورق وخطب الناس وصلى بهم، وهم فى غاية العجب من جهله بالقراءة وتحريفه لألفاظ القرآن.

وفى يوم الأحد ثامن رمضان اشتدت وطأة المرض على المهدى فكان يرفع صوته مستغيثا قائلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[١] وكان يتجرد من ملابسه ويأمر بالماء البارد فيهراق على بدنه، وفى يوم الاثنين تاسع رمضان توفاه الله تعالى[٢]، وبعد وفاته بويع خليفته عبد الله التعايشى.

عبد الله التعايشي: خليفة المهدى:

لقب التعايشى بخليفة المهدى، غير أن دولته لم تدم طويلا، فقد عصف بها الجنود المصريون والإنجليز، بقيادة «**كتشير**» الذى دخل أم درمان فى٢ من سبتمبر عام ١٨٩٩م، وانقرضت حكومة المهدى من السودان، وزالت دولة المهدى، ولم ينس «**كتشير**» أن ينسف قبته، وينبش قبره، فى بربرية وهمجية فيبعثر عظامه، ويبعث بجمجمته إلى المتحف البريطانى بلندن انتقاما لمقتل غردونى[٣]، وعبد الله التعايشي هذا كان أحد المشتغلين بالتنجيم وكتابة الأحجبة من أهل البقارة، وكان أميا بائسا يائسا من حياته، جاء إلى المهدى، وهو يشيد قبة شيخه القرشى وحينما وقعت عينه عليه خر على الأرض، مدعيا أنه أغمى عليه، وبعد أن رفع رأسه سأله الحاضرون عن سبب إغمائه فقال: نظرت أنوار المهدية على وجهه فصعقت من شدة تأثيرها على حواسي ..وهكذا أكد التعايشي لمحمد أحمد أنه هو «**المهدي**» وحثه على الظهور والجهاد والدعوة[٤].

*****

(١) الأنبياء:٨٧.

(٢) المهدية في الإسلام ص ٢٣٤.

(٣) المهدية في الإسلام ص ٢٣٦، حاضر العالم الإسلامي ٢/ ١٩٦،١٩٥.

(٤)المهدية في الإسلام ص ٢٠٥، ومبحث المهدية فصلنا فيه في تحقيقنا لمخطوط البرهان في علامات مهدي آخر الزمان لعلى بن حسام المشهور بالمتقى الهندى.

دولة المرابطين
٤١٠ ـ ٥٠٠ هـ الموافق ١٠١٩ ـ ١١٠٦م

ظهرت الدولة فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، أى النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ـ وشاد يوسف بن تاشفين صرح الدولة المرابطية التي سطعت في المغرب والأندلس لمدى قصير، ثم انهارت دعائمها، كما قامت بسرعة مدهشة، كان المؤسس يوسف يتمتع بمواهب وصفات بارعة من الذكاء والشجاعة والفطنة وبعد النظر، وكان في الحرب قائداً عظيماً، وجنديا مجربا، وفارسا شجاعا، وكان التقشف من أخص صفاته فقد كان رغم ملكه الشامخ يعيش كأبسط رعاياه، بعيدا عن كل مظاهر الترف والنعماء، وبلغ من تقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبن الإبل، وقد وهبه الله بسطة فى الجسم وصحة بديعة، استطالت حياته إلى مائة عام، أو تسعين عاما على قول آخر، وتوفي سنة خمس مئة من الهجرة (١١٠٦م) بعد أن حكم زهاء خمسين عاماً وقام بأعظم فتوحه وأعماله، وأنشأ إمبراطورية المرابطين الشامخة بعد أن جاوز الستين وحارب فى موقعة الزلاقة وهو فى نحو الثمانين.

وترك يوسف مملكته لابنه الأصغر علي، ولكن دولة المرابطين القوية لم يتح لها أن تعيش طويلا بعد وفاة مؤسسها بل نستطيع أن نقول: إن وفاة على بن يوسف كانت نذيراً بانحلالها وتفككها، ولم تمض ثلاثون عاما أخرى حتى سقطت هذه الدولة فريسة لدولة الموحدين بقيادة أبى عبد الله محمد بن تومرت المصمودى، الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين الكبرى[1] سنة ٤٨٥ ـ ٥٢٤ هـ الموافق ١٠٩٢ ـ ١١٢٩م

****

(١) تاريخ ابن خلدون، والحلل الموشية لابن الخطيب، نفح الطيب للمقدسى عن تراجم إسلامية، ص ٢٠٨، وانظر: كتاب ـ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لإبراهيم محمد حسن الجمل.

واستمر الإصلاح

دعوات إصلاحية فردية

كان قدر الذين عايشوا الدولة العثمانية، أن يشهدوا نجم الدولة الإسلامية وهو يأفل، ولم تجد كل صيحاتهم ولا تحذيراتهم ولا حتى كل الصفحات التى كتبوها أو الجرائد التى سطروها شيئاً يذكر.

صحيح أن مصطلح هؤلاء في الإصلاح ليس كغيره فيما سبق إبان العهد العباسي الثاني وما بعده، إلا أن الجديد الذى واجه هؤلاء كان النهضة العلمية التي شهدتها أوربا بعد القرن الثامن عشر للميلاد.

بينما كانت أوربا تشهد نهضة تكنولوجية وإنتاجية في كل مجال تسخر الأرض وما فيها من خيرات دفينة، وتصنع الآلة وتطورها في كل يوم واكب تلك النهضة حالة من الرخاء استدعت تقدماً مضطرداً في التشريعات السياسية من أجل وضع حل لكل معضلة متبعين في ذلك مناهج علمية يثرونها كل يوم بقواعد ونظريات جديدة، في مقابل الأوربيين، كان المسلمون يشهدون حالة من الاحتضار بسبب العقم الفكرى الذى أصاب مناهجهم، حيث إنهم تجرعوا كل نظريات الأمم السابقة لهم، والتى ما أغنت عن أهلها ولا أكسبتهم شئياً، وبدلا من النظر في مناهج التفكير، راح المسلمون يواجهون التقدم العلمى في أوربا بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى الوحدة وعدم الاختلاف، وإلى ترك الأنانية وعدم الاستبداد في السلطة، وفي أحسن أحوالهم كانوا يقنعون أنفسهم بالدعوة إلى الزهد، ليس بمعناه الحقيقي وهو الإنفاق بعد الامتلاك، بل بمعناه السلبى في تعذيب النفس وقهر الشهوات، والابتعاد عن نواميس الكون، والامتناع عن كل ما يقيم الأود، ويقوى من العزيمة اصطفاء للنفس وتخليصاً للروح..إنها مأساة ...

الخطأ في تعليق كل مصالح الأمة على الحاكم:

إن المسلمين،فى فترات ضعفهم، وبتأثير من الفكر غير الإسلامى، كانوا يتصورون الإمام وكأنّهُ كل شيء في حياتهم، ومع أن أهل السنة والجماعة لا يقولون بالعصمة، لكن الممارسة العملية في النظرة للإمام كان فيها شىء من ذلك.

إن فكرة الحاكم الفيلسوف عند أفلاطون، الذى يطلع على عالم الغيب «**عالم المثل**»، وفكرة الحاخام عند اليهود الذى يتصل بيهوه[1] ويتداول معه فى الشؤون العامة، ويصحح له بعض أخطائه، كما ورد في التلمود، وفكرة البرهمى عند الهندوس[2] وكذا القديس عند النصارى المتجسد في البابا (الحبْر الأعظم في الكنيسة الكاثوليكية)، وفكرة الإله الإنسان عند الوثنيين.

هذه الأفكار زحفت إلى المسلمين في حالة ضعفهم :

وهذه النظرة هي التى صَوَّرَتْ الإمام في أذهان المسلمين، فتراهم في كل شاردة وواردة يسألون عن الإمام كى يحل لهم مشكلاتهم.

إن الإمام هو من هؤلاء البشر الذين تولى أمرهم، ولقد كان قبل ذلك محكوماً مثلهم بمن سلفه، وكان يتوقع منه ما يتوقعه الناس منه الآن وهو في سدة الحكم، وها هو ذا يتعرض لذات السهام والعبارات والمصطلحات .. وسينتقل الحال منه إلى خلفه، فلا الإمام سيصبح على كل شيء قديراً، ولا أمور الأمة ستصلح بسحر ساحر، وما بنى على الغلط سيبقى غلطاً، والمشاكل تتوالد، والأسس والإحباط سيكبر في النفوس .. وسيترنح المتحمس بعفوية وبغير عقل ولا علم ولا هدى..

إن الإمام هو في أحسن أحواله صورة عن الأمة، ومن رأى فى صورته ما ينكره، فما عليه إلا أن يغير أصل المنكر منه، وأما إذا حاول أن يزركش الصورة ويجملها بواسطة ريشة فنان، أو غير ذلك فلن يحصل إلا على صورة لا أصل لها إلا فى مخيلة الرسام .. وكذا فالأمة التى لا تجمل أصلها، لن تجد إلا إماماً أو حاكماً فى مستوى وسطها إن لم يكن أدنى من ذلك .. وسيبقى أفرادها جميعهم ينشدون خيالاً أو قل سراباً يحسبه الظمآن ماء ...

والناظر في مسار العمل الإسلامي في مجال الإصلاح والتغيير يرى أنه قد تبع الحركة السنوسية والمهدية دعوات إصلاحية فردية لم ترق إلى أن تكون حركات جماهيرية عامة

---

(١) يهوه: إله بني إسرائيل.

(٢) البرهمي: رجل الدين عند الهندوس، وهو فى زعمهم مخلوق من رأس الإله براهما وهو يملك كل شيء ويعرف كل شيء.

ينبثق منها نظام خاص، ولكنها مع ذلك ساهمت في تصحيح المسار الموجود في الدولة العثمانية ونذكر هنا **على سبيل المثال:**

أولاً: خير الدين التونسي: ١٨١٠م - ١٨٨٩م:

شركسي الأصل، قدم صغيرا إلى تونس، واتصل بالباي أحمد وتعلم بعض اللغات ثم تقلد مناصب عالية آخرها الوزارة، ثم سعى لإعلان الدستور في تونس سنة ١٨٦٧م وتم له ذلك، وفي عام ١٨٧٧م أبعد عن الوزارة إلى الآستانة حيث تولى الصدارة العظمى، ثم استقال سنة ١٨٧٩م ونصب عضوا في مجلس الأعيان حتى توفي.

وقد لخص الباحثون أهداف خير الدين التونسي فى الإصلاح وإنهاض الأمة وتطوير حياتها فى **خمس نقاط أساسية:**

- سلطان الحاكم محدد بالقانون ومشورة العلماء والأعيان.

- توحيد الفقه الإسلامي وتكييفه مع ظروف الحياة الحديثة (وقد حاول التوفيق بين المذهبين الحنفى والمالكى فى تونس)

- تحذير الخاملين والمتعصبين من الإشاحة عن الحياة الجديدة ونظمها.

خير الدين صاحب العلم والثقافة خريج المدرسة العسكرية المتقن للغات العربية والفرنسية والتركية، بدأ عمله فى محيط مضطرم بالأحداث: باى تونس يعمل جاهدا للانفصال عن الدولة العثمانية، والجزائر تواجه الغزو الفرنسي، وتونس ستكون الفريسة التالية، ومعاناة الشعب من الظلم والجحود قائمة، والصراع والتنافس بين الدول الكبرى على تونس غير خفىّ، ورئيس الوزراء (مصطفى خزندار) أداة فى يد النفوذ الفرنسي إذ ليس للباى معه أى سلطان، والبلاد تسير إلى الخراب الشامل، والوزراء يجمعون الأموال ويهربونها إلى فرنسا، ولما تولى خير الدين رئاسة المجلس النيابى عام ١٨٦٠م لم يستمر إلا سنتين وتقدم باستقالته، ومما جاء فى حيثياتها:

«حاولت أن أسير بالأمور فى طريق العدالة والنزاهة والإخلاص فذهب كل مسعاى سدى، ولم أشأ أن أخدع وطنى الذي تبنانى، بتمسكي بالمناصب، فقدمت استقالتى ١٨٦٢م من رئاسة المجلس ووزارة الجيش وعدت إلى حياتى الخاصة، ثم اتجه سنة ١٨٧٧م

إلى مركز الخلافة حيث حاول السلطان عبد الحميد الانتفاع به فى سبيل دعوته إلى الجامعة الإسلامية فأولاه منصب الصدارة العظمى غير أن خير الدين لم يبق فى منصبه غير عام واحد، فقد أحاطته الدسائس والأحقاد والمؤامرات مرة أخرى وحالت بينه وبين العمل على النحو الذى ارتضاه لنفسه»[١].

ثانياً: جمال الدين الأفغاني: ١٢٥٤هـ ـ ١٣١٤هـ / ١٨٣٩م ـ ١٨٩٧م:

يقول جمال الدين الأفغانى عن تقهقر الأمة الاسلامية: «**أما ما زعموه عن المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة، ولا غيرها من العقائد الإسلامية، ونسبته إليها كنسبة النقيض إلى نقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار**»[٢] إن جمال الدين الأفغاني أبعد أسباب التخلف عن العقيدة، وهذا أمر لا مرية فيه، غير أنه بدلاً من تناول سوء الفهم لهذه العقيدة، أو جرح الفكر الذى يمنهج عقول المسلمين ومن ثم إعادته إلى أصله الحقيقي، فإنه راح يسقط كل أسباب التخلف والهزيمة على هجوم التتار وكذلك على زحف الأمم الأوربية على بلاد المسلمين، مع أنه كان الأولى له أن يربط بين انتصارات الغزاة وبين ضعف المسلمين، ولولا ذلك لما حصلت هزيمتهم، فالتتار كانوا وكان المسلمون، والأوربيون كانوا وكان المسلمون، فماذا عدا على ما بدا؟ ما الذى تغير؟ إنه ازدياد قوة الأمم الأخرى وانهيار أمة الإسلام.

ثم إن الأفغاني يرد السبب الآخر للانهيار التام إلى ضعف الحكام فيقول: «**وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الأمر فيهم إلى غير أهله، وولى على أمورهم من لا يحسن سياستهم، فكان حكامهم وأمراؤهم من جراثيم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم فتمكن الضعف من نفوسهم، وقصرت أنظار الكثير منهم... وأخذ كل منهم بناحية الآخر.. فآل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى ما صاروا إليه**»[٣].

---

(١) البحث مقتبس من أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي ص ٧٩ ـ ٨٨.

(٢) جمال الدين الأفغاني ـ محمد عبده ـ العروة الوثقى ـ دار الكاتب العربي ـ بيروت ط٢/ ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ـ ص٩٦ – ٩٧.

(٣) جمال الدين الأفغاني .. المرجع السابق ص٧٩.

إن العقيدة هي التى تصبغ الشخصية، وكذلك الفكر أيا كان مصدره فعقيدة الإسلام أنتجت تلك الأمة التى مازالت الحلم في مخيلة كل مسلم.

أَلَيْسَتْ هي التى كانت السبب في النهضة الأوربية؟ وأنَّ كُلَّ علماء أوروبا قد أشعلوا قناديلهم من مصابيح المسلمين في الأندلس غرباً وبلاد الإسلام شرقاً، وكذلك فإن حكام أوربا قبل النهضة وإبانها ليسوا هم الذين كانوا أداة التحول وصانعيه، بل بالعكس فإنهم قاوموا كل بصيص علم ومعرفة شَعَّ نوره ولو من داخل رهبان الكنيسة كما هو حال نيقولا كوبرنيق[١] وأسفار ميكافلي في السياسية[٢].

إن التحول الاجتماعي والسياسي كان ثمرة جهود العلماء الذين كان يسقط بعضهم في مختبره من شدة الجوع، كما حصل للزوحين بييروماري كوري التى توفيت عام ٤٣٩١م في إحدى المصحات بعدما كانت وزوجها قد اكتشفا الراديوم «Radium».

إن تلك المرأة ولدت في بولونيا، وسافرت إلى باريس، وعاشت حياة قاسية جداً، ولم تتمكن من تأمين مورد عيشها، وكانت تقوم بغسل الزجاجات وملاحظة الأفران في المعامل، وكان الخبز والشكولاته غذاءها الوحيد طيلة أسابيع فقرها[٣]، إن الإشارة تكفى فى هذا المجال، وليس هنا مكان ذكر كل العلماء والباحثين بالمفهوم العلمى حيث المكوث

---

(١) نيقولاكوبرنيق ـ من بولندا ١٤٧٣ –١٥٤٣» كان قسيساً، تخصص بالرياضة والفلك إضافة إلى اللاهوت والعلوم الطبية، وقال بدوران الأرض ـ مع أن الفكرة التي كانت سائدة هي ثبات الأرض وليس دورانها، كما كان يقول بذلك بطليمون في القرن الثاني للميلاد، وكوبرنيق عاش في إيطاليا.

(٢) نيقولاميكافلي «١٤٦٩ ـ ١٥٣٢» صاحب كتاب: الأمير ـ وهو إيطالي الأصل ومن الملاحظ أن إيطاليا كانت جارة للأندلس.

(٣)راجع ـ المعرفة ـ إشراف اللجنة العلمية: محمد فؤاد إبراهيم وغيره ـ الناشر ـ شركة ترادكسيم.. سويسرا ـ جنيف ـ ثم الإنتاج في بيروت المجلد الثاني ص٣٣٦ تحت عنوان معمل في عنبر حقير: قالت المعرفة: استأذن الزوجان فى استخدام مخزن صغير فى الطابق الأرضى من مدرسة الطبيعة كان أشبه بمغارة رطبة يلقى فيها بالآلات التي لم تعد صالحة للاستعمال، ولقد قاما بإحراق طن من اليورانيوم حتى وصل حجمه إلى خمسين كيلو غراما، وفي ١٨٩٨م تم عزل عنصر البولونيوم polonulm نسبة إلى اسم بلدكورى يولونيا وطاقته تساوي ثلاثمائة ضعف طاقة اليورانيوم، وفي عام ١٩٠٢ ثم اكتشاف الرايوم الذي تبلغ فعاليته مليوني ضعف فاعلية اليورانيوم، «هؤلاء هم الذين غيروا مجرى حياة العالم وليس غيرهم..»ـ لقد قرنت اسم بلدها بولونيا مع اسم العلم..

ليلاً ونهاراً في المختبر ومراكز الأبحاث.

إن أمثال مدام كورى وغيرها ممن أشعلوا مصابيح العلم، وقدموا للبشرية من الخدمات ما ليس بمقدور أحد الاستغناء عنها عاشوا في زمن كان الإمبراطور فى بلادهم أو الملك يعلن عن نفسه أنه إله والأسرة الحاكمة تتوارث العرش وسط طقوس عبادية تؤدى لكل والٍ جديد ... إن كل ذلك لم يمنع هؤلاء من اقتحام الصعاب وتحمل الجوع والاضطهاد لاكتشاف ما ينفع الناس وليس الزبد ...

ولعله من الفائدة تسجيل مشهد آخر من مشاهد الإصلاح في عهد الدولة العثمانية: **«من سار في الأرض، وتتبع تواريخ الأمم، وكان بصير القلب علم أنه ما انهدم بناء ملك، ولا انقلب عرش مجد، إلا لشقاق واختلاف، أو ثقة بمن لا يوثق به، وَتْغلغُل العنصر الأجنبى أو استبداد في الرأي، واستنكاف عن المشورة، وإهمال في إعداد القوة، والدفاع عن الحوزة، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها ووضع الأشياء في غير مواضعها، فيكون جور في الحكم، واختلال في النظم وفي كل ذلك حيد عن سنن الله فيحصل غضبه بالخاطئين، وهو أحكم الحاكمين[1] ثم بعد ذلك تتم الدعوة إلى الرجوع لما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وكذلك الكتاب الكريم، لكن أيضا بدون كيف أو تجريح وتعديل للمنهج الذى يفهمون به الإسلام، ولا إلى الكيفية التى يطور بها الباحثون من غير المسلمين العالم، حتى وصل بهم الأمر إلى إعداد الفهارس والمعاجم لكتاب الله ـ عز وجل ـ ولحديث رسول الله ﷺ، وأكثر من ذلك إلى صناعة الألبسة التى يعتمر بها المسلمون وهم يؤدون فرائض الحج وإقامة الصلاة ...**

ومن الإنصاف القول: بأن دعاة الإصلاح لم يكونوا بمنأى عما تحدثه الإنجازات العلمية الأوربية من وهن في صفوف المسلمين، الذين كانوا يقابلون كل أمر جديد بأنه أمر معجز، وكل بديع من الاختراع بأنه سِحْرٌ، وأن الإنجليز انتهزوا هذه الفرصة كى يبسطوا سيطرتهم على الشرق «وما دهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الأوربية التى أثارت فيهم خواطر الأوهام، ثم زاد الوهم قوة ما نصبه الإنجليز من حبائل الحيلة والمكر، حتى

(١) جمال الدين الأفغاني ـ محمد عبده العروة الوثقى ـ ص ١٦٠.

خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم، فسلبوا أموالهم وانتزعوا منهم أراضيهم، وأجلوهم عن أملاكهم[(١)] فكان ذلك سبباً في ثراء الإنجليز .. ومع كل ذلك فإن الأفغانى يرى فى زمانه بأن الأمر مازال ملتبساً على المسلمين ويعتبر أن هذا الوهم ليس إلا كالوهم من جثة الأسد المطروحة على الأرض. إلا أنه فى مراحل دعوته الإصلاحية كان همه أن يتحدى السلطان، وأن يربى جيلاً يتحدى الحاكم، من دون أن يوجه الأنظار إلى المنهج العلمي، وقد يقول قائل بأن الأفغاني كان فيلسوفاً أو مصلحاً سياسياً واجتماعياً، ولم يكن باحثاً في مختبر، وفي هذا القول وجهة نظر لها ما يبررها، لكن المسألة أبعد من ذلك، فالشعوب المتخلفة لا ترى إلا قمم الجبال والخطوط العريضة والصوت المرتفع .. فهي لا تدقق في جزئيات الأمور، وتلك حال اعترت المسلمين حتى أنه في حديث له مع شكيب أرسلان تداولا فيه حول ما روى من أن العرب عبروا المحيط الإطلانطيكي قديماً، واكتشفوا أمريكا ـ فيقول: «إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بنى آدم أجابوه: إن آباءنا كانوا كذا وكذا ـ وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة وأنهم كلما أرادوا الاعتذار عن خمولهم ارتحلوا إلى الماضى كى يعتدوا فيه، فيقول لهم: نعم! قد كان آباؤكم رجالاً ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[(٢)].

ووسائل الإصلاح بقيت في إطار التحريض على السلطان ولم تنتقل إلى طرح مشروع متكامل، وتحدث عن تصحيح البنية الفكرية التى انحرفت عن مسارها الأخلاقى والسياسى وخضعت لتأثيرات غربية دخيلة على الفكر الإسلامى مثل الاتكال، والميل إلى الجبر.

لقد كان أسلوبه ثورياً عنيفاً في توجهه ضد السلطان، حتى أن أحمد أمين قال عندما زار قبره في عام ١٩٢٨م **«وقفنا على قبره، وقلت رقد هنا محيي النفوس، ومحرر العقول، ومحرك**

---

(١) جمال الدين الأفغاني ـ العروة الوثقى، ص١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح ـ مكتبة النهضة، مصر ـ ط٣ ـ سنة ١٩٧١ ـ ص ١١٠.

القلوب وباعث الشعوب ومزلزل العروش ومن كانت السلاطين تغار من عظمته وتخشى من لسانه وسطوته والدول ذات الجنود والبنود تخاف من حركته»[١].

خلاصة فكر جمال الدين الأفغاني:

استدعاه الخديوي توفيق باشا إلى قصر عابدين وطلب إليه أن يقدم آراءه الإصلاحية كى يعمل على تطبيقها، معللا بأنه هو أيضا يريد مصلحة الشعب، فأجاب جمال الدين بقوله[٢]:

ليسمح لى سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص: إن الشعب المصرى كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكنه غير محروم من وجود العالم العاقل، فبالنظر الذى تنظرون به إلى الشعب المصرى ينظر إليكم، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتهم فى إشراك الأمة فى حكم البلاد عن طريق الشورى، فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة وتسن القوانين باسمكم وإرادتكم، فيكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم.

ويرى جمال الدين الأفغانى أن الإصلاح يكون باجتماع أهل الرأى وأرباب الهمة وتعاونهم على اجتثاث الشجرة الخبيثة، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج.

وعكس ذلك، أى بابتعاد الأمة عن المشاركة فى صنع قرارها والعمل على إصلاح شأنها، وترك أمرها بين يدى غاشم يصرفها كيف يشاء فأنذرها حينذاك بمضض العبودية، وعناء الذلة، ووصمة العار بين الأمم، جزاء على ما فرطوا فى أمورهم، وما ربك بظلام للعبيد .. [٣].

وفي تعليل آخر له يرى أن الإصلاح ليس بالثورة ضد الحاكم، وإنما يحتاج لعملية تغيير في النفوس والقلوب، فالله «**سبحانه وتعالى**» أرشدنا فى محكم آياته إلى أن الأمم ما سقطت

(١) البحث مقتبس من أنور الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين فى العالم الإسلامي - ص ٧٩ - ٨٨.
(٢) أحمد أمين - زعماء الإصلاح - ص٧٥، ٧٦..
(٣) المرجع السابق ص١٤٦.

عن عرش عزها، ولا بادت ومحى اسمها من لوح الوجود إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التى سنها الله على أساس الحكمة البالغة، إن الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاه وخفض عيش وأمن وراحة، حتى يغير أولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل وصحة الفكر، وإشراق البصيرة والاعتبار بأفعال الله فى الأمم السابقة والتدبر فى أحوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار .. [١].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٣].

ويربط جمال الدين الأفغاني صلاح الأمر كله بالإيمان الصادق الخالص لله ـ عز وجل ـ .. أقول ولا أخشى نكيرا، لا يمس الإيمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه فى سبيل الإيمان، لا يراعى فى ذلك عذرا ولا تعلة، وكل اعتذار فى القعود عن نصرة الله فهو آية فى النفاق وعلامة البعد عن الله[٤].

ويقول: يخفف من وطأة اليأس استذكار قول الرسول ﷺ بمعناه: «**إن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة**»[٥]، ثم يقول: إن هذا الانحراف الذى نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول[٦].

الأفغانى وفكرة الجامعة الإسلامية [٧]:

إن جمال الدين الأفغانى، الذى كان أول من دعا إلى الاتحاد ونبذ الفرقة لم يكن يرجو من دعوته إلى الجامعة الإسلامية دعم سياسة السلطان عبد الحميد بالذات كما توهم عدد

(١) المرجع نفسه ص١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) الرعد: ١١ .
(٣) الأنفال: ٥٣.
(٤) المرجع السابق ص١٧٤.
(٥) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٠):«لا أصل له».
(٦) المرجع نفسه ص ١٧٤.
(٧) فهمى جدعان، أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث، المؤسسة العربية للنشر ط١ ـ بيروت ١٩٧٩ ص٢٥٩ ـ ٢٦٢.

كبير من الدارسين، والذى حدث بالفعل هو أن هذا الأخير قد وجد فى هذه الدعوة ضالته المنشودة فى المرحلة الصعبة التى كانت تجتازها الدولة فى علاقتها مع أوربا، فتبناها من أجل أن يلقى الرعب في روع الدول الغربية، أما ما كان يشغل بال الأفغانى فهو أولا وآخراً معادلة القوة والضعف التي يقابل الغرب بها الشرق، وفى هذه المعادلة تكمن كل **«المسألة الشرقية»** فى رأيه: ومختصر هذه المسألة، كما يقول: **«العراك بين الغربى والشرقى وقد لبس كل منهما لصاحبه درعا من الدين»** ونزوع **«العلم»** إلى التحكم فى **«الجهل»** أما الدين فليس إلا **«ذريعة»** تظهر بعد استكمال القوة للوصول لتلك الغاية وهو لا يمكن أن يمثل كل أسباب هذه المسألة بتعبير آخر، إن خروج العالم الإسلامى من دائرة الضعف واليأس الكبرى لا يمكن أن يتم إلا بالظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث، وقد لخصت **«العروة الوثقى»** الموقف بالعبارة التالية: **«إن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية، فإن فُقِدَ التكافؤ لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوى لابتلاع الضعيف»**وفى المشرق الإسلامى الذى داؤه انقسام أهله وتشتت آرائهم واختلافهم على الاتحاد واتحادهم على الاختلاف، لا يمكن أن يكون الخلاص إلا بهدم هذا التشتت لكى تحل محله الوحدة والاتحاد، وبالتالى القوة.

وقد كان من الضروري تقديم صيغة اجتماعية سياسية لهذا النهج تتم الدعوة إليها بشكل واضح وصريح، وبالفعل اتخذت هذه الدعوة صيغ الجامعة الاسلامية والوحدة الاسلامية.

ثالثاً: الشيخ محمد عبده : ١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ-(١٨٤٩ـ١٩٠٥ م):

ولد الشيخ **«محمد عبده حسن خير الله»** فى قرية **«محلة نصر»** بمركز شبراخيت من أعمال مديرية (محافظة) **«البحيرة»** وكان قدر أسرته أن يزح بأفرادها فى السجون على حد قوله: من أنه قد سعى واش بأهلى عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح، ويقف فى وجوه الحكام، فأخذوا جميعا وزجوا فى السجون واحدا بعد واحد، ومن دخل منهم السجن لا يخرج إلا ميتا وكان جدى **«حسن»** شيخا بالبلدة، وهو الذى بقى من البيت مع ابن أخيه إبراهيم.

نشأ الشيخ محمد عبده معتزا بنفسه غير آبه بالغنى والثروة، ولقد قال عنه الخديوى عباس: إنه يدخل عليّ كأنه فرعون.

تلقى علومه الأولى فى القرية، وحفظ القرآن الكريم، وبدأ ذلك وهو فى السابعة من عمره، ثم ذهب إلى الجامع الأحمدى فى طنطا، كى يتعلم تجويد القرآن الكريم، وبعد أن هم أن يعمل فى الزراعة رفض والده ذلك وأعاده إلى الجامع الأحمدى، تأثر بخال أبيه الشيخ درويش خضر ودرس عليه الصوفية وكان هذا على علاقة بالسنوسية، ثم ذهب إلى الأزهر فى عام ١٨٦٦م (شوال ١٢٨٢هـ)، وتأثر هناك بالتصوف أيضا على يد الشيخ حسن الطويل.

ثم بعد اتصاله بالشيخ الأفغانى انتقل من التصوف والتنسك إلى الفلسفة الصوفية وغضب مشايخ الأزهر عليه لملازمته الشيخ الأفغانى، لازم ثورة عرابى باشا حتى الهزيمة سنة ١٨٨٢م، وبعد ذلك حكم عليه بالنفى ثلاث سنوات، وبدأت حياته بالسفر والتنقل فى مختلف البلدان الشرقية والغربية[١].

تأثر محمد عبد ه بأستاذه جمال الدين الأفغانى:

من الناحية الفكرية فإن محمد عبده خلال الفترة (١٨٧١ـ١٨٧٩م) كان يتلقى عن الأفغانى، وينقل أفكاره إلى طلبة الأزهر والراغبين فى هذا اللون الفكرى الجديد على مصر فى ذلك الحين، وفى التدرب على صناعة الكتابة، منشئاً تارة، ومصغيا لأفكار أستاذه فى أغلب الأحيان.

أما عن الناحية السياسية فلقد تبع أستاذه كذلك فيما اتخذ من مواقف فى هذا الميدان ... فدخل معه «**المحفل الماسونى**» ثم غادر معه المحفل البريطانى إلى المحفل الشرقى الفرنساوى عندما وقفت الماسونية بمصر موقف الذى لا يبالى بظلم النظام واستبداده الذى يخدم النفوذ الأجنبى الزاحف إلى البلاد[٢].

---

(١) لمن أراد الإسهاب في معرفة تاريخ حياته ـ يراجع الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ١/ ١٩ ـ ٣٢.
(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ـ الكتابات السياسية ١/ ٣٥، ٣٦.

ثم ساهم مع أستاذه في تكوين (الحزب الوطني الحر) الذي كشف عنه الأفغانى فى أواخر عهد إسماعيل، والذى كانت أهدافه، استقلال مصر، وتحويل السلطة في البلاد من سلطة فردية مطلقة في استبدادها إلى أخرى شورية مقيدة بالدستور والقانون ومجلس النواب.

خلاصة فكر الشيخ محمد عبد ه:

مثل غيره فقد أحرز خيراً وافيا من جهده فى بحث مسألة الاستبداد ونصح السلطان غير أنه كان باحثا هادئاً ورصينا ، يقلد السلف من علماء المسلمين أمثال الماوردى وأبى يعلى، ويرى أن الشريعة غير كافية بمحض وجود نصوصها كى تقيد الحاكم بل لا بد في ذلك من وجود أناس يتحققون بمعانيها، ويظهرون بمظاهرها، فيقومونه عند انحرافه عنها، ومن أجل ذلك لا بد من إيجاد هذه الطائفة، ووجودها هو وجود كفائى، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، وأن الله ـ تعالى ـ لم يجعل الشريعة فى يدى شخص واحد يتصرف فيها كيف يشاء، بل فرض على العامة أن تستخلص منها قوماً عارفين، لجلب كل ما يؤيد جانب الحق، وتبعد كل ما من شأنه أن يحدث خللاً فى نظامه، أو انحرافاً فى أوضاعه العادلة[1].

واختلف محمد عبده عن أستاذه الأفغانى فى النظرة إلى الإصلاح لقد كان يرى وجود التحرر الفكرى من الجمود والتقليد، وكذلك التحرر السياسى من النفوذ السياسى الغربى الزاحف على المنطقة بالتصدى له بالنهضة الحضارية لمغالبته، وإنشاء مؤسسات سياسية دستورية ونيابية حديثة، وتقييد سلطات الحكام بالدساتير والقوانين، وأما العامة فيجب إطلاق طاقاتهم الواسعة فى البناء والتدبير والإبداع.

ويميز محمد عمارة بين الاثنين بقوله:

ذلك أن الأفغاني كان ثورياً يرى الثورة هى الوسيلة الأجدى والأفعل فى بلوغ الغاية التى حددها .. أما الأستاذ الإمام فلقد كان إصلاحياً يرى أن التدرج فى الإصلاح هو

---

(١) محمد عبده ـ الأعمال الكاملة ـ تحقيق وتقديم محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ط٢ سنة ١٩٧٩م ـ ١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

الطريق الأقوم والأضمن فى تحقيق هذه الغاية، وأَنَّ التربية المستندة إلى الدين بعد تجديده بواسطة المؤسسات التربوية الجديدة مثل دار العلوم مثلا وكذلك المؤسسات العتيقة بعد إصلاحها مثل الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية إن التربية والتعليم هي السبيل الوحيد لبلوغ غاية الشرق في التحرر الفكري والتحرر السياسي[١].

ويعتبر محمد عبده أن الأوربيين تبنوا الشورى فى مناهجهم السياسية، وأن بإمكان المصريين أن يحذوا حذوهم لا فرق بينها وبين بلاد أخرى تحققت فيها الشورى ونالت منافعها وعادت عليها فوائدها، من حيث القبول للمصلحة[٢].

لقد كان يؤيد نظاماً ديمقراطياً غير أنه ملكىْ مقَيَّد يسعى إلى تطبيق نظرية مونتسيكيو فى روح الشرائع[٣] يُفهم ذلك من خلال سماح الخديوى بانتخاب أعضاء لتأليف مجلس للشورى.

رابعاً: الشيخ محمد رشيد رضا[٤] ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م:

لقد كان الهم الأكبر عند الشيخ محمد رشيد رضا محاربة الدولة العثمانية، ولولا هذه الأمنية لما سافر من بلده القلمون قرب طرابلس الشام إلى القاهرة حيث أتاح الإنجليز لكل راغب بمحاربة تلك الدولة وعلى رأسها السلطان عبد الحميد أن يأوى إلى مصر وله فى ذلك وحده ـ أى محاربة السلطان ـ ما يشاء ويريد.

وأكثر من ذلك فقد ترأس جمعية الشورى العثمانية في مصر، وحاور مندوب جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تعمل فى أوربا وقال له: «**وإننا نرى أنه لا نجاح للعثمانيين إلا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور**»[٥].

وكرس رشيد رضا جهده في مجلة المنار التى أنشأها فى مصر على مهاجمة استبداد الدولة

(١) محمد عبده، الأعمال الكاملة ج١ ص٣٧.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦٠.
(٣) راجع المرجع نفسه ص ٣٦٦.
(٤) لقد بينا وفصلنا في مدخل البحث موضوع سقوط الدولة العثمانية، حيث ذكرنا الشيخ محمد رشيد رضا كمثال لجهد إسلامى سرقه المتربصون بالدعوة الإسلامية «يرجع إليه».
(٥) إبراهيم أحمد العدوى، رشيد رضا، أعلام العرب «٣٣» ـ مصر ١٩٦٤م ـ ص ٢٢٣.

العثمانية، وسياسة السلطان عبد الحميد، ومعاضدة وتأييد من أطلق عليهم «**أحرار العثمانيين**»، وبين رشيد رضا أنه بموت الأستاذ محمد عبده فرغت له الساحة كى يهاجم السلطان كما يريد، وسبب ذلك أن محمد عبده كان يرى الإصلاح بغير هذه الوسيلة، وكان ممن سبق رشيد رضا إلى مصر، إبراهيم اليازجى أحد نصارى لبنان وصاحب أول دعوة للقومية العربية فى بلاد الشام وهو صاحب قصيدة مطلعها:

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب ... فقد طغى الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمال تخدعكم ... وأنتم بين راحات القنا سُلُبُ

خلوا التعصب عنكم واستووا عُصَباً ... على الوئام لدفع الظلم تعتصب

ثم أتبعها بقصيدة أخرى ...

فالترك قوم لا يفوز ... لديهم إلا المشاكس

أو لستم العرب الكرام ... ومن هم شم المعاطس[1]

وهكذا تقاطر المعارضون للدولة العثمانية، كي يعملوا على هدم أركانها والإطاحة برأسها «**الخليفة السلطان عبد الحميد**» وحصل الانقلاب ضد السلطان عبد الحميد من قبل جمعية الاتحاد والترقى، وشارك الشيخ محمد رشيد رضا الناس فرحتهم مع إبداء بعض التحفظ لجهة القيادة الجديدة ومما قاله في الشام «**وَلما قَرّ الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت إلى زيارة وطنى الأول لرؤية الأهل والأصدقاء، ولاختبار رجال البلاد بعد أن اشتدت عليها وطأة الاستبداد، ومساعدة محبى الإصلاح والترقى فى التنبيه لما يجب أن تتوجه إليه الهمم**»[2].

ثم راح بعد ذلك يهاجم الحكومة الجديدة، وتلاشت آماله التى كان يصبو إليها فى مخيلته.

يقول أنور الجندى: ومن عجب أن تعطى الدعوات والحركات الإصلاحية رجالا فى

---

(١) راجع: إبراهيم العدوى ـ المرجع السابق ـ ص ١١٩، ١٢٠.

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٢٢٧.

مثل قوة وإرادة رشيد رضا وسلامة أعصابه واتصال عمره وجهده، بالإضافة إلى براعة أسلوبه وسلامة بيانه وقدرته الخارقة على التحرير والكتابة والمراجعة والتصحيح، حتى كان ينشئ عدد المنار كله بقلمه وحده، وقلما استعان من خلال هذه السنوات للتحرير معه إلا بقلة قليلة، فإذا أضفنا إلى هذا أنه كان مُنوَّع الإنتاج فى السياسة والاجتماع والدين، وأنه كان يكتب فى الصحف اليومية «**الأهرام، والمقطم**» فى مختلف القضايا الفكرية أو العربية التي تثار، وأنه إلى ذلك كله لم يتوقف، بل لعلنا إذا عرفنا أنه فى السنوات الأخيرة قد ركبته الديون وهددته تهديدا عنيفا متصلا ، وأن ذلك كله لم يصرفه عن طريقه ولم يكدر ذهنه، ولم يمنعه من أن يكتب ويعلق ويستصفى الآراء الناضجة والحلول الدقيقة لما يعرض له، لعلنا إذا عرفنا هذا عجبنا لهذه النفسية البارعة، ولعل هذا كله يدفعنا إلى البحث عن العوامل التي كونت شخصيته، وأمدته بهذه القوة العصبية والنفسية السليمة، خاصة إذا تصورنا أنه رجل مهاجر وأنه كان لذلك يلقى كثيرا من المتاعب، وأنه كان يتحرز فى كثير من المسائل حتى لا يغضب المسؤولين الذين يعيش بينهم، وإليهم تختلف أمور معاملاته وقضاياه ومصالحه.

مذهبه الإصلاحى :

لخص رشيد رضا مذهبه الإصلاحى فى الأعداد الأولى من مجلة المنار والتي امتدت تقريبا إلى السنة الثانية عشرة من عمرها، أى إلى سنة ١٩١٢م، أما سائر المقالات الأخرى التي حررها فى أعداد المنار إلى نهايته فهى إما إفاضة فى شرح ما سبق أن تناوله بإيجاز أو بالدراسة العامة، فاشتملت المقالات الافتتاحية خاصة فى السنوات الأولى للمنار على بيانات مجملة فى الإصلاح، وإرشاد المسلمين إلى النظر فى سوء حالهم، وتذكيرهم بما فقدوه من سيادة الدنيا وهداية الدين ، وما أضاعوا من مجد آبائهم الأولين.

قال فى شرحه لوجهة نظره الإصلاحية:

لقد اقتبسنا أسلوب الإجمال قبل التفصيل، وقرع الأذهان بالخطابيات الصادعة من القرآن الحكيم،... ثم إن رشيد رضا عمل على ضرورة تغيير الصورة التي ألفها المسلمون عن دينهم، إذ يعتقدون أن هذا الدين به سر روحانى يمدهم بالنصر والقوة بصرف النظر

عن خُلُقِهم وأعمالهم، ونادى رشيد بأن على المسلمين أن يعلموا أن قيمة الدين ليست فى أسراره الروحية أو قواه الخافية، ولكنها تكمن فى الحقيقة التى يعلمها للإنسانية وهى أن سعادة المرء فى الحياة الدنيا والحياة الأخرى تتوقف على معرفته لسنن الله التى تضبط رقى البشر، أفراداً وجماعات، ويجب على المسلمين أن يدرسوا هذه السنن، وأن يسيروا عليها فى يقين وإيمان، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين(١).

وإمعانا منه فى حث الأمة على انتهاج سبيل العلم والمعرفة فى مختلف نواحيها، خاصة منها ما يرفع من شأنها ويقوي بنيتها بحيث يقضى على أمراضها صاغ ذلك بأسئلة وجهها عبر المنار ركز فيها على:

١ـ الناموس الذى يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة.

٢ـ السبيل إلى حب الأَثَرة والاختصاص بالمنافع دون بقية الأمة.

٣ـ إذا تمكن فى النفوس اليأس من التقدم، والقنوط من الترقى، والاعتقاد بأن زمن التدارك فات فإننا نقول: فبماذا تنزع الأغلال وتنعم النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس؟

وأما عن قضية تقليد الضعيف للقوى، فى الأمة الإسلامية فيقول: إن الأمة ستبهر بمنجزات الغرب الصناعية، وهذا ما سيدفع بأفرادها أو جماعاتها إلى تقليدها، والتقليد الذى يخافه هو الذى يكون في القشور والهوامش والتوافه .. لذلك طرح الشيخ رضا هذا السؤال: إذا حاول بعض أهل الثراء أن يحتذى شاكلة السابقين ويتلو تلو الشعوب المتمدنة فأنشأ يقلدهم فى أحوال معيشتهم.. فكيف يمكن إقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تزييف على جرح الأمة وإجهاز على حياتها، وأن التقليد النافع إنما يكون في خدمة المعارف؟

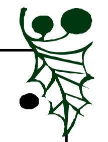
وتساءل عن كيفية محافظة الأمة على دينها ولغاتها وعوائدها النافعة إذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء.

---

(١) المرجع السابق ١٥٣، ١٥٤.

ثم تكلم صراحة وليس تلميحا عن الصناعة وضرورة إتقانها، والزراعة وضرورة التقدم بها والتجارة والاستعمار.

*****

الفصل الثالث :
الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر

المبحث الأول: انهيار الدولة العثمانية.

المبحث الثاني: جماعة الإخوان المسلمين في مصر نحو إعادة الحكم الإسلامي.

المبحث الثالث: الحركة الإسلامية والتغيير في دول غير مصر.



المبحث الأول
انهيار الدولة العثمانية

إن زوال الأمم وبقاءها يخضع للسنن الشرعية والكونية، التي أعلمنا الله إياها في كتابه الكريم في عرض قصصي واضح لنشأة الأمم وبقائها، أو فنائها، ومن هذه السنن المذكورة الظلم بمعناه العام، ظلم الإنسان لنفسه ولمجتمعه وللبشرية، بل وظلم الإنسان للأرض التي يدب عليها، نعم إن الظالم قد حكم على نفسه بالزوال، حاكماً كان أم محكوماً، فالرعية الظالمة التى يتظالم أفرادها فيما بينهم يسلط الله ـ تعالى ـ عليهم حاكماً ظالماً يقتص منهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

ومصير الظالمين عدم النجاح والفلاح، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[2].

ومن سنته ـ سبحانه وتعالى ـ هلاك الأمة بظلمها ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[3].

هلاك الظالمين سنة ماضية في خلق الله ـ تعالى ـ من الأمم، وليس لأحد أن ينجو من هذا الناموس وهذه السنة، وهذا لا يقتصر على الذين مضوا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾[4] لقد بين الله ـ تعالى ـ أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التى أدت إلى هلاكهم، لا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذر من وخامة الظلم، فلا يغتر الظالم بالإمهال.

والعدل أمارة البقاء، سواء أكان العادل مؤمنا أم كافراً، فالدولة العادلة مع كفرها تبقى

---

(١) الأنعام: ١٢٩، وانظر: عبد الكريم زيدان ـ السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ـ مؤسسة الرسالة بيروت، ط ٢ سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ ص ١١٣ ـ ١٣٤ والمعلومات مقتبسة بتصرف.

(٢) الأنعام: ١٣٥.

(٣) يونس: ١٣.

(٤) هود: ١٠٢.

وتستمر، إذ ليس من سنته ـ تعالى ـ إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم، وبهذا قال المفسرون وأهل العلم، وقال الإمام الرازى: «**إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك، والمعنى أن الله ـ تعالى ـ لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد**»[1].

ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: «**وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإنْ لَمْ تشترك في إثم ـ ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة**»[2].

رصاصة الرحمة على دولة الخلافة :

من تحت رداء العباءة العربية، ومن منزله في مكة المكرمة أطلق الشريف حسين بن علي طلقة من بندقيته ضد الحامية العسكرية التابعة لدولة الخلافة، إيذاناً بانطلاقة الثورة العربية الكبرى في ٢٨ رمضان سنة ١٣٣٣هـ ـ ١٤ تموز ١٩١٥م ـ أرسل الشريف حسين إلى هنرى مكماهون يؤكد له فيها أن الشعب في الجزيرة العربية هو مع بريطانيا «**إنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم المصالح المشتركة**» وكتب في الحاشية: «**أرجو ألَّا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا**» والأعمال التى يتحدث عنها هي محاربة جيش دولة الخلافة، بغية الحصول على مساعدة بريطانيا على إنشاء خلافة عربية، تمتد حدودها من مرسين وأضنه، حتى الخليج العربي شمالاً، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوباً، يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هي ـ حتى سيناء غرباً، وعلى أن توافق إنجلترا على إعلان خليفة عربي على المسلمين، ولقد حدد الشريف حسين مدة شهر كي يتلقى جواباً على مذكرته، وإلا «**فنحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا إذا لم يصل الجواب ـ**

---

(١) تفسير الرازي ١٨/ ٧٦، وانظر: عبد الكريم زيدان ـ المرجع السابق ـ ص:١٢٢ .

(٢)ابن تيمية: رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد ـ ص ٤٠ .

أحراراً في القول والعمل من التصريحات والوعود السابقة التى قدمناها بواسطة على أفندي»[١].

وكان الشريف حسين يومها في مكانة تسمح له بتهديد الإنجليز، لقد كان يفيد حتى من وجود أعدائه في دولة الخلافة، ومع ذلك فإن المندوب السامى البريطاني في مصر «**هنرى مكماهون**» لم يكذبه القول فكان جوابه الموافقه على استقلال البلاد العربية والموافقه على إعلان خليفة عربي، لكن مسألة الحدود لا يسمح الوقت لتحديدها بسبب استمرار الحرب مع تركيا، ومما جاء في رسالته الجوابية: «**إلى الحسيب النسيب سليل الأشراف وتاج الفخار، فرع الشجرة المحمدية، والدوحة القرشية الأحمدية، صاحب المقام الرفيع، والمكانة السامية، السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف، السيد الجليل المبجل دولة الشريف حسين باشا، سيد الجميع، أمير مكة المكرمة، قبلة العالمين، ومحط رحال المؤمنين الطائفين، عمت بركته الناس أجمعين**»[٢] ... «**وقد سرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم برأي واحد وعقيدة واحدة، وهي أن مصالح العرب، هي مصالح إنجلترا، ومصالح إنجلترا هي مصالح العرب**».

إن الشريف حسين تنبه إلى الرد وقال له: «**ويعذرنى فخامة المندوب إذا قلت صراحة: إن «البرودة» و «التردد»** اللذين ضمنهما كتابه فيما يتعلق بالحدود .. إن هذا كله يدل على عدم الرضا، وشرح أهمية تلك الحدود مبيناً أنها ملك الشعب، يعتقد أن حياته فيها، ولذلك فهم يصرون على مسألة ـ البحث فيها، ومع ذلك فقد أكد له: «**وبالاختصار فإننا ثابتون في إخلاصنا، نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع، أكنتم راضين عنا ـ كما قيل ـ أو غاضبين**» وأعرب عن عدم رضاه لاقتطاع بيروت لصالح الفرنسيين[٣].

---

(١) الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب، أصدرته جريدة الأيام، مطبعة الأيام دمشق سنة ١٩٣٦م / ص١ـ٣ «علي أفندى أصغر، هو من أنسباء حسين روحي أفندي البهائى الموظف في قلم الترجمة بدار المندوب السامي في مصر يومئذ «السيرمكماهون» وهو رسول ستورز رئيس الشبكة البريطانية ـ الإنجليزية إلى الشريف حسين ونجله الأمير عبدالله .

(٢) المرجع السابق : ص ٣ ـ ٤ مصر في ١٩ من شوال ١٣٣٣ / ٣ من أغسطس ١٩١٥م.

(٣) الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب، المرجع السابق ص ٤ ـ ٧ .

وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥م ـ ١٥ ذي الحجة ١٣٣٣هـ ـ رد «**مكماهون**» في رسالة قال فيها إن مرسين وإسكندرونة وبعض الأقسام السورية الواقعة في غربي دمشق: «**حمص وحماة وحلب، لا يمكن أن يقال عنها عربية محضة**» وعلى هذا الأساس يمكن بحث مسألة الحدود مع مراعاة أي اتفاق آخر مع زعماء عرب، وأما ولايتى البصرة وبغداد ففيها مصالح خالصة لبريطانيا[١].

وكان رد الشريف حسين في ٢٤ من ذي الحجة ١٣٣٣هـ ـ ٥/ ١٠/ ١٩١٥م، «**رغبة في تسهيل الاتفاق... واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فإننا نتنازل عن إصرارنا في ضم مرسين وأضنة، إلى المملكة العربية، أما قصبة حلب وبيروت وسواحلها فهى عربية صرفة، وليس هناك فرق بين المسلم العربي والمسيحى العربي، فكلاهما من نسل واحد**» وقال بأنه ليس بالمستطاع إقناع الشعب العربي بالتنازل عن العراق عاصمة الخلافة فى عهد علي بن أبى طالب ـ رضي الله عنه، ويمكن الموافقة على ترك البلاد المحتلة من إنجلترا إلى وقت آخر مناسب، لقاء تعويض تدفعه بريطانيا، وطلب في الرسالة ضمانات من السير مكماهون تضمن فيها بريطانيا حمايتهم من تركيا.. عندئذ يخوضون غمار الحرب بنفس مطمئنة لا يشوبها شيء من الخوف والحذر[٢].

وكان رد السيرمكماهون أن بريطانيا لا تستطيع أن تؤثر على مصالح حليفتها فرنسا في ساحل بلاد الشام وحثه على جمع كلمة العرب على مصالحهم المشتركة ومنعهم من مد يد المساعدة للأتراك، وأبلغه في الرسالة وعد بريطانيا بسلخ البلاد العربية عن تركيا[٣].

وأعاد السيرمكماهون رسالة شكر فيها حسين على احترامه وعدم رغبته بالإخلال بالاتفاق والتحالف بين بريطانيا وفرنسا.

وفي ٨ من شعبان ١٣٣٤هـ/ ٩ من حزيران ١٩١٦م أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك في الحجاز مساء الجمعة، وبرر ثورته في منشور **أهم ما جاء فيه:**

---

(١) المرجع السابق ـ ص٧، ٨ .

(٢) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب، المرجع السابق ـ ص ١٠، ١١ .

(٣) المرجع نفسه ص ١١، ١٢ .

أولا: إن الثورة أعلنت ضد جمعية الاتحاد والترقي وليس ضد السلطان الذي فقد حريته وسيادته وأصبح لا حول له ولا قوة.

ثانياً: لقد ثبت إلحاد أعضاء الاتحاد والترقي وتعسفهم واستبدادهم وظلمهم للنساء والأطفال، واستنزاف أموال الدولة وثرواتها وزجها في حرب خاسرة مع الدول الأوربية.

ثالثا: إن حكومة الاتحاد والترقي تضطهد من يدافع عن العقيدة، وتقرب كل كافر مناوئ للإسلام، ولقد أبطلوا الصلاة الإجبارية في الجيش وجعلوها اختيارية.

رابعاً: استحداثهم صكوك الغفران «**سجلات المستشفعين**» التى قررها شيخ الإسلام في عهدهم وصار يبيع الشفاعة النبوية لطالبها بليرة عثمانية وتدوَّن في سجلاتهم في الحرم النبوى الشريف.

خامساً: حربهم ضد الأرمن.

سادسا: إلغاؤهم اللغة العربية.

سابعاً: إعدام المتعاونين مع فرنسا في بلاد الشام.

ثامناً: الاغتيالات في السجون والشوارع لكل من يعارضهم.

تاسعاً: يصادرون الأموال، ويهتكون حرمة النساء المؤمنات، ويعرضون أطفالهم للهلاك والموت جوعاً.

«**ولم يكتفوا بالتنكيل بالأحياء تقتيلا وتصليبا ومصادرة ونفيا، وبقساوة على الأطفال «والنساء»** تنفطر لمجرد تصورها القلوب وتذهب الأنفس حسرات - بل وصل حقدهم على العرب إلى إهانة الأموات...».

عاشراً: الحشود العسكرية في بلاد الحجاز.

حادي عشر: إطلاقهم النار على الكعبة من مدافعهم، وقتل الناس حولها، وإحراق سترتها.

وأخيراً: من أجل كل ذلك كان الانفصال وكانت الثورة ضد الأتراك[1].

(١) الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب، المرجع السابق - ص ٢٦ - ٣٤.

السقوط مرة أخرى والوقوع في شراك الشيطان[١].

بينما يقود لورنس الجيش العربي في بلاد الحجاز «**لورنس ضابط بريطاني**» ويدمر سكة الحديد ويردم آبار المياه ويقوم بحرب عصابات ضد جيش الدولة الإسلامية، وبالرغم من حوار مكماهون المخادع للشريف حسين، فقد عقدت فرنسا وبريطانيا اتفاقية عرفت باتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦م أعطت فيه نفوذا لكل من بريطانيا وفرنسا على المساحة التى سمحا فيها بقيام حكومة عربية في الحجاز وبعض مناطق العراق وشرق الأردن[٢] ويكون لفرنسا وبريطانيا حق إقامة المشاريع فيها وهذه المنطقة صحراوية في أغلبها، بينما جعلت المناطق الأخرى تحت الانتداب البريطاني والفرنسي كما هو معلوم.

إن هذه الاتفاقية لم تأخذ بعين الاعتبار مراسلات واتفاقيات الشريف حسين مع المندوب السامي في مصر السيرهنرى مكماهون، وكذلك فإن الشريف حسين لم يعلم بها إلا بعد ستة أشهر وذلك في ديسمبر ١٩١٧م عندما كشف الأتراك عن الاتفاقية[٣] بعد أنْ نشرها البلشفيون في روسيا وقام الأتراك بتقديمها له، وبالرغم من تحذير جمال باشا للأمير فيصل بن حسين في العقبة وإبداء استعداد تركيا وألمانيا لمنح العرب حقوقهم التى يطالبون بها، فإن جمال باشا بين أن حسينا وقع في خداع الإنجليز وحلفائهم، فالشريف حسين باشا المسكين وقع أخيراً في حبائل الإنجليز وحلفائهم فالشريف حسين باشا بنفسه فضلا عن تسببه بوصول الأعداء إلى أمام قلعة القدس سيشعر بالتعاسة التى جلبها لنفسه بإبدال شرف الإمارة الممنوح له من الخلافة الإسلامية بالعبودية للإنجليز[٤].

وحاول فيصل أن يستفسر من البريطانيين عن حقيقة الاتفاقية، وفي شباط ١٩١٨م جاء الرد «**علماً أن الإتفاقية أبرمت عام ١٩١٦م**» مبهماً ومضللاً له وفيه تهرب من الإجابة عن

---

(١) من أراد أن يقف على مرارة ما حدث فعليه أن يقرأ مذكرات ت . أ . لورنس أعمدة الحكمة السبعة، منشورات المكتبة الأهلية بيروت ط ٢ سنة ١٩٧١م وسيجد فيها ما يكفي لاتعاظه ولمعرفة مكائد الصليبيين واليهود وسذاجة الذين تعاملوا معهم من المسلمين.

(٢) راجع: جورج أنطونيوس ـ يقظة العرب، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ «الخارطة بينهما» .

(٣) راجع: جورج أنطونيوس، يقظة العرب ـ ص ٣٥٣ .

(٤) المرجع نفسه ـ ص ٣٦١ .

السؤال المطروح، واطمأن حسين الذي كان مملوءاً بالإيمان والثقة بالإنجليز ....

وتنتهى الحرب، ويضطر فيصل على الموافقة على مشروع دولة يهودية عربية في فلسطين مع حاييم وايزمن، ويقضى المشروع بالعمل على تنفيذ وعد بلفور، وتشجيع الهجرة إلى فلسطين ووضع الأماكن المقدسة تحت رقابة المسلمين، وأن تقوم المنظمة الصهيونية بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في فلسطين، وتعتبر بريطانيا حَكَماً بين العرب واليهود في كل نزاع(١).

أُكِلْتُ يومَ أُكِلَ الثورُ الأبيض:

لقد انتهت دولة الخلافة بحدودها المترامية الأطراف، وانهزمت وتم سلخ البلاد العربية عنها، وانحسرت في تركيا فقط، وقلب الحلفاء للثوار العرب ظهر المِجَنّ، وخاب أمل دعاة الاستقلال، وعم الغضب، وعاد الحنين إلى الدولة الأم، وبدأ العرب يفكرون باللقاء مرة أخرى مع الأتراك، الذين حاربوهم لمصلحة البريطانيين وحلفائهم، راجين منهم العون والمساعدة كي يتخلصوا مما وقعوا فيه من ظلم الفرنسيين والبريطانيين، وقبل فيصل بن حسين نفسه بالاتفاق مع مصطفى كمال ليحارب العرب إلى جانب الأتراك فيحول هكذا الشعبان التركي والعربي دون تثبيت أقدام الفرنسيين في أية بقعة من بقاع الشرق الأوسط(٢) وأخذ العراقيون أيضاً يفكرون في الانضمام إلى الأتراك والمحاربة معهم، وهذا ما حدا بوزير المستعمرات البريطانية «**تشرشل**»، لأن يقول في مجلس العموم البريطاني: هناك جماعات من العرب تبدى تخوفاً من احتلال سورية، وهي تميل الآن، ولأول مرة لضم صفوفها بطرق مختلفة إلى الأتراك الوطنيين، على أن قضيتهم واحدة مشتركة، وهكذا تتم وحدة بين قوتين كُنّا نفيد دوماً من انقسامها لا من وحدتها(٣).

وبعد إعلان فيصل ملكاً على سوريا المتحدة وبحدودها الطبيعية في ٨ آذار ١٩٢٠م،

---

(١) راجع: الاتفاقية فى الملحق «و» جورج أنطونيوس، يقظة العرب - ص «٥٩٢ - ٥٩٥».

(٢) ملحم قربان - تاريخ لبنان السياسي - الأهلية للنشر والتوزيع بيروت ١٩٧٨ - ١/ ١٣٢ نقلا عن جريدة لسان الحال البيروتية في ٢٢ آذار ١٩٢٠ م.

(٣) ملحم قربان ، المرجع السابق - ص١٣٣ - نقلاً عن مناقشات البرلمان البريطاني للعام ١٩٢٠م.

قامت فرنسا وبريطانيا بشجب هذا الإجراء وتم اعتبار ذلك معوقاً ومعقداً في التسوية مع تركيا في مؤتمر الصلح، وفي ١٤ تموز ١٩٢٠م وجه الجنرال الفرنسى غورو إنذاراً إلى فيصل بتسريح الجيش العربي، وقبول الانتداب الفرنسى، ومعاقبة كل مسيء لفرنسا ووضع جميع المرافق تحت سيطرة جيشها(١) ويدعى الجنرال غورو أن جواب فيصل تأخر حتى ٢١ من الشهر نفسه، فهاجم سورية حيث وقعت معركة مع مجموعة من الجيش العربي يقودها المرحوم يوسف العظمة، وتم إلغاء المملكة، وغادر فيصل البلاد إلى حيفا ومنها إلى بورسعيد حيث قصد إيطاليا، فاستقر في مدينة كومو وهناك وضع مذكرة طويلة أرسلها إلى المسترلويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، مؤلفة من ٢١ صفحة، بكى فيها واستبكى، وذكر البريطانيين بكل الخدمات التى قام بها والده الشريف حسين(٢) وإخوته وكل العرب الذين قادهم لورنس واجتاح بهم الجزيرة العربية حتى دمشق والعقبة وكل فلسطين .. لكن كل الدموع لم تثر شفقة في قلب الرئيس البريطاني وهكذا كان حال فيصل «**أُكلتُ يوم أكِلَ الثورُ الأبيض**».

ما قاله لورنس في سذاجة قادة الثورة العربية :

عند استفسارهم من لورنس عن اتفاقية سايكس ـ بيكو، ولم يكن قد اطلع عليها ولا عرف من قبل اتفاقات حسين ـ مكماهون، فالاتفاقية جرت عن طريق وزارة الخارجية، يقول لورنس: «..**وقد كنت متأكداً أن جميع هذه الوعود، إذا ما ربحنا الحرب، ستبقى حبراً على ورق، وهكذا ترتب على إذا ما أردت أن أبقى مستشاراً شريفاً، أن أنصح رجالي بالعودة إلى أهلهم وبيوتهم بدلاً من المجازفة بأرواحهم في سبيل قصص وخدع من هذا النوع، ولكن ألم تكن الحماسة العربية أحسن أداة نستعملها في حربنا في الشرق الأدنى؟ وهذا الأمر هو الذي دفعنى إلى التأكيد للرفاق في حمل السلاح بأن إنجلترا ستحترم وعودها قلباً وقالباً، وما إن سمع العرب منى هذا الوعد حتى دبت في نفوسهم الحماسة مرة أخرى،**

(١) الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ـ ص ١٤٥ .
(٢) لمراجعة كامل المذكرة التى أرسلها فيصل إلى لويد جورج ـ راجع الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب ـ ص١٤٦ ـ ١٦٧ .

وراحوا يحاربون بشجاعة فائقة، أما أنا فبت لا أفخر بالانتصارات التى كنا نحققها بل كنت أشعر بالخجل لعلمى الأكيد بأن ما قلته لا قيمة فِعْلية له[١].

ووصف لورنس حالته النفسية من جراء ما كان يفعله مع العرب: **«كنت أشكو من نفسى، فمنذ أن وطئت قدماي أرض العرب وأنا حر في الاختيار، لا أتلقى الأوامر من أحد، وكنت قد تعبت كثيراً حتى الإنهاك من لعب دور الحكم وما يحيط به، سنة ونصف أمضيتها في الحركة العربية وأنا أقطع على متن الجمل «١٥٠٠ كم شهرياً»** هذا عدا السفر بالطائرات أو السفن أو السيارات المصفحة، وكنت خلال هذه المدة قد جرحت مراراً وقاسيت الكثير من الألم والجوع والبرد والقذارة.

وهذه المتاعب ما كانت لتعنى شيئاً، نظراً لعدم اكتراثى بما هو جسدى، وإنما هناك الخداع المرهق الذى اضطررت أن أحمل نفسى وزره، وهو ادعاء قيادة ثورة وطنية لعنصر آخر بعد أن لبست لها لباساً لا عهد لي بمثله من قبل .. أما الآن بعد الذي رأيته وقاسيته فقد ضقت أنا بنفسى وبت أخاف من الوحدة والمسؤولية[٢].

وعن طريقة إقناع فيصل بعدم الاكتراث باتفاقية سايكس ـ بيكو يقول: **«لحسن حظى أننى كنت قد كشفت لفيصل قبل هذا التاريخ عن وجود مثل تلك الاتفاقية، وأقنعته بأن أفضل وسيلة لكسر مفعول الاتفاق هي تقديم عون فَعّال للإنجليز، عندئذ سيكون من الصعب عليهم بعد النصر التضحية بحليف السلاح من أجل تنفيذ اتفاق ورقي، ولكن بما أننى لم أكن واثقاً مِنْ حسن تصرف الإنجليز فقد رجوت فيصل ألا يعتمد كوالده على وعودنا بل على قوته هو دون غيره**[٣] **وهكذا دفعته للغواية أكثر فأكثر»**.

إن هذه النقولات ليست لقراءة الماضي وإنما لاستشفاف الماضي القريب والحاضر، والنظر بوعي أفضل للمستقبل.

---

(١) لورنس ـ أعمدة الحكمة السبعة، المكتبة الأهلية ـ بيروت ـ ط٢ / ١٩٧١ ـ ص١٣٤ ـ ١٣٥.
(٢) لورنس ـ المرجع السابق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٣) المرجع نفسه ـ ص٢٦٢.

وبعد سقوط الدولة العثمانية قامت حركات فتية تحاول نفض غبار الهزيمة وتسعى لإعادة الهيبة للأمة الإسلامية.

*****

المبحث الثاني
جماعة الإخوان المسلمين في مصر
نحو إعادة الحكم الإسلامي

مقدمة :

تأسست حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨م، وكانت وليدة ظروف سياسية، تمثلت في خضوع البلاد تحت سيطرة الحلفاء الذين انتصروا في الحرب العالمية الأولى «**بريطانيا ـ فرنسا ـ ... وحلفائهما**»، حصل ذلك في وقت كان الشعار الأبرز هو التحرير أولا ثم الدعوة إلى قيام نظام برلماني ديمقراطي أسوة بما هو حاصل في دول أوربا، كما أنه برزت في مصر دعوة للتحرر الاقتصادي وذلك عن طريق دفع التنمية، وإقامة صناعات وطنية، فكان بنك مصر وظهور صناعات محلية.

وعلى المسرح الاجتماعي فقد ظهرت فئات متباينة في المجتمع المحلي، كنتيجة طبيعية للنظام التعليمي الحديث.

وعلى الصعيد الثقافي، فقد ظهرت في مصر تيارات ثقافية متصارعة في اتجاهاتها، ومتناقضة في أهدافها ومراميها، وكان كل تيار يرى حل المشاكل برمتها حسب قناعاته ومشروعه السياسي.

وقد كان من أبرز هذه التيارات التيار الإسلامي الذي يرى في اتباع سنن السلف الحل لكل التناقضات والصراعات، وقد دعا هذا التيار إلى إعادة صياغة مناهج التعليم من منظور إسلامي والتخلص من المناهج المشوبة بالمؤثرات الغربية، والتأكيد على إبراز مكانة اللغة العربية ودورها في التشكيل الثقافي للمواطن[١].

وكان في مواجهة التيار الإسلامي التيار الغربي الذي يرى «**ترك كل ما يتصل بالتراث والتخلي عن كل ما يمت للقديم والنهل القوى من مصادر الثقافة الغربية، وقد دعا هذا التيار إلى أن يكون التعليم علمانيا، وإلى اقتباس نظم الغرب في السياسة والاقتصاد والتعليم**

---

(١) أحمد ربيع عبد الحميد خلف الله ، الفكر التربوي وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين، مكتبة وهبة ـ مصر ـ ط ١ ـ سنة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ـ ص ٣ بتصرف .

وغير ذلك من مجالات».

وكذلك فقد ظهرت تيارات بعضها يدعو إلى انتظام مصر في إطار القومية العربية، واعتبارها جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، والبعض الآخر يدعو إلى الانكماش وبلورة قومية مصرية، تربط حاضرها بماضيها الفرعوني القديم(١).

ومن أهم مؤثرات حركة الإخوان المسلمين، عدا الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وما أحدثته من تناقضات وصراعات، كان تأثيرها الكبير على سير الأحداث في مصر بعد الحرب الكونية الثانية والتركيز على جلاء الإنجليز، والمطالبة بالاستقلال، ومحاربة الفساد فى القصر الملكي، والمساهمة في الدفاع عن فلسطين(٢) وذلك من خلال الإسهام بإرسال متطوعين شهدت لهم ساحات القتال بالبطولة والشجاعة.

مؤسس جماعة الإخوان المسلمين: الإمام الشهيد/ حسن البنا ـ رحمه الله تعالى:

«١٣٢٣هـ - ١٩٠٦م/ ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م»

ولد حسن البنا في المحمودية بمصر في ١٤من تشرين الأول ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٦م، في بيت عريق بالعلم والمعرفة - لقد كان والده عالماً في الحديث، وله مصنفات كثيرة في هذا الباب،لذلك فإن حياة حسن البنا تميزت بطابع الشغف العلمي والورع والزهد، وبانت ملامح الذكاء عليه منذ الصِّغَر وكان يداوم على قيام الليل، وصيام الاثنين والخميس، وأتم حفظ القرآن الكريم عندما بلغ الحلم، وكان يهتم كثيراً بتغيير المنكرات ومساعدة المحتاجين.

لقد ترأس جمعيتى «**الأخلاق الأدبية**» و«**جمعية منع المحرمات**» والتحق بدار المعلمين، وهو في سن الرابعة عشرة في دمنهور، ثم التحق بكلية دار العلوم في القاهرة.

وعمل البنا مدرساً في إحدى مدارس الإسماعيلية، حيث تَجْثُمُ القوات البريطانية، ولا يبدو على الإسماعيلية سوى الطراز الأوربي، فكأنها هي من أحياء لندن، ومعظم أهلها عمال في شركة السويس البريطانية.

---

(١) المرجع نفسه ـ ص ٤ بتصرف .

(٢) راجع : حسن البنا ـ المؤتمر الخامس ـ مجموعة الرسائل ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤١، ٢٤٢ .

كان «**البنا**» يرى الإنجليز وقد أذلوا الشعب المصري، ويشاهد العمال كأنهم عبيد ذوى الوجوه الحمر، ويرى الإباحية والفساد والتحلل يستشري في العالم الإسلامي وبخاصة بعد إسقاط الخلافة على يد أتاتورك سنة ١٩٢٤م، ويرى الغربيين جادين في اجتثاث الإسلام من جذوره وإقصائه من الوجود والشهود، يرى هذا كله فتتمزق أحشاؤه كمداً، ويذوب قلبه أسىً، يقول رحمه الله تعالى: «**ثم كانت في مصر كوامن الشجن في قلبى، ولفتت نظرى إلى وجوب الجد والعمل...**» ويصف المعاناة النفسية التى كانت تلم به وهو يتفكر في أحوال العالم الإسلامي «**ليس يعلم أحد إلا الله كم من الليالي كنا نقضيها نستعرض حال الأمة، وما وصلت إليه في مختلف مظاهر حياتها، ونحلل العلل والأدواء ونفكر في العلاج وحسم الداء ـ ويفيض بنا التَّأَثُّر لما وصلنا إليه إلى حد البكاء**».

ويصف حال اللاهين العابثين المتسكعين على المقاهي والمترددين على أندية الفساد، القاتلين للوقت كما يزعمون، فيقول: «**كنا نعجب لهؤلاء الناس وكثير منهم من المثقفين، ومن هم أولى منا بحمل هذا العبء، ثم يقول بعضنا لبعض: أليس هذا داء من أدواء الأمة ولعله أخطرها، ألا تفكر في مرضها وألا تعمل لعلاج نفسها؟**».

أمام هذا الواقع، خرج هؤلاء المفكرون بهموم الأمة: أحمد السكري ـ أحمد عسكرية ـ أحمد عبد الحميد ـ فكان الأول بالمحمودية، والثاني بالزقازيق والثالث بكفر الدوار، وحسن البنا في الإسماعيلية، لقد توزع هؤلاء ناذرين أنفسهم لإصلاح ذلك الفساد الذى عم البلاد، «**وفي الإسماعيليه أيها الإخوان وضعت أول نواة تكوينية للفكرة وظهرت أول هيئة متواضعة تعمل، ونحمل لواءها ونعاهد الله على الجندية التامة في سبيلها تحت اسم «الإخوان المسلمين»** وكان ذلك في ذي القعدة سنة ١٣٤٧هـ»[1].

بدأت جماعة الإخوان المسلمين بحالتها التنظيمية في الإسماعيلية «**ذي القعدة ١٣٤٧ هـ أبريل ١٩٢٨م**» وكان عدد الهيئة التأسيسية ستة ممن تأثروا بمحاضرات الإمام حسن البنا. وفي ١٩٣٢م انتقل الأستاذ البنا من الإسماعيلية إلى القاهرة حيث بَدَأت الدعوة تتخذ

(١) راجع: صلاح شادي ـ صفحات من التاريخ ـ الكويت ـ ط ٢ سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١مـ ص ٦٠ ـ ٦٦ بتصرف.

طوراً جديداً، واتخذت لها مركزاً في القاهرة «فى **السروجية**» سمى «**المركز العام للإخوان المسلمين**»، وقام البنا يجوب القرى، ويطوف المدن، ويفتتح الشُّعَب حيثما حل، فأصبحت الدعوة ملء سمع مصر وبصرها، وهذا ما أَثارَ حفيظة أجهزة الحكومة التى كلفت بضعة عشر من رجال المخابرات يسيرون حيث سار، وبعد أن طارت شهرة الجماعة، وأصبح لها الدور الأساسي في مقاومة الاحتلال البريطاني، بعد عدة أحداث، وعقب تمكن الحكومة من معرفة جهاز التنظيم الخاص، أصدر رئيس الحكومة المصرية النقراشي باشا في ٨ ديسمبر ١٩٤٨م قراراً بحل الجماعة الذي جاء تمهيداً لاتفاقية «**رودس**» للهدنة التى وقعت في ٢٤ فبراير ١٩٤٩م بين الحكومة المصرية وعصابات اليهود الذين احتلوا فلسطين، ثم تلا ذلك توقيع بقية الدول العربية الواحدة بعد الأخرى، وكانت ردة فعل بعض عناصر الإخوان على قرار الحل أن اغتالوا رئيس الحكومة النقراشي باشا في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨م بتصرف من أحد تلك العناصر بالرغم من كل محاولات المرشد الأستاذ البنا الذي أراد تجنب تلك الكارثة.

وكما يبدو فإن برمجة الأحداث كانت دقيقة للغاية، فتدحرجت الكرة، وفي ١٢ من فبراير ١٩٤٩م تلقى المرشد حسن البنا استدعاءً مجهولاً إلى المركز العام لجمعية الشبان المسلمين قبيل غروب الشمس، وبينما كان يهم بركوب سيارة أجرة بصحبة صهره عبدالكريم منصور أطفئت أنوار شارع الملكة نازلي الذي يقع فيه بناء الجمعية وأطلق عليه المخبر أحمد حسين جاد الرصاص وصعد المرشد على سلالم دار الشبان بالرغم من إصابته، وطلب عربة إسعاف بنفسه تلفونيا، وحملته العربة إلى القصر العينى حيث لقى ربه بسبب النزيف الذى لحقه من إصابته[1] ... وصلت أربع نساء على جنازة البنا مع والده الذي أثقلته السنون، وقطعت الكهرباء عن الحي، وحملت النساء الأربع الجنازة في جو رهيب بين صفوف الدبابات ودفن البنا، وتمت حراسة القبر حتى لا يخرج الإخوان جثته ويتظاهرون بها[2].

---

(١) انظر: صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ٦٧، ٦٨.

(٢) راجع: حسن البنا ـ المؤتمر الخامس ـ مجموعة الرسائل ص ٢٤١، ٢٤٢. ش١ ـ فتحى يكن ـ الموسوعة الحركية ـ مرجع سابق ـ ص ٥٥.

والجدير ذكره أن رئيس الحكومة يومها إبراهيم عبدالهادي هو الذي أمر باغتيال المرحوم الشهيد حسن البنا.

وطويت بذلك صفحة رجل جدد دين أمته على مدى قرن من الزمان، وبقيت أصداء تلك الحركة تتفاعل حتى الآن، وتطبع الأحداث الجارية في سائر أنحاء العالم الإسلامي وخصوصاً المنطقة العربية.

الدولة الإسلامية فى فكر الجماعة:

لقد كانوا كغيرهم من الدعوات السابقة ينشدون إقامة الدولة الإسلامية، والسعي لتحقيقها، لكونها الإطار الطبيعي لتطبيق الشريعة الإسلامية.

والناظر يرى أن هناك دعائمَ أساسيةً عندهم لموضوع الدولة وهى:

١ ـ القرآن الكريم هو المصدر الأساسي للتشريع.

٢ ـ إدارة الحكومة على أساس مبدأ الشورى.

٣ ـ احترام إرادة الأمة[١].

يقول حسن البنا رحمه الله تعالى: «**يفترض الإسلام الحنيف الحكومة قاعدة من قواعد النظام الاجتماعي الذي جاء به الناس، فهو لا يقر الفوضى، ولا يدع الجماعة المسلمة بغير إمام .. كما جاء في حديث لرسول الله ﷺ: «وإذا كنتم ثلاثة فَأَمِّروا عليكم رجلاً»** وأنه من ظن أن الدين لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه، فقد ظلم نفسه، وظلم علمه بهذا الإسلام»، ويستشهد بقول الإمام الغزالى: «**اعلم أن الشريعة أصل، والملك حارس وما لا أصل له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع**»[٢].

وفصل دعائم الحكم بـ: مسؤولية الحاكم ووحدة الأمة واحترام إرادتها.

مسؤولية الحاكـم :

إنه مسؤول بين يدي الله عز وجل، وبين الناس، هو أجير لهم وعامل لديهم، وهذا ما

(١) انظر: أحمد بن خلف الله ـ المرجع السابق ـ ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) انظر: حسن البنا ـ مجموعة الرسائل ـ مرجع سابق ـ ص ٣٥٨ .

حدده رسول الله ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» وما فهمه وترجمه الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه: «**أيها الناس، كنت أحترف لعيالي فأكتسب قوتهم، فأنا الآن أحترف لكم، فافرضوا لي من بيت مالكم**» ويخرج البنا إلى أن ذلك هو تعاقد بين الأمة والحاكم على رعاية المصالح العامة، فإن أحسن فله أجره، وإن أساء فعليه عقابه[١].

وحدة الأمة:

إن الأمة الإسلامية واحدة من مبدأ الأخوة التى جمع الإسلام عليها القلوب ولا يمكن تصور الفرقة في الشؤون الجوهرية، والخلاف في الفروع لا يضر، ولا يوجب بغضاً ولا خصومة ولا حزبية يدور معها الحكم كما تدور، ويلزم البحث والتمحيص، ويدعو «**البنّا**» إلى النصح والتشاور وإعطاء وليّ الأمر سلطة مطلقة في حال عدم وجود النص: «**وما لا نص فيه فقرار وَليّ الأَمر يجمع الأمة عليه ، ولا شيء بعد هذا**»[٢].

احترام إرادة الأمة:

إن الأمة بإمكانها أن تراقب الحاكم أدق مراقبة وأن تشير عليه، وعليه أن يُشاورها ويحترم إرادتها، «**وأن يأخذ بالصالح من آرائها**» أي أنه أعطى ولي الأمر حق استنساب الرأى الذي يرتاح إليه، أي أنه هو صاحب القرار في نهاية الأمر، ويشترط «**البنا**» على كل فرد أن يشعر بقدسية النظام، وذلك بتوفر وجدان حي، يربط ما بين حفظ النظام وبين سعادتي الدنيا والآخرة، ولقد استعار «**البنا**» مصطلحات محددة كي يعبر فيها عما يريد، فقال: «**وهو ما يعبرون عنه في الاصطلاح الحديث «بالوعي القومي» أو «النضج السياسي» أو «التربية الوطنية**» أو نحو هذه الألفاظ، ومردها جميعاً إلى حقيقة واحدة هي اعتقاد صلاحية النظام والشعور بفائدة المحافظة عليه[٣].

موقف البنا من النظام الديمقراطى «النيابى»:

يستند الإمام البنا ـ رحمهُ الله ـ على مبررات علماء الفقه الدستورى في النظام النيابي،

---

(١) انظر: حسن البنا ـ مجموعة الرسائل ـ مرجع سابق ـ ص ٣٦٠ .

(٢) المرجع نفسه ـ ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

(٣) انظر: حسن البنا ـ مجموعة الرسائل ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٢ .

الذي يقوم على «**مسؤولية الحاكم، وسلطة الأمة، واحترام إرادتها**» والفرقة والاختلاف ليستا شرطاً فيه، والحزبية في النظام النيابي هي عرفية وليست أصلاً من أصوله، ويمكن تطبيقه بدونها، «**وعلى هذا فليس في قواعد النظام النيابي ما يتنافى مع القواعد التى وضعها الإسلام لنظام الحكم، وهو بهذا الاعتبار ليس بعيداً عن النظام الإسلامي ولا غريباً عنه، بهذا الاعتبار يمكن أيضا أن نقول في اطمئنان: إن القواعد الأساسية التى قام عليها الدستور المصري لا تتنافى مع قواعد الإسلام**» ويرى بأن واضعي الدستور، بالرغم من وضعه على أحدث المبادئ الدستورية وأرقاها، إلا أنهم توخوا ألا يصطدم أي نص من نصوصه بالقواعد الإسلامية، «**فهي متمشية معها صراحة كالنص الذي يقول: «دين الدولة الإسلام»**، أو قابلة للتفسير الذي يجعلها لا تتنافي معها، كالنص الذي يقول: «**حرية الاعتقاد مكفولة**»، غير أن البنا نبه إلى أن الدستور غير القوانين وهناك بعض القوانين التى تطبق في المحاكم تتنافى صراحة مع ما جاء به الإسلام[1].

إن النظام المصرى الذي يتحدث عنه «**البنا**» هو النظام الملكي المرتكز على الدستور والمجلس النيابي، أي أن الحكومة هي التى تكون مسؤولة أمام ممثلي الشعب، وبالتالى أمام الأمة والملك هو استمرار لحالة الاستقرار، يغير الحكومة أو يثبتها وفق إرادة الأمة الممثلة بالمجلس النيابي، وبكل قنوات الاتصال بين الجماهير والسلطة: «**فأما عن مسؤولية الحاكم فإن الأصل فيها في النظام الإسلامي أن المسؤول فيها هو رئيس الدولة كائنا من كان، له أن يتصرف، وعليه أن يقدم حساب تصرفه للأمة، فإن أحسن أعانته وإن أساء قومته**»، ويرى «**البنا**» استناداً إلى ما جاء في كتاب الأحكام السلطانية للماوردي بأنه «**لا مانع في الإسلام من أن يفوض رئيس الدولة غيره في مباشرة هذه السلطة وتحمل هذه المسؤولية، كما عرف ذلك في وزارات التفويض في كثير من العهود الإسلامية، ورخص الفقهاء المسلمون في ذلك وأجازوه ما دام فيه مصلحة، والقاعدة في مثل هذه الأمور رعاية المصلحة العامة**».

وهذا النمط من النظام، حيث الحكم فيه يقع على عاتق الحكومة أو الوزارة هو الذي يشبهه «**البنا**» بوزارة التفويض، ويرى مثالاً على ذلك الدستور المصري والدستور

(١) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧ .

الإنجليزي: «**والأصل في هذه المسؤولية في النظام النيابي، أن المسؤول هو الوزارة ولا مسؤولية على رئيس الدولة، وقد جرى على هذا الوضع الدستور المصرى والدستور الإنجليزي، فخرج كل منهما بمسؤولية الوزارة، وإخلاء رئيس الدولة من كل مسؤولية واعتباره لا يخطئ واعتبار ذاته مصونة**»[١].

ثم إن البنا لا يرى تعارضاً بين النظام الإسلامي والنظام الرئاسي، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية مستنداً على ذلك بما قاله الماوردى عن وزارة التنفيذ، حيث إن المسؤولية تبقى منوطة بالرئيس وليس بالوزارة: «**على أنه لا مانع في النظام النيابي من تحمل رئيس الدولة المسؤولية واعتبار الوزارة تابعة له في ذلك، كما يقرر ذلك دستور الولايات المتحدة ـ والغريب أن تشير كتب الفقه الإسلامي إلى هذا الوضع أيضاً، وتسمى هذه الوزارة** «**وزارة التنفيذ**» حيث إن النظر مقصور فيها على رأي الإمام وتدبيره، والوزير هو وسيط بينه وبين الرعايا والولاة، يؤدى عنه ما أمر، وينفذ ما ذكر ويمضى ما حكم».

ويختم البنا بقوله: «**ولا شك أن هذا من سعة مادة الفقه الإسلامي ومرونته وصلاحيته لكل زمان ومكان**»[٢] **وبذلك يكون البنا قد أفتى بجواز:**

١ـ الحكم الملكى الدستورى حيث تكون المسؤولية على الوزارة «**دليل ذلك أنه كان يتحدث عن دستور مصرى في ظل ملكية قائمة**».

٢ـ أفتى بجواز الحكم الجمهوري ـ الرئاسي ـ كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية ويعيب «**البنا**» على الدستور المصرى غموضه في تفصيل صلاحيات الوزراء والنواب.

الوحدة طريق الإيمان:

قال الإمام حسن البنا: «**الاختلاف والفرقة قرين الكفر**».

إن وحدة الأمة الإسلامية مفروضة فرضاً من قبل الإسلام الحنيف، فالوحدة هي قرينة

---

(١) يراجع: حسن البنا ـ المرجع السابق «موقف الإسلام من النظام النيابي والدستوري المصري» ـ ص٣٦٧ ـ ٣٦٨ .

(٢) حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

الإيمان: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[(١)]، والخلاف والفرقة قرين الكفر، كما قال ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(٢)].

ويرى البنا أن الحكم النيابي يحقق هذه الوحدة أو أنه لا يأباها، وأن تعددية الأحزاب ليست مسألة ضرورية لتحقيق الحياة البرلمانية، ففى إنجلترا كما في الولايات المتحدة الأمريكية ليس فيهما إلا حزبان يتداولان فيها الأمر «**وتكاد تكون حزبيتهما داخلية بحتة، وتجمعهما دائما المسائل القومية المهمة**» وهذان الحزبان لا يحس بهما إلا وقت الانتخابات، أي أن عملهما هو لهدف واحد وليس أحدهما ضد الآخر حتى الفرقة.

بينما البلاد التى أسرفت في تكوين الأحزاب قد «**ذاقت وبال أمرها في الحرب وفي السلم على السواء**»[(٣)].

موقف البنا من الأحزاب المصرية:

فيما تقدم تبين رأيه في مسألة الحياة البرلمانية، ومسألة وجود حزبين يعملان لهدف واحد هو مصلحة بلادهم، تجمعهما أهداف مشتركة، أما الأحزاب التي كانت في مصر إبان حياة المرحوم حسن البنا فليست في نظره إلا سلسلة من الانشقاقات الناتجة عن الخلافات الشخصية: «**لقد انعقد الإجماع على أن الأحزاب المصرية هي سيئة هذا الوطن الكبرى، وهي أساس الفساد الاجتماعي الذى نصطلى بناره الآن، وأنها ليست أحزاباً حقيقية بالمعنى الذي تعرف به الأحزاب فى أى بلد من بلاد الدنيا، فهى ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية بين نفرمن أبناء هذه الأمة .. وهذه الأحزاب ليس لها برامج ولا مناهج.. وبما أن هذه الأحزاب هى التى تحكم مصر: «فإن من البديهى ألا يستقيم أمر الحكم وهذه حال من يسيرون دفته**»[(٤)].

---

(١) والله ـ سبحانه وتعالى ـ افترض نوعاً محدداً من الحوار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال] ووحدة المؤمنين بالله تعالى تكون :﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف :٤].

(٢) أخرجه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥).

(٣) حسن البنا ـ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن النبا ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .

(٤) حسن البنا ـ مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ .

ودعا إلى حل الأحزاب جميعها وجمعها في حزب واحد فقط[(١)].

أهل الحل والعقد:

يقول البنا بأن الإسلام لم يشترط إشراك جميع أفراد الأمة في إعطاء رأيها في الأمور المستجدة «**النازلات**» وإنما ترك ذلك لأهل الحل والعقد، **وهؤلاء هم:**

١ـ الفقهاء المجتهدون.

٢ ـ أهل الخبرة في الشؤون العامة.

٣ ـ من لهم نوع قيادة أو رئاسة في الناس كزعماء البيوت والأسر وشيوخ القبائل ورؤساء المجموعات.

ويرى بأن النظام النيابي يوصل إلى انتخاب «**أهل الحل والعقد**»[(٢)].

موقف حسن البنا من «الثورة» واستعمال القوة:

في المؤتمر الخامس لجماعة الإخوان المسلمين في مصر[(٣)] طرح الإمام الشهيد ـ رحمهُ الله تعالى ـ التساؤلات التالية ، ثم أجاب عنها:

فقال: يتساءل كثير من الناس:

ـ هل في عزم الإخوان المسلمين أن يستخدموا القوة فى تحقيق أغراضهم والوصول إلى غايتهم؟

ـ وهل يفكر الإخوان المسلمون في إعداد ثورة عامة على النظام السياسى أو النظام الاجتماعى؟

ـ وهل فى منهاج الإخوان المسلمين أن يكونوا حكومة، وأن يطالبوا بالحكم وما وسيلتهم إلى ذلك؟.

وقبل إثبات الإجابة التى أوردها البنا لا بد من العودة إلى بداية خطابه في المؤتمر الخامس

---

(١) المرجع نفسه ص٣٧٤ .

(٢) المرجع نفسه ص٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٣) انعقد المؤتمر بعد انقضاء عشر سنوات على تأسيس الجماعة «١٣٤٧ ـ ١٣٥٧ هـ » «١٩٢٨ ـ ١٩٣٨م» .

لنقف على تصوره لطبيعة السعادة التى تنشدها البشرية، وعلى ضوء ذلك يمكن أن نفهم ماهية الوسائل والغايات التى يدعو إليها البنا ـ رحمه الله تعالى.

يقول: «**السعادة التى ينشدها الناس جميعاً إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تأتيهم من خارج هذه القلوب أبداً، وأن الشقاء الذى يحيط بهم ويهربون منه، إنما يصيبهم بهذه النفوس والقلوب كذلك**» وإن القرآن الكريم يؤيد هذا المعنى ويوضحه وذلك في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

ويستشهد بقول أحد الشعراء:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

ثم علق على ذلك بتجديد طريق تأمين هذه السعادة وبالشكل الذى رسم ملامحه، فإذا به لا يرى بديلا عن الإسلام كى تتحقق هذه الأمنية المنشودة: «... **ليست هناك نظم ولا تعاليم تكفل سعادة هذه النفوس البشرية، وتهدى الناس إلى الطرق العملية الواضحة لهذه السعادة، كتعاليم الإسلام الحنيف الفطرية الواضحة العملية**»[2].

إن السعادة التى تنبعث من داخل النفس البشرية لا يمكن تحصيلها إلا بالدعوة والإقناع مع ما يستلزم ذلك من حسن العرض، وهذا يستوجب وجود داعية يتمثل ويعيش ما يدعو إليه.. فالمسألة هي تغيرية تبدأ رحلتها الأولى من أعمق أعماق النفس البشرية.

الدعوة ونواميس الكون:

يقول «**البنا**»: أيها الإخوان المسلمون: «**ألجموا نزوات العواطف بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة**» بعد هذه المقدمة التى حض فيها على ضرورة سيادة العقل المشحون بالعواطف الجياشة، والتزام

---

(١) الرعد :١١ .

(٢) حسن البنا ـ مجموعة الرسائل ـ المرجع السابق ـ ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

الصدق والواقع واكتشاف الحقائق حيث يتحول الخيال إلى وسيلة تركيز، يرشد إلى مسألة أساسية هي الدخول في نسق نواميس الكون التى يعتبر الخروج عليها خروجا على الحقيقة والواقع وإدارة الظهر للعقل وجنوحا إلى الخيال الخلبى الذى لا ترجى منه فائدة ولا مصلحة: «**ولا تصادموا نواميس الكون فإنها غلاّبة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض**»[١].

إن الدعوة إلى تفهم نواميس الكون واستخدامها يعنى أن حسن البنا ـ رحمهُ الله تعالى ـ قد طرق كل باب من أبواب النجاح ولبلوغ الغايات والأهداف.

لقد أخبر القرآن الكريم أن ذا القرنين لما أراد أن يوقف زحف المفسدين من يأجوج ومأجوج أقام في وجههم سداً: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[٢].

وإلى الأخذ بالأسباب بعد توفيق الله ـ عز وجل ـ كان نجاح الإمام حسن البنا بالدعوة في المدن والقرى حيث اتسم العاملون بالعفة، والتضحية بالمال والوقت والجهد في صورة رائعة، قال عنها الإمام: «.. **ودأب المكتب على ذلك، يقتطع أعضاؤه من قوتهم وجهودهم ما يستعينون به على خدمة عقيدتهم فى عفة الأسد، وفى طهارة الغمام، لا يمدون لأحد يداً ولا يسألون كبيراً، ولا هيئة شيئاً ولا يأخذون مال حكومة ولا يطلبون معونة أحد إلا الله**»[٣].

عودة لعرض الإجابة التى قدمها حسن البنا على مسألة القوة والثورة والوصول إلى الحكم فقال:

«**أما القوة فشعار الإسلام في كل نظمه وتشريعاته.. فالإخوان المسلمون لا بد أن يكونوا**

---

(١) حسن النبا ـ مجموعة رسائل ـ مرجع سابق ـ ص ٢٥٧ .

(٢) الكهف : ٩٤ ـ ٩٧ .

(٣) حسن البنا ـ مجموعة رسائل .. المرجع السابق ـ ص ٢٦٥ .

أقوياء ولا بد أن يعملوا في قوة.

ولكن الإخوان المسلمين أعرق فكراً، وأبعد نظراً من أن تستهويهم سطحية الأعمال والفكر، فلا يغوصوا في أعماقها، ولا يزنوا نتائجها وما يقصد منها وما يراد بها، فهم يعلمون أن أول درجة من درجات القوة، قوة العقيدة والإيمان، ويلي ذلك الوحدة والارتباط، ثم بعدهما قوة الساعد والسلاح.

ولا يصح أن توصف جماعة بالقوة حتى تتوفر لها هذه المعاني جميعاً، وأنها إذا استخدمت قوة الساعد وهي مفككة الأوصال مضطربة النظام، أو ضعيفة العقيدة خامدة الإيمان، فسيكون مصيرها الفناء والهلاك».

لكن متى تستخدم القوة؟ هل تستخدم في كل الظروف أم لها شروط محددة؟ هذا سؤال طرحه الإمام البنا، ثم تساءل أيضاً: «**هل تكون القوة أول علاج، أم آخر الدواء الكى؟ وهل من الواجب أن يوازن الإنسان بين نتائج استخدام القوة النافعة ونتائجها الضارة، وما يحيط بهذا الاستخدام من ظروف؟ أم من واجبه أن يستخدم القوة وليكن بعد ذلك ما يكون؟**».

أما عن الثورة فإن المسألة تكون أخطر وأدق: «**والثورة أعنف مظاهر القوة، فنظر الإخوان المسلمين إليها أعمق وأدق، وبخاصة في وطن كمصر جرب حَظّه في الثورات فلم يجن من ورائها إلا ما تعلمون**» وبعد طرح هذه التساؤلات حدد الإمام حسن البنا ـ رحمهُ الله ـ خيارات جماعة الإخوان المسلمين.

أولا: إن الإخوان سيستخدمون القوة عندما يستحيل وجود بديل عنها ومع ذلك فاستكمال الشروط هى أساس فى ذلك وإلا فلا.

ثانيا: واستخدام القوة سيكون بشرف ومشروعية «.. **وسينذرون أولا، وينتظرون بعد ذلك** ..» وبكرامة وعزة..

أما الثورة فإنها مستبعدة نهائيا من فكر الإخوان المسلمين «**أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها، ولا يعتمدون عليها، ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها**».

وأنذر «**البنا**» الحكومة المصرية على أن الحال إذا ما استمرت عليه هكذا دونما إصلاح عاجل وسريع، فإنَّ ثورة ستحدث في مصر لكنها: «.. **ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم**».

أما عن الحكم والوصول إليه فإنه قال: «**والحكم معدود في كتبنا الفقهية من العقائد والأصول لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر**» والمصلح المسلم عندما يخص نفسه بالوعظ والإرشاد ويترك أهل التنفيذ يشرعون للأمة ما لم يأذن به الله عند ذلك تكون النتيجة الطبيعية أن صوته سيكون فى واد، ونفخه في رماد.

ويرى الإمام البنا أن الإخوان لا يطلبون الحكم لذاتهم، إذا قام به البعض كانوا له عونا وإذا لم يقم فإن ذلك من منهاجهم وسيعملون على إحقاقه[1].

الطريق إلى خلافة إسلامية:

إن الخلافة في رأس مناهج الإخوان المسلمين، كما حدد ذلك البنا ـ رحمه الله تعالى ـ في رسالة المؤتمر الخامس، لكن ذلك يحتاج إلى مراحل لا بد من استكمالها وخطوات لا بد من تحقيقها:

أولا: لا بد من تعاون تام ثقافى واجتماعى واقتصادى بين الشعوب الإسلامية كلها.

ثانياً: ثم يلى ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية، حتى إذا تم للمسلمين ذلك نتج عنه الاجتماع على «**الإمام**» الذى هو واسطة العقد ، ومجتمع الشمل، ومهوى الأفئدة وظل الله في الأرض[2].

الفجر المرتقب :

أنهى الشهيد حسن البنا خطابه في المؤتمر الخامس بخلاصة ضمنها الحقائق الثابتة فى مسرى وحياة الأمم والشعوب والدول، وركز على أمل لم يعد بعيد المنال، ذلك هو العودة

---

(١) حسن البنا ، مجموعة الرسائل ـ ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٢) راجع: حسن البنا، مجموعة رسائل ـ ص ٢٥٨ .

إلى قيادة العالم مرة أخرى، «**ولا تيأسوا فليس اليأس من أخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية وعظيمة في نفوس شعوبكم المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد، والضعيف لا يظل ضعيفاً طول حياته، والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين.... وإن الدور عليكم في قيادة الأمم وسيادة الشعوب، وتلك الأيام نداولها بين الناس،** ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[1] **فاستعدوا واعملوا اليوم فقد تعجزون عن العمل غداً**».

وتأكيداً لوجوب التعامل مع نواميس الحركة في الكون، والإفادة من اتجاه الرياح في الوقت المناسب، كى ينشر ربان السفينة أشرعته، وإلا فإن معاكسة الرياح تؤدى إلى العنت وعدم بلوغ الأهداف، وبالتالى تعريض السفينة وركابها إلى أخطار محتملة، وفي أحسن الأحوال إلى عدم تمكنها من السير بشكل سليم ومرغوب فيه يقول «**البنا**»: «**لقد خاطبت المتحمسين منكم أن يتريثوا وينتظروا دورة الزمان، وإنى لأخاطب المتقاعدين أن ينهضوا ويعملوا فليس مع الجهاد راحة:** ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾»[2].

هذه هي المبادئ، وذلكم هو المنهج الذي طرحه الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى: دعوة وعمل، عبادة في دقتها، وشخصية متزنة لا تكثر من الجدل ولا من الضحك والمزاح، ولا ترفع الصوت أكثر مما يحتاجه السامع، و«**تجنب غيبة الأشخاص وتجريح الهيئات ولا تتكلم إلا بخير**»، حب وتعارف وتعاون وعدم إضاعة للوقت، بل وجوب قضاء المهام بسرعة ومساعدة الآخرين على الانتفاع بوقتهم.

نظرة واقعية إلى حالة البلاد والدعوة إلى الدخول في قوانين التغيير، فلم يطلب من الملك أن يخلع نفسه، كما أنه لم يطرح مسألة خلعه ولا الثورة عليه، بل أكثر من ذلك فإن الثورة مستبعدة فى منهجه، وإن كان قد توقعها فمن غير الإخوان المسلمين، أو على يد غير الإخوان المسلمين.

---

(١) النساء: ١٠٤.

(٢) راجع: حسن البنا ـ المرجع السابق ـ ص: ٢٩٨، والآية من سورة العنكبوت: ٦٩.

لقد قارن بين أشكال الحكومات والنظم في العالم، وبين ما توصل إليه الفكر الإسلامى على يد الماوردى وغيره، بحيث قابل وزارة التفويض بنمط الأنظمة التى يؤول الحكم فيها إلى مجلس الوزراء، ووزارة التنفيذ إلى الحكومات التى تكون السلطة فيها لرئيس الدولة.

وحذر من التهور والاندفاع بلا روية ودعا إلى تحضير كل الأسباب وانتظار الفرصة من أجل تحقيق وجود دولة الإسلام، كما حدد معالمها ووجوب قيامها فقهاء المسلمين من قبل، ولم يحصر تلك المهمة بجماعة الإخوان المسلمين، بل اعتبر أن ذلك ممكن على يد أية مجموعة إسلامية أو حاكم مسلم، وفى حال عدم القيام بهذه الفريضة فإن الأمر يصبح لا مَفَر من التصدى له والعمل من أجله بكل حكمة وروية وحسن استعداد..

مصير الدولة عند الإخوان المسلمين:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع**» فقيل: يا رسول الله كفارس والروم فقال: «**ومن الناس إلا أولئك؟**»[1].

مع أن الحديث يصف أمارات الساعة التى منها تقليد المسلمين للأمم الغابرة قبلهم من الفرس والروم، وذلك في شتى مجالات حياتهم الاجتماعية وغيرها «**حتى تأخذ بأخذ القرون قبلها** ...» ومن أكبر تلك الملامح، الصراعات وحب الذات .. والفردية.

إن إغفال المسلمين لدراسة المنهاج السياسي الإسلامي، الذي يرتكز على الشورى، التى بدورها تعنى مشاركة أهل العلم والخبرة في صنع القرار السياسى، أو أهل الصنعة كل فى مجال تخصصه أضر بالمسلمين.

لقد بدأ الإمام حسن البنا ـ رحمهُ الله ـ جهده في الدعوة إلى الله تعالى، واندفع الناس في الاستجابة لهذه الدعوة بحماس شديد، لسلامة عرضها ووضوح منهجها، ونقاء عقيدتها، ولصدق حامليها، وكذلك بسبب ردة الفعل على الهزائم التى أصابت المسلمين بعد سقوط الدولة الإسلامية، وخيبة الأمل التى وقع فيها دعاة الإصلاح وحملة رايات التغيير ...

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣١٩).

لقد كانت مصر كغيرها ترزح تحت الاحتلال البريطانى، وكان الناس يتوقون إلى الحرية والتخلص من أعدائهم، وإذا بجل هذه التبعات تقع على عاتق أكبر حركة شهدتها فترة الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين للميلاد وإلى اليوم، حركة جماعة الإخوان المسلمين.

وتدخل الجماعة في صراع مع حكومة صدقي عام١٩٤٦م، ويعلن الإمام حسن البنا بأن هذه الحكومة التي تحرص على المفاوضات مع الإنجليز لا تمثل إرادة الأمة، وتخرج المظاهرات وتتم الاعتقالات.

وتشترك الجماعة فى العمل المسلح ضد الإنجليز، ويبدأ الصراع مع عملائهم.

لقد وصل الحماس عند بعض أعضائهم إلى حد بات فيه الموت ليس له معنى عندهم، إن أحد عناصر سلاح الطيران أمسك بقنبلة في يده حتى تم تفجيرها في ردهة فندق الملك جورج، ومع أن ذلك كان ضد عملاء الإنجليز، فقد اتخذ النقراشي باشا رئيس الحكومة يومها من الحادث مبرراً لحل الجماعة في ديسمبر سنة ١٩٤٨م[١].

وفي سنة ١٩٤٨م حصلت عمليات اغتيال، ثبت أن عناصر منتمية للإخوان المسلمين كانت وراءها مما دفع الإمام حسن البنا لأنه يقول وهو شديد الغضب: «.. **إن هذا يعنى تدمير الجماعة التى قضى عمره في بنائها! وأن الرصاصات التى أطلقت على الخازندار إنما أطلقت على صدره هو**»[٢] واحتج المسؤول عن التنظيم الخاص عبد الرحمن السندى بأنه فهم من الإمام «**البنا**» وجوب قتل القاضى «**الخازندار**» الذى أصدر أحكاماً على عناصر من التنظيم ضبطت ومعها أسلحة.

التمرد على قيادة الإمام حسن «البنا» رحمهُ الله تعالى:

إن شخصية المسؤول «**الدائم**» عن التنظيم الخاص عبد الرحمن السندى صبغت مصير حركة جماعة الإخوان بلون خاص، لقد كان ذا رأي فرديّ مستبد، في قيادته للجهاز

---

(١) صلاح شادي ، صفحات من التاريخ ـ المرجع السابق، ص ٤٩ـ٥٣ .
(٢) المرجع نفسه ص ٥٤ .

السرى «**التنظيم الخاص**»، وكون من إدارته تنظيماً له داخل التنظيم، حتى أن قيادة حسن البنا انعدمت تماماً لهذا الجهاز الأخطر في بناء الحركة.

يقول صلاح شادي رداً على تبرير عبد الرحمن السندى لإصدار أمره باغتيال «**الخازندار**»: «**وهذا تبرير غير معقول لحادث كهذا، ولكن الحقيقة كانت كامنة وراء شعور السندى في هذا الوقت باستقلاله هو بمن يتولى قيادتهم من الإخوان، عن سلطان الجماعة وقائدها، الأمر الذى سهل له هذا السلوك، فلم يكن من حق أحد من إخوان النظام أن يتصل بالمرشد في شأن من شؤون النظام الخاص إلا عن طريقه، وبهذا عزل إخوان النظام تماماً عن قيادة الدعوة، وأصبح فهم السندى لدور المرشد هو أن يبحث له عن مخرج أمام الناس لترميم الصدوع التى تحدثها أمثال هذه التصرفات غير المسؤولة وتكييف الرأى العام فى داخل الجماعة وخارجها لتقبل هذه الحوادث**»[١].

وفي ١٥ من نوفمبر ١٩٤٨م، ضبطت سيارة جيب أثارت الشبهة بسبب عدم وجود لوحة أرقام عليها، وضبط مع أحد العناصر المسؤولة عنها حقيبة فيها أوراق تحمل سجلات ومستندات عن الجهاز الخاص للإخوان، وألقى القبض على عبد الرحمن السندى مع عدد آخر من العناصر، وهذا ما عرف فيما بعد بحادث السيارة الجيب».

اغتيال النقراشي باشا:

ولقد أصدر النقراشي باشا أمراً بحل الجماعة معللاً إياه بعدة حوادث أمنية، حصل ذلك بتاريخ ٨/ ١٢/ ١٩٤٨م، مما دفع أحد عناصر الجماعة لاغتيال رئيس الحكومة «**النقراشي باشا**» في يوم ٢٨/ ١٢/ ١٩٤٨م وذلك خلافاً لرأى المرشد العام الشيخ حسن البنا الذي بذل محاولات متعددة ومريرة لتجنب حدوث مثل هذه الكارثة[٢].

وإظهاراً للحقيقة، فإنه وزع رسالة «**القول الفصل**» وهى آخر ما كتبه رحمه الله تعالى للإخوان، فند فيها التهم الموجهة للجماعة، وتتلخص رسالته في:

---

(١) صلاح شادي ـ المرجع السابق ص ٥٥ .
(٢) صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ٦٠ .

١ ـ أن مواقف الجماعة بريئة من حب الدنيا أو الرغبة فى الوصول إلى الحكم أو الغنيمة.

٢ ـ أن تصرفات بعض الأفراد ليست حجة على الجماعة التى حددت طرق عملها بواسطة لوائح ونشرات، تم اعتمادها من قبل المسؤولين في الدولة «..**وليس من هذه الوسائل الجريمة ولا الإرهاب** ..».

٣ ـ أن نشاط الإخوان فى حرب فلسطين ضد الغزاة الصهاينة، إنما حصل بعلم السلطات المختصة ولو بشكل خفى، وفي كل حال فإن المشاركة فى الدفاع عن فلسطين كان من أنصع الصفحات وأمجدها فى تاريخ دعوتهم.

٤ ـ بعدما أبلى شباب الإخوان بلاء حسنا في مقارعة اليهود، وسهلوا للفلسطينيين شراء السلاح من مصر، بعون من الحكومة، عادت الحكومة وعدلت من خطتها وأقدمت على مصادرة كثير من المشتريات التى تم شراؤها لأهل فلسطين، وتم زج عناصر الإخوان الذين ساهموا فى دعم الفلسطينيين فى السجون.

٥ ـ أنَّ استبسال شباب الإخوان في معاركهم ضد اليهود وهم يحاربونهم جنباً إلى جنب مع القوات النظامية المصرية، وابتلاءَهم بحوالى مئة شهيد ومثلهم من الجرحى والأسرى، لا يبرر ادعاء الحكومة على أنهم أصبحوا خطراً يهدد سلامة الوضع الداخلى فى مصر[1].

تصرفات رئيس الجهاز الخاص تبدد جهود الإمام «البنا» فى علاج المشكلة:

ومن سجنه كان عبد الرحمن السندى يبدد جهود «**البنا**» الذى كان يتصل برئيس الوزراء إبراهيم عبد الهادى كي يرفع الحظر عن الجماعة ويطلق سراح المعتقلين، وتم تشكيل لجنة مصالحة، وأصدر «**الإمام الشهيد**» نشرة بعنوان «**بيان للناس**» استهجن فيها حوادث القتل، ومن بينها اغتيال النقراشى، وفى هذا الوقت بالذات حدث ما يخدم رغبة إبراهيم عبد الهادى «**رئيس الحكومة**» بتوجيه ضربة قاسية للجماعة، فلقد أصدر عبد الرحمن السندى من داخل السجن أمراً لعناصر من الجهاز الخاص، ومن وراء ظهر المسؤول فى غيابه سيد فايز، بمهاجمة المحكمة وإحراق الوثائق التى تمت مصادرتها من السيارة الجيب.

(١) صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ٦١ ـ ٦٣.

وتمكنت السلطات من اعتقال شفيق الأنس المكلف بالتنفيذ مما اضطر حسن البنا إلى استنكار هذا الحدث واعتباره وأمثاله موجه إليه شخصياً..

وبعد ما يزيد على الشهر أى فى ١٢/ ٢/ ١٩٤٩م استدرج المرشد العام إلى المركز العام للشبان المسلمين، وعلى درج السلم أطلق عليه النار المخبر أحمد حسين ولقى ربه إثر النزيف الذى أصابه، ولم تقدم له أية إسعافات، ونقل جثمانه بحراسة الدبابات والسيارات المصفحة وليس حوله إلا أفراد أسرته حيث شيع إلى مقره الأخير .. نسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون مسكنه جنة الخلد...

وبالفعل صدق حدسه، رحمه الله تعالى، «.. **إن عملاً يصدر من أى شخص ينتمى إلى الجماعة يعتبر كأنه موجه إليه شخصياً**»... «**وعاجلت المرشد منيته، فلم يَسْتطع أن يتم دوره الذى بدأه في إزاحة السندى عن رئاسة النظام**[1] **وهكذا فإنّ الجماعة التى عقدت الأمة عليها الآمال الكبار في فترات من الاضطراب عبثت بها يد مهووسين ومتهورين أو مندسين .. والله أعلم.**

انتقال الصراع إلى داخل الجماعة:

ويمضى رئيس الجهاز الخاص في مخططه، فيأمر باغتيال المسؤول الذى عينه مكانه المرحوم المرشد العام، سيد فايز بواسطة هدية ملغمة بمناسبة عيد المولد، يوم الجمعة في ١٢/ ١١/ ١٩٥٣م[2] **وبعد فصل قادة التنظيم من قبل المرشد العام حسن الهضيبى ـ رحمهُ الله تعالى ـ من مكتب الإرشاد**[3]**، تجمع بعد ذلك بعض المتعاطفين معهم في المركز العام كي ينتخبوا بدلا عن المرشد، وصعد إلى منزله ما يناهز العشرين عنصراً وطالبوه بالاستقالة واستعملوا العنف ضده، وحصل هرج ومرج في صفوف القيادة.**

جمال عبدالناصر وعلاقته بمحاولة الانقلاب على الهضيبي:

يروى صلاح شادى أن صلاح العطار أحد المقربين من عبد الرحمن السندى مسؤول

(١) راجع: صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ٦٧ ـ ٩٨ .

(٢) صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(٣) القادة المفصولون هم «عبد الرحمن السندى ـ أحمد عادل ـ محمود الصباغ ـ أحمد زكي ».

النظام عن شبرا ـ أخبره بأن «سيد سابق قادم الآن من عند عبد الناصر ليبلغ السندى بموافقته على الانقلاب داخل الإخوان وأنه لن يتدخل إلى أن يتم الأمر ـ لأن تدخله سوف يقلب الأمور ـ وأن التعاون مع عبد الناصر سيتم بعد نجاح الانقلاب» [١].

وأعقب ذلك اجتماع حاشد من كافة أنحاء وشعب القطر المصرى، انتهى بكلمة للمرحوم الشهيد عبد القادر عودة، وتسلم يوسف طلعت مسؤولية النظام الخاص في مواجهة تحالف عبد الرحمن السندى وجمال عبد الناصر وتم فصل صالح عشماوي وعبد العزيز جلال ومحمد الغزالى[٢].

جمال عبدالناصر [٣]:

كان أول اتصال بالضابط جمال عبد الناصر بواسطة أحد الضباط في الجيش المصرى التابعين لتنظيم الإخوان المسلمين، عبد المنعم عبد الرؤوف[٤] الذى عرفه بعبد الرحمن السندى المسؤول عن التنظيم الخاص، والغريب في الأمر أن السندى كان يأخذ البيعة من العناصر الجديدة بطريقة مشبوهة، أو على الأقل فيها تقليد لبعض المنظمات السرية الخطيرة يقول صلاح شادي: «**وكانت عادة السندى في أخذ البيعة أن يجريها في غرفة مظلمة حيث يقسم الأخ الجديد على المصحف والمسدس بما يشعره بأهمية ما هو مقدم عليه ـ أو هكذا كان يعتقد**»[٥] ولقد تعرف جمال عبد الناصر على أغلب عناصر التنظيم الخاص «**الجهاز السرى**»، ثم توثقت العلاقة بينه وبين الصاغ محمود لبيب الذي كلفه بالنهوض بتبعات نشاط الإخــوان داخل الجيش وزيارة أسر الضباط بعد ذلك فى سنة ١٩٤٦م حتى وفاته ـ رحمه الله ـ في أوائل ١٩٥١م[٦].

وكان صلاح سالم «**أحد أركان الضباط الأحرار فيما بعد**» مع جمال عبد الناصر حين

---

(١) صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ١٠٦ ـ ١٠٧ لمزيد من التفاصيل راجع ص١٠٧ .

(٢) راجع: صلاح شادي ـ المرجع نفسه ـ ص ١٠٩ ـ ١١١ .

(٣) جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة «جمهورية مصر العربية» منذ ١٩٥٤ ـ ١٩٧٠م.

(٤) أمضى حياته منفياً في بيروت ومات فيها.

(٥) صلاح شادي ـ المرجع السابق ـ ص ١٢٠، ١٢١.

(٦) المرجع نفسه ـ ص ١٢٢ .

التقيا مرة أخرى بالأخ المسؤول عن الإخوان المسلمين في الجيش وذلك قبل نهاية ١٩٥٠م لإعادة نشاطهم بعد حل النقراشي باشا الجماعة في عام ١٩٤٨م.

كما أن بيعة جمال عبد الناصر لم تقتصر على رئيس التنظيم الخاص عبد الرحمن السندى، بل قام بمبايعة المرشد العام المرحوم حسن البنا نفسه.

إن بعض جماعة الضباط الأحرار الذين قادوا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وسيطروا على الحكم في مصر هم من الإخوان المسلمين، وحدث ما حدث بمساعدة الجماعة كلها(١).

واستمرت العلاقة حميمة بين جمال عبد الناصر وعبد الرحمن السندي الذي قاد في أواخر ١٩٥٣م عملية احتلال المركز العام لجماعة الإخوان ومحاولة إجبار المرشد حَسَن الهضيبى على الاستقالة(٢).

وتمضى الاختلافات فيما بين قادة الثورة رغم انتماء بعضهم للجماعة، وبين الجماعة ذاتها جماعة الإخوان المسلمين أى قادة الثورة والجماعة..

وبدأ جمال عبد الناصر مع من حالفه بالتفرد في السلطة ثم الالتفات إلى الجماعة حيث أعلن عن حلها بعد قرار حل الأحزاب في يناير ١٩٥٣م .. واستمر الصراع يتصاعد ويتشعب حتى أفضى إلى أفظع كارثة عرفها تاريخ مصر والبلاد العربية... وأضحى الجيل الذي رفع شعار إعلان الدولة الإسلامية طعمة للمشانق والموت تحت التعذيب أو المكوث فى السجن إلى ما يقرب من ستة عشر عاماً، أى حتى وفاة جمال عبد الناصر في أيلول ١٩٧٠م.

حسن البنا يعرف متى بدأ لكنه لم يعلم كيف انتهى:

يقول المرحوم حسن البنا: «**أما الثورة فلا يفكر الإخوان المسلمون فيها ولا يعتمدون عليها ولا يؤمنون بنفعها ونتائجها.. وإن كانوا يصارحون كل حكومة في مصر بأن الحال إذا دام على هذا المنوال ولم يفكر أولو الأمر في الإصلاح العاجل والعلاج السريع، فسيؤدى ذلك حتماً إلى ثورة ليست من عمل الإخوان المسلمين ولا من دعوتهم**»(٣).

---

(١) راجع: المرجع نفسه ـ ص ١٧٥ ـ ٢١٨ .
(٢) صلاح شادي ـ المرجع السابق نفسه ـ ص ٢٠٣ .
(٣) حسن البنا ـ مجموعة رسائل الإمام الشهيد .. المرجع السابق ـ ص ٢٧١ .

يروى مايلز كوبلند في كتابه لعبة الأمم[١] أن جهاز المخابرات التابع للولايات المتحدة الأمريكية، رأى وجوب التخلص من النظام الملكى كله في مصر بعد أن كان خيارهم يقع على وجوب التخلص من البرلمان فقط، ويجب أن يحصل ذلك على يد الجيش تحت لواء طرح شعار عودة الحكم الديمقراطي وقيام حكومة تمثل الشعب تمثيلا حقيقياً، وإن هذا المشروع تلزمه شخصية تحمل صفات معينة، فوقع اختيارهم على ضابط اسمه جمال عبد الناصر، يقول عميل المخابرات الأمريكية الذى تم فرزه للعمل بين الضباط الأحرار: «**يرى هؤلاء الصبية أنفسهم أشبه بأفراد عصابة روبن هود المرحة، فهم مسرورون لأنهم أعلنوا أبطالاً وقادة للثورة، ولكنى لا أجد واحداً منهم بإمكانه أن يشرح لي ما تريده هذه الثورة وماذا تهدف إليه .... وقد يكون هذا من حظ عبد الناصر وحظنا معا..**»[٢] على من تقع مسؤولية ما حصل؟ لقد تأخرت الجماعة في بلوغ أهدافها، وكل ما أنجزته هو أنها ساعدت في التعجيل بالثورة وساندتها، لكنها لم تصنعها، ولم تأت بها.

إن للفشل أسبابه، فالكون بما فيه قطاع النشاط الإنساني يقوم على سنن الله التى لا تتبدل ولا تنحرف، والعجز عن بلوغ الهدف ليس استثناء، بل هو عائد للسبب الذى انطلق منه[٣].

إنه لا بد من تحمل مسؤولية النتيجة، وذلك يقتضى بلورة إرادة الإنسان في العمل التى هي عامل من عوامل الناموس الإلهى في مخلوقاته، فالمهندس الذى يشيد عمارة ثم تسقط يجب أن يحاسب عليها، والطبيب الذى يجرى عملية فيموت المريض لا بد من التأكد من مسؤوليته.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقسم بالنفس اللوامة أى التى تراجع وتحاسب ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[٤]، وكذلك فإن التلاوم قد يكون جماعياً، قال تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ

(١) ما يلز كوبلند ـ لعبة الأمم ـ ترجمة إبراهيم جزينى ـ بيروت ـ ١٩٧٠م ـ ص ٧٣ .
(٢) ما يلز كوبلند، المرجع السابق ـ ص ٧٩ ـ ٨٠ .
(٣) راجع: خالص جلبي ـ في النقد الذاتي ـ مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢ سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٤٨م ص ١٧ .
(٤) القيامة: ٢٠ .

يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[١] والحل يكون بالاعتراف ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[٢] **«إنه موقف طاهر حين تبدأ عملية مراجعة النفس، ونقدها، ولومها، ومحاسبتها، وتقويمها»**[٣].

السيف والعقل:

تلاحظ ظاهرة اختلال الوعى الفكرى وعدم التوازن عند جماهير العمل الإسلامى فى مسألة استعمال القوة المسلحة، وعلاقة الفكر بها.

إن البحث والمناقشة والتحليل والافتراض وتوقع النتائج ليس إلا أسلوباً فارغاً ومضيعة للوقت عند بعض تلك الجماهير، التى ترى بأن الجهاد المسلح ومقارعة الحكام هو العمل المفيد.

إن أمثال هؤلاء يجهلون جوهر المشكلة وروح العصر، ووجوب تأمين الشروط اللازمة لكل أمر ومسألة، فالطبيب لا يقدم على الجراحة بدون تشخيص للمرض مع ما يستلزم ذلك من وجود جراح ماهر وحاذق.

إن تلك الجماهير زاهدة بالعلم والمعلومات حتى فى المجال الذى تنشده وتعتبره أسمى أمانيها[٤].

هناك فرق بين التغيير الاجتماعي وبين الانقلاب العسكرى، أى بين تغيير القيادة العقلية وبين تغيير القيادة العسكرية..

إن التغيير الثانى ليس إلا تبديل شخص بآخر، قد يكون أسوأ منه، يأتى جائعاً خائفاً فيملأ جيوبه وسجونه من جديد، بينما كان الأولى الإتيان بعقلية جديدة متألقة .. وشتان ما بين الشىء والفكر وبين الجماد والروح وبين الموت والحياة.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾[٥].

---

(١) القلم: ٣٠ .
(٢) القلم: ٣١ .
(٣) راجع: خالص جلبى ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢ .
(٤) راجع: خالص جلبى ـ المرجع نفسه ـ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ «بتصرف» .
(٥) فاطر: ١٩ ـ ٢٢ ـ راجع: خالص جلبى ـ ص ٢٠٠ .

الإمام حسن البنا وإدراكه لمخاطر استعمال القوة :

روى عباس السيسى ـ وهو من كبار رجالات الإخوان المعاصرين الذين رافقوا الإمام البنا ـ أنه أتى مع أخ آخر له فى الجماعة كى يطلبان من حسن البنا انتهاج العمل المسلح في منهج الجماعة، وأن زميله كان يحمل بيده مسدساً جاهزاً للاستعمال يضعه في جيبه، وذلك استعداداً منه لإطلاق النار على المرشد العام إذا رفض مشروع العمل العسكرى!!

وقال بأنه عند الحديث مع المرشد حسن البنا في ذلك الشأن أجابهم بالرفض رفضاً تاماً لأى عمل عسكرى، وتوجه إليهم بالكلام قائلا لهم: «**إذا كنتم لا بد فاعلين فيجب أن يكون ذلك تحت اسم غير هذا الاسم**» ثم إنه سلمهم كل ما في حوزته من ممتلكات خاصة بالجماعة وحمل ما هو له فقط وتوجه إلى الخارج تاركاً لهم المكتب.

يقول عباس السيسى: إنه عند ذلك سقط المسدس من يد رفيقه الذى اندفع إلى يد «**البنا**» يقبلها وهو يعتذر ...

إن هذه المداخلة التى هي عود على بدء، إنما الهدف منها تسليط الضوء على المفارقة بين من أسَّسوا العمل الإسلامى المعاصر، وبين الذين استغلوا ذلك الجهد المبارك والمقصد النبيل، وجعلوا منه متاهات تحولت فيما بعد إلى كوارث وآلام، سببت الإحباط للمسلمين وجعلت العالم كله يخسر أملاً لم يكن فى مداركه، أَلا وهو أمل خلاص البشرية مما هى فيه من عبثية الجهل، وتسلط أمم ليس فى قلوب قادتها أى معنى للرحمة، واحْترام حق الإنسان والحيوان في الوجود وكذا البيئة في أبعادها الثلاثة، البر والبحر والفضاء....

منابع الخطر..

أولا: يقول يوسف القرضاوى: إن المجتمع الإسلامي يتعرض للخطر نتيجة لأحد أمرين يجب أن نَحْذَرَ منهما ونُحَذِّرَ منهما كل التحذير.

(الأول) «أن يجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة، فتصاب الحياة بالعقم والجمود، وتصبح كالماء الراكد الآسن، الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات».

* وهذا ما حصل في عصور الانحطاط والشرود عن هَدْى الإسلام الصحيح، فتوقف الاجتهاد في الفقه، وتوقف الإبداع في العلم... والابتكار في الصناعة .. وأصبح المثل السائد: «**ما ترك الأول للآخر شيئاً**» في حين أخذت المجتمعات الراكدة تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تزحف غازية العالم الإسلامي.

(الثاني) أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث، أن فئة من أبناء المسلمين، يريدون خلع الأمة من دينها، وعزلها عن تراثها كله، باسم التطور.

* لقد برع المسلمون الأوائل في تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، فالإسلام يحث على اقتباس كل إنتاج علمى واختراع مادى[(١)]، بشرط ألا يخرج ذلك عن دائرة الحلال فى مجال عطائه وتفاعله مع الإنسان.

ثانيا: أمراض العقل: يقول على جريشة: إنه سمع بعض الدعاة يقولون: «**لسنا بحاجة إلى التخطيط، إنا متوكلون على الله**» فيجيب: قلت: بل متواكلون لا متوكلون! «**وعاصون لله لا طائعون**» ـ «**إن من أمراض العقل التى تصيب الدعاة ـ قلة التخطيط**» وإن أعداءنا يخططون ويعدون العدة على أعلى مستوى، وذلك من أجل هدم البناء والقضاء على وجودنا، ونحن نقف موقف المتفرج الأبله، الذى ينتظر الضربة، ولا يدافع عن نفسه، وعرضه ودينه... «**ثم يزْعم أن هذا قضاء الله، وإنا له صابرون، وعلى العهد قائمون..**» [(٢)].

* ومن الأمراض أيضاً إعجاب كل ذى رأى برأيه، وهذا ما يتنافى تماماً مع وجوب إعادة الأمر إلى الله ـ تعالى ـ ورسوله، مما يعنى رد الأمر إلى العلماء الأجلاء الذين يفصلون به على ضوء الكتاب والسنة.

ثالثـا: الخطأ في فهم الأوامر والنواهى: لقد فهم البعض استحالة أن يأذن الله ـ تعالى ـ للناس أن يضعوا لأنفسهم بعض التنظيمات أو التشريعات التى تنظم جانباً من شؤون

---

(١) يوسف القرضاوي ـ بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ ص ١٠٥ ـ ١٠٩ .

(٢) علي جريشة، دعاة لا بُغاة، دار البحوث العملية الكويت ـ ط١ سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ـ ص ١١٨ ـ ١١٩.

حياتهم، معتمدين في ذلك على ما قاله المرحوم أبو الأعلى المودودى في كتابه المصطلحات الأربعة: «**ومما يقتضيه توحد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر مرجعه إلى مسيطر قاهر واحد وألا ينتقل منه جزء من الحكم إلى غيره ...**».

* يقول المرحوم حسن الهضيبى ـ المرشد العام للإخوان المسلمين: «**إن هذا فهم خاطئ، ومن يقل بذلك فإنما يجعل من عقله حداً لسلطان الله ـ تعالى ـ ويجعل عقله حاكماً على الله ـ عز وجل ـ ومشيئته وهو بذلك يقع في المحظور**»[١].

إن الله ـ تعالى ـ قد ترك للبشرية أموراً تنظمها وفق اجتهادات العقل، على شرط أن يبقى ذلك فى إطار مقاصد عامة وغايات محددة، فلا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً، وما عدا الفرض والحرام، فكل شيء مباح، والحرام معلوم ومحدد إما بالاسم أو بالطريقة المؤدية إليه، وللمسلمين أن يسنوا من الأنظمة فى لوائح وقوانين لوضع الحلول، وتنظيم أمور الحياة فى شتى ضروبها، إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لم يضعا تشريعاً مفصلاً لتنظيم المرور في الشوارع العامة، ولم يضعا قوانين للوقاية الصحية، ومقاومة الآفات الزراعية، وتنظيم استعمال مياه الرى، وقوانين التعليم وتنظيم المهن المختلفة، كالطب والهندسة والصيدلة، والشروط الواجب توافرها فيمن يريد مزاولتها، وكذا فى بناء الجيوش وتنظيمها والمصانع وكيفية تأهيلها.

«**ولا يجوز لأحد أن يزعم أن تشريعات تنظيم المرور في هذه الحالة من تشريع الله عز وجل، إنما هى تشريعنا واجتهادنا تنفيذاً لمقصد عام، أمرنا الله ـ تعالى ـ به، وهى تشريعات وقوانين تتبدل وتتغير حسبما تقتضيه الحاجة بتغيير وسائل المواصلات**»[٢].

رابعاً: اختراق صفوف الدعاة بواسطة عناصر تدسها أجهزة المخابرات المعادية للمسلمين، وليس غريباً أو مستبعداً إمكان تصنيع أفراد أو مجموعات يمكن إيصالها إلى أماكن العمل، وذلك بفضل ما يقدم لها من دعم وتسهيلات، إضافة إلى الحماية الأمنية التى تتمتع بها بالرغم من المواقف المتعنتة والمناوئة لتلك الجهات، مما يزيد من تمسك الجماهير بها

(١) المرجع نفسه ـ ص ٧٢ .

(٢) حسن الهضيبى ـ المرجع السابق ـ ص٧٤ .

والالتفاف حولها.

الدولة في حصار جماعة الإخوان المسلمين :

أثناء عملية الاعتقال الأولى التى تمت لقادة الجماعة في مصر عام ١٩٥٤م، تحدث مدير السجن مع المرشد العام حسن الهضيبى وسأله عن سبب اختلافهم مع جمال عبد الناصر مع أنهم هم درع الثورة وعامل نجاحها؟

أجابه الهضيبى بقوله: إذا أجبتك فهل تخبر جمال عبد الناصر بذلك: فقال: نعم، قال: قل له لقد خلعنا الملك فاروق وأحللنا مكانه ملكاً آخر(١).

لقد تبددت الأحلام، واستحالت الطموحات إلى مأساة، واقتصر دور الإسلاميين فى مصر ـ باكورة العمل الإسلامي فى العالم ـ على خلع نظام الملك فاروق الذى كان بالإمكان العيش معه، ولو بقليل من الدراية والحكمة، وكان ممكنا إسقاط حكومة وتأليف أخرى، والقيام بمظاهرة «**هذا إذا كان ذلك مجدياً**» أو رفع عرائض واحتجاجات.. وتم التمكين لملكية جديدة جاءت على رماح الإسلاميين، وثمرة جهدهم وجهادهم، وخاتمة أعمالهم، لكنها ملكية لا ترحم الأطفال، ولا تهتز مشاعر ولاتها لصراخ النساء، ولا لكل ويلات التعذيب، والاعتداء على عفة البنات واغتصابهن .. وأقامت مقصلة لإعدام باكورة أدمغة الأمة الإسلامية التى تحاول النهوض من تحت ركام الاحتلال الأوربى «**الانجليزى.. الفرنسى..**»، وكَمَّمَتْ أفواه الناس، وقضت على كل مظهر من مظاهر الحريات ... وأخيراً أضاعت قضية المسلمين الكبرى ... فلسطين .

الشَّرَك نفسه لم يتغير:

في بداية القرن الحالى للميلاد كانت صورة الخلاص عند دعاة الإصلاح إزالة السلطان، أى سلطان كان، عبد العزيز ... مراد ... الخليفة عبد الحميد الثانى، محمد رشاد وحيد الدين خان .. الخلافة «**١٩٢٤م**» وأعقب ذلك حكم الاتحاد والترقى في ظل سلطان لا

---

(١) هذه الرواية قصها صالح بو رقيق ، أحد قادة الجماعة ، بعد الإفراج عنه في أيام الرئيس أنور السادات ، وقد أمضى فى السجن حوالى ستة عشر عاماً تقريباً .

سلطة له، ثم فى ظل أتاتورك والعلمانية المطلقة.

وفي منتصفه، عند بزوغ شمس النصف الثانى من هذا القرن «**١٩٥٢م**» قضى الإصلاحيون على الملك .. أى ملك، فاروقا كان أم غيره .. لتؤول السلطة إلى علمانية أخرى وأتاتورك آخر .. وهذا ما سيبينه البحث عند الوقوف على كل نقلة وعلى كل حالة تغير فى الحياة السياسية المعاصرة.

*****

المبحث الثالث

الحركة الإسلامية والتغيير في دول غير مصر

أولا :العراق:

من الملكية إلى حكم ميشال عفلق:

لم يكتب للإسلاميين فى العراق أن يظهروا على الساحة السياسية كما حصل في بعض الدول العربية الأخرى، فقد كان التيار الإسلامي ضحية مبكرة لاستبداد الأحزاب القومية، التى وصلت إلى السلطة إثر انقلاب ١٤ تموز ١٩٥٨م على يد الجيش، الذى أطاح بالنظام الملكى، وجعل مِن عبدالكريم قاسم «**من الشيوعيين**» رئيسا للجمهورية المعلنة، غير أن الحكم الجديد، وتحت شعار تحرير فلسطين والتصدى للإمبريالية وتحقيق الوحدة العربية والعدالة الاجتماعية، قضى على كل مظاهر الحرية والديمقراطية المعلنة في دول العالم الثالث، ومع أن العراق عرف قادة أجلاء في العمل الإسلامي مثل أمجد الزهاوى ـ رحمهُ الله تعالى ـ الذى توفى عام ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م[1] وكان من ثمار نشاطه تأسيس جمعية التربية الإسلامية التى فتحت لها مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية، وكذلك فإنه رحمهُ الله تعالى أسس جمعية الأخوة الإسلامية، لتعمل على جمع كلمة المسلمين، ونشر الثقافة الإسلامية بينهم على الصعيد الشعبى العام.

ومن رواد العمل الإسلامي الشيخ محمد محمود الصواف رحمه الله، مؤسس الحزب الإسلامي فى العراق.

غير أن الساحة العراقية لم تخلُ من شباب التيار الإسلامى المنتشر على طول الساحة وعرضها، وبعد أن تخلص المرحوم عبد السلام عارف من عبد الكريم قاسم وأرسى حكماً انتعشت فيه رياح الحرية، وحيث الحرية والعدالة تنبت البراعم الغضة، إلا أنه قضى

---

(١) انظر: فتحى يكن ـ الموسوعة الحركية ـ المجلد الأول ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م ـ ص١٣٧ ـ يؤثر عنه أى عن الزهاوى رحمهُ الله تعالى عندما قام وفد بزيارته إبان حكم عبدالكريم قاسم ـ وكان عمره يناهز التسعين سنة، قال لهم: إنى باق فى العراق ولن أهاجر، ولو بقيت حبيس منزلي، إن مجرد وجودى يعنى الكثير للمسلمين في العراق.

بحادث سقوط طائرته فخلفه شقيقهُ عبد الرحمن عارف الذى عرف خلال رئاسته للجمهورية العراقية بالطيبة وحبه للمسلمين، وطيبة قلبه جعلته يوكل رئاسة الحرس الجمهورى إلى أحد الضباط: اللواء عبد الرزاق النايف الذى استغل مركزه وتعاون مع جماعة ميشال عفلق «**أحمد حسن البكر وصدام حسين..**» الذين كانوا خارج البلاد واشترك معهم في انقلاب ضد الرئيس عبد الرحمن عارف في عام ١٩٦٨م وطلعت الصحف تعلن عن مجلس ثورة مشترك في العراق بين الإسلاميين وحزب البعث العربي الاشتراكي «**جناح ميشال عفلق**» برئاسة أحمد حسن البكر وأوكلت رئاسة الوزراء إلى اللواء عبدالرزاق النايف، ووزارة الدفاع إلى ضابط من الإسلاميين هو إبراهيم الداود، وبعد أحد عشر يوماً بالتمام تخلصت جماعة عفلق من الذين أعادوهم إلى العراق، وسلموهم السلطة، فتم وضع عبد الرزاق النايف في السجن، وبقى وزير الدفاع إبراهيم الداود في الأردن حيث كان يقوم بزيارة لقطاعات عسكرية عراقية مرابطة هناك، ثم أطلق سراح عبد الرزاق النايف ونفى إلى خارج البلاد وتم اغتياله فى لندن بعد ذلك.

وأما أحمد حسن البكر فقد استقال عام ١٩٧٩م من رئاسة الجمهورية ليخلفه صدام حسين الذى لعب دوراً، ستستمر بصماته السوداء شاهدة على ما اقترف من إثم بحق الأمة وكان آخرها احتلاله للكويت عام ١٩٩٠م.

وهكذا يقع أمل الأمة وحملة راية الإصلاح في الشَرَك ويجعلون من جهادهم وأجسادهم جسر عبور لسيطرة فرد أو جماعة لا فرق.. والنتيجة هى نفسها أتاتورك من جديد..

إن إبراز هذه الحقائق المؤلمة على مسار العمل الإسلامى منذ سقوط الخلافة إلى اليوم هو كما قال الدكتور يوسف القرضاوى تحت عنوان: التبصير بالحقائق لا التخدير بالأحلام: «**وإيماننا بالشعور وقوة الجماهير لا يعنى أن نضللها عن الحقائق المرة وأن نخدرها بالأمانى الفارغة.**

إن على دعاة الحركة الإسلامية ومفكريها أن يصارحوا الأمة بأمراضها، ولا يكتموها عنها، وأن يبصروا الشعوب بالحقائق وإن كانت مرة، لا أن يخدروها بالأحلام الوردية،

دون أن يسلكوا لتحقيقها أى سبيل.

والقرآن يقول لمن جعلوا الجنة حكراً عليهم، بلا إيمان ولا عمل ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[1].

ويقول الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ لابنه الحسن: إياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النوكى «أى الحمقى» وكما يجب أَنْ نبصر الناس بمرارة الواقع علينا أنْ نبصرهم بأخطار المستقبل، حتى يوطنوا أنفسهم على احتمال آلامه، ولا يتوهموا أنه وَرْدٌ لا شوك فيه، وأن السماء ستمطر عليهم فيه سمناً وعسلاً دون أنْ يكدَّ منهم اليمين أو يعرق الجبين .... فحينما ينادى الإسلاميون: الإسلام هو الحل، ولاصلاح لنا إلا بالإسلام، والإسلام هو سفينة الإنقاذ مما نتخبط فيه من مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية، يتصور جماهير الناس، أن مجرد رفع هذا الشعار، وتأييد أصحابه ودعاته في الانتخابات.. سيحل المشاكل المعلقة بعصا سحرية أو معجزة سماوية[2]إن المؤمنين المتقين هم الذين يأخذون بالأسباب....

ثانياً: مصير الدولة في أدبيات وسلوك الإسلاميين في الجزائر:

دولة الجزائر بعد الاستقلال

لقد كان قرار الدولة الفرنسية التى احتلت الجزائر عام ١٨٣٠م أن تضمه نهائيا إليها، والفضل بعد الله ـ عز وجل ـ في إفشال ذلك المشروع، إنما كان لجمعية العلماء، التى كان لها شرف إحياء الثقافة العربية الإسلامية، ومن ثم قيادة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي حتى تحقق الاستقلال عام ١٩٦٢م.

غير أن ثمرة ذلك الجهاد المرير في حماية المسلمين في الجزائر من الضياع، قد تعرضت لعملية انحراف لغير صالح مدرسة جمعية العلماء، يقول راشد الغنوشي: «**ورغم أَنَّ الأساس الفكرى والثقافي للثورة الجزائرية قد أرساه قادة جمعية علماء الجزائر، ومعظمهم**

(١) البقرة:١١١.

(٢) راجع: يوسف القرضاوى ـ أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة ـ بيروت ـ مؤسسة الرسالة ـ ط ١٣ سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ـ ص ٥٨ ـ ٦٢.

متخرج من جامعة الزيتونة بتونس إلا أنه بسبب أخطاء فى الممارسة السياسية، وتوسيع المشروع الوطنى على نحو شاركت فيه فئات متعددة قد تخرج جانب كبير منها من المدرسة الفرنسية، وبعضهم انفصل عن الجيش الفرنسى، لم يلبث ميزان القوى بقيادة الثورة الجزائرية أنْ مال لصالح المتكونين على النهج الفرنسى»[١].

إن السبب في تجيير السلطة في الجزائر بعد الاستقلال إلى التيار اليساري يعود إلى:

أولا: العلاقة التطابقية بين الحزب الشيوعي في الجزائر والحزب الأم في فرنسا.

ثانياً: تأثير القيادة السياسية فى مصر، إبان حكم الرئيس جمال عبد الناصر، التى كان لها دور كبير فى توجيه قادة الثورة فى الجزائر نحو المنظور الاشتراكى.

ثالثاً: الدعم العسكرى والمعنوى الذى كانت تقدمه الدول الاشتراكية لحركات التحرر من الاستعمار ومن بينها الجزائر بغض النظر عن الدور الخطير الموكول إلى المعسكر الاشتراكى فى جرّ العالم الإسلامى إلى الجنوح عن الخط السوى، والذى ليس مجال مناقشته الآن[٢].

ويمكن إضافة سبب رابع وأساسى، غفل عنه الباحثون أو أشاروا إليه بطرف خفي، كأَن يقول الغنوشي بأن المشروع السياسي الإسلامي للدولة لم يكن قد تبلور عن جمعية العلماء بعد، وكذلك عدم تأمين احتياطي مستقبلى لأى عمل اجتماعي وسياسى واقتصادى ودعوى، حيث ألقى أصحاب العاطفة الإسلامية كل ثقلهم في سبيل المعركة من أجل دحر الاحتلال الفرنسى ـ لكن غاب عن أذهانهم إعداد جيل لما بعد النصر أو حتى الهزيمة.

إن أية مجموعة أو فئة تدفع بكل عناصرها إلى خط المواجهة بحيث تضعهم على خط واحد متوازٍ، تضع مستقبلها أمام مخاطر جسيمة، في حالتى النصر أو الخسارة.

إن واجب العمل الجهادى بشموليته أو القتالى بشكل خاص يقضى بالتحرك أرتالاً

---

(١) راشد الغنوشي ـ نظرات حول الديمقراطية في المغرب العربي ـ السنة الأولى ـ رمضان ١٤١٠هـ نيسان ١٩٩٠م ـ ص٥٤.

(٢) راشد الغنوشي ـ المرجع السابق ـ بتصرف، ص ٥٥.

أرتالاً، فرتل للمواجهة وآخر قيد التخرج وثالث ما زال في طور الإعداد.. ورابع ما زال في غيض الأرحام، وهذا الشكل من المواجهة يحمى الوجود من المفاجأة وبالتالى الانقراض .. أو الخسارة لأمد طويل.

فالتحرك بشكل سليم ومدروس فيه وجاء وجُنَّة من عاديات الزمان ...

ومن أجل ذلك، فقد نجح سارقو الانتصارات، الذين كانوا يختبئون في الخطوط الخلفية أو على مقاعد الدراسة فى جامعات فرنسا فى إخراج الدولة الجزائرية الوليدة وفق النمط الشرقى للمعسكر الاشتراكى، فكانت: «**الجمهورية الشعبية الجزائرية**» بكل ما فى هذا الأنموذج من سيطرة للدولة على المجتمع والاقتصاد والسياسة، وقهرها للمخالفين لها وملئها الحياة بالشعارات الفضفاضة، واتجاهها نحو التصنيع ـ انسياقاً وراء النماذج الغربية.

تطور مراحل الأزمات في الجزائر:

بدلاً من إدخال الجزائر في سوق التصنيع والتنمية الزراعية وتطوير وسائل الإنتاج، فإن حكومة جبهة التحرير وجهت اهتمامها للإفادة من الثروات الطبيعية الهائلة الموجودة فى البلاد مثل البترول والغاز، وهذا ما أدى إلى سيادة الاتكالية في الشعب الذى أصبح عالة على الدولة.

وفي مقابل ذلك شهدت الجزائر نمواً ديمغرافياً هائلا[1] في الوقت الذى تنتشر فيه الأمية ويتراكم العجز الإدارى وإهمال قطاع الزراعة وانهيار أسعار البترول، وفى حالة من الفشل كهذه لم يعد أمام السلطة إلا أن تلجأ إلى القمع والعنف للجميع حالة التململ فى صفوف الشعب.

إن مجتمع الشباب لم يعد يحركه خطاب سياسى مهترئ، ما فتئ يردد أسطوانة «**أمجاد الثورة وبطولاتها**»، واستئثار أعضاء جبهة التحرير بالثروات والسلطة جعل من العسير إطلاق أية مبادرة فردية، أو الإقدام على أية إصلاحات سياسية، من شأنها الحد من الاتكالية والسماح بإتاحة فرصة أكبر للمشاركة السياسية الواسعة.

(١) لقد أصبح الذين أعمارهم تقل عن العشرين سنة يشكلون ٧٠٪ من الشعب الجزائري.

ولهذا فقد فشلت محاولات الرئيس الشاذلى بن جديد فى القيام بأية إصلاحات اقتصادية وسياسية، فكان نتيجة لذلك «**انفجار الخامس من أكتوبر ١٩٨٨م الذى كاد يلغى الدولة جملة بل لقد مرت على الجزائر أربعة أو خمسة أيام بدون دولة**»(١) ولو كان هناك فئة منظمة لأمكنها أن تسيطر على البلاد بدون أية مقاومة.

الرئيس الشاذلي بن جديد ورغبته في الإصلاح:

حاول الرئيس الشاذلى بن جديد التخلص من القيادات السيئة، وفتح المجال أمام الصحافة الحرة، حتى وصل الأمر بالصحف الرسمية لأن تأخذ دورها في النقد والتوجيه، أكثر من أية صحيفة معارضة فى بلد آخر، ومن الحريات التى أطلقها إفساح المجال أمام المعارضة كى تعبر عن رأيها بالطريقة التى تراها، وهذا مغاير تماماً لما هو معمول به فى دول العالم الثالث، ومن بين الأحزاب الجديدة التى برزت في الجزائر كانت «**الحركة الإسلامية**» التى حظيت بشرعية وجودها.

والمعركة الكبرى فى المغرب العربي هي ضد الغرب بكل مضامينه الثقافية واللغوية الزاحفة على إفريقيا، ولدولة الجزائر كان شرف السبق فى التعريب الذى كان أمل الرئيس السابق بومدين،وحركة التعريب التى لم تعد تعترف باللغة الفرنسية حتى لغة ثالثة أزعجت فرنسا والموالين لها ثقافة وسياسة والولاء الثقافي في المغرب العربي للفرنسية يؤدى إلى ولاء سياسي «**للأم فرنسا**» وكرد على هذا التطور الخطير فى وجه الفرنسيين فقد قام الموالون لها بتحريك الخلافات العرقية، وذلك للنيل من انسجام الشعب الجزائري، فالبربر يشكلون جزءاً كبيرا من الشعب، وهؤلاء مع أن أصولهم عربية إلا أن فرنسا عملت على ترسيخ أصول أوربية لهم.

تلك هي المشاكل المنظورة، أما الكامنة منها فهذه ستوضحها الأيام بعد ذلك، وصدقت توقعات الغنوشى عندما قال: «..**سنرى مقدار استقرار الدولة في الجزائر ونجاح التجربة الديمقراطية التى يخشى عليها اليوم أن تواجه بردود أفعال وبانفجارات مع فقدان القدرة على التحكم**»(٢).

---

(١) راشد الغنوشي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٥.

(٢) راشد الغنوشي ـ المرجع السابق ـ نيسان ١٩٩٠ م ـ ص ٥٨.

التيار الإسلامي فى الجزائر
الخروج من تحت الأرض

الجبهة الإسلامية في قيادة الجماهير :

يحار الباحث أحيانا في تحديد المنطلقات الأساسية لـ «**جبهة الإنقاذ**» الإسلامية في الجزائر، والحيرة هذه مردها إلى عدة **منابع هى:**

أولا: التيار الإسلامى التابع لجماعة الإخوان المسلمين الذى لا يميل إلى العنف، أو الصراع مع الآخرين وفق ما هو معروف من الأحداث المعاصرة.

ثانياً: تيار الحركات الاحتجاجية، التى تضع سياساتها وبرامجها وفق ما يسميه د. حسن الترابى نظرية «**التفاعل مع المجتمع**».

ثالثاً: التطور العكسى الذى شهدته جبهة الإنقاذ فى الجزائر بحيث ابتدأت بفكرة التفاعل مع المجتمع وانتهت إلى حمل لواء الدولة الإسلامية بطريقة مباشرة دون المرور بالمؤسسات التحتية للمجتمع.

وفي تشرين الأول «**أكتوبر**» ١٩٨٨م، دخلت مجال التعددية السياسية، وفتحت حوارات مع الرئيس «**الشاذلى بن جديد**» والأحزاب الأخرى المحسوبة على تيارات الاعتدال مثل أنصار أحمد بن بيلا، ورابطة الدعوة وحركة «**حماس**» وحتى حزب جبهة التحرير.

وهكذا فازت الجبهة في الانتخابات البلدية في حزيران «**يونيو**» ١٩٩٠م، عندها أعلن رئيسها الشيخ عباسى مدنى بأن البلديات هي اللبنة الأولى للدولة الإسلامية[(١)].

وإلى قريب من هذا يذهب الغنوشى فى تحليله لتلك المرحلة، حيث إنه يرى بأن التيار الإسلامي التقط المبادرة في أعقاب انتفاضة ٥ تشرين الأول ١٩٨٨م: «.. **أعنى عباسى مدنى وعلى بلحاج التقطا المبادرة، وسرعان ما كسبا المد الجماهيرى الهادر غضبا دونما**

(١) الأفكار مستقاة بتصرف من: مجلة الأسبوع العربي ـ بشير البكر ـ استعمل عباسي مدني ..، العدد ١٧٣١ ـ ١٤/ ١٢/ ١٩٩٢ ـ ص ١٠.

سياسة واضحة، وسرعان ما كسبوه بشعارات الإسلام التى التحم فيها لأول مرة ... بشكل واضح، الدينى مع السياسي».

وبعيداً عن الحركات السابقة في مجال العمل الإسلامى، حركة المجتمع الإسلامي «**حماس**» بقيادة الشيخ محفوظ النحناح، وحركة النهضة الإسلامية بزعامة الشيخ جاب الله، مضى الشيخ عباسي مدني، بعد أشهر من الانتفاضة السابقة الذكر إلى تشكيل الجبهة حيث الجماهير التي «**مثلت البداية الحاسمة لتحول القوى الشعبية لصالحهم ٨/ ٢/ ١٩٨٩م، وكانت الشرارة الأولى في الصدامات مع السلطة والمشاكل مع التيارات الإسلامية الأخرى**»[١].

وكان الصعود مرة أخرى إلى صدارة القيادة في الجزائر عندما فازت جبهة الإنقاذ بالأغلبية الساحقه في المرحلة الأولى من الانتخابات التشريعية «كانون الأول ـ ديسمبر ١٩٩١م».

الجيش في مواجهة جبهة الإنقاذ الإسلامية:

يبدو أن المسار الديمقراطي الذي فتح بابه الرئيس الشاذلي بن جديد لم يرق لقادة الجيش المرتبطين بعلاقة متينة مع فرنسا، والذين يعتبرون امتداداً للعهد السابق حيث كانت السيطرة للتيار اليساري منذ استقلال البلاد .

ومما زاد من اندفاعهم في مواجهة نجاح الجبهة في الانتخابات التشريعية استغاثة النخبة العلمانية، التى فَزَّعَها المد الإسلامي، وقد عَبَّرت عن ذلك فى مسيرة قام بها هؤلاء عقب فوز الجبهة، وكذلك فإن بعض الدول المجاورة للجزائر لم ترتح لما حدث وكذا الدول الغربية، وفى مقدمتها فرنسا، التى حرضت صحفها الجيش على حماية الديمقراطية، وهذا يعنى في مصطلحهم إلغاء نتائج الانتخابات الحرة، وهذا من غرائب النهج السياسى

---

(١) قد يستغرب المرء عندما يجد الظاهرة نفسها تتكرر، بحيث تكون حركة إسلامية قبلاً قد خبرت الساحة وجذرت عملها بشكل هادئ ومدروس ـ وتمكنت من كسب طمأنة الجماهير الأخرى لها، ودخلت في ناموس الحركة الاجتماعية، فإذا، وبصورة غير متوقعة يأتى إلى الساحة حركة جديدة أشد شراسة، وأكثر استقطاباً للجماهير، وأول ما تقوم به إنهاء من كان قبلها بطريقة أو بأخرى !!.

للدول الغربية التى تعتبر نفسها مصدرة للديمقراطية[١].

ويضاف إلى هذا السبب سبب آخر، وهو عدم استعمال الحكمة من قبل قادة جبهة الإنقاذ «**عباسي مدنى وعلى بلحاج**..» فى طرح أهداف الجبهة من جهة، وفى تعاملهم مع الرئيس الشاذلى بن جديد من جهة أخرى.

لقد جاهر قادة الجبهة بأن التغيير الجذرى سيحدث فى الجزائر بدءاً من المطالبة بانتخابات رئاسية، أى أن على الشاذلى بن جديد أن يستقيل، وانتهاءً بتغيير الدستور، وهذا ما أحرج الرئيس ابن جديد، وأفقده القدرة على السيطرة وضبط كل الأوراق فى يده كرئيس للبلاد.

وفي لقاء تم بين رئيس الجمهورية «**ابن جديد**» وممثلى قيادة الجبهة، قدم الشاذلى عرضا يقضى بالتمكين للجبهة، من تشكيل الحكومة والشروع فى تطبيق البرنامج الذى أعلنته وصوت على أساسه الشعب لصالحها، مقابل عدم المطالبة باستقالة الرئيس وإجراء انتخابات رئاسية فى تلك المرحلة، وإبقاء وزارتى الدفاع والخارجية في يد من يختارهم الرئيس «**هذه إحدى الروايات**»، وفى كل الأحوال فقد أبدى الرئيس استعداداً للتعايش مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، لكن هذا الاتفاق لم يبصر النور أولا، لأن بعض أعضاء قيادة الجبهة رفض ذلك، وثانيا بسبب اطلاع قادة الجيش على أسرار الاجتماع، الذي عرفوه بواسطة شريط فيديو تم تصويره بسرية بتدبير من الجنرال توفيق المسؤول العام لمخابرات الأمن العسكرى واللواء العربي بلخير، وتم توزيعه على باقى جنرالات القيادة العسكرية للنواحي الأربعة في الجزائر..

وبعد أسبوع من الاجتماع تم جمع أكثر من ١٥٠ توقيعاً من طرف كبار العسكريين «**لواء، عميد، عقيد**» يطالبون أو الأصح يصرون بموجب تلك العريضة على الرئيس الشاذلي كى يستقيل، ولقد أقيل من منصبه بعد أن أرغم على حل المجلس الشعبى الوطنى الذي يمثل السلطة التشريعية بحيث أضحت البلاد في فراغ دستورى تام، عندها، وكما هو

---

(١) راجع: راشد الغنوشي ـ الحريات العامة في الدولة الإسلامية مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣م ـ ص ٢٧٧.

مخطط، تمت دعوة المجلس الأعلى للأمن، والمكون من وزير الدفاع، ووزير العدل، ووزير الخارجية، ووزير الداخلية ورئيس الجمهورية «**غير الموجود** ..» وتم إعلان حالة الطوارئ في البلاد، وإلغاء المسار الانتخابي، ودخلت البلاد في مأزق يصعب الخروج منه [(١)].

فرصة تَمَ تفويتها:

إن من طبيعة الإنسان ألا يفكر بما فعله غيره معه، بل أن يحاسب نفسه ويسألها عما ارتكبت من أخطاء، ومحاولة البحث في جمع الأخطاء المرتكبة من جانب التيار الإسلامي لا تعنى إطلاقاً تحميله كامل المسؤولية، كما أنه لا يجوز أن يدعي الإنسان لنفسه أو لمن يحب العصمة والتنزه عن كل خطأ أو زيغ ..

عندما حاولت الحكومة في عهد الشاذلي بن جديد أَنْ تلتف على جبهة الإنقاذ في المرحلة الانتخابية الثانية، وذلك بسن قوانين انتخابية جديدة، فُهِمَ منها أنها سترجح كفة مرشحي جبهة التحرير، قاد عباسي مدني مظاهرة لَمْ تشهد لها البلاد مثيلا، وأعلن إضراباً شل الحركة في البلاد، ولم يتوقف حتى تم الاتفاق مع حكومة أحمد غزالي على إلغاء تلك القوانين المستحدثة، وإعادة العمال المطرودين إلى أعمالهم، وتحديد موعد جديد للانتخابات النيابية «**المرحلة الثانية**»، وهذا ما عطل تنفيذه انقلاب الجيش، لقد أثبتت الأيام أن الإصرار على الفوز بكامل أعضاء المجلس النيابي تقريباً كان أمراً مبالغاً فيه، وأنه لم يكن من المصلحة إبعاد فرقاء آخرين عن ساحة المشاركة مثل حزب جبهة التحرير، التى اتخذ قادتها موقفاً طيباً إنْ في شخص الشاذلى بن جديد عندما كان رئيسا للبلاد، أو حين رفضت أهم الأطراف السياسية في البلاد مفاوضة السلطة العسكرية في غياب كل من عباسي مدني وعلى بلحاج، ولم يقتصر هذا الموقف على جبهة التحرير الوطنية بل فعل مثل ذلك ثمانية أحزاب وطنية، وجبهة القوى الاشتراكية إضافة إلى ألد أعداء المشروع الإسلامي في الجزائر، الحزب البربرى الذى صرح رئيسه سعيد سعدى أنه لا مانع من محاورة الإسلاميين .. وكذا موقف الضباط من رتبة عقيد وما دون[(٢)] ...

(١) هذه المعلومات مستقاة من بعض عناصر الحركة الإسلامية فى الجزائر في حوارات متعددة هذه خلاصتها.
(٢) مجلة المجتمع ـ الكويت ـ ١ رجب ١٤١٤هـ ـ ١٤ ديسبمر ١٩٩٣م،السنة ٢٤ العدد ١٠٧٩ ـ ص ٢٤ ـ ٢٥ .

حمام الدم فى الجزائر إلى أين؟

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، فقلت: يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: «**نعم**» الحديث[1].

لقد هلل المسلمون شرقاً وغرباً للانتصار الخيالى غير المتوقع الذى حققه المسلمون فى الجزائر، وهم حديثو عهد بالتحرر من الاحتلال المباشر من قبل فرنسا «**١٨٣٠ - ١٩٦٢م**»، وأيتام شهدائهم لم يبلغوا سن الشباب.. وكانَ بعد ذلك الخير شر، وسيكون بعده خير إن شاء الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣﴾[2].

في الوقت الذي حسب فيه المؤمنون أن فجراً جديداً قد أشرق على الجزائر، إذا بها تغرق فى ليل مظلم من الفتن والقتل .. فالجيش الذى كان يتباهى بمجده العريق فى مقارعة المحتلين الفرنسيين تحول إلى قاتل لأهله وإخوانه الذين بذل الدم لتحريرهم من قبل.

وحملة الراية الإسلامية من مختلف المجموعات العاملة على أرض الجزائر، أصبحوا هدفاً لمن لا يرى في العمل إلا حمل السلاح وانتهاج العنف كوسيلة لتحقيق غايته، وأية غاية لقد وصل بهم الأمر إلى حد قتل الدعاة العاملين بحجة عدم تأييدهم للعنف المسلح.

فى الأسبوع الأول من ديسمبر ١٩٩٣م، أقدم مسلحون على اختطاف الشيخ محمد بو سليمان من أجل الضغط على حركة حماس التى تحركت باتجاه الحوار مع السلطة، والشيخ المذكور هو رئيس جمعية الإرشاد والإصلاح الجزائرية[3].

ثم أقدمت المجموعات الإسلامية المسلحة على قتل الشيخ الحسن بن سعد الله النائب

(١) أخرجه البخاري(١٥٠٦).

(٢) العنكبوت: ٢ - ٣.

(٣) مجلة المجتمع - الكويت - الثلاثاء ٢٤ جمادى الآخرة ١٤١٤هـ، ٧/ ١٢/ ١٩٩٣م - العدد «١٠٧٨ آلسنة - ٢٤ - ص ٤٧.

الثانى لرئيس الجمعية، ورئيس تحرير مجلة الإرشاد، ويحسن بالباحث أن يثبت ما قاله أحد علماء العصر الشيخ يوسف القرضاوى فى رسالة وجهها إلى المسلمين فى الجزائر: «**أبعث إليكم - أيها الأخوة الأعزاء بهذه الرسالة الحزينة بعد أن هزنى النبأ الفاجع بمقتل أخينا الفاضل النبيل الحسن بن سعد الله النائب الثانى لرئيس جمعية الإصلاح والإرشاد، ورئيس تحرير مجلة الإرشاد، أمام منزله بست رصاصات قضت عليه في الحال، رحمه الله وتقبله في الشهداء المرضيين عند ربهم.**

وقبل ذلك قتل إخوة له من الملتزمين بالإسلام، والدعاة إليه ولا ذنب لهم نعلمه إلا أنْ يقولوا ربنا الله، ورسالتنا هى الإسلام! وللتاريخ يجب إثبات هذه الرسالة»[1].

وفي أثناء كتابة هذه الصفحات كانت وسائل الإعلام العالمية تتناقل أخبار خطف الطائرة الفرنسية فى مطار هوارى بومدين فى الجزائر وعلى متنها ٢٢٠ راكباً، غالبيتهم من الجزائريين والباقون من الفرنسيين تقريباً، وأحداث الطائرة استمرت من مساء يوم السبت في ٢٤ ديسمبر حتى مساء الاثنين في ٢٦ من الشهر نفسه، ولقد مارس المختطفون وهم أربعة ذات الأساليب التى كانت تتبعها الفصائل الثورية الاشتراكية، أو الماركسية في السنوات المنصرمة، وذلك بقتل رهائن وإلقاء جثثهم على مدرج المطار، وعملية القتل تتم على مشهد ومرأى من ركاب الطائرة، ثم تعمم وسائل الإعلام صور الضحايا على ساحة الكرة الأرضية بكاملها.

والخطر فى هذا الحدث تمثل بتبنى الجماعة المسلمة «**كتائب الموقعين بالدم**» لهذه العملية، وتعليل ما حصل على أنه انتقام من السلطات الفرنسية التى تساعد حكومة الجزائر، وفى أثناء المفاوضات سربت وكالات الأنباء مطالب الخاطفين فى البداية وهى إطلاق سراح عباسي مدنى وعلى بلحاج من السجن.

ليس من السهولة الاقتناع بأن خطف الطائرة الذى انتهى بمهاجمتها في مطار مارسيليا فى فرنسا حيث ظهرت قوات الأمن الفرنسية وهى تقاوم الشر «!!» المتجسد في

---

(١) الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي، الأمان - العدد ١٢٨ - ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٤م، بيروت - ص ٢٤ - ٢٥ انظر نص الرسالة فى الخاتمة + البيان الذي وقع في أصل النص ص٢٠٠.

الإسلاميين، وأيا كان الأمر، فالعالم كله وحتى المسلمون منه سوف يشمئزون لهذا التصرف، لكن النتيجة ستكون على حساب وجودهم ودينهم بينما غيرهم يسجل ضربات قاسية للأحلام التى تدغدغ مشاعر من يريد للإسلام أن يعود للوجود، أو لمن ينتظر المخلص القادم(١)...

حقيقة أنه ليس بمقدور عاقل أن يتصور ما حدث ويقتنع بأنه من فعل دعاة للإسلام وعاملين لإقامة دولة إسلامية.

ومما زاد الأمر غرابة أنه في يوم الثلاثاء تم اغتيال أربعة رهبان ثلاثة منهم فرنسيون والرابع بلجيكى فى تيزى أوزو فى الجزائر، ولقد اعتبر ذلك ردة فعل على اقتحام الأمن الفرنسى للطائرة وقتل الخاطفين الأربعة وتحرير الركاب، وهذا أمر يزيد من شكوك المسلم حول الجهة التى تقف وراء هذا المسلسل من الأعمال غير المتناسبة مع الشريعة الإسلامية ولا مع تاريخ المسلمين.

الوقوع في الشَّرَك:

إن قراءة أحداث العالم الإسلامي منذ أكثر من قرن هى نفسها لا تتغير، وإن تغيرت أسماء المشاركين فى الحدث، وذلك بحكم قصر عمر الإنسان، غير أن الاستمرارية للمنهج الذى يحكم مسرى الأمور مازال وكأنه كائن خالد لا يموت .. ولا بأس من إعادة الذاكرة إلى خواتم أيام الدولة الإسلامية فى العهد العثمانى، أو ما حصل فى مصر فى أواخر الأربعينات وبقية الخمسينات ... وقد يكون استباقاً لمراحل البحث الاستشهاد بما حصل للمسلمين فى أفغانستان حيث قاوم المسلمون هناك الاتحاد السوفياتي سابقاً، وبعد الانتصار استدار هؤلاء المجاهدون على بعضهم البعض فى دوامة من العنف والاقتتال الداخلى، حتى بات المسلمون الذين ضحوا بكل شىء دفاعاً عن دينهم وحرباً ضد الإلحاد الشيوعى لا يجدون تفسيراً ولا هدفاً لكل شلال الدم الذى أهدروه دفاعاً وقتالاً

(١) حدث اختطاف الطائرة الفرنسية يوم السبت ٢٤/ ٢/ ١٩٩٤م، وانتهى يوم ٢٦/ ١٢/ ١٩٩٤م وكانت النتيجة المادية قتل الخاطفين الأربعة، وتسعة جرحى من الأمن الفرنسى وعدد من المدنيين الركاب «١٣»، وكان الخاطفون قد أعدموا ثلاث رهائن بالرصاص.

«**للكفر**»..

ونظرة مماثلة إلى الجزائر، يمكن ملاحظة المشهد نفسه:

أولاً: شعب فى الجزائر امتلك العقيدة «**الثورية**»[1] المستمدة من مبدأ الجهاد والاستشهاد فى الإسلام، وتوفر لها الشعار والهدف: إقامة دولة إسلامية، كما توفر لها قوة الحجة المتمثلة في إقدام الطغمة العسكرية على إلغاء نتائج الانتخابات، كما توفر لها الرغبة العارمة في التغيير «**والنقمة**» الشاملة على النخب العلمانية التى قادت البلاد، وكانت أغنى دولة ومنها نبتت أعظم ثورة فحولتها إلى بلد فقير بائس.

ثانياً: يقول الشيخ راشد الغنوشي: ويزيد اليقين وضوحاً بإمكانية انتصار الثورة عدم ممانعة الظروف الدولية لتغيير إسلامى أصبح وشيكاً في الجزائر، وتصريحات الأمريكان والإنجليز والألمان والطليان مؤيدة للحوار والتغيير فى الجزائر.

ويصوّر السلطة الحاكمة فى الجزائر بأنها معزولة دوليا إلا من المساعدة الفرنسية، التى مازالت ترغب فى هضم الجزائر، ويحدوه أى الغنوشى الأمل المحتم فيقول: «**وفى الجزائر ثورة دقت ساعة إعلان انتصارها**».

إن الصورة التى رسمها الشيخ راشد الغنوشي مشابهة في أساسياتها لما كان قائما فى أفغانستان «**أيام الجهاد ...!!**».

وأما صورة الواقع التى تؤكد السقوط فى «**الشَّرَك**» أى الفخ فيمكن قراءتها من لوحة للواقع رسمها رئيس حركة النهضة الإسلامية فى الجزائر الشيخ عبدالله جاب الله، إذ يقول: «**لقد علمنا الشرع التريث والتبين في المسائل التى لا يتوفر لنا فيها الدليل القاطع والخبر اليقين، والأوضاع التى نعيشها في البلاد من المسائل التى يخفى على أكثر الناس دليلها أو خبرها اليقينى ومن أجل ذلك فإنه ينصح بعدم الاندفاع في الحكم على واقع الجزائر، خاصة من قبل من يعيشون آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم، سبب ذلك أن الواقع الذى وصلت إليه البلاد أصبح مخيباً للآمال والطموحات، ويصفه**

---

(١) مصطلح «الثورية» استعمله راشد الغنوشى الذى يقتبس البحث عنه هذه الصورة للواقع، انظر: فلسطين المسلمة العدد التاسع، السنة الثانية عشرة - أيلول ١٩٩٤م - ص ٣٤.

الشيخ عبدالله جاب الله: «..**من أمسى لا يظن أنه سيصبح، وإذا أصبح لا يظن أنه سيمسى، وإذا خرج من بيته قاصداً عمله لا يظن أنه سيصل إليه، وإذا خرج من عمله وقصد بيته لا يظن أنه سيبلغه، فقد انعدم الأَمن وعظم الخطر وصار أمن الأشخاص والممتلكات مهدداً باستمرار**».

وفى رقصة الموت هذه، فإن السلطة الحاكمة والمغتصبة للسلطة من جهتها لا تقبل وجود محايد، وكأنها تريد للجميع أن ينخرطوا فى دوامة العنف «**وتعالت أصوات السلطة ودعاة القطيعة مع دين الأمة وموروثها الحضارى والثقافى داعية للتميز والانحياز إلى طرف من الأطراف**».

هذه هي الصورة التى آل إليها الوضع في الجزائر بعد الانتصار الذى حققه الإسلاميون، وفق المنهج الديمقراطى مما أدى إلى هجمة عليهم، لا بل على كل الجزائر، وفي الوقت نفسه لم يقف الفريق الآخر «**الجبهة الإسلامية للإنقاذ والجماعات المشاركة لها**» موقفاً حكيماً يدع الخير الذى يربو عليه الشر كما أمر رسول الله ﷺ، فكان نجاح مخطط تدمير المسلمين فى الجزائر.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

لقد خرج المسلمون مقاتلين ضد الفرنسيين وحرروا بلادهم بالرغم من مليون ونصف المليون شهيد، كل ذلك يخرج من تحت الاحتلال الفرنسي، وفى ظل جبهة التحرير الوطنى. تنامى الشعور الإسلامي إلى الحد الذى جعل مرشحى هذا التيار يسيطرون على ٨٥٠ بلدية و ٣٦ ولاية، ثم على الأغلبية الساحقة لأعضاء المجلس النيابى.

وإذا كانت الثورة ضد الفرنسيين أنجبت كل هذا الزخم من المد الإسلامي، فهل الثورة الداخلية في الجزائر اليوم ستخلف وراءها مجتمعاً أكثر تمسكا بالإسلام واندفاعاً إلى التضحية في سبيله؟ أو بعبارة أدق إلى أين يسير الناس في الجزائر؟

إن رفض فريق أساسى من العاملين فى مجال الدعوة الإسلامية فى الجزائر، والذين لهم تاريخ عميق فى هذا المجال للعنف الدائر على أرض الجزائر سيشهد أن الإسلاميين هم أبعد الناس عن الشر والدمار، لأن وقود الثورة ودعاتها هم الذين خرجوا من تحت

الأرض كما ساهم راشد الغنوشى فرئيس حركة المجتمع الإسلامى محفوظ النحناح وكذلك رئيس حركة النهضة الإسلامية أو حزب النهضة الشيخ عبد الله جاب الله، وكل النخب العلمية فى المجتمع الجزائرى وخارجه، ورسالة الشيخ يوسف القرضاوى شاهد على ذلك، وكل هؤلاء لا يرون جدوى من دوامة العنف، والتجارب أثبتت بأن الجماهير العفوية والحركات التى تجارى عواطف المتحمسين تكون أكثر عرضة للاختراق .... واندساس العدو فيها، إن قادمات الأيام ستكشف عَمّا هو مختلفٌ فيه الآن .. أو ما زال مجهولاً، لكن قراءة الماضى التي يؤيدها الحاضر تقول: ... إنه السقوط فى الشَّرَك.

ثالثا: مصير الدولة الإسلامية في أفغانستان:

- قادة فصائل الجهاد دفنوا الحكم الإسلامي وحثوا عليه التراب.

- الشيوعيون يعودون للتحكم في الساحة بفضل تحالفهم مع المجاهدين.

«**الثورة الأفغانية ضد الحكم الشيوعي بدأت بشعار الدفاع عن الدين فى بلد يتمسك فيه الناس بدينهم تمسكاً بعيداً عميقاً وشبه عفوى في الوقت ذاته، وربما كانت أفغانستان فى العهد الملكى من البلدان الإسلامية النادرة التى تشل فيها أى حركة على الإطلاق فى الشارع متى حان موعد الصلاة، والواقع أن هذه الظاهرة التى استمرت إلى حد معين خلال بدايات الحكم الشيوعى تقلصت جداً في زمن دخول «المجاهدين»** إلى كابول[1]».

إن الجهاد في أفغانستان شكل قِبْلَةً لكل محب لمجد غائب، لَطالما طال انتظاره، حتى إن الكثيرين كانوا يحسبون أن أبواب الجنة مقفلة في كل مكان إلا في أفغانستان، وبالدعم الهائل من قبل المسلمين فى العالم كله وفى مقدمتهم المملكة العربية السعودية والكويت ودول الخليج، وكذا باكستان التى كانت الموْئل ومركز الانطلاق لفصائل الجهاد... وبرضا ودعم من الدول الغربية المناوئة للمعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفياتى، وبتعاطف من قبل المسلمين داخل الجيش الروسى الذين كثيراً ما انضم بعضهم إلى المجاهدين... وبدعاء النساء والأطفال وتضرعهم لله ـ تعالى ـ كي ينصر المجاهدين... مضت فصائل

---

(١) مجلة المجتمع ـ الكويت الثلاثاء ـ ٢٩ رجب ١٤١٤ هـ ـ ١١/ ١/ ١٩٩٤م ـ العدد ١٠٨٣ ـ السنة ٢٤ ـ ص ٢٨ـ٩٢.

الجهاد فى حربها ضد النظام الشيوعى فى أفغانستان المدعوم من قبل الاتحاد السوفياتى مباشرة.

وبعد انهيار النظام الشيوعي وسيطرة المجاهدين على السلطة، دخل قادة هذه الفصائل فى حرب داخلية، تقطعت فيها الأرحام، ودكت المساجد وتهدمت المآذن، وسقط الآلاف من القتلى والجرحى، في حرب لا تحكمها شريعة ولا عادات ولا تقاليد، كل شيء فيها أصبح مباحاً، وحتى الشيوعيون عادوا إلى الساحة من البوابة الواسعة، بل لا مانع من أن يعودوا لحكم البلاد مرة أخرى بوجه علمانى «!!» ..

وفي تحليل سياسي كتبته مجلة المجتمع الكويتية[1] يمكن تلخيص مراحل الصراع، ومعرفة مصير شعار الدولة الإسلامية الذى طالما حلم به المسلمون فى أفغانستان والعالم:

«لن أدخل كابل، لن أوقف القتال ضد مسعود وربانى، ولا تصالح قبل أن تخرج ميليشيا دوستم من العاصمة، هدفنا الأساسى هو تطهير كابل من الميليشيا الأوزبكية وفلول العناصر الشيوعية التى ما تزال على الوضع في كابل».

كان ذلك هو رد زعيم الحزب الإسلامى قلب الدين حكمتيار عندما سئل عن دواعى رفضه للتعاون مع بقية القادة الأفغان فى إدارة الحكم، وكان ذلك في مايو ١٩٩٢م ـ وذلك غداة دخول المجاهدين إلى العاصمة كابل، وفي الوقت نفسه وجه السؤال إلى برهان الدين رباني كى يطرح وجهة نظره حول شروطه للمشاركة فى السلطة فأجاب:

«إن أفراد الميليشا الأوزبكية التى يرأسها دوستم هم إخواننا، وقد عفونا عنهم وعن غيرهم من الشيوعيين، وهم لا يشكلون خطراً علينا، بل يدعموننا في إقرار نظام الحكم الإسلامى الجديد».

كان ذلك أيام حكم صبغة الله مجددى، وخاض يومها قلب الدين حكمتيار حرباً ضد مجددى لأنه متحالف مع أحمد شاه مسعود ومع عبدالرشيد دوستم قائد الميلشيا الشيوعية، وبعد ذهاب مجددى من الحكم، ومجيء برهان الدين رباني إلى الرئاسة وقلب الدين

---

(١) مجلة الأسبوع العربي ـ قادة المجموعات المسلحة يتقاتلون عبر دويلات متعددة ، العدد ١٧٩٠ ـ الاثنين ـ ٢٠ شعبان ١٤١٤ هـ ـ ٣١/ ١ / ١٩٩٤م ـ ص٨ .

حكمتيار إلى رئاسة الوزراء، فقد تحالف هذا الأخير مع دوستم ومجددى ضد سلطة الرئيس برهان الدين ربانى، وتم استخدام الأسلحة التى اختزنها الشيوعيون من قبل لمحاربة المجاهدين، خصوصاً طائرات «**ميغ**» وطائرات الهيلكوبتر وصواريخ «**سكود**» الشهيرة السوفياتية الصنع، وهكذا عادت كابل للتدمير مرة أخرى - كل ذلك من أجل أن يستقيل ربانى[(١)] !!!.

لقد انهار التحالف السابق الذي ضم ربانى ودوستم والشيعة الأفغان ومُجددى والشيوعيين من الأصل الطاجيكى، وظهر تحالف جديد يضم دوستم وحكمتيار والشيعة الأفغان، ومجددى بالإضافة إلى القوى الشيوعية من البشتون الذين ينتمى إليهم حكمتيار عرقيا[(٢)]، وأعلن هذا التحالف هدفه الأساسي وهو إسقاط رباني وإقامة حكومة محايدة في البلاد ...

لقد أعلن التحالف الجديد الثورة الشعبية ضد النظام فى كابل برئاسة ربانى، ودارت حرب هى الأشرس من بين الحروب التى عرفتها كابل خلال هذا القرن.

ولقد أيد البروفسور سياف زعيم الاتحاد الإسلامى الرئيس ربانى فى قتاله ضد المعارضين، وهذا ما أدى فيما بعد إلى تعرض قوات سياف المحايدة عملياً إلى هجوم من قوات حكمتيار فى جنوب البلاد وآخر فى شمال البلاد على يد قوات القائد الشيوعى دوستم ...

وهكذا بدلاً من أن تصبح أفغانستان دولة إسلامية قوية تساعد المسلمين فى

---

(١) راجع: مجلة الأسبوع العربي - ٣١/ ١/ ١٩٩٤م - المرجع السابق - ص٤ .

(٢) القوى المتصارعة حالياً فى أفغانستان تتوزع وفق الخريطة القبلية على الرغم من موجات التهجيرات التى اقترنت بها الحرب.

- قبائل البشتون: شرقى وجنوب غربى كابل وهم ركيزة «الحزب الإسلامى» بقيادة حكمتيار ومجموعة منشقة بقيادة يونس خالص.

- الطاجيك: وهم فى الشمال الشرقى بقيادة أحمد شاه مسعود ويعتبرون فى الدرجة الثانية بعد البشتون.

- الأقلية الثالثة «الهزارة» وهى فى معظمها شيعية إثنى عشرية على المذهب الجعفرى أصلهم من مناطق الجبال الوسطى يطالبون بـ ٣٥٪ من مراكز الحكم مع أن تعدادهم يساوي ١٥ - ٢٠٪.

الأوزبك: الأقلية الرابعة يتزعمهم عبدالرشيد دوستم يسكنون مزار شريف شمالي البلاد.

طاجكستان وآسية الوسطى عموماً بحكم ما يربط بينها وبينهم من روابط العقيدة والقرابة، وأن تصبح عمقاً استراتيجياً لباكستان، فقد تحولت على يد المجاهدين إلى نقطة إحباط، وعامل يأس، لكل مسلم طامح لاستعادة عزه المفقود فى الوقت المعاصر، يقول الفريق حميد جول مدير المخابرات الباكستانية السابق والمشهود له برؤيته الموضوعية إزاء الأزمة الحالية بحكم تجربته الطويلة هناك: «**قلبى مع دماء الشهداء التى أهدرت منذ ١٤ عاماً هى عمر سنوات الجهاد الحقيقى، وأسفى على هذا الواقع المحزن الذى تعيشه أفغانستان اليوم، آمالنا العريضة التى تعلقنا بها تبددت وأصبحت حلماً صعباً، فالصراع الدائر اليوم قد تَجَذَّر فى الأعماق، ولن يكون الحل العسكرى هو الوسيلة العملية لإنهاء هذا الصراع، بل على العكس إنها ستعمق الهوة بين الأطراف الرئيسة المتحاربة...**» وقال خبير عسكرى: «.. **بحكم تجربتي الطويلة في أفغانستان لا أرى سوى التسوية السلمية الموضوعية سبيلاً لإنهاء الأزمة الأفغانية، أما الحل العسكري فيضاعف من الأزمة وسيمنح الفرصة للعناصر الخبيثة من الشيوعيين وغيرهم أن ينفخوا في نار الفتنة الحالية...**»[(١)].

إن دوستم القائد الشيوعى له عاصمته الخاصة «**مزار شريف**» وإدارته الخاصة وتلفزيونه الخاص ومطاره المدني والعسكري المرتبط بشكل مباشر بجمهورية أوزبكستان التى تقدم له دعماً عسكرياً واقتصادياً كبيراً بحكم العلاقات العرقية التى تربطه بهم وهو ذو الأصل الأوزبكى.

وكذلك فإن القوات المعادية للفكرة الإسلامية فى أفغانستان تحتفظ بقوتها بينما يستنزف كل من حكمتيار وربّانى قوتهما، وسوف تَنْقَضّ هذه القوة في الوقت المناسب وتسيطر على السلطة، وستجد الفرصة مناسبة بسبب الإحباط المتولد عند الأفغان من إمكانية توصل القيادة الحديثة إلى اتفاق بينها[(٢)] .. والبديل هو القوى الشيوعية والعلمانية التى تنسق مع قوى خارجية تتربص الشر بالبلاد.

لقد ضعف الأمل فى قيام دولة إسلامية فى أفغانستان، تلك الدولة «**الأمل**» التى

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ١١/ ٤/ ١٩٩١م المرجع السابق - ص٢٩.
(٢) مجلة المجتمع الكويتية ٢٥/ ١٠/ ١٩٩٤م - ص ٢٣.

يحتاجها المسلمون فى آسيا الوسطى عامة وفى طاجكستان خاصة أكثر من أى وقت مضى.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه على الأفغان، كما على الجزائريين ... هو ذاته: «**من مخلفات النظام الملكى السابق خرجت الجماهير ترفض الشيوعية بكل أشكالها، ولو كان وراءها الاتحاد السوفياتى بكل ما يملك من ترسانة عسكرية وجيوش، وتشكلت فصائل الجهاد، وسالت الدماء تهدر فى وديان أفغانستان، وصدرت الكتب وهى تقص كرامات المجاهدين الأفغان التى كان ينشرها الشهيد عبدالله عزام رحمه الله، «الذى استشهد غدراً في بيشاور مع بعض أبنائه**»، وتمكنوا من إسقاط النظام الشيوعى، والآن بعد حكم قادة «**الجهاد**» ما هو مستقبل شعار الدولة الإسلامية فى أفغانستان؟ هل مازالت الأمل المرتجى؟ أم أنها أصبحت ذكرى أسى وعامل إحباط؟ ويبقى الأمل بالله تعالى كبيراً.

*****

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والمكرمات، وتنتهى المهمات والرحلات، وأنا هنا فى نهاية المطاف أقول: إننى لا أعرف كتاباً تريثت في نشره ومحضته وعرضته على أهل الفضل من أهل الدعوة مثل هذه الرسالة، ولعل ذلك راجع إلى موضوعها من جهة، ولكونى قد أعدمت فى السابق ـ من ناحية أخرى ـ كتاباً سطرته فى «**السياسة الشرعية والنظرة الواقعية**» ظل حيا عندى فى مكتبى لأكثر من خمس سنوات، ثم قررت شطبه من قاموسى لا لكونه ضعيفاً فى فكرته ومبناه، ولكنها الخشية من أن يفهم على غير مراد كاتبه، وكتابى هذا أقر أننى نحيت عنه ما يعدله من الأوراق التي كتبتها وسطرتها، ثم وجدتها قد تُحدث جدلاً يصرف الناس عن هدف الكتاب ورسالته وغاية البحث ومراده، فصرفت النظر عنها وجعلتها في طى مسودات كتبى.

ونحن هنا فى نهاية المطاف نخلص إلى النتائج الآتية:

أولا: إن الأمم تدور بين الضعف والقوة بحسب أخذها أو تركها للسنن الكونية والشرعية فى بقاء الأمم وتدميرها.

ثانيا: إن قوة الأمم لا تخلو من ضعف، وكذلك ضعفها لا يخلو من قوة.

ثالثا: إن الأمة الإسلامية فى تسلسلها تحقق فيها حديث النبى ﷺ الذي رواه حذيفة رضي الله عنه حيث قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دخن**» قلت: ما دخنُه يا رسول الله؟ قال: «**قوم يهدون بغير هديى، تعرف منهم وتنكر**» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**» قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**» قلت: فما تأمرنى إن أدركنى ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**» قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦).

رابعاً: إنه لا يخلو زمان يمر على أمة محمد ﷺ لا يكون فيها شخص أو مجموعة تجدد هذا الدين وترجعه إلى نقائه وصفائه.

خامساً: إن داء هذه الأمة ليس من خارجها ولكنه من داخلها، كما ورد فى الحديث: «**سألت ربي ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة؛ سألت ربى ألا يهلك أمتى بالسَّنة فأعطانيها، وسألته ألا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها، وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[1].

سادساً: إن تصور بقاء الأنموذج النبوى فى المدينة فى العصور والأزمنة من بعد وفاته وخلفائه من بعده نوع من ضروب الخيال، وقد أخبر ﷺ عن وجود الفتن من بعده، وتغير الوالي كما ذكرنا في الحديث السابق في أول البحث: «**ستكون خلافة راشدة ما شاء الله أن تكون...**» الحديث.

سابعا: على الحركة الإسلامية أن تعيش واقعها، وتتعامل معه بمنهاجية تراعى فيها الطبيعة البشرية، وحبها للجاه والسلطان، وهذه الكينونة البشرية واقع لكل إنسان وإنما تختلف بالدرجة، فلا يتصور أن حاكما سيترك سلطانه للدعاة بمجرد الاعتماد على مبدأ العزل الموجود فى كتب الفقهاء، فهذا لا نعرفه على مدى أربعة عشر قرناً فى الأمة الإسلامية، كما أن تطبيق الأحكام الشرعية عند الحكام مرهون بضمان عدم زوال الحكم، وإلا فتاريخ التأويل متكرر فى الأمة في معظم تاريخها، وعلى الدعاة أن يستفيدوا من وجود التوجه الإسلامى فى العالم الذى تسمح به بعض الأنظمة فى عالمنا الإسلامى.

ثامناً: إن المشروع الاسلامى هو شركة مساهمة خيرية، كل من فيه خير يساهم فى تحقيقه، فهذه الشركة ليست حكراً على أحد، ولكنها نسب يتفاضل الناس فيها كبناء المسجد تشترك القرية بكاملها فيه ومع هذا يظل هناك المؤسس، ودافع المال والمتبرع بالأرض وحامل الطوب والمؤذن وهناك من يكثر سواد المسلمين فى المسجد ولكن فى النهاية ما من شخص فيهم إلا وله مساهمة فى بناء المسجد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩).

تاسعاً : التعامل مع الواقع لا يعنى الرضا به، بل المسلم يسعى دائما للأحسن وفق القاعدة الشرعية ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(١).

عاشرا: من خلال التتبع لأقوال العلماء في موضوع السياسة الشرعية نرى أنها تدور حول موضوع المصالح والمفاسد والموازنات الفقهية، وفي هذا سعة للأمة، حيث التغيرات التي تحدث في الأزمة وللأشخاص لا تتوقف ما تعاقب الليل والنهار **ومن هذه الأمور**:

١ـ مقولة شيخ الإسلام فى تعارض الحسنات والسيئات، يقول رحمه الله: إذا ثبت أن الحسنات لها منافع وإن كانت واجبة كان في تركها مضار، والسيئات فيها مضار، وفى المكروه بعض حسنات، فالتعارض إما بين حسنتين لا يمكن الجمع بينهما، فتقدم أحسنهما بتفويت المرجوح، وإما بين سيئتين لا يمكن الخلو منهما: فيدفع أسوأهما باحتمال أدناهما، وإما بين حسنة وسيئة لا يمكن التفريق بينهما: بل فعل الحسنة مستلزم لوقوع السيئة، وترك السيئة مستلزم لترك الحسنة، فيرجح الأرجح من منفعة الحسنة ومضرة السيئة. ا.هـ.

وقد ذكر العلماء لهذه القاعدة أمثلة كثيرة وتطبيقات متنوعة فى أبواب الفقه.

للتعامل مع أبجديات الفهم السياسي للإسلام لا بد من التدارس لأنواع الفقه التى ذكرها الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله:

أ ـ فقه السنن.

ب ـ فقه مراتب الأعمال.

جـ ـ فقه الاختلاف.

د ـ فقه الموازنات.

هـ ـ فقه الأولويات.

وللوصول إلى تحقيق هذه الأنواع لا بد من تكامل فقه الشرع وفقه الواقع، لنحصل على الموازنة العلمية السليمة البعيدة عن الغلو والتفريط.

٢ ـ الرقى فى تعامل الدعاة مع مجتمعاتهم من أجل إنجاح المشروع الإسلامي، وقد ذكر

---

(١) الملك :٢ .

الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى كلاما جميلا فى ذلك فقال: لا بد للحركة الإسلامية أن تسعى سعيا حثيثا، لتمد أشعتها إلى كل شرائح المجتمع وطبقاته، وأن تمتد أفقيا عن طريق تغذية الصحوة الإسلامية العامة حتى لا يبقى ركن فى الحياة الاجتماعية إلا وصل إليه صوت الحركة، وبلغته رسالتها، وكان لها فيه جنود وأبناء، ووراءهم أضعافهم من الأنصار والمؤيدين والمساندين.

وإنما يتم ذلك عن طريق عمل دعوى وإعلامى، مخطط منظم يستفيد من وسائل العصر، وإمكانات العلم، وتكنولوجيا الإعلام الحديث، ويقتبس من أدوات الغرب والشرق كل ما يخدم دعوته، ويحقق هدفه «**الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق الناس بها**»[1].

ولا بد للحركة أن تستعين بفنيين متخصصين في مخاطبة العامة والخاصة، والاستفادة من علوم النفس والاجتماع والسياسة والإعلام، وتجنيدها لخدمة أهداف الحركة ورسالة الإسلام.

بل لا بد للحركة أن تخطط من اليوم لإعداد دعاة معاصرين، وإعلاميين مؤمنين بسمو دعوة الإسلام وشمولها وعالميتها وتوازنها، قادرين على أن يبلغوها إلى الناس بلغة العصر، ومنطق العلم.

٣ ـ على الحركة أن تدخل في حوارات دائمة في المسائل المستعصية وخصوصا في مسائل السياسة الشرعية وكل ذلك من أجل الإثراء من الجانب الفكرى والنظرى لنحصل بعد ذلك على أرضية متفق عليها نسير فى ضوئها، وهذا الحوار لا يتم إلا بفتح كل النوافذ على العمل الإسلامى بأهدافه ورسائله ومراحله.

وذلك في ضوء الواقع المعاصر حتى لا نقع بين التهويل والتهوين، وتأتى أهمية الحوار في الفقه السياسي لأنه لم يأخذ حقه من البحث والتعمق، كما فى فقه العبادات والمعاملات.

٤ ـ وفقه السياسة الشرعية فيما يصلح الراعى والرعية باب واسع ومتحرك فعلى سبيل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وقال الألباني: «ضعيف جداً» .

المثال: رأينا أن النبي ﷺ قسم خيبر بعد فتحها بين المقاتلين ولم يفعل ذلك عمر رضي الله عنه، عندما فتح سواد العراق، حيث رأى أن الأصلح في زمنه غير ذلك، وجادله كثير من الصحابة فى ذلك، ولا سيما أن رأى عمر يخالف ظاهر عموم آية سورة الأنفال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[1].

وقال عمر فى ذلك: رأيت أمرا يسع أول الناس وآخرهم، وقال: أتريدون أن يأتى آخر الناس وليس لهم شيء؟!

أى إنه راعى مصلحة الأجيال القادمة، وهذا نوع من التكافل الرائع بين أجيال الأمة بحيث لا يستمتع جيل على حساب جيل أو أجيال لاحقة، واستند عمر فى ذلك إلى آيات سورة الحشر التي أشارت إلى قسمة الفىء بين المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[2].

وعلل الإمام ابن قدامة الاختلاف بين صنيع عمر وصنيع الرسول الكريم، بأن النبي ﷺ فعل ما هو الأصلح في زمنه، وعمر فعل ما هو الأصلح في زمنه.

٥ ـ فتح الحوار مع عقلاء الحكام، كما يقول الشيخ د. يوسف القرضاوي حفظه الله.

٦ ـ في الحوار في مسائل السياسة الشرعية نسترشد ببعض القواعد المعينة للوصول للرأى الصحيح ومنها ما ذكر الشيخ يوسف القرضاوي:

أ ـ النظرة الموضوعية إلى المواقف والأشياء والأقوال بغض النظر عن الأشخاص كما قال على بن أبي طالب: «**لا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله**».

ب ـ احترام الاختصاصات، كما قال القرآن في سورة النحل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾[3]، ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾[4]، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾[5]، فللدين أهله، وللاقتصاد

(١) الأنفال:٤١.
(٢) الحشر:١٠.
(٣) النحل:٤٣.
(٤) الفرقان:٥٩.
(٥) فاطر:١٤.

أهله، وللعسكرية أهلها، ولكل فن رجاله، وخاصة في عصرنا، عصر التخصص الدقيق، أما الذى يعرف في الدين والسياسة، والفنون والشؤون الاقتصادية والعسكرية، ويفتي فى كل شىء، فهو فى حقيقته لا يعرف شيئا.

جـ ـ القدرة على نقد الذات، والاعتراف بالخطأ، والاستفادة منه وتقويم تجارب الماضى تقويما عادلا، بعيدا عن النظرة «**المنقبية**» التى تنظر إلى الماضي على أنه كله مناقب وأمجاد!

د ـ استخدام أحدث الأساليب وأقدرها على تحقيق الغاية والاستفادة من تجارب الغير حتى من الخصوم، فالحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها، فهو أحق الناس بها.

هـ ـ عدم التعجل فى إصدار الأحكام والقرارات، وتبني المواقف إلا بعد دراسة متأنية مبنية على الاستقراء والإحصاء، وبعد حوار بناء، تظهر معه المزايا، وتنكشف المآخذ والعيوب.

و ـ تقدير وجهات النظر الأخرى، واحترام آراء المخالفين في القضايا ذات الوجوه المتعددة، فى الفقه وغيره، ما دام لكل دليله وجهته، وما دامت المسألة لم يثبت فيها نص حاسم يقطع النزاع، ومن المقرر عند علمائنا: أن لا إنكار فى المسائل الاجتهادية، إذ لا فضل لمجتهد على آخر، ولا يمنع هذا من الحوار البناء، والتحقيق العلمي النزيه في ظل التسامح والحب.

حادى عشر: عدم موالاة غير المسلمين: يقول الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[1]. وعند موالاة هؤلاء فإن المصير يكون خذلاناً وعلى أسوأ ما يؤول إليه الحال مهزوم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾[2].

وكل ما على المسلم فعله ألا يخرج عن الأطر الشرعية في هذا المجال لأنه لا يجوز

---

(١) آل عمران:٢٨.

(٢) النساء:١١٥ .

للمسلمين خاصتهم أو عامتهم اتخاذ الكفار أولياء بدلا من المؤمنين.

ثاني عشر : المسلمون ما زالوا هم الأقوى في العالم: يجب ألا يدخل الشك إطلاقاً إلى نفوس المسلمين في مشارق الأرض ولا في مغاربها في قوتهم واستمرار استعدادهم لريادة الكون وإحكام السيطرة عليه وفرض نظام عالمي عادل مُخلص للناس مما هم فيه من ظلم وإفساد، وإن الضعف الذي يلاحظ الآن ومنذ عشرات السنين إنما مرده للوضع الداخلي السيئ الذي يعيشه، وإن سر الغلبة عليهم إنما يكمن في ذاتهم ولا يأتي من الخارج، والدليل على ذلك من الواقع ومن إخبار الرسول ﷺ بذلك:

أ ـ قوة المسلمين كامنة في دينهم والتزامهم، فهم يستندون إلى إرث الشريعة الإسلامية التي أبقتهم ألف سنة ونيف في صدارة المجتمعات البشرية.

ب ـ إن المسلمين ما زالوا يمتلكون خمس اليابسة وما حوته من بحار، كما أنهم يمتلكون الطاقات الأولية الأساسية في هذا العالم مثل النفط والمعادن والمياه ومواطن الزراعة.

جـ ـ إنهم الطاقة البشرية التي تمتلك الحيوية لما فيهم من شباب، بينما المجتمعات الأخرى باتت تنوء بالكهولة والشيخوخة التي تصل إلى حد ٦٠ وأكثر، وبعضها يكاد ينقرض لولا الهجرات الوافدة التي تجدد الحياة وتضمن استمرارها.

د ـ إن المسلمين ما زالوا مغلوبين بواسطة بعض الصناعات التكنولوجية العسكرية، إلا أن هذا الجانب بات بالإمكان تلافيه بعدما أصبح عندهم من يستطيع أن يُصنّع وينافس إذا ما توفرت لهم الأجواء الملائمة.

هـ ـ إن حديث رسول الله ﷺ يؤكد أن المسلمين لا يغلبون بقوة غيرهم وإنما باختلافهم فيما بينهم، يقول ﷺ: «**إن الله زوّى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وأن أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو بين أقطارها حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضا**»[(١)].

(١) أخرجه مسلم (٧١٥٢).

و ـ ما زال العالم يختزن ومضات عن تاريخ المسلمين وعدلهم، وما زال اسمهم يدور في خلد كل قارئ أو سامع..

ثالث عشر: الاهتمام بالجانب التربوي: قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[1].

إن طريق النور في متناول اليد، ومعية الله ـ تعالى ـ مع المؤمنين وما على هؤلاء إلا أن يلهجوا بذكر الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3].

لقد آن الأوان كي يقتنع الراغبون في طاعة الله ـ عز وجل ـ بأهمية ذكر الله ـ تعالى ـ وجعل القلب معلقاً بحبه ثم بحب نبيه ﷺ، والزهد بالدنيا بعد امتلاكها كي تتحقق لهم البيعة في سبيل الله ويستذكروا بما قاله سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما كان يستبسل في القتال بالرغم من عزله من القيادة: «**إني أقاتل لرب عمر**».

إن القرآن الكريم لا يحلق إلا بجناحين: التزكية والحكمة. ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾[4].

فلا بد من تربية الجوارح وما تختزن من أحاسيس، والفؤاد وما حوى من الهوى .. وعندما تتحقق تربية رهبان الليل ـ فرسان النهار، يصبح المسلمون على موعد قريب مع الفجر المرتقب.

إن هذه التربية الربانية يجب مواكبتها بـ:

١ـ منهج سياسي متوافق مع أهداف الشريعة الإسلامية بحيث يتمكن من استيعاب كل المشاكل ووضع كل الحلول اللازمة، وعندها يصبح الحكم للنص لا للشخص أو

---

(١) الزمر: ٢٢.
(٢) الأنفال: ٢.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) الجمعة: ٢.

الأشخاص، ويحرص ذلك مجلس شورى يؤلف أعضاؤه خلاصة عباقرة المسلمين والملمين بخبرات العالم..

٢ـ مناهج تعليمية منتجة وغير مقتصرة على الاستهلاك فقط، وكي يحدث ذلك فإن على العلماء المسلمين واجب تخليص الكتب الإسلامية من كل دخيل عليها من مخلفات الأمم البائدة أو الموجودة.. وإعادة المنهج الإسلامي إلى تألقه المستقى من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسوله ﷺ وجهد الصحابة والتابعين.

٣ـ يجب أن تشخص الأبصار إلى الأهداف التي وضعتها الشريعة، وكل سبيل لا يوصل إلى ذلك يجب استبعاده، فلا قدسية إلا لكتاب الله عز وجل ولحديث رسوله الكريم.

٤ـ ليُقدم المسلمون أنفسهم للعالم دعاة خير ورحمة.. ويزيلوا كل الشوائب والطعنات التي ألحقها أعداء الإسلام من جهة والمسلمون الجهلاء من جهة أخرى.

رابع عشر : وهى النتيجة الكبرى فى البحث والتى ظهرت فى حركة التاريخ من خلال استعراضنا للدول والحركات حيث ظهر جليا أن الأمة على أطوار التاريخ كانت تنشد الأحسن وتتوق نفوس رجالها إلى المعالى، فينشدون دولة الإسلام كما فى خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ﷺ وهذا مطلب شرعى أصيل لا خلاف فيه، ولكن إن لم يتحصل هذا الأمر فهل ننتقل إلى ما هو شرعى وممكن؟ الجواب يتضح بمسألة فقهية بسيطة يعرفها الأطفال فى مدارسهم وهى مسألة الوضوء والتيمم فالوضوء فى الصلاة بصفته المنصوص عليها واجب شرعى لمن أراد أن يصلى أو مندوب لمن أراد أن يمس القرآن على اختلاف فى المسألة، وهذا أمر مجمع عليه عند الأمة ولكن إن عدم الماء أو حال دون استعماله عدو فى الخارج أو مرض فى داخل المتوضئ يؤخر الشفاء أو يزيد من المرض، هنا فى مثل هذه الحالة ينتقل الحكم من الوضوء بالماء إلى التيمم بالتراب أو ما يقوم مقامه وهذا انتقال من الواجب إلى الممكن، وهنا نقول أنه صحيح، أن الانتقال من الواجب إلى البدل يجعل البدل واجباً، فمن المقرر أن بدل الواجب واجباً في وقته، فإقامة الخلافة على نهج النبوة كما في عهد الأئمة الأربعة أمر واجب، والانتقال إلى البدل عنه لعوائق داخلية أو خارجية في الأمة لا يسقط الواجب الأصلي، مع ضرورة الأخذ بالبدل الواجب حتى لا تخلو الأرض

من قائم لله بحجه، وحتى لا تضيع المقاصد الخمسة التي جاءت الشريعة لتحقيقها، وهذا الواجب البديل إنما هو الممكن في وقته، وهذا هو ما جاءت به النصوص الشرعية، واقتضته الأصول والقواعد الفقهية، والشريعة الإسلامية مبنية على المقاصد والمعاني المأخوذة من النقل الصحيح والعقل الصريح، فمن الآيات قول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1] وقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2] ومن القواعد الشرعية: «**المعسور يسقط بالميسور**» وكذلك «**لا تكليف إلا بمقدور**» ومن المقرر أن الشريعة جاءت لرفع الحرج عن الناس، ولذلك نرى أن النصوص إنما جاءت لبناء مجتمع طاهر متآخ متحاب يشعر كل فرد فيه أن له حقا وعليه واجبا، وإن كان هناك شر ولا بد عولج الأمر بما لا يترتب عليه مفسدة أعظم، وهذه المقاصد هى التى بنى عليها الشاطبى موافقاته، وهذا منهج سلفي أصيل، فالإمام أحمد فى مسألة الخروج على الحكام، لم ينظر إلى تصارع النصوص وتعارضها كما نظر إلى المسألة الكثير من الفقهاء، ولكنه نظر إلى قواعد الشرع فى دفع أعظم المفسدتين، وارتكاب أخف الضررين وتحصيل أعظم المصلحتين، ثم أسقط هذه القواعد على مسألة الخروج على أئمة الجور فإن كان الفقهاء قد اختلفوا وانقسموا إلى مذهبين مذهب الصبر ومذهب السيف فالإمام أحمد حسم المسألة فى أن الأمر متعلق بالمصالح والمفاسد وهذه المسألة فصلها الإمام الشاطبى فى موافقاته فجزى الله الجميع كل خير ولا حرمنا الله علمهم وفهمهم.

وعوداً على بدء فى الفائدة الثانية عشرة وبعد ما ذكرنا فى موضوع الوضوء والتيمم والآيات والقواعد الفقهية نقول: إن نشدان الواجب أمر لا بد منه حتى لا تضيع الأصول والقيم التى بنى الإسلام عليها ولكن عند تعذر الوصول للأحسن لا يمنع من الوصول لما هو حسن، والأمر متعلق بالأمة ككل لا بالحاكم فقط، فلذلك قيل كما تكونون يولى عليكم، ويروى أنه قيل لعلى رضي الله عنه : ألا تحكم بما حكم به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ فقال: آتونى برجال كالذين كان يحكمهم أبو بكر وعمر وأنا أحكم بما كانا يحكمان به رضي الله عنهما.

---

(١) التغابن : ١٦.

(٢) البقرة : ٢٨٦.

أخي القارئ : إن هذه النتائج التي استخرجناها من مجموع تطوافنا في تاريخ الدولة لا نريدها أن تدخل فى الأحكام الجاهزة والسهام المسمومة، فهذه أمور أصحابها إلى الله هو حسبهم ونعم الوكيل، كما أن هذا المبحث لا علاقة له بالعبارات الدعوية العامة: لا لقاء فى منتصف الطريق، لا نرضى بأنصاف الحلول، الركون إلى الدنيا مقبرة الدعاة ... وغيرها من العبارات التى ظلم بها أصحابها، عندما تعامل معها أناس لا فقه لهم ولا دراية ولا عيش بالواقع ولا استشعار لمعاناة الأمة والدعاة، بل هى أبراج عاجية باردة مرفهة أو سجون طاغوتية حارقة، والحرارة الحارقة والبرودة الصاقعة تفسد على المتوضئ الوضوء، ومن الفقهاء من أبطل الوضوء بالماء البارد أو الحار الذى يمنع إسباغ الوضوء!!

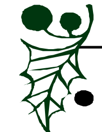
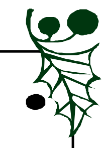
وأخيراً فالحركات الإسلامية والمفكرون فيها ومن خارجها الجميع مدعوّ لأن يُعيد النظر فى كثير من أدبيات الحركة، فالمحذور فى إعادة النظر وإمعان الفكر هو التعرض للثابت الذي جاء به صريح القرآن والسنة والإجماع، وأما ما سوى ذلك فالأمة مدعوة للتفكر والنظر والمراجعة بين الحين والآخر فيما هو من نتاج البشر، والأمر كما قال الإمام مالك رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «**كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر**» وأشار إلى قبر النبى صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم إن كان الإمام الشافعى الحجة نظر فى فقهه الذى كتبه في العراق بعد ذهابه إلى مصر، فهل ننظر نحن فيما هو بين أيدينا من تراث وفق الله السابقين إليه، ونقلوه إلينا بعلمهم ودمائهم وجهادهم، ننظر فيه لا لنغمطهم حقهم ونتعالى على مقولاتهم بل لنراجعها فما وجدناه يؤدى إلى النتيجة التى يُريدونها أصلناه وثبتناه، وما رأينا أن تكلفته كبيرة ونتاجه قليل، تمسكنا بالهدف وغيرنا في الوسيلة، وظنى أن هذا هو الذى يرجوه من سبقنا بالإيمان والجهاد.

والله الموفق للخير والحمد لله رب العالمين.

كتبه

جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

١٢ من ربيع الأول سنة ١٤١٩ هـ

الملاحق

الملحق (١)

الرسالة الموجهة

من الباحث إلى العلماء الأفاضل .

بين يدى البحث ورسائل الرد من العلماء والمشايخ التى تمت استشارتهم قبل الكتابة في هذا البحث .



الرسالة الموجهة من الباحث إلى العلماء الأفاضل بين يدي البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فاسمحوا لي يا ملح الأمة أن أكتب لكم هذه الكلمات أريد منكم النصح والإرشاد، فما خاب من استخار واستشار.

شيخنا الكريم.. حفظه الله ونفع به، فإنني عازم على الكتابة في موضوع يهم الدعاة وأصحاب الحركة الإسلامية، ويعتبر من مباحث السياسة الشرعية والتى الخوض فيها يكون على حذر، فالكتاب يعالج مسألة مهمة[١] في قضية أساسية من قضايا العمل الإسلامي «**الدولة والحكم**» وهي من الأمور التي يكثر فيها الجدل، وتختلف فيها الجماعات، وتتهم فيها النيات، ويوثق ويضعف الدعاة بحسب آرائهم وأقوالهم فيها، والكتابة في هذا الموضوع في الأطر العلمية والمنهجية المتسمة بالإنصاف يغضب عليها الحاكم، ولا يرضى عنها المحكوم، ولكنها أمانة التبليغ التي تدفع بالإنسان أن يعلن في الناس ما يعتقد أنه حق «**بلغوا عني ولو آية**» والحرج من الكتابة في هذا الموضوع ليس وليد اليوم فقط، بل هو قديم قدم التاريخ الإسلامي الذي يحكى لنا قصصا تبين أن هناك فحولا من العلماء كتبوا في موضوع الدولة ولم ينشروا ما كتبوا بل أخرج تلاميذهم ما كتبوه بعد وفاتهم، ومن هؤلاء «**الإمام الماوردي**» في كتابه «**الأحكام السلطانية**».

لهذا الأمر رأينا قبل الكتابة في بحثنا «**نظرات في الدولة الإسلامية**» أن نستشير بعض من رجالات الدعوة قبل الكتابة، ثم بعد ذلك نرسل ما كتبنا إلى العلماء أصحاب العمل والتنظير والتعقيد للأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، لنستفيد من ملاحظاتهم وتصحيحاتهم وتوجيهاتهم، من أجل ذلك تم الاتصال قبل كتابة البحث وحين كان فكرة بمجموعة من المفكرين والدعاة مرسلين إليهم برسالة نذكر نصها لاحقا، فكان منهم من

(١) حركة الدولة الإسلامية في التاريخ منذ البداية إلى السقوط، مع تذكر محاولات إعادة البناء الإسلامي للأمة .

نصح وبيّن، فقُبلت النصيحة منه وأُخذ بيانه، وتم الدعاء له، ومنهم من حالت أشغاله عن الرد فاعتبر رسالتنا كأنها لم تأته فدعونا الله له أن يعينه ويبارك له في وقته، وكانت رسالتنا للجميع نصها هو:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد الأمين ﷺ.

وبعد: فأسأل الله أن يعيننا وإياكم على رسم الطريق الصحيح لشباب الدعوة وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه.

الشيخ الفاضل..

منذ سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية ومجاميع الدعاة تتجمع وتتحرك في اتجاه واحد، هو إقامة الدولة الإسلامية.

وهذا الاتجاه يتم إنزاله على مجاميع الشباب من خلال أدبيات الحركة الإسلامية بكل الوسائل المتاحة والممكنة.

وكان المسيطر خلال الفترة السابقة أن المشروع الإسلامي لا بد أن يتم من خلال الحركة الإسلامية، فحدد بالمشروع الحركي الإسلامي.

ونتج عن ذلك صراع بين السلطات القائمة والحركات الإسلامية، باعتبارها منافسة لها على السلطة، وعاملة على سلب الحكم منها، وتطور الصراع وتجذر، وأصبح من مستلزمات العلاقة بين الحركات الإسلامية والأنظمة التي تتواجد تلك الحركة معها في بلد واحد.

وذلك الصراع أدى إلى تأخير هذا الهدف (هدف إقامة الخلافة الإسلامية على يد الحركة الإسلامية) مما جعل هذه الغاية أمنية من الأمنيات، بعيدة عما هو ممكن، وعما هو متاح، ولذا فقد أصبح لزاما على الحركة الإسلامية أن تنظر بعين الواقع الممكن وهي تبحث عن أمنيتها في نجاح المشروع الإسلامي في العالم.

وإن الناظر في المكر العالمي والتخطيط الإستراتيجي للأعداء، يلاحظ أنهم يستخدمون كل الوسائل لتحطيم الإسلام ذاته، فضلا عن تحطيم الحركات الإسلامية الداعية له، من أجل ذلك يثيرون الخلافات المصطنعة، والصراعات المفتعلة بين الحركات الإسلامية

والسلطات القائمة في البلاد الإسلامية، وخصوصا التي جعلت منطلقاتها الأساسية متطلبات إسلامية من حيث الأصول والمفاهيم، فهل نفوت الفرصة على الأعداء، ولا ننساق في تيار الحماس العام، ثم نعود نعض أصابع الندم حيث لا ينفع الندم؟ ومن أجل الإثراء في هذا الموضوع عزمت على الكتابة في موضوع الدولة الإسلامية من حيث الواقع والممكن والواجب.

وإني آمل أن تكتب جوابا لهذه الرسالة فيها رؤيتكم المفصلة لما جاء في هذا الخطاب وستكون رسالتكم مقدمة للكتاب في المستقبل بإذن الله،وجزاكم الله خيرا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الشيخ د / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

* * *

وبعد إرسال هذا الخطاب كانت الإجابات كالآتي:

أولا: رسالة الشيخ / عبدالفتاح أبو غدة ــ رحمه الله

قال في رسالته: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فأحمد الله إليكم، وأرجو أن تكونوا بخير من الله ونعمة وعافية سابغة، أسأل الله أن يمدكم بمدده الحميد، ويسددكم إلى الطريق الرشيد، وإقامة دينه وشريعته على ما يحب ويرضى.

إن اهتمامكم الصادق بهذا الموضوع من أهم الواجبات، وأعظم فروض الكفاية الملقاة على كواهل المفكرين والداعين إلى الله ـ تعالى ـ بقولهم وسلوكهم ونشاطهم، أرجو أن توفقوا في إنجازه وإبرازه، ويكون كتابكم مفتاح باب الخير في موضوعه، إن الأعداء يزرعون النزاع بين الأخ وأخيه، ويتقنون المداخل والمسارب، حتى يحسنوا للإنسان اقتناعا تاما بوجوب قتل أخيه أو أبيه، والتاريخ حافل بشواهد ذلك البلاء، فاهتمامهم وتفريقهم بين الحاكم والمحكوم من المسلمين أهم عندهم، لأنه يُفنى بعضهم بيد بعض كما شاهدتم وسمعتم، والأعداء يفرحون بذلك دون مباشرة ذلك، وربما قاموا بإظهار المساعدة للغالب في أول الأمر ولو كان من غير فكرتهم، فلذا وذاك صار الدعاة المخلصون اليوم بحاجة إلى توعية حكيمة صادقة.

وهناك البعض من حكام المسلمين يصعب تفهمهم هذا المقصد النبيل، لما في نفوسهم من حب السيطرة والحكم، ولما في نفوس بعضهم من المجافاة والعداء للإسلام ظاهرا أو باطنا، ولما يمرحون من رفاهيات وملذات وشهوات مكَّنهم الحكم منها في أنفسهم، ويقلبون الأقوال على النقيض بإعلامهم وإعلام الأصدقاء لهم من الأعداء، فالمسلك صعب ووعر، والقبول له من العلمانيين والإباحيين والمتغربين وسادتهم أصعب، فانظروا ضخامة ما تتوجهون إليه، واجتهدوا في حسن العرض وسلامته دون تزلف لبعض الحكام ودون تعسف على بعض الحكام، فالنصيحة هذه غالية جدا، فلا تضيع بتشنج أو تزلف أو تعسف.

(كلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأمور ذميمُ)

وليس عندي ما أقدمه لكم من الفكر والتخطيط، ولكني سأدعو الله ـ تعالى ـ أن يسددكم أتم التسديد، ويفتح لكم قلوب العباد، ويمدكم بالصون والعون، والحمد لله الذي آتاكم نصاعة الفكر، وخشوع الذكر، وأعوان الخير كالأخ أبي عبدالله القطان وإخوانه الكثير المخلصين، وتقبلوا أطيب تحياتي، واذكروني بصالح دعواتكم، والله يرعاكم ويتولاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كتبه

أخوكم / عبدالفتاح أبو غدة

* * *

ثانيا: رسالة الشيخ / مناع القطان ـ حفظه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تحتاج الحركة الإسلامية العالمية إلى وقفة، تراجع فيها تاريخها منذ نشأتها إلى الوقت الحاضر، وتتعرف على مواطن القوة ومواطن الضعف، وعلى الأسباب المباشرة وغير المباشرة، التي آلت بها إلى وضعها الراهن، لتقرأ ما وراء هذا كله، مما تسفر عنه الدراسة الواعية الفاحصة، وقد أصبحت الحركة في منعطف وعر المسالك على الصعيد العالمي والصعيد المحلي.

فعلى الصعيد العالمي اتجهت أنظار الغرب إلى الإسلام، وتفرغت له، فلا يشغلها شاغل سواه، وقد كانت قبل انهيار الاتحاد السوفيتي يشغلها مع الإسلام الشاغل الأكبر، وهو الخطر الشيوعي، ولا تعطى الإسلام اهتماما كبيرا فأصبح الاهتمام اليوم بالإسلام، ولا شيء سواه، لأنه مبعث الخطر المستقبلي في نظرهم، لما يشهده العالم في أنحاء شتى من كفاح إسلامي مسلح، يرفع راية الجهاد في سبيل الله، ويضرب أروع الأمثلة في التضحية والفداء، وهذا هو مضمون كتاب أصدره الرئيس الأمريكي الأسبق «**نيكسون**» تحت عنوان «**انتهزوا الفرصة**» حذر فيه العالم الغربي من ارتياحه لزوال الشبح السوفيتي المخيف، وغفلته عما هو أشد خطرا وهو الإسلام، ويعبر الغرب عن هذا التوجه الإسلامي بالأصولية.

وعلى الصعيد المحلي وقعت الحركة الإسلامية في صراع مع سلطات الحكم -وتفاوت هذا الصراع- فوصل في بضع البلاد إلى ما يشبه الحرب الأهلية، في حوادث القتل، وأعمال العنف، وأصبحت صورة الدعوة الإسلامية في الجماعات المتعددة بنزعاتها المتباينة صورة دموية مفزعة، ولا يقبلها العقلاء المنصفون، ولا تفرق سلطات الحكم بين جماعة وأخرى، للتواصل بين الجماعات كلها، المتشدد منها والمعتدل، والتعاطف القائم فيما بينها، بل سرت مقولة تزعم أن المعتدلين هم مكمن الخطر، لأنهم يعملون عن تخطيط مستقبلي بعيد المدى، ولا يعطون فرصة للسلطة حتى تضربهم وتبطش بهم، كما تصنع مع الجماعات الأخرى العنيفة، ولم يصدر من الحركة المعتدلة من المواجهة للسلطة بالقوة ما يبرر ضربها أمام الرأي العام.

ومن ناحية أخرى فإن الصراع الدموي الذي يوجد اليوم في عدد من البلاد الإسلامية بين بعض الجماعات الإسلامية وسلطة الحكم، ينسحب على الحركة الإسلامية المعتدلة، باعتبار أنها صاحبة السبق في الدعوة الإسلامية الشمولية، التي تهدف إلى تحكيم الشريعة الإسلامية في شؤون الحياة كلها ـ وإقامة دولة إسلامية تعيد سيرة الخلافة الإسلامية الراشدة ـ وأنها كذلك قامت في الماضي بحوادث عنف،وأسهمت في حركات الجهاد ومقاومة الاستعمار بنصيب وافر، في مشاركتها بالمتطوعين في ميادين القتال، واستشهاد عدد كثير من أفرادها.

والحق أن الحركة الإسلامية في مشاركتها القتالية الجهادية في فلسطين أو قناة السويس، أو أفغانستان، أو غيرها، كانت في موقف يفرض عليها الإسلام ذلك، وهي تعلن في شعارها: «**الجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا**» فلا معنى لسكوتها عن موقف من مواقف الجهاد الإسلامي المفروض سوى أن يكون هذا تخاذلا.

وحذر الحركة الإسلامية في أنها لم تلق بثقلها الجهادي كله، لم يكن مانعا من أن يكشف عن هويتها، ويثير المخاوف لدى العالم الغربي وسلطات الحكم المحلية على السواء.

ويُحسب على الحركة الإسلامية المعتدلة من جانب آخر، أنها تعجلت الثمرة وأرادت أن تجنيها قبل أن يحين قطافها، في الإصرار المصحوب بالأسباب لإقامة الدولة الإسلامية بمسيرة تاريخية في مواقف محسوبة عليها.

في ضوء ما سبق فإني أرى أن نفرق بين الأسلوب الدعوي التربوي، والهدف الأسمى الذي نسعى إليه في الدولة الإسلامية العالمية الواحدة.

فالأسلوب الدعوي أسلوب تربوي مرحلي، يجلّي مفاهيم الإسلام الصحيحة، وأهدافه البعيدة، ويغرس في النفوس غيرة تبعث على العمل الإسلامي المتواصل في كل مجال بالقدر الممكن فيه، وإن لم يكن هذا القدر كافيا، ويخضع هذا للمرحلية في أسلوب الدعوة قوة وضعفا، وسيرة الرسول ﷺ حافلة بالمواقف التي تشهد بالمرحلية، بل إن التدرج في التشريع الإسلامي خير دليل على ذلك.

بدأت الدعوة سرا ثم أُمر ﷺ بأن يصدع بها، وكان الإيذاء له ولصحابته، فالتمس ما يؤمن ظهره، ويحمي أصحابه لدى من يقبل ذلك وإن لم يكن مسلما، ذهب إلى الطائف يلتمس النصرة، وهاجر أصحابه إلى الحبشة، ووافى الناس في الموسم كل عام يتبع الحاج في مناهم، ولم يقابل الأذى بمثله، وكان يقرأ القرآن الكريم يتنزل عليه بما فيه تسلية له، ويأمره بالصبر، ويبشره بحسن العاقبة، ثم كانت الهجرة والإذن بالقتال، واقتصر القتال بادئ ذي بدء على من يقاتل، دون من يسالم.

والمحققون من العلماء يرون أن هذه المرحلة غير منسوخة، بحيث لا يجوز العمل بها في أي ظرف من الظروف بعد نزول الأحكام الأخيرة في سورة التوبة، فيجوز للمسلمين أن يعملوا بحكم أي مرحلة منها ـ إذا كانت ظروفهم فيها مشابهة للظروف التي كان عليها أمر المسلمين الأوائل ـ والقول بغير هذا يؤدي إلى مواجهة الواقع بما لا يكافئه، وبالتكليف بما هو فوق الطاقة، ولكنه لا يجوز نسيان الأحكام الأخيرة ويجب في برامج التربية أن تكون هذه الغاية واضحة، وأن تبيّت النية، ويؤخذ في الأسباب الممكنة لإعداد العدة، حتى يمكن الأخذ بأحكام المرحلة الأخيرة، وهذا هو ما أبداه ابن القيم في الزاد.

ومن مقتضيات الأخذ بهذه المرحلة أن تتعامل الحركة الإسلامية مع سلطات الحكم بما ينهى الصراع بينهما، وينزع فتيل الخصومة، ويحقق تعاوناً مثمراً بالقدر الذي يساعد على إفساح المجال للدعوة والتربية والتوجيه والإصلاح، ويزيل المخاوف والشكوك التي تساور رجال الحكم، حتى يرفعوا يدهم عن الحركة، ويطمئنوا إلى مسالمتها ونبذها العنف والشدة.

ولا يعد هذا ممالأة، ولكنه منهج دعوي مشروع، يقتفي أثر الدعوة الأولى من سيرة الرسول ﷺ، وهو الأسوة الحسنة لأمته، والشباب المتحمس الغيور من حقه علينا أن نرشده، ونهدئ من روعه، ونعمق فهمه، حتى يدرك مغزى هذه السياسة الدعوية الحكيمة، ولا ينبغي أن يكون هذا الحماس أداة ضغط على قيادة الحركة، فتنساق وراءه بالإثارة التي تشحن الأجواء بالعداء، فضلا عن استخدام القوة.

والأحكام العامة التي اعتاد نفر من أعضاء الحركة الإسلامية أن يطلقها بتكفير الحكام

والحكومات أو تعميم «**لوصف الجاهلية**» هذه الأحكام لا بد من إعادة النظر فيها، وكبح جماح نزوات إطلاقها.

ومساعدة الحكومة القريبة من الإسلام، والعمل من خلال مؤسساتها، يؤدي إلى تنامي الحركة الإسلامية، ويقرب الشقة بين الواقع والأمل، حتى يصل الأمر في نهايته إلى كيان إسلامي في دولة مسلمة، وإذا توافرت الدواعي أمكن الوصول إلى كيان إسلامي موحد، في صورة من صور الاتحاد.

ولا بأس فيما أرى من السعي إلى وجود حوار مع بعض الدول الغربية ذات النفوذ العالمي بطريق من الطرق لتخفيف حدة عدائها للحركة الإسلامية، والتعامل معها بأسلوب حضاري مقبول، يطرح المشروع الإسلامي طرحاً مناسباً لحياة العصر، تقبل فيه الحركة الإسلامية الرأي الآخر، وتجادله بالتي هي أحسن، حتى تقيم عليه الحجة، وليس هذا ببعيد في التوجه العالمي الجديد.

وبهذا النهج الدعوي نستطيع بتوفيق الله أن نحرز نجاحاً مطرداً في الوصول إلى الهدف الأسمى الذي نرجوه لمستقبل الأمة الإسلامية الواحدة، والدولة الإسلامية العالمية.

هذا ما أراه، وما أظن الذين يعرفون تاريخي الدعوي منذ أكثر من خمسين عاماً، جهاداً وسجناً ومشاركة قتالية في فلسطين وقناة السويس يضعونني في موضع التهمة أو الوهن، وهي مشورة أقدمها مخلصاً متحرراً عن خبرة وتجربة، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

كتبه

الشيخ / مناع القطان

* * *

ثالثا: الشيخ الدكتور/ صالح بن حميد ـ إمام المسجد الحرام ورئيس مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية

أخى الفاضل والزميل الكريم فضيلة الأستاذ الدكتور/ **جاسم مهلهل الياسين** دام بالله موفقاً محفوظاً، محفوفاً منه بالعناية والرعاية.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد. فأرجو الله لكم دوام الصحة والعافية والاستقامة على ما يرضيه .

أخى الفاضل: اطلعت علي مؤلفكم القيم: الإسلام والدولة وقرأته وأُعجبت بمحتواه، كما أدهشنى حسن استعراضكم لتاريخ المسلمين من خلال خلفائهم وملوكهم، والتحولات التى واكبت الأمة فى مسار هذا التاريخ الطويل، وجهود الأعداء الدائبة المنظمة التى لا تكل مما تبلورت آثاره ونتائجه فى صور الاستعمار التى ناءت بكاهلها على الأمة، ثم حركات التحرير التى أمطتم اللثام عن كثير من واقعها وسيئ آثارها، ثم عرجتم على الحركات الإسلامية المعاصرة، وقد كان وقوفكم عند الحركة الإصلاحية التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ وما قيض الله له من مؤازرة الإمام محمد بن سعود رحمه الله، ثم ما تمخض عن ذلك وتبلور من قيام هذه الدولة بتاريخها المتين، الذى أبنتم الحديث عنه أحسن إبانة، وإن جهدكم فى الكتاب لمتميز وسبركم للأحداث ـ بسطاً وطياً ـ لجلى، وإن شخصيتكم المسلمة الغيورة قد انساحت واندا حت فى ثنايا كلمات الكتاب وسطوره فى غيرة حَرَّه على الإسلام وأهله، فأثابكم الله وبارك جهودكم.

وقد رغبتم ـ أخى الفاضل ـ أن أقدم لهذا الكتاب بمقدمة، وقد كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى حتى صح منى العزم على الاعتذار، وما ذلك إلا لأنى رأيت أن كتابة مقدمات الكتب من غير صايغها تعنى أول ما تعنى تزكية كاتب التقديم لنفسه وهذا ما لا تحمده لي ولا أحبه لنفسى، كما تعني الحكم على الكتاب من هذا المقدم، وإنه لغبن للنفس أن يقوم مغبون ليحكم على جهود الفضلاء، وهم قد سهروا الليالى فى تقليب المصادر وتمحيص الأفكار وسبر الآراء .

لأجل هذا أرجو من أخى المفضال قبول عذرى فى ذلك مع تقديم أسفى الحار لتأخر

الجواب مع كثرة اتصالكم وتواصل مندوبيكم .

ولعلى أشفع بما يجعل اعتذارى يحظى ببعض القبول لدى أخ نبيل مثلكم بهذه التصويبات التى لمحتها وأنا أقلب صفحات الكتاب فأرجو التكرم بالاطلاع عليها، والأخذ بما ترونه ملائماً منها، والله يرعاكم ويسدد على طريق الحق والخير والهدى خطاكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتبه الشيخ

الدكتور صالح بن عبدالله الحميد

ملاحظة :

وقد سجل الشيخ حفظه الله ملاحظات قيمة تم الأخذ بها كلها وللشيخ أفضل الدعاء.

❊ ❊ ❊

رابعاً: رسالة الشيخ / راشد الغنوشي حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كنت أمني النفس بلقائكم، لأشكركم على جهودكم المباركة في خدمة الدعوة الإسلامية عامة، وقضية الإسلام والحركة الإسلامية في تونس «**البوسنة الصامتة**» خاصة جزاكم الله عن الإسلام وأهله كل خير.. وقد يكون اللقاء مناسبًا أساساً لتداول وجهات النظر حول التحديات الهائلة، التي تواجه دعوة الإسلام عامة، لاسيما بعد نهاية الحرب الباردة في المعسكر الآخر، وتمحض الكيد للإسلام وأهله، حتى جاءت رسالتكم الكريمة دالة على تعذر مجيئكم هذه المرة مستدركة بعض ما فات من اللقاء؛ إذ بادرتم ـ جزاكم الله خيرا ـ باقتحام المعضلة الأساسية في الحركة الإسلامية ألا وهي منهاج التغيير، وقدمتم في جرأة ووضوح رؤية علمية مؤصلة لحل هذه المعضلة، تتلخص كما فهمت من خلال الرسالة في الاكتفاء من المأمول من إعادة بناء دولة الإسلام في صورتها المثالية المبتغاة بالممكن ـ انطلاقا من منهاج إصلاحي ينصب على بعض الأنظمة التي تأسست على منهج الإسلام أساسًا، وبدل التصادم معها الذي قد يفضي إلى إخفاق الإسلام على المستوى الرسمي أو على المستوى الشعبي أي الحركة الإسلامية، أجدى من ذلك وأكثر اقتصاداً: التصالح بين الدعاة والرعاة والتعاون على العودة بكل الأنظمة إلى طريقتها الأولى في خطوات متدرجة صوب المثال المنشود بما يوفر الدماء والأرواح والأموال، تزكية للموجود وتحسينا له والتخلص من سلبياته حسب الممكن، دونما تعسف على الواقع ولا تورط في صدام وعنف، ليس مستفيداً منهما على وجه التحقيق أحد من أطراف النزاع، وإنما فقط أعداء الإسلام المتربصون حتى يهلك بعضهم بعضاً ويؤول الأمر إلى قوى علمانية تابعة تجهز اليوم لاستلام ما تبقى من بلاد الإسلام، وهو نهج معروف سلكه الشيوعيون في مصر ولا يزالون للإيقاع بين الدولة والإخوان.. وكان الأمر ذاته سافراً في تونس يوم أن جاء ابن علي وأطلق سرح الإسلاميين، وانخرطوا مع نظامه في تفاوض في اتجاه مصالحة تضع معها الحرب أوزارها، ويحل التعاون والوفاق بين الطرفين محل التكايد. لقد رأى الشيوعيون في ذلك السعي الطامة الكبرى فتجندوا لإفشاله.. وهم اليوم بيدهم

مقاليد الفكر والتربية والثقافة، ويمعنون في تجفيف ينابيع الإسلام، ويتربعون على أشلاء الإسلاميين والديمقراطية ـ دافعين البلد بقوة ودأب إلى اللا عودة، حتى تتحول الدولة إلى ملهى في البحر المتوسط يستباح فيه كل شيء ـ تلك خطتهم في كل مكان تنطلق من إدراكهم بيقين العجز الكامل عن مواجهة الإسلام من خلال صناديق الاقتراع.

فما بقي أمامهم غير عصا الدولة وجرافاتها، يكيدون للمؤمنين لسحقهم تحتها، حتى وإن اقتضى الأمر الدفع إلى حرب أهلية، تذهب بوحدة البلد وتسلمه للقوى الخارجية، كما حصل في الجزائر، إذ الحكم الإسلامي هو السوء الذي ما بعده غيره! وأصوات العلمانيين الجزائريين اليوم وأصوات إخوانهم السودانيين صريحة في استصراخ القوى الدولية لمنع الخيار الإسلامي وضرب الإسلام بعصا الدولة. لأنهم يائسون من الفوز عبر صناديق الاقتراع ومناقشة الإسلاميين أمامه.

ومقتضى ذلك أن الصدام مع معظم الدول القائمة لن يفضي ضمن الظروف الراهنة إلى تحقيق المشروع الإسلامي كثقافة وشعائر ودعوة ومؤسسات شعبية تنهض بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقاً للحد الأدنى من الإسلام المتمثل في قواعده الخمس.

ولذلك كان المطلب الأساسي للداعية الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد أن أعرض أهل مكة عن الإسلام، كان هو كما لخصه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذا الشعار الواضح «**خلوا بيني وبين الناس**» إنها دعوة الجميع إلى توفير حرية التعبير للجميع، وكذا سائر الحريات التي تضمن حياة الفرد وكرامته واختياراته العقيدية. وفي هذا السياق كان ثناؤه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على حلف الفضول الذي منع التظالم بين العرب ومناصرة المظلوم، معلنا عليه السلام استعداده لتوقيع حلف مماثل، وهو ما يشبه التعاقد اليوم بين الإسلاميين وغيرهم، على وضع تتأتى فيه الحريات والحقوق للجميع على قدم المساواة.

وإذا كان التصادم حتى مع الدول العلمانية ينبغي تجنبه ودرؤه بكل السبل الممكنة المشروعة ـ ما كانت الحريات الأساسية ومنها حرية الدعوة متوفر ـ فهو مع الدول الإسلامية من باب أولى، والمقصود بالدول الإسلامية هنا تلك التي تتبنى في غير مواربة الإسلام شريعة عليا لها.. وتسمح له بأن يتغلغل في شعاب التربية والتوجيه والإدارة

والتشريع.. في الحياة الخاصة والعامة للمواطنين وتشجع على ذلك.. وتقيم المؤسسات لخدمته ولا تعتبر سلطة في الدولة تعلو سلطته.. ولا يُنزع وصف الإسلامية عن مثل هذه الدول ما عساها تأتيه من مظالم، ويقع فيها من ضروب خلل في سلوك الحاكمين ما بقيت المشروعية العليا والولاء للإسلام.. فضروب المظالم والإخلال قد خالطت وحتى غلبت على الدول التي حكمت المسلمين فيما بعد عصر الراشدين. ولم يحمل ذلك علماء الإسلام أن يسلبوا الشرعية الإسلامية من تلك الدول وأن يتحللوا من بيعتها. بل استمروا يؤكدون ولاءهم لها حتى وهم يئنون تحت أسواط جلاديها كما حصل مع الأئمة الأربعة وغيرهم من العلماء والصالحين، بل ظلوا يعتبرون فتنة الخروج عنها الشر الأعظم الذي ينبغي دفعه، بتأكيد الولاء لها ما أقامت الصلاة رمزاً بشرعية الإسلام العليا.. أما مظالمها فتعالج بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أي بالمنهج الإصلاحي. الذي هو المنهج الأصلي للدعوة الإسلامية في بسط الإسلام ودفع المنكرات وإقامة الشرائع.. إن الإصلاح أي التغيير المتدرج بالحسنى هو المنهج الأصلي للدعوة الإسلامية كما عبر عنه لسان الأنبياء شعيب عليهم السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[2] .

وجاءت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.

وفي القرآن دعوة صريحة للنبي ﷺ وكل من سار على نهجه داعياً إلى الله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[3] .

وذلك كلما توفرت أقدار من الحريات الإنسانية الأساسية تسمح لدعاة الإصلاح أن ينهضوا برسالتهم ـ وإن في أضيق نطاق ـ أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر سواء كان ذلك في

---

(١) هود:٨٨.

(٢) النساء:١٢٨.

(٣) النحل: ١٢٥.

ظل دولة إسلامية ناقصة تعترف بمشروعية الإسلام العليا مع ارتكابها مظالم وضروباً من التقصير، أو في ظل دولة ديمقراطية علمانية تعترف بالحريات الأساسية ومنها حرية الاعتقاد والتفكير والتعبير.

إن الشر الأعظم بعد الشرك بالله هو الدكتاتورية هو الظلم بل ليس الشرك إلا نوعاً من أنواع الظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[1]، وإن إقامة العدل بين الناس ودفع الظلم الهدف الأعظم لبعثة الرسل، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[2] فمع العدل تدور دعوة الإسلام ولاء وبراء .. وأيما طريق ينفتح أمام الداعية لإقامة العدل أو السير إليه بتدرج يحفظ ما هو قائم منه وينميه، يحفظ الأنفس والأعراض والوفاق والتضامن، ويدرأ التباغض والتدابر والتقاتل، ويعمل على وحدة الصف فهو أدعى للتمسك به وإيثاره عن سبيل المغامرة والمسارعة إلى ردود الأفعال، القضية التي كثيراً ما كانت منبتة فلا هي رفعت المنكر وأقامت الحق، ولا هي استبقت على الأنفس والأموال وروابط التضامن ومساحات الإصلاح المتاحة، وصدق رسول الله ﷺ: «**إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى**»[3] ولربما يندرج ضمن هذا الوصف كثير من خطط التغيير التي اعتمدتها الحركة الإسلامية المعاصرة من خلال انخراطها المتعجل في مواجهات خاسرة، جرت كوارث عليها وعلى الأوطان وعلى الحريات العامة والأرواح، بسبب فهم فطير، ونظر قصير وحساب مختل لموازين القوة، وقلة تبصر في حكمة الشريعة المؤثرة لنهج الإصلاح والتدرج، عن نهج المغامرات والطفرات .. استبقاء لما هو قائم من الخير وتنميته دون ضجيج، سبيلا لمحاصرة المظالم والمنكرات والتخلص منها في أناة، وذلك بعد أن يكون الرأي العام قد نضج وغدا تياراً جارفاً، وتهيأ لاستحقاق وحماية المشروع الإسلامي في شكله الأمثل..ودون ذلك أهوال وعقابيل كؤود.. لا تعالج بغير الدأب والمثابرة والحكمة والمصابرة الطويلة على تأهل واستجماع الوعي العام والتضحيات

---

(١) لقمان:١٤.

(٢) الحديد:٢٥.

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٣/ ١٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٢٢).

الجسام .. وقبل ذلك وبعده عون من الله ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾[1] ، ﴿فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾[2].

إن الواقع الراهن للدعوة الإسلامية سواء من حيث مستوى نضجها ـ المحدود ـ بالنظر إلى مستوى التأهل الشعبي بالقياس إلى جملة موازين القوة الداخلية والخارجية، لا يسمح للحركة الإسلامية في أغلب مواطنها أن تتطلع حيال العشرية القادمة لأكثر من الحفاظ على مكاسبها وتطويرها في تؤدة .. الأمر الذي يجعل أهم مطالبها الممكنة تتمحور حول صيانة الهوية الإسلامية ودعمها، والارتفاع بمستوى أسلمة المجتمع ودعم مؤسساته الأهلية وممارسة ما أمكن من الضغوط على الدول القائمة من أجل المحافظة على التشريعات الإسلامية، والامتناع عن الاستدراج إلى حمأة العنف.

وسبيل ذلك الدعوة إلى الحريات العامة والخاصة والعمل على صيانة الوحدة الوطنية من التفكك، متعاونين مع جميع القوى والتيارات على التقدم نحو مصالحات شاملة بين التيار الإسلامي وغيره من التيارات على أرضية الحريات العامة، وكذلك بين الدولة والمجتمع، وبين سائر شعوبنا ودولنا، كل ذلك من أجل درء مخططات التفكك والحروب الأهلية المؤدية للهيمنة الصهيونية على المنطقة، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ ﴾[3].

الشيخ / راشد الغنوشي

* * *

---

(١) هود: ٨٨.

(٢) الروم: ٤ ـ ٧.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

خامساً: الشيخ الدكتور صلاح الصاوى
مدير الجامعة الأمريكية المفتوحة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ﷺ. أما بعد،،،

فكثيرة هذه الجهود التى تبذل فى مشارق العالم الإسلامى ومغاربه لإقامة دولة الإسلام، فمنذ غروب شمس الخلافة وانفراط عقد الأمة الإسلامية وقيام كياناتها السياسية على أساس العلمانية، لم تفتر جهود العاملين المجدين لنصرة هذا الدين عن العمل الدؤوب لتحقيق هذا الهدف، والسعى الحثيث للوصول إلى هذه الغاية.

وعلى الرغم مما تشهده الساحة الفكرية على الصعيد الإسلامى من أوجه الخلاف المتعددة، التى قد يبلغ بعضها مبلغ التناقض التام، إلا أن هذه الغاية كانت ولاتزال موضع إجماع من المشتغلين بالعمل الإسلامى كافة، وكم أريق فى سبيلها من دماء، وكم غرر من أجلها بأنفس وأموال !!

ولعل من نافلة القول أن نذكر بأن دولة الإسلام المنشودة ليست هى هذه العصا المعجزة التى نضرب بها الحجر فيتفجر عيوناً، أو التى نشق بها طريقا فى البحر يبساً، فنعبر بها هوة التخلف التى صنعتها عصور الانحطاط والاستعمار، فتختفى المظالم فى غمضة عين، وتتوارى المشكلات فى لحظة، وتتبوأ الأمة مكانتها فى قيادة العالم قبل أن يرتد إلى أحدنا طرفه، ولنعتبر في ذلك بتاريخ الدول الإسلامية ذاتها، فقد تعاقبت عليها أطوار من المد والجزر والقوة والضعف، ولم تكن دائماً على الأنموذج الذى كانت عليه أيام الراشدين، لقد تألقت حتى كانت غرة فى جبين الزمان، وتراجعت حتى كانت عبءًا على الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر ببعض قادتها أن يقتلوا إخوانهم الرضع مخافة أن ينازعوا أولادهم من بعدهم وراثة الملك!! ولم يكن مجرد الإعلان عن مرجعية الشريعة وقيام الدولة على أساس من الإسلام بعاصم وحده من التراجعات فى أزمنة التراجع والاعتلال! وإن كان مثل هذا الإعلان هو أول الطريق إلى الهوية الإسلامية وأحد معالمها الأساسية.

بل لنعتبر فى ذلك بمؤسساتنا الإسلامية التى تمحض القرار فيها للإسلاميين والتى لا ينازعهم فى قيادتها أحد، لقد بورك بعضها حتى كان كتلة من الإخلاص والعطاء تحمل شعاع الأمل إلى نفوس المؤمنين والمؤمنات، وغشى الخلل بعضها حتى بلغ مبلغ الفتنة التى تصد الناس عن سبيل الله وتغرى بعض العاملين فيها على تفضيل العمل فى مؤسسات علمانية بل فى مؤسسات اليهود والنصارى عن العمل فى هذه المؤسسات! إن إقامة الدولة الإسلامية لا يعنى نهاية المطاف بالنسبة للعمل الإسلامى بقدر ما يعنى بداية مرحلة جديدة من مراحل العمل الجاد والكدح المتواصل، وإذا كان الجهاد يتخذ فى مرحلة الاستضعاف صورة الدعوة واستفاضة البلاغ فإنه يتخذ فى هذه المرحلة صورة الكدح لإعادة البناء وإعادة التعمير: تعمير الإنسان الذى أحالته العلمانية إلى حطام! وتعمير المنشآت الوطنية التى أحالتها العلمانية إلى وكالات للمنشآت الأجنبية الغازية .

عزيزى القارئ:

إن هذا الكتاب الذى نشرف اليوم بتقديمه، والذى طوف به كاتبه المفضال فى آفاق الدولة الإسلامية من الأنموذج والمثال بكل ما فيه من شموخ وربانية ، إلى الواقع والتاريخ بكل ما فيه من مد وجزر، ثم إلى الأمنية التى ينشدها العاملون للإسلام فى واقعنا المعاصر بكل ما تحمله من خيال وواقعية، يحمل إليك هذا الكتاب دروساً بليغة من كل هذه المجالات بدءا بفقه دقيق للنصوص والآثار وانتهاء بقراءة واعية لدروس التاريخ والواقع ليضع بين يدك فيما أحسب باقة من الدروس والعبر نشير إلى بعضها فيما يلى :

- معالم الأنموذج السياسى الإسلامي الذى تشرئب إليه أعناق العاملين للإسلام وتهفو إليه أفئدتهم .

- الواقعية فى التعامل مع مشروع الدولة الإسلامية، والقبول بما يتسنى تحقيقه من الخير، والتعاون مع ما هو متاح من ذلك بالفعل، أخذاً بسنة التدرج التى قامت عليها مسيرة الكون والإنسان والحياة .

- إن الميسور لا يسقط بالمعسور، وإنه لا تجمل الزهادة فى المتاح تشوفاً إلى غير المتاح، فلا ندرك المتاح ولا غير المتاح .

ـ ألا نعلق على مشجب غياب الدولة الإسلامية قصور أو تقصير مؤسساتنا الإسلامية المعاصرة، لا سيما ما يمكن تقويمه ولا يحتاج تداركه إلى شوكة دولة، أو منعة نظام وسلطان .

إن هذا وغيره مما يمكن أن تقف عليه أخى القارئ من خلال تدبرك فى هذه الدراسة التى صاغ عقدها رجل من رجالات الدعوة إلى الله عز وجل، عرفته ساحاتها آمرا بالمعروف وناهياً عن المنكر، وصادعاً بالحق لا يخاف فى الله لومة لائم، فدونك هذه الصحائف فإن لك فيها ـ فى بابها ـ غناء بل ثراء، ثم توجه معى إلى الله ـ عز وجل ـ أن يجزى كاتبها خير ما جوزى به الهداة الناصحون إنه ولى ذلك والقادر عليه .. آمين

وكتبه الشيخ

د. صلاح الصاوى

* * *

سادساً: نموذج لرسائل جاءت طلب أصحابها عدم ذكر أسمائهم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد،، فقد وصلتني رسالتك وفهمت مضمونها ودعوت الله أن يوفقك حيثما كنت وأن يجعلني وإياك وإخواننا مفاتيح للخير مغاليق للشر أينما كنا.

أخي الكريم:

إن الخلافة الراشدة بعد الخلفاء الراشدين المهديين رضي الله عنهم، ما تكررت في التاريخ ولن تتكرر مرة أخرى، فمنذ عهد الدولة الأموية إلى سقوط الخلافة العثمانية، في كل هذه الفترة الاسم: اسم خلافة إسلامية، والواقع أنه عهد جبري عاض كما أخبر النبي ﷺ.

والخلافة كما تعلم تقوم على اختيار الخليفة من أهل الحل والعقد والشوكة في الأمة عن رضا وطواعية. كما تعتمد على الشورى في كل أمر ذي بال، والخليفة ناظر على بيت المال لا يحق له منه إلا ما يحق لسائر الرعية، أو فرضه له أهل الحل والعقد، والخليفة أو الإمام لا يولي في المناصب ذوي قرابته وفي الأمة من هم أولى منهم.. إلخ..

نعم الأمة في تلك الفترة أمة إسلامية وحكامها مسلمون وأحكامها الشرعية نافذة، وإن كان الحكم فيها جبريا كما هو معلوم عند أهل السنة والجماعة، رغم تبذير السلطان أموال الأمة وعدم استشارة أهل الرأي والصلاح، واستبقائه لأهل الفسق والإلحاد .. واقرأ التاريخ أو قلب صفحاته على الأقل فستجد ما أقول.

أخي العزيز:

إن إقامة الخلاقة الإسلامية ليست هدفا ولا غاية - كما تراه بعض الحركات الإسلامية - اللهم إلا لو أمكن للخلافة الراشدة أن تعود وهيهات!! إن الحركات الإسلامية ودعاتها يعيشون المثالية والخيالية لما ينشدونه في مجتمعاتهم اليوم، وذلك لأسباب منها ما يأتي:

١ - أن البيئة التي ظهرت فيها الخلافة الراشدة لصيقة بعهد النبوة وتختلف كلياً عما نعيشه اليوم في كل شأن من شؤون حياتنا العامة والخاصة، يقول أنس بن مالك: «**لا يأتي**

زمان إلا والذي بعده شر منه سمعته من نبيكم ﷺ».

٢ـ ثم إنه من المتعذر في هذا العصر أن تجتمع في شخص واحد (كإمام) الصفات القيادية: الدينية الشرعية والسياسية الفكرية وأهلية الاجتهاد، ولو فرض أن وجد فإن الأمة لن تجتمع عليه، لأنها لم تعرف حقوقها نحوه ولا حقوقه نحوها، فكيف يحمل مسؤوليتهم وهو يمنعهم أن يقولوها أو أن يقولوا بعضها؟ وكيف يختارون من هذا حاله؟ ثم أين القوة التي تؤثر على عامة العالم الإسلامي حتى يتفقوا عليه إماماً؟

٣ـ لا ينبغي أن يغيب عن البال أن عامة العلماء الربانيين المجتهدين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، والعز بن عبد السلام، والإمام النووي، والحافظ ابن حجر،والشوكاني، ومحمد بن عبد الوهاب و... ـ كلهم عاشوا في زمن تمزق الخلافة ونهبها من الطامعين، ولم يجعلوا أمر إفاقتها أو إعادتها هدفاً أو غاية، بل اكتفوا بالدعوة والتعليم تحت إمارة صغيرة أو كبيرة يطبق فيها شرع الله حسب المستطاع وأعطوها حكم الخلافة والإمامة، وهذا دليل عملي منهم على تعدد الخلفاء والدول الإسلامية إذا تعذر الاجتماع، أفيتعذر ذلك في أزمان شريفة ماضية ويمكن أو يجب في أزمان موبوءة حاضرة؟

٤ـ إن الحركات الإسلامية في مناداتها لإعادة الخلافة صراحة أو ضمناً. اعتمدت على حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه في مسند أحمد: «**تكون النبوة فيكم .. ثم خلافة على منهاج النبوة .. ثم ملكا عاضا .. ثم ملكا جبريا .. ثم خلافة على منهاج النبوة**»[(١)] والحديث لم يصح سنده ولا متنه.

أما من حيث السند فإن فيه (حبيب بن سالم) قال فيه البخاري: (فيه نظر)، ومعلوم عند أهل العلم أن سكوت البخاري عن توثيق الراوي هو جرح، فإذا صرح بجرحه فهو أشد. وقال فيه ابن عدي: أسانيده فيها اضطراب، ومع هذا صححه الألباني وهذا من غرائبه، أما ضعفه من حيث المتن: فحديث النعمان يتعارض مع حديث «**خير القرون قرني ثم الذين يلونهم..**»[(٢)] وإذا كان القرن (٥٠ و١٠٠) سنة فستكون الخلافة الثانية التي هي على

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٣)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٥)، وحسنه الأرناؤوط.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٢)، ومسلم (٢٥٠٩) بلفظ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

منهاج النبوة سنة (٢٥٠ أو ٥٠٠) سنة للهجرة والكل يعلم ما في هذه العهود!! ولا يظهر على النص البلاغة النبوية التي أوتي النبي ﷺ جوامعها، حيث فرق بين الملك الجبري والعاض ولا فرق بينهما فكل ملك جبري هو عاض وبالعكس.. وإذا كانت الخلافة الأولى التي هي على منهاج النبوة ـ هي خلافة الخلفاء الراشدين فإن الخلافة الثانية ـ هي عندما ينزل عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ ويحكم بشريعة محمد ﷺ حينئذ يضرب العدل والأمن في الأرض حتى ترعى الذئاب مع الغنم.

يا أبا معاذ:

إن الكتابة في الموضوع الذي أشرت إليه في رسالتك لا أراه مناسباً، إذ ليس فيه كبير فائدة، فلو كتبت في موضوع (حكم الخروج والعصيان) وأُصِّل في الشرع واستعرضت أمثلته الواقعية لتطبيقه لكان أولى، أو لو كتبت في تحديد من هم (أهل الحل والعقد في الإسلام) هل يدخل فيهم النساء والمستأمنون من الكفار ورؤساء الأحزاب والقبائل؟ أو رؤساء الأحزاب والجماعات العلمانية على القول بالتعددية السياسية؟ أقول لو كتبت في مثل هذه الموضوعات لكانت أكثر فائدة وأعادت شباب الحركات الإسلامية إلى الواقعية بدلاً من الخيال والمثالية، التي أنتجت العداوات المستمرة بين هذه الحركات القائمة اليوم.

أخي العزيز:

الواجب على العلماء والدعاة في كل زمان أن يحسنوا التعامل والمعايشة مع واقعهم ويسعوا في تطبيق الشريعة في المكتسبات الممكنة والمتاحة وأن ينسقوا مع إخوانهم العلماء والدعاة في كل مكان ما أمكن ذلك، مستوحين هدي ربهم وسنة نبيهم ﷺ وفهم السلف الصالح وسيرتهم مع حكامهم، وفي التاريخ أكبر عظة إذ فيه العبر والدروس، وكفى به واعظاً.

أخي الكريم:

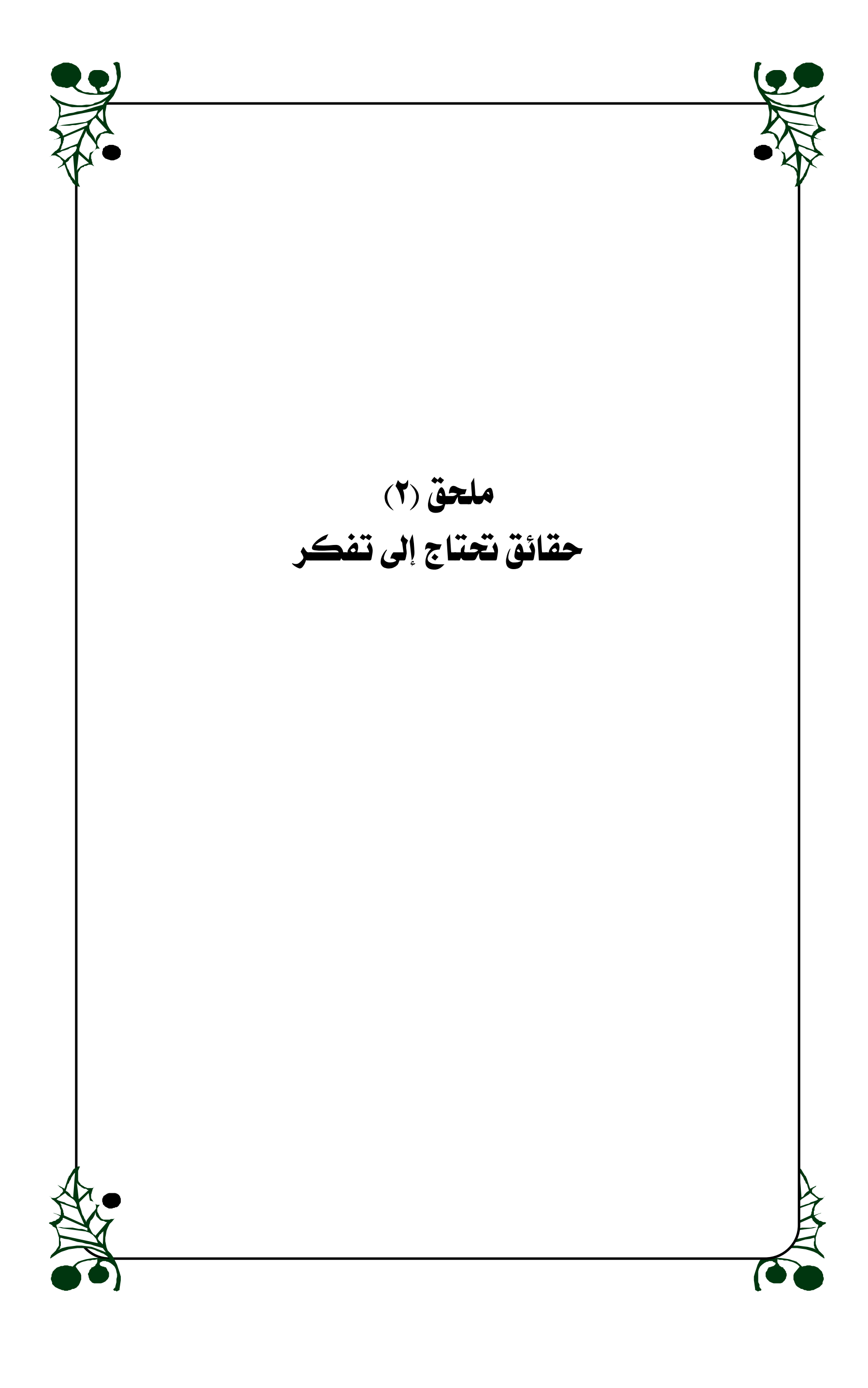
هذا ما بدا لي في موضوع رسالتك وإن كنت لا أحب أن تشير إلى اسمي مطلقاً، وأرى أن تعرض ما تكتب في هذا الموضوع أو غيره على ما ترى من العلماء والدعاة قبل أن يرى النور، وإذا رأيت أن تبعث لي شيئاً من كتابتك تلك فأنا على استعداد لقراءتها وسأخلصك

النصح إن شاء الله.

وفقنا الله وإياك إلى كل خير ونفع بك الإسلام والمسلمين

وصلى الله على نبينا محمد وصحابته أجمعين

* * *



ملحق (٢)
حقائق تحتاج إلى تفكر

ملحق (٢)
حقائق تحتاج إلى تفكر

حقائق تحتاج إلى تفكر

١ ـ قصة مجيء محمد علي إلى حكم مصر:

إثر خروج الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠٢م، انتفض الأهالى ضد المماليك بسبب فساد حكمهم وجورهم، وتزعم الانتفاضة علماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عمر مكرم وانهار المماليك.

كان انهيار المماليك فى مصر نتيجة هزائمهم المتتالية أمام الفرنسيين، ثم بسبب تصارعهم على السلطة إثر جلاء الفرنسيين والإنجليز عن مصر سنة ١٨٠٣،١٨٠٢م.

كانت القوى المتنافسة على حكم مصر آنذاك ثلاثًا هى: الخلافة العثمانية، وفرنسا، وإنجلترا، وكانت الأطراف العلية تعتمد كلٌ منها على واحدة من هذه القوى، حيث انقسم المماليك إلى أطراف ثلاثة: استند أولها إلى فرنسا، وثانيها إلى إنجلترا، وثالثها إلى العثمانيين، وكان ذلك يعكس ضعف هذه الأطراف وعجزها على حسم الصراع بشكل أو بآخر لصالحها.

وقد تسبب احتدام الصراع بين هذه الأطراف وانعدام استقرار الأوضاع إلى ضياع مصالح العامة من الأهالى، والتى لم تكن طرفاً فى هذا النزاع بقدر ما كانت المتضرر الأول منه، إذ كان ذلك يتم على حسابها، وهى التى تدفع الثمن من أمنها ومالها وعرضها وكرامتها ودمها، فى هذه الظروف ظهر محمد علي بك والعلماء، أما الأول فكان من الطامحين إلى السلطة فى إطار الشرعية السياسية الإسلامية، ألا وهى الخلافة العثمانية، وأما العلماء فكانوا يمثلون الأهالى الذين قصدوهم يشكون إليهم ظلم المماليك وجورهم، لم يكن العلماء طلاب سلطة وما كانوا يطمحون إليها ولم يسعوا إليها بأى شكل من الأشكال لكنهم كانوا غير راضين عمّا وصل إليه الوضع من تردٍ.

فى ذلك الحين كان محمد علي قد ارتقى قائدا للحامية الألبانية إثر اغتيال آخر قادتها، و كان محمد علي ـ الذى ولد فى مدينة قولة المقدونية ١٧٦٩م وكان والده من أصل ألبانى ـ قد

جاء إلى مصر فى إطار وحدة عثمانية مقاتلة من مقدونيا لمقاومة الجيش الفرنسى، ثم قام محمد علي بتجاوز المراحل بسرعة عجيبة إذ تم ارتقاؤه فى سلم الهرم العسكرى فى مدة قصيرة جدا ليتقلد قيادة أهم وحدة عثمانية مقاتلة وهى القوة الألبانية فى أقل من سنتين، فى بداية الأمر تحالف محمد علي مع أحد قادة المماليك وهو عثمان بك البرديسى المحمي من طرف فرنسا ضد الوالى العثمانى أحمد باشا الذى لم يتمكن من البقاء على رأس الولاية أكثر من يوم وليلة، ويعتبر أحمد باشا ثانى الولاة العثمانيين منذ خرج الفرنسيون من مصر، أما الوالي الأول فقد تم التخلص منه بانتفاض الحامية الألبانية التى ينتمي إليها محمد علي والتى كانت آنذاك تحت قيادة طاهر باشا، وذلك بسبب عجز الوالى عن دفع رواتبهم، حيث فر الوالي العثمانى بعد أن فشل فى مهمة إعادة ترتيب شؤون الولاية الإدارية والمالية، وكذلك بسبب فشله فى القضاء على قوة المماليك، خلف الوالى محمد خسرو باشا قائد الحامية الألبانية طاهر باشا الذى وقع اغتياله فيما بعد من طرف الانكشارية.

هكذا نرى كيف تحولت الحامية العسكرية الألبانية إلى قوة رهيبة يمكن أن تكون إحدى دعامات السلطة، وهكذا أيضاً وجد محمد على بك - وهو ضابط فى الثلاثين من عمره - نفسه على رأس القوة العسكرية وهى من أهم الأطراف فى التنافس على الحكم، ولئن كان محمد علي ذكياً وطموحا ونشيطا إلا أنه لم يكن يمتلك المؤهلات السياسية اللازمة لتحمل المسؤوليات الكبرى فى الدولة، كما أنه لا يمتلك الشرعية التى لا تكتسب إلا من طرف الباب العالى أو بتزكية من طرف الأهالى والذين يمثلهم وينطق باسمهم آنذك المشايخ والعلماء، تواصلت فترة الصراع بين الفرقاء فى مصر والتى سادت فيها فوضى ومظالم ما بين ١٨٠٣ و ١٨٠٥م، وظل محمد علي طوال هذه الفترة يشحذ أسلحته، ويركز نفسه، ويعقد التحالفات الواحدة تلو الأخرى للوصول إلى السلطة وإقامة العرش الوراثي.

إثر انهزام الوالى العثمانى وفراره حكم البرديسي لمدة شهر لكنه أجحف فى الضرائب مما أثار نقمة الناس، فانتفضوا ضد المااليك وخرجوا إلى الشوارع، كما طلبوا من العلماء التدخل لوضع حد لسياسة المماليك القاسية.

كان محمد علي يبحث عن دعم من طرف الأهالي وأهل الحل والعقد، فانتهز هذه الفرصة وانضم إلى جبهة العلماء والغاضبين ثم دخل فى مقاومة المماليك وواجههم عسكرياً حتى أجلاهم عن القاهرة، ساهم إثر ذلك فى تعيين والٍ جديد على مصر - خورشيد باشا - نلاحظ هنا كيف أنه فى الوقت الذي كانت سلطة محمد على ونفوذه وإشعاعه يزداد، كان يبدو وكأنه غير طامع فى السلطة أو متكالب عليها، يدخل هذا فى استراتيجيته لغزو الحكم، كان يرى أن الوقت مازال غير مناسب وأن الظروف لازالت غير مهيأة، لذلك يبدو وكأنه دفع بالوالي الجديد فى إطار اختبار قوة واستعداد الأطراف المقابلة والحليفة لقبول قيامه بدور سياسى دون أن يتورط بصفة مباشرة فيما قد يترتب على ذلك من تبعات، إلا أن الوالى الجديد والذى كان قبل ذلك محافظ الإسكندرية يعلم أن أهم منافسيه لا يوجد فى صفوف المنهزمين، بل بين من عملوا على إيصاله إلى حكم مصر وعلى رأسهم محمد علي نفسه، لذلك عمل على إبعاده من مصر بطلب تعيينه من طرف الخليفة العثمانى والياً على جدة، كان فى هذه الأثناء محمد علي قد وطد العلاقة أكثر فأكثر مع أهم قوة سياسية صاعدة ألا وهى العلماء، رفض هؤلاء عملية إبعاد محمد علي عن مصر باعتباره ضمانة عسكرية وأمنية ضد الوالى خورشيد من جهة، وما قد يطرأ فيما بعد من جهة أخرى باعتبار أن الأوضاع تبدو غير مستقرة.

دخل محمد علي فى مواجهة أخرى مع الوالى اعتمادا على العلماء كقوة سياسية لها شعبية من جهة، وكلمتها مسموعة لدى السلطان العثمانى من جهة أخرى، خاصة وأنهم كانوا حريصين على تعيين والٍ عثمانى ولم يشككوا أبدا فى شرعية الوجود العثمانى فى مصر أو ولاء مصر إلى السلطان.

فى يوم ٢١ مايو من سنة ٥٠٨١م اجتمع العلماء فى إطار مجلس الشرع بدار المحكمة الكبرى - أى بيت القاضى - واتخذوا مجموعة من الإجراءات الأمنية والسياسية والاقتصادية تصب كلها فى خانة تحديد سلطة الوالى وتأكيد مرجعيتهم فيما يخص الشأن العام، وفى اليوم التالي أجمع علماء القاهرة على عزل الوالى خورشيد وتعيين محمد علي مكانه.

كان محمد علي ينتظر مثل هذا اليوم إلا أنه أبدى عدم رغبته فى تسليم مقاليد السلطة، يفهم ذلك فى إطار خطته فى غزو الحكم وعدم تحمل مسؤولية عزل الوالي الذى كان قد أقره السلطان فى منصبه، كان محمد على لا يريد أن يبقى فى موقف المتآمر المتكالب على الحكم كمن سبقه من الوصوليين، خاصة وأن الوالى خورشيد لم يستسلم إلى عملية خلعه من طرف العلماء، وتمسك بموقعه بحجة أن ذلك ليس من مشمولات العلماء، إنما هو من صلاحيات السلطان نفسه، كما تطورت المواجهة بينه وبين العلماء إلى معركة دامية، إذ تحصن مع جنوده بالقلعة فى حين حاصره الأهالى بأمر من المشايخ الذين كان يتزعمهم نقيب الأشراف الشيخ عمر مكرم، ودام هذا الحصار مدة شهرين.

يقول المؤرخ الجبرتى فى ذلك: واجتهد السيد عمر أفندى النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد علي، ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والواجاقلية، والكل بالأسلحة والعصى والنبابيت، ولازموا السهر بالليل فى الشوارع والحارات يسرحون أحزاباً وطوائف، ومعهم المشاعل ويطوفون بالجهات والنواحى وجهات السور[1].

ومما يروى أن حواراً دار بين ممثل الوالى خورشيد والشيخ عمر مكرم حول الطرف الذى له حق خلع الوالى شرعاً جاء فيه ما يلى: كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[2] ؟ كان جواب الشيخ عمر مكرم: أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل،وهذا رجل ظالم (أى الوالى خورشيد)، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلاد يعزلون الولاة، وهذا شيء مألوف من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فى الناس بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه، فرد ممثل الوالى: وكيف تحاصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا؟ أنحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟ فرد عمر مكرم: قد أفتى العلماء بجواز قتالكم ومحاربتكم لأنكم عصاة (ورد هذا الحوار فى تاريخ الجبرتى الجزء الثالث، ص١٣٣) كانت زعامة

(١) انظر: د. عمر عبد العزيز عمر، دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر، ص١٥٩ .
(٢) النساء: ٥٩.

العلماء لعملية الخروج على الوالى وخلعه ثم محاصرته فى القلعة لا جدال فيها، وبدا الشيخ عمر مكرم القائد الأعلى الذى ترد منه وباسمه الأوامر إلى الأهالى والتى كانت تلقى بالصيغة التالية: حسب ما رسم السيد عمر أفندى والعلماء لجميع الرعايا.

لكن ما هو موقف الحامية الألبانية التى كان يتزعمها محمد على؟ رغم موقف محمد علي الإيجابى من حركة العلماء والأهالى، ورغم أنهم عينوه والياً عليهم ورفضوا قرار السلطان بإسناده ولاية جدة فى محاولة لإبعاده وتمسكوا به مطالبين بعدم خروجه من مصر، رغم كل ذلك فإن الجنود الألبان لم يقاتلوا إلى جانب الأهالى بحماسة، قد يكون السبب فى ذلك أن جنود الوالى المخلوع خورشيد والمحاصرين فى القلعة هم من الألبان مثلهم، يذهب المؤرخون إلى أن محمد علي لم يتمكن من دفع مرتبات جنده فى تلك الفترة مما جعل ولاءهم إليه ومشاركتهم فى دعم التمرد على الوالى خورشيد مهزوزة إلى حد ما، وإن الذى يهمنا هنا أن وصول محمد على إلى ولاية مصر لم يكم بفضل قوته العسكرية بقدر ما كان رهن جهود وإرادة العلماء ومن ورائهم الأهالى.

لقد عمل محمد علي على كسب ثقة العلماء بإظهار بعض الصفات فى شخصيته والتى كان يعلم أنها ضرورية فيمن يرضى عنه العلماء من المرشحين للسلطة، وسعى إلي الولاية بطرق ملتوية دون أن يتجرأ على طلبها مباشرة، بعد ذلك قدم إلى العلماء مجموعة من الوعود جعلتهم يطمئنون إليه، ورد فى تاريخ الجبرتى أن محمد علي كان يداهن السيد عمر سرا ويتملق إليه، ويأتيه ويراسله، ويأتي إليه فى أواخر الليل وفى أوساطه مترددا عليه فى غالب أوقاته حتى تم له الأمر بعد المعاقدة والمعاهدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل وإقامة الشرع والإقلاع عن المظالم، ولا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك...، ومحمد على كان فى الحقيقة ينافق العلماء ويحاول استثمار شعبيتهم للوصول إلى السلطة ثم التخلص منهم، وقد تم له ذلك إثر إفشال الإنزال الإنجليزي فى مصر سنة ١٨٠٧م والذي كان فيه للشيخ عمر مكرم دور هام ومحدد، إثر تأكد محمد على أن العلماء أصبحوا قوة لها ثقلها السياسى وشعبيتها وبالتالى لن تتركه ينفرد بالسلطة، خاصة وأنه بقى أجنبيا عن مصر حتى ولو كان

فى النهاية عثمانياً، هذا إلى جانب أن الذين خلصوا البلاد من المماليك هم العلماء والأهالى وليست السلطة العثمانية.

عمل محمد علي في اتجاهين اثنين: الأول: تمثل فى التفريق بين العلماء والمشايخ ليخلص من بعد إلى ضرب مكانة عمر مكرم ونفيه، والثانى: هو إضعاف المكانة الاقتصادية وبالتالى الاجتماعية لفئة المشايخ والعلماء وذلك بإلغاء نظام الالتزام والذى كان بيدهم ويمثل قاعدتهم الاقتصادية كفئة اجتماعية.

لقد ذهب محمد علي ـ إلى أكثر من ذلك إذ حطمت سياساته الاقتصادية والتى تمثلت فى امتلاك الدولة للمقدرات الاقتصادية لمصر سواء فى مجال الزراعة أو الصناعة أو التجارة طبقة الرأسمالية الوطنية الناشئة ومنعها من بناء ذاتها كطبقة بإمكانها التصدى لكل ما لا يتفق مع مصالح الوطن ومصالحها، مما جعل مصر تصبح فى النهاية سوقاً للبضائع الأروبية ثم تسقط فى مخالب الاستعمار الأروبى.

من جهة أخرى فإن العلماء بعدم تصديهم للسلطة وتقديمها لمحمد علي ـ ساهموا عن غير قصد في إضعاف مكانة الخلافة وإن كانوا فى حقيقة الأمر أوفياء لها ولم يشككوا أبدا في شرعيتها، ذلك أن محمد على بعد أن رأى ازدياد قوته – ببناء جيشٍ قويٍ للوقوف أمام أطماع الأروبيين واتسع مجال نفوذه حتى وصل شمال اليمن والحجاز والسودان ـ أراد أن يبني لنفسه إمبراطورية تمتد على كل المشرق العربى، حينها تجرأ على الخلافة وسعى إلى التوسع على حسابها (بين ١٨٣١ و١٨٤١م) ودخل معها فى حرب حول منطقة الشام انتهت بتدخل القوى الأوربية سنة ١٨٤٠م مما وفر لبريطانيا تعلة لتحتل عدن، وطرح ما سمى بالمسألة الشرقية فى مؤتمر برلين.

كانت نتيجة كل ذلك؛ أن أعطى محمد على الفرصة لأعداء الأمة الإسلامية لمزيد من التدخل فى شؤونها على حساب الخلافة الإسلامية مما زاد فى إضعافها.

٢ ـ زعماء الإصلاح قبل الحرب العالمية الأولى :

كما سُرقت جهود الأمة على مستوى الحركات الشعبية العامة، كذلك سُرقت جهود علماء الإصلاح من مفكرى المسلمين، وهذا واضح في السيرة الدعوية التى خاضها الشيخ

محمد رشيد رضا والتى وصل في نهايتها إلى ما سنعرفه من خلال الأسطر التالية:
تتلمذ الشيخ رضا على يدى المصلح الشيخ محمد عبده، بعد أن تأثر بالعروة الوثقى وأصبح إثر وفاة عبده وارثا لفكر الجامعة الإسلامية والمدرسة الإصلاحية، وجعل من المنار لسان حالها . كان للرجل عن طريق صحيفته إشعاع في كامل أنحاء العالم الإسلامى فقد قدم خدمة جليلة للاتجاه السلفى بنشر أفكاره، وهذا ماشهد له به عبده نفسه، لكن من هو الشيخ رشيد رضا؟ وما هى مواقفه من الجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية؟.

ولد رشيد رضا ١٨٦٥م بقرية القلمون وهى إحدى قرى طرابلس وشمال بيروت وهو ينحدر من سلالة أشراف وعائلة مجد وعلم، تقلدت مشيخة القرية لمدة طويلة، تلقى رشيد رضا تربية دينية خالصة وتعليماً إسلاميا فنبغ فى الفقه وأجاد اللغة وقرأ كثيراً للمتصوفة وخاصة الإمام الغزالي في (المنقذ من الضلال) حصل على الإجازة في علوم الدين من المدرسة الوطنية من بيروت سنة ١٨٨٣م ومنها بدأ يكتب فى الصحافة ويدرس فى المساجد، تخلى عن الطرقية بسرعة بعد أن عاشر أهلها فى إطار حلقة النقشبندية فى طرابلس، تأكد اتجاهه المعادى للطرقية إثر اكتشافه لآراء الأفغانى فيها من خلال كتاباته فى العروة الوثقى التى كان يقرؤها منذ أن كان طالباً، وحاول الاتصال بالأفغانى عندما كان هذا الأخير بالآستانة وذلك عبر أحد أصدقائه، وكاتب رشيد رضا الأفغانى فى ذلك قائلاً «**إنى أسير كتابى هذا ليكون مستسمحاً عواطفكم ومستجدياً مكارمكم فى قبولى لديكم مريداً يتلقف الحكمة، وتلميذاً يقوم ببعض الحكمة**» ولم يتمكن فى النهاية من الاتصال المباشر بالإمام لكن حصل له التعرف المباشر على الشيخ محمد عبده الذى جاء إلى لبنان منفياً من مصر إثر مساندته أحمد عرابى باشا فى ثورته سنة ١٨٨٢م، إلا أن ارتباط رشيد بالشيخ محمد عبده تم فعلاً عندما عاد هذا الأخير إلى بيروت من باريس إثر توقف العروة الوثقى عن الصدور وذلك سنة ١٨٨٥م، كان رشيد رضا فى هذه الفترة يحضر الدروس التى كان يلقيها الشيخ فى المدرسة السلطانية بين سنة ١٨٨٥و ١٨٨٩م.

مثلت هذه الدروس التى حضرها رشيد رضا إلى جانب قراءته للعروة الوثقى البوابة التى دخل منها الحركة الإصلاحية السلفية فى نهاية القرن الماضى، وأصبح للشاب رشيد

رضا نشاط سياسى معارض للسلطنة العثمانية، فى التيارات السياسية النشيطة والمعادية بشكل أو بآخر للخلافة العثمانية، والتي كانت الشام أرضا خصبة لنموها وتوالدها، باعتبار التنوع الثقافي والدينى الذى كان يذخر به، وتركيز القوى الاستعمارية على توظيف ذلك واستثماره فى صراعها ضد الخلافة العثمانية، لقد استدعى تنامى نشاط المعارضة ضد السلطنة حملات من القمع وتشديد الرقابة من طرف أجهزة الشرطة ضد العناصر الفاعلة سياسيا في مواجهتها للسلطة العثمانية، وفى نفس الفترة ازداد توجه السلطة نحو المزيد من المركزية الإدارية كرد فعل على المطالبة بتشريك العرب فى السلطة المحلية وإدارة الشام، خشية انتشار المطالبة بالانفصال عن مركز الخلافة.

أمام التضييق المتزايد على العناصر النشيطة والتى كان من بينها الشاب رشيد رضا قرر هذا الأخير مغادرة سوريا إلى مصر، وكان قد حدث فى ذلك الشيخ عبده سابقاً قبل رجوعه إلى وطنه والذى يبدو أنه شجعه على المضى فى هذا الطريق، من جهة أخرى لم يتمكن رشيد رضا من إصدار صحيفة خاصة به فى بلاده لتكون استمراراً للعروة الوثقى التى كانت قد توقفت عن الصدور فى باريس.

كانت عائلة رشيد رضا فى السابق محل قمع السلطة العثمانية لكنها تعرضت إلى مزيد من الإزعاج من طرف الإدارة العثمانية بسبب فرار رشيد رضا إلى مصر.

أسس فى مصر صحيفة المنار (سنة ١٨٩٢م) وكان يريدها امتدادا لتيار الجامعة الإسلامية ومعبرةً عن أفكار شيخه محمد عبده، لكنه حدد لها موقعها بين بقية الصحف ووجهتها السياسية كالتالى (عثمانية المشرب، حميدية المنهج، تحامى عن الدولة العلية بحق وتخدم مولانا السلطان الأعظم بصدق وتتحامى المطاعن الشخصية... المنار، العدد الأول، مارس ١٨٩٢م) إن أغلب التيارات المعارضة فى ذلك العهد لم تكن تشكك فى شرعية الخلافة العثمانية، كما أنها لا توجه أصابع الاتهام إلى شخص الخليفة بقدر ما كانت تعارض سياسات بعينها، وتطالب بإجراء إصلاحات فى إطار الخلافة، لم يشذ الشيخ رشيد رضا عن هذا النهج، ولعل ذلك يعود إلى تكوينه وتربيته وإلى الحركات والرجال الذين تأثر بهم، إن تنامى دعاة التتريك والطورانية فى صفوف النخب التركية من الشباب

الـذين تلقـوا تعليمهم فى الغـرب وتبنـى البـاب العـالى لـسياسة المركزيـة المفرطـة فى إطـار مقاومته للحركـات المعارضـة التـى كـان الاسـتعمار يـسعى إلى ركوبهـا واسـتثمار رصـيدها لإضعاف الخلافة دفع بالنخـب العربيـة ـ وخاصـة الإسـلامية منهـا ـ إلى إعـلان اعتزازهـا بعروبتها مع تأكيـد ولائهـا للخلافـة رغـم معارضـتها لـبعض سياسـات الخليفـة وعـدائها للاستعمار ومن والاه من العثمانيين عرباً كانوا أو غير عرب، إلا أن تطور الأحـداث حتـى نهاية الحرب العالمية الأولى سيثبت أنه مـن الـصعب إن لم يكـن مـن المستحيل الـدفاع عـن الخلافة ومعارضتها فى الآن نفسه، خاصة فى المرحلة الحرجة التى كانت تمر بها الخلافة، إذ كانت تتكالب عليها القوى الاستعمارية كتكالـب الأكلـة عـلى قـصعتها، وتـستعد لتقاسـم تركة الرجل المريض، حسب التعبير الغربى فى نهايـة القـرن التاسـع عـشر، كيـف سـتتطور مراحل الشيخ رشيد رضا لتصب فى النهاية فى خانة المعادين للخلافة ويجد نفـسه فى نهايـة المطاف قد تحالف تقريباً مع أغلب خصوم الخلافة فى الداخل وبالتالى تقديم الخدمـة التـى كان الاستعمار يبغيها وهى إضعاف الخلافة من الداخل لإسقاطها فيما بعد والتخلص منها نهائياً؟

كان الالتقاء الأول مع خصوم الخلافة يتمثل فى تبنى بعض مقولات القوميـة العربيـة ـ وإن كانت بمضامين إسلامية فى بداياتها ـ والتى يتبنى بعضها المسيحيون العرب ولكن من منطلقات ولأهداف متناقضة تماما، كانت المنطلقات النظرية للقوميين العرب من مسيحي المـشرق العربـى (لايوجـد شـك لـدى المـؤرخين أن القوميـة العربيـة نـشأت فى أوسـاط المسيحيين فى لبنان) هى نفسها من منطلقـات النزعـة الطورانيـة لـدى الأتـراك وهـى التـى تتأسس على مبادئ القومية الأوربية حسب ما ظهرت فى القرن الثامن عشر.

لم تكن هذه الأخيرة من بين المصادر التى اعتمدت من طرف إسلامى الـدعوة القوميـة العربية فى نهايـة القـرن التاسـع عـشر، لأنهـم لم يـدعوا إلى إقامـة دولـة قوميـة عـلى أنقـاض الخلافة، وما كانوا يعملون لصالح القوى الاستعمارية الأروبية أو بتنسيق معها، لا بد مـن الإشارة هنا إلى أن الجمعيات العربية التى كانت تنشط فى الـشام وتعـارض الـسلطان عبـد الحميد كانت على اتصال وثيق بالقنصل الفرنسى (بيكو) فى بيروت، أما جمعية اللامركزية

فلها علاقة بكتشنر القنصل البريطانى فى مصر.

كان الكواكبى ورشيد رضا وغيرهما من المسلمين يؤكدون على أهمية العرب فى بناء الدولة والنظم الإسلامية وحمل الرسالة المحمدية، إن إبراز مكانة العرب واللغة العربية فى التاريخ الإسلامى يستبطن اتهامها الى أن عوامل الضعف والفساد الذى أصاب الدولة والنظم الإسلامية وجعلها فى النهاية لقمة سائغة أمام الاستعمار إنما تعود إلى تسرب عناصر بشرية مختلفة (إن لم نقل دخيلة) وسيطرتها على الخلافة مع احتفاظها بتقاليد وقيم ما قبل الإسلام، إن النقد الذى كان يملأ صفحات المنار سواء على لسان الشيخ رشيد نفسه أو الكواكبى لم يكن موجهاً فقط إلى الخليفة وحاشيته ولكن أيضا إلى الأتراك بصفة عامة، بل نلاحظ لدى الكواكبى الإصرار على تسميتهم بالمغول الأتراك وما يعنيه ذلك من استرجاع على مستوى الذاكرة التاريخية لجرائم المغول والتتار فى حق الأمة الإسلامية.

يجب النظر الى ذلك ضمن سياق الصراع مع الطورانية التى تريد تهميش دور العرب داخل الخلافة العثمانية بتغليب العنصر التركى فى أجهزة الدولة، مع الشيخ رضا والكواكبى وأمثالهما - وهم الجيل الثانى من الحركة الإصلاحية - والذين تجمعوا حول المنار والشيخ محمد عبده فى مصر، مع هؤلاء حدث تحول نوعى فى الوعى والمطالب من حركة الجامعة الإسلامية إلى حركة القومية العربية بمضامين إسلامية، هنا لا بد من الإشارة إلى خطورة الانخراط فى صراع قومى داخل الخلافة التى كانت تعانى من تكالب القوى الأوربية وتتعرض إلى مؤمرات التقسيم والتشرذم وما ينتج عن ذلك من ضعف الإسلام والمسلمين وذهاب ريحهم.

لم يكن ذلك خافياً على الشيخ رشيد رضا الذى حرص على التأكيد على عثمانية ولائه للسلطان والخلافة بل سعى أحياناً إلى إعلان اختلافه عن الكواكبى فى هذا المجال، لذلك لاحظ أثناء نشره لكتاب الكواكبى «**أم القرى**» على صفحات المنار أن فى القسم السياسي من الكتاب كلاما لبعض أعضاء الجمعية فى الدولة العلية - أيدها الله تعالى - فحذفه عند الوصول إليه لأنه يؤلم أكثر الناس ولا ينبغى أن يعرفه إلا الخواص.

بقى الشيخ رشيد رضا يعارض على صفحات المنار التيارات والجمعيات التى تفرق بين

الترك والعرب، إلا أن عثمانيته لم تمنعه ـ فيما بعد ـ من الاقتراب من أكثر الأتراك عداوة للخلافة وللعرب وتعصبا للطورانية وهم جماعة الاتحاد والترقي، بدأ التحول العلني على الأقل للشيخ رشيد رضا من مناصر للجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية إلى مُنضوٍ فى حزب معارض لها فى بداية هذا القرن وذلك عندما أسس بعض أصدقائه؛ جمعية الشورى العثمانية بالقاهرة (من بين مؤسسى هذه الجمعية نذكر صديق الشيخ رشيد رضا رفيق العظم والذى كان هو أيضاً لاجئا فى مصر) تحولت هذه الجمعية سنة ١٩١٢م إلى حزب اللامركزية ومن بين أعضاء هذا الحزب نذكر أيضا محب الدين الخطيب واسكندر عمون وهذا الأخير كان مسيحياً لبنانياً، لم يقف الشيخ رشيد رضا عند هذا الحد بل تجاوزه إلى مساندة جمعية الاتحاد والترقى التى انقلبت على السلطان عبد الحميد وأعلنت أنها ستعيد العمل بالدستور، تحول بعد ذلك الشيخ من مطالب باللامركزية مع القوميين العرب من مسيحيى الشام إلى حليف للانقلابيين على الشرعية وهم العسكريون الطورانيون العلمانيون، وإن ادعوا الإصلاح على أساس دستورى، ويجدر التذكير هنا بتاريخ جمعية الاتحاد والترقى التي تعتبر امتدادا ووريثا لجمعية العثمانين الأحرار، والتى كانت تنادي بإقامة نظام سياسى برلمانى يقتدى بالأنظمة الأوربية آنذاك، كان رجال هذه الجمعية العثمانيين الأحرار على اتصال بالقوى الدولية الاستعمارية وخريجى الجامعات الأوربية كما كان أغلبهم من الناحية الاجتماعية ينتمون إلى الفئات الاجتماعية التى ارتبطت مصالحها مع الخارج، كانت هذه الجمعية وراء دستور ١٨٧٦م الذى وضعه مدحت باشا ومن لف لفه وقبله السلطان عبد الحميد مكرها، لما فى ذلك من تفريق للسلطات، وبالتالى فتح الأبواب على مصراعيها أمام التدخل الأجنبى عبر تعداد مراكز القوى والأقليات، تأسست جمعية الاتحاد والترقى سنة ١٨٨٩م ومن رحم هذه الأخيرة ولدت تركيا الفتاة التي عقدت أول مؤتمر لها فى باريس سنة ١٩٠٢م، وتمكنت تركيا الفتاة من تنظيم جيش سرى فى صالونيك زحف على الآستانة سنة ١٩٠٨م منقلبا بذلك على الخليفة عبد الحميد الثانى.

تعتبر جمعية العثمانيين الأحرار وما تفرع عنها من تنظيمات على نقيض ـ من الناحية

العقائدية ـ مع طروحات الجامعة الإسلامية وحركات الإصلاح التي ينتمي إليها الشيخ رشيد رضا وتربى على أفكارها، ذلك أن الجمعيات التركية كانت تتبنى تصورا علمانيا للإصلاح يرمي إلى إنقاذ ما تبقى من السلطنة بالأخذ عن الغرب فى مجال النظم والتشريعات والقيم مع الاعتماد فى كل ذلك على العنصر التركي مما يعنى فى نهاية المطاف القضاء على الخلافة كنظام سياسي والحد من الاعتماد على الشريعة سواء فى الشؤون العامة أو الأحوال الشخصية.

ساند الشيخ رشيد رضا الحركة الانقلابية وجند قلمه لإبداء النصيحة لقياداتها انطلاقا من قناعاته وأفكاره الإصلاحية، فى إطار نظام سياسي إسلامى برلمانى دستورى لامركزى، إلا أن الشيخ تبخرت آماله عندما لاحظ أن الاستبداد لم ينقض مع السلطان عبد الحميد، وأن السلطة الجديدة أقامت نظاماً شديد المركزية، كما أنها سعت إلى استبدال المحاكم المستحدثة المسماة: عصرية أو مدنية أو حديثة بالقوانين والمحاكم الشرعية، لم يكن ذلك بإلغاء المحاكم الشرعية ولكن كان بإهمالها وعدم إصلاحها وإحداث المحاكم اللاشرعية، وهى مراهنة من طرفهم على القضاء التدريجى على المؤسسات الإسلامية ومن ثم تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية، ومن جهة أخرى تواصل عجز السلطة العثمانية فى عهد الانقلابين أمام تكالب القوى الاستعمارية على البلاد الإسلامية باحتلال أجزاء منها مثل ما حدث سنة ١٩١١م مع طرابلس الغرب عندما قام الطليان بالاستيلاء عليها.

أدرك الشيخ رشيد رضا خطورة السياسات الاتحادية فى هذا المجال خاصة عندما نشر الإنذار الذى وجهته الحكومة الإيطالية للاتحاديين لكى تعمل على إفساح المجال أمام قواتها دون التعرض لها واستجابت فعلا الحكومة الاتحادية لذلك إذ انسحب الوالى التركي بأمر منها وانتهى بذلك الوجود العثمانى فى ليبيا، تبين للشيخ آنذاك عمالة الاتحاديين للقوى الدولية، ومما كتبه فى هذا الخصوص: طرابلس الغرب مملكة عظيمة لم تحصن الثغور فيها ولا أقيمت فيها معدات الدفاع لحفظها من الأجنبى.. بل كان فيها من العسكر والسلاح فبادرت إيطاليا إلى احتلالها... (المنار ديسمبر ١٩١١م) ووجه لهم التهمة صراحة وحملهم كذلك التفريط فى شط العرب للإنجليز.

لقد لمس الشيخ عن كثب عدم احترام الانقلابيين وأعوانهم للدستور وحقوق الرعية، وعنصرية سياستهم تجاه الملل غير التركية وخاصة العرب عندما زار سوريا سنة ١٩٠٩م، لذلك أصبح يتعرض لعبث العسكرين وقادة الانقلاب بالدستور وكشف عن عدم استقرار الحكومة والمجلس، ولم يجده نفعا المطالبة بوفاق بين الملل التي تتكون منها رعية الخلافة العثمانية وذهبت مطالبته بالحفاظ على الطابع الإسلامى للسلطة والتعليم والقضاء أدراج الرياح (انظر المنار شهر يناير ١٩١٣م، مقال: مخادعة الاتحاديين للأمة).

بعد أن ساند الشيخ الاتحاديين ورحب بانقلابهم على الخليفة أصبح يرى فيهم ملاحدة وصلوا إلى الحكم بكيد يهود صالونيك وأن جملة أعمالهم كانت إفسادا وتخريبا للدولة وشؤون العمران فى كافة المقاطعات (محمد صالح المراكشى، تفكير محمد رشيد رضا، ص١٥٧)، لقائل أن يقول: إن هذه الخلافة انفرط عقدها ولم يبق منها إلا الشكل، صحيح هذا ولكن الخلافة تبقى باستمرارها شكلا من أشكال وحدة الكيان السياسى للأمة ولو كان ذلك ظاهريا أو ضعيفا فى انتظار تصحيح المسار وترميم البناية، إن ضعف الخلافة لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال حجة من أجل إسقاطها.

ما هو المخرج الذى سيلجأ إليه الشيخ بعد أن يئس من الاتحاديين وثبت له أنهم ليسوا أهلا لثقته؟ هل أدرك الشيخ وغيره من المصلحين حقيقة التحولات التاريخية قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى؟

الجواب على هذه الأسئلة سنستنتجه انطلاقا من تطور واتجاه مواقف الشيخ رشيد رضا فى هذه الفترة، إلا أن موقف الشيخ جاء فى إطار تحول عام فى التحليل السياسى للنخب فى المشرق العربى، إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا هذه الحرب إلى جانب ألمانيا، من جهة أخرى تواصل تجاهل الاتحاديين الاستجابة لبعض المطالب الإصلاحية التى تقدم بها العرب فى ولاية المشرق، كما تجاهلوا نداءات بعض الزعماء العرب مثل الشريف حسين والى الحجاز مما جعل هذا الأخير يميل فى النهاية إلى بريطانيا، خاصة إثر اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأدى يأس النخب العربية فى المشرق من إنجاز الاتحاديين للإصلاحات المرجوة إلى الالتفاف حول الشريف حسين الذى بدأ يفكر فى الاستقلال عن

الخلافة فى إطار دولة عربية تجمع الولايات العثمانية فى المشرق ويكون هو ملكا عليها إلا أن الإشكال الذى طرح أمام الشريف حسين والقوميين العرب الذين اتصلوا أو التحقوا به ابتداء من سنة ١٩١٥م هو كيفية تحقيق ما سمى بالاستقلال عن تركيا وأساليب وإمكانات إنجاز ذلك. من هنا جاءت ورطة التعامل مع بريطانيا والوقوع فى شباك العمالة للاستعمار وخيانة الأمة بالمساهمة فى تفتيت وحدتها وتمزيقها من أجل وهم الدولة العربية، لقد كان الاستعمار البريطانى على وعى تام بما يريده العرب ولكنه ومنذ القرن التاسع عشر كان يخطط لاقتسام تركة الرجل المريض مع بقية القوى الاستعمارية الأروبية، لذلك استغلت بريطانيا العرب ففصلتهم عن الخلافة وحرضتهم ضدها بإشعال فتنة ماسُمِى بالثورة العربية الكبرى فى الحجاز فى الوقت الذى كان توقع فيه سنة ١٩١٦م مع بقية الدول الأوربية مثل فرنسا وروسيا على اتفاقية (سايكس بيكو) واقتسمت بمقتضاها المشرق العربى مع فرنسا، إلا أن العرب لم يكونوا على علم بهذه الاتفاقية حتى نهاية سنة ١٩١٧م، إن الدارس لهذه الحقبة التاريخية يتعجب من الثقة العمياء التى وضعها الشريف حسين ومن تجمع حوله من العرب فى وعود بريطانيا أثناء المحادثات السرية التى جرت بين ماكماهون والشريف حسين.

ماذا كان موقف الشيخ رشيد رضا من التحالف المشبوه للشريف حسين مع بريطانيا ضد الخلافة العثمانية؟

بدأت علاقة الشيخ رشيد رضا بالشريف حسين سنة ١٩٠٨م لكنها لم تكن علاقة مباشرة ولا اتخذت الطابع الرسمى أو المتواصل بينهما، تمثلت هذه العلاقة فى لقاء جمع الشيخ فى القاهرة بأمين سر الشريف حسين مصطفى بك وذلك فى شهر يوليو، كان هذا اللقاء فرصة للشيخ رضا ليقدم للشريف حسين بعض نصائحه الإصلاحية، إلا أننا لا ندرى هل وقفت العلاقات والاتصالات بينهما أم تواصلت بشكل من الأشكال وذلك يعود لندرة المعطيات لدى المؤرخين فى هذه المسألة، وإن كان الأمر سيتغير مع إعلان الشريف حسين الثورة على الخلافة بدافع ومؤازرة من طرف بريطانيا ويتخذ الشيخ رشيد رضا من ذلك موقفا إيجابيا؛ إذ نشر فى المنار المنشور الذى أعلنه الشريف حسين إثر

انتصاره على القوات التركية في الحجاز وعبر عن استحسانه لذلك (انظر المنار ٢٨ سبتمبر ١٩١٦م)، ورأى في حركة الشريف حسين عملا مشروعا ضد الملاحدة من الاتحاديين وتأييداً من طرف سيد العرب ـ أى الشريف حسين ـ لطلاب الإصلاح من العرب، لاحظ هنا أنه لا يرى فى الثورة العربية سوى عدائها للاتحاديين ويغيب عنه الجانب الآخر منها وهو أنها جاءت في إطار تآمر استعماري على الخلافة الإسلامية لا تنفع فيه حسن نوايا العرب والشريف حسين، أو عدالة قضيتهم مع الاتحاديين، ذهب بعض المؤرخين إلى أن المقيم البريطاني العام فى القاهرة اتصل بأعضاء حزب اللامركزية ومن بينهم رشيد رضا للتثبت من موقفهم من اندلاع حركة عربية انفصالية عن الخلافة العثمانية، فكان موقفهم إيجابيا، بل أبدوا استعداداً لمؤزارة مثل هذه الحركة (راجع سليمان موسى فى كتابه الحركة العربية، صـ١٦٠) لتأكيد موقفه من حركة الشريف حسين، إثر النجاح الذى حققته فى بدايتها التقى الشيخ رشيد رضا بالشريف حسين بالحجاز وألقي بين يديه خطبة مجد فيها عمله السياسي ضد الأتراك وأشاد بحكمه المحافظ على مصالح العرب..(محمد صالح المراكشى، تفكير محمد رشيد رضا ص ١٥٧،١٥٦)، من خلال دراسة خطب وتوصيات الشيخ وفيما يخص الموقف من حكومة الشريف حسين يتبين لنا أنه كان يرمى إلى دعم حكم قوى ومستقل في الحجاز لمنع تسرب القوى الاستعماريه إليه وتجنيبه الصراعات والنزعات على أساس أن الحجاز هو المركز الروحي للأمة باعتبار وجود المقدسات على أراضيه، لم يكن الشيخ على علم بالطموحات السياسية الحقيقة للشريف حسين ولا هو على علم بمخططات بريطانيا فى المنطقة وخاصة ما تضمنته اتفاقية سايكس بيكو لسنة ١٩١٦م والعلاقات السرية المتواصلة بين بريطانيا والشريف حسين، لقد كان هذا الأخير يريد من وراء ثورته العربية أن يبنى مملكة تمتد على كل الأراضى العربية فى المشرق على حساب الخلافة العثمانية، تبين ذلك للشيخ رشيد رضا عندما بدأت جيوش الشريف حسين المدعومة من طرف القوات البريطانية تتجاوز حدود الحجاز فى اتجاه بقية أطراف الجزيرة العربية ثم فى اتجاه الشام، عندما وصل الأمر إلى هذا الحد أعلن الشيخ إدانته للشريف حسين وأوضح أن مساندته لثورة شريف مكة كانت مشروطة، وازدادت حدة

معارضة الشيخ رشيد رضا للشريف حسين عندما ثبت له أن الثورة العربية ليست سوى مؤامرة بريطانية عربية ضد تركيا ودخل فى مواجهة مع الأجهزة الدعائية للشريف حسين، مثل جريدة «**القبلة**» كما واجه الشيخ رشيد رضا الدعاوى التي ذهبت إلى توفير الغطاء الشرعى لحركة الشريف حسين وسلطته باعتبار أصله القرشى فكان رده على ذلك أن شريف مكة لم تتوفر فيه أيًا من الشروط الأساسية الأخرى المطلوب توافرها فى الخليفة كالعلم والاجتهاد والاستقلال، لأنه أقام حكمه على حماية قوة نصرانية، كما أدان الشيخ رشيد رضا الذين ساندوا الشريف حسين من الساسة والعسكرين فى الشام والذين بايعوه ملكا وفتحوا بذلك الباب أمام الاستعمار الإنجليزي.

إلا أن تراجع الشيخ رشيد رضا عن دعمه للشريف حسين جاء متأخرا باعتبار أن جيوش الثورة العربية المدعومة من طرف القوى البريطانية والتى تعمل بتنسيق تام مع القوات البريطانية الأخرى فى المشرق العربى، كانت تتسابق للسيطرة على الممتلكات العثمانية فى الشام وشبه الجزيرة العربية، وشكل ذلك ضربة قاضية للوجود العثمانى في المنطقة، وخطوة نحو انهزام الخلافة فى الحرب العالمية الأولى، وما سيترتب على ذلك من سقوط تام للخلافة الإسلامية فيما بعد على يدي مصطفى كمال أتاتورك، إن إدانة الشيخ رضا للشريف حسين وكشفه لعلاقته ببريطانيا مهدت له الطريق لمساندة المبادرة التى سيقوم بها الأمير عبد العزيز بن سعود انطلاقا من نجد ضد الشريف حسين، رحب الشيخ رضا بتنامى نفوذ الدولة السعودية على حساب سلطة الشريف حسين فى الحجاز واعتبرها خدمة للأمة الإسلامية والأمة العربية كما ذكر أن الدافع لفتح الحجاز من طرف الجيش السعودي هو تأمين فريضة الحج ومنع الإلحاد والظلم فى الحرم وقطع عروق نفوذ الأجنبى (ذكره محمد صالح الماكشي، ص: ١٦١).

انطلق الشيخ رشيد رضا من مساندة نقدية للخلافة العثمانية ليتقلب فى موقفه ويساند خصومها الواحد تلو الآخر من ترك وعرب ليجد نفسه فى كل مرة قد ابتعد سياسيا عن المبادىء التي انطلق منها باعتبار أن الطرف الذى يسانده ليس هو المأمول ولا المؤتمن على مصير الأمة بل يكتشف فى نهاية المطاف أنه تحالف مع أعداء الأمة المتعاونين مع الاستعمار.

٣ ـ نماذج بعد الحرب العالمية الأولى والثانية :

لقد شهد العالم العربي ابتداء من الحرب العالمية الأولى ظهور ما يسمى بالدولة القطرية، وذلك على أنقاض الخلافة العثمانية إثر انهزامها ثم إلغائها من طرف مصطفى كمال أتاتورك، وفى إطار الدولة القطرية انتصبت أنظمة ملكية شكلت نوعا من الاستمرارية للإدارة العثمانية المحلية، ثم من جهة أخرى، وبداية من نهاية الثلاثينيات، حصلت بعض الأقطار العربية على استقلالها عن الاستعمار، فحكمتها أيضا أنظمة ملكية، وفى نفس الفترة شاع فى العالم العربى شكل آخر من أشكال الوصول إلى السلطة وهو عمليات الانقلابات العسكرية، والتى حدثت أولا فى العراق سنة ١٩٣٦م ثم تتالت بعد ذلك فى أقطار أخرى.

وكذلك حدثت انقلابات مدنية على أنظمة ملكية دون اللجوء الى العسكر وبطرق وصفت بالسلمية والدستورية مثلما حدث فى تونس بعد الاستقلال.

وبعد هذه النظرة العامة لما وقع فى العالم العربى من انقلابات يتبادر إلى الذهن مجموعة من الأسئلة تجدر الإجابة عنها فى مثل هذا البحث وهى الأسئلة التالية: لمصلحة من يقع الانتقال بشكل انقلابى من نظام ملكى إلى نظام جمهورى؟ ثم بإعانة مَنْ أو بإيعاز من أى جهة؟ ما هو دور الاستعمار فى هذه الانقلابات؟ كيف تصب الانقلابات الجمهورية فى خانة الاستعمار حتى ولو كانت معادية له فى الظاهر؟ فى أى ظروف يتم تعاون الإسلاميين مع الانقلابيين؟ لماذا كان الإسلاميون هم الضحية الأولى والأهم للأنظمة الانقلابية؟

وهنا سنتناول بالدراسة التجربة التونسية التى هى أكثر التجارب علمانية بعد التجربة التركية الكمالية، ولأنها أيضا عرفت انقلابا جمهوريا مدنيا على نظام ملكي عريق عرف في الأربعينيات من هذا القرن بشدة عدائه للاستعمار، هذا إلى جانب أنه من الأنظمة الملكية التى حاولت بناء دولة عصرية مع الحفاظ على الأسس والبنى الإسلامية للمجتمع والدولة، حيث طرح الوزير خير الدين الإشكاليات التى كان على الفكر الإسلامى أن يتعامل معها في عصر النهضة محاولا التصدى لتسرب الاستعمار، الذى كان قد انتصب فى الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م، وكانت تونس من أكثر الأقطار الإسلامية المرشحة لإقامة

الدولة والمجتمع الإسلامى الحديث لولا إجهاض التجربة من طرف الاستعمار بإبعاد الوزير خير الدين ثم باحتلاله للبلاد سنة ١٨٨١م.

٤ ـ تونس المستقلة: من الملكية إلى الجمهورية العلمانية بإعانة فرنسا:

عرفت تونس نظام البايات منذ دخول العثمانين إليها في القرن السادس عشر، والعائلة التى تمكنت من الحكم لمدة طويلة تقدر بما يناهز القرنين والنصف هى العائلة الحسنية (استلم حسين بن على السلطة سنة ١٧٠٦م وجعلها وراثية)، كان الحاكم الحسينى يلقب بالباى ـ وهى رتبة إدارية عثمانية تأتي مباشرة بعد الداى فى السلم الإدارى العثماني ـ ويعتبر الباى والياً من ولاة السلطان العثمانى، إلا أنه كان يتصرف فى داخل ولايته وتجاه رعيته على أساس أنه ملك، ولما احتلت تونس من طرف فرنسا سنة ١٨٨١م أبقت سلطة الحماية على العائلة الحسينية في الحكم حتى استقلال البلاد سنة ١٩٥٦م حيث جاء النظام الجمهورى إثر إلغاء حكم البايات من طرف بورقيبة سنة ١٩٥٧م وذلك فى إطار مجموعة من الإجراءات التى قدمت على أساس أنها إصلاحية فى إطار سياسة التغريب والتحديث التى سلكها النظام الجديد، ثم اتخذت مجموعة من الإجراءات الجريئة التى أحدثت في البلاد تحولات عميقة انعكست بصورة سلبية على المجتمع والدولة وتسببت في أزمات سياسية واجتماعية وثقافية خطيرة لازالت تلقى بظلالها على أوضاع البلاد وهنا نرجع الى ما ذكرناه، ما هو دور الإسلاميين فى وصول بورقيبة إلى السلطة؟

إن الشائع لدى كثير من الناس وخاصة فى المغرب العربى أن (بورقيبة) وصل إلى الحكم بفضل نضاله الوطنى ضد الاستعمار، تلك الفكرة التى أشاعها بورقيبة عن نفسه وتاريخه وهي الصورة التى نحتتها له وسائل الإعلام وأجهزته الدعائية منذ انفراده بالسلطة وفرضه لنظام الحزب الواحد والزعيم الأوحد، وذلك فى إطار إقصائه لغيره من القيادات الوطنية سواء منهم الأحياء أو الأموات، لقد استبعد العديد من الشخصيات الوطنية المنافسة له وخاصة من ذوى الاتجاه العروبي والإسلامي من ساحة العمل السياسى عن طريق التصفية الجسدية والسياسية كما قام بتهميش غيره من القيادات التاريخية لحركة التحرير الوطنية من الذين قضوا نحبهم في الجهاد ضد المستعمر وذلك

بإنكار دورهم وعملهم وطمس آثارهم، ثم عمد إلى كتابة تاريخ البلاد الحديث والمعاصر بالشكل الذى يسحب الوطنية من الكثير من رجال تونس ويُقدم للقراء والنشء أنه صانع تونس وباني مجدها وأنها لم تنجب غيره منذ ملوك البربر الذين قاوموا الغزو الرومانى، ونسجت حول شخصه الأساطير من نوع أنه ذكر سابقا أنه سيظهر من المنستير (مكان ولادته) رجل كبير فيه الدول تحير...

وهنا نذكر أن (بورقيبة) لم ينطلق في عمله ضد الاستعمار من لا شيء، كما أنه لم يكن مؤسسا للحركة الوطنية بقدر ما هو وارث لعمل غيره، لقد مارس اللصوصية السياسية للوصول إلى سدة الحكم وذلك بالتسلط على المنظمات الوطنية التى ولدت قبل دخوله مجال العمل ضد الاستعمار أو التى ظهرت خارج دائرة نفوذه وسعى إلى إخضاعها لإرادته، فمن المعروف أن العمل الوطني انطلق ضد الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت جنود فرنسا أرض تونس، وقد اتخذ هذا العمل أشكالا عديدة وبقى محصورا فى الصفوة ولم يصبح عملا شعبيا إلا قبيل الحرب العالمية الأولى، فإثر هذه الحرب تشكل حزب وطنى تزعمه الشيخ المصلح عبد العزيز الثعالبى ثم تأسست سنة ١٩٢٤م أول نقابة تونسية مستقلة عن النقابات الفرنسية وتزعمها المجاهد محمد على الحامى، أما الشيخ الثعالبى فمعروف أنه زيتونى الثقافة من الذين تأثروا بحركة الإصلاح وأفكار الأفغانى وعبده، خاصة وأن هذا الأخير كان قد زار تونس مرتين في نهاية القرن الماضى وبداية القرن الحالى، والتقى بالعديد من علماء الجامعة الزيتونية، ومن رحم هذه الأوساط ظهرت بواكير العمل الوطني المناهض للاستعمار فى بداية هذا القرن، أما محمد على الحامي فهو الشاب الذى التحق سنة ١٩١١م بالمجاهدين في طرابلس الغرب لمقاومة الغزو الإيطالي ومنها انتقل إلى تركيا ليخوض معارك الحرب العالمية الأولى مدافعا عن الخلافة وهو فى ذلك مدفوع بأحاسيسه الإسلامية كما يقول على لسانه رفيقه الطاهر الحداد في كتابه عن العمال التونسيين، وكانت محاور نضال الرجال والمنظمات تتمثل في المطالبة بالاستقلال وتحسين الأوضاع المعيشية للأهالى وحماية كيان الشعب التونسى وتأكيد هويته العربية الإسلامية في مواجهة محاولة طمسها من طرف المستعمر، وقد كانت أغلب المعارك

السياسية التى خاضها الحزب والنقابة الوطنية والأهالى الذين التفوا حولها هى رفض التجنيس والتصدي لمصادرة الأراضى بصفة عامة وخاصة أراضي الأوقاف، نظرا لما لها من قدسية، وحماية التعليم في جامعة الزيتونة الإسلامية من الإصلاح الاستعمارى المزعوم، الذى يرمي إلى تغيير البرامج والمقررات التعليمية، ليحد من تخريجها لأجيال معتزة بهويتها الثقافية ومقاومة لتسلطه على البلاد والعباد وخاصة طلاب الجامعة الزيتونية حيث قاموا بعدة إضرابات تصل الى حد الاصطدام بقوى البوليس الاستعماري من أجل القضايا الوطنية، بل كانت العديد من حملات الاحتجاج ضد السياسات الاستعمارية تنطلق من ساحة الجامع الأكبر فيلتف حولها الأهالى، وتتحول شوارع الحاضرة إلى ساحات للمعارك بين الطلاب والأهالى من جهة، والجند الاستعماري من جهة أخرى، هذه هى وضعية الساحة الوطنية لما عاد بورقيبة من باريس سنة ١٩٢٧م مشبعا بثقافة غربية وترافقه زوجة فرنسية.

أدرك بورقيبة أن الأهالى لا يمكن أن يلتفوا حول أى زعيم وطنى إلا إذا تبنى ثقافتهم وانطلق فى نضاله التحرري من منطلقات عروبية إسلامية حتى ولو رفع شعارات تهتم بالأوضاع المعيشية أو تقتصر على المسائل الوطنية دون وضوح المنطلقات الحضارية التي لا بد وأن تتميز وتتباين مع الثقافة الاستعمارية، وأدرك أيضا أن ذلك هو الذى يفسر شعبية ونجاح الشيخ الثعالبي والشاب محمد على الحامى فى بداية العشرينات من هذا القرن وذلك أيضا ما يقف وراء فشل بعض الأحزاب الأخرى مثل الحزب الشيوعي التونسى الذي تأسس هو أيضا في نفس الفترة التي ظهر فيها الحزب الحر الدستورى التونسي الذي تزعمه الشيخ الثعالبي وكان أغلب رجاله من خريجي الزيتونة.

لم يجد بورقيبة بدا من أن يسير على نهج الثعالبي، لكن مع محاولة الانحراف بالمسار شيئا فشيئا، حيث انشق مع بعض رفاقه عن الحزب الذي عملوا فيه منذ عودتهم من فرنسا في نهاية العشرينيات وأسسوا حزب ضرار فى شهر مارس ١٩٣٤م، وانضم إلى هذا الحزب العديد من مناضلي الحزب الأول الذي أسسه الشيخ الثعالبى إثر الحرب العالمية الأولى وذلك نظرا إلى كون هذا الحزب هدأت حركته بفعل ما تعرض له من قمع وإبعاد للعديد

من قياداته، وعلى رأسهم الشيخ الثعالبي، الذي اضطرته السلطات الفرنسية إلى مغادرة البلاد سنة ١٩٣٢م، وهنا تجدر الإشارة إلى أن انضمام بعض المشايخ من علماء الزيتونة إلى ما سمى بالحزب الدستورى الجديد المنشق سنة ١٩٣٤م جاء نتيجة التزام بورقيبة بشكل منافق بالمحاور النضالية التى عبأ حولها الأهالى في بداية الثلاثينيات من هذا القرن والتي تتعلق كلها بمسألة الهوية الثقافية المستهدفة من طرف السلطات الاستعمارية، إذ اطمأنت إلى وضعها فى تونس فراحت تعدد من انتهاكاتها لمقدسات الشعب التونسي مستفزة مشاعره، وبالتالى استنهضت فيه مخزونه الجهادي، فخرج فى موجات احتجاجية مدنية، متمثلة فى سلسلة من المظاهرات والاضطرابات، التى اتخذت في كثير من الأحيان طابعا عنيفا، دافع بورقيبة عن مسألة الحجاب سنة ١٩٢٩م، ولزم الصمت تماما عندما نشر الطاهر الحداد كتابه الشهير حول المرأة في الشريعة والمجتمع ودعا إلى السفور مما أثار نقاشا حادا بين العلمانيين والأوساط الإسلامية والمحافظة بصفة عامة، إلا أن (بورقيبة) لم يشارك فى هذا النقاش وكان ذلك من أجل إخفاء ما كان يصرح به في بعض المجالس الخاصة من أفكار علمانية، كان يعلم جيدا أنه لو أعلنها صراحة لما تمكن من الزعامة التى كان يطلبها، ثمساير سلسلة المظاهرات المنددة بالتجنيس والمتجنسين الذين اعتبروا مرتدين ورفض الشعب التونسي دفنهم في مقابر المسلمين، وكان يرى بأم عينيه أن هذه المظاهرات خرج أغلبها من مساجد وجوامع المدن التونسية، كما انضم بورقيبة إلى الذين ساندوا طلاب الجامعة الإسلامية في إضرابهم سنة ١٩٣٣م وكتب ما مفاده أن آخر معاقل الصمود ضد الاستعمار هو الجامع الأعظم، وأن التعليم الزيتوني هو القاعدة الصلبة في حماية الخصوصيات العربية الإسلامية للشعب التونسي.

هكذا تمكن بورقية من كسب مساندة بعض العلماء والطلبة بعد أن استقطب جانبا مهما من الأهالي، لذلك نجد أن معظم الذين خرجوا في مظاهرات ٩ أبريل ١٩٣٨م هم من طلاب وأساتذة الجامع الأعظم، ومن بينهم أيضا كان القتلى والجرحى والمعوقون، وفى إثر الحرب العالمية الثانية، عندما سافر بورقيبة إلى المشرق العربى واستقر بمصر لمدة زمنية، لقي الدعم من طرف الحركة الإسلامية هناك على أساس أنه زعيم وطنى لبلد إسلامي

يبحث عن استقلاله وانعتاقه من ربقة الاستعمار، ففتحت له منابرها ودور أنشطتها ووقع احتضانه على هذا الأساس، إلا أن الصراع بين الإسلاميين والخط الذي كان يتزعمه بورقيبة في حزب الدستور بدأ بالظهور فى بداية الخمسينيات عندما تم الحديث عن المشاركة في السلطة فى إطار حكومة استعمارية يتم تقاسم المناصب فيها مع وزراء فرنسيين، وهذا الصراع يُمثل موقف الطرفين من الاستعمار والإصلاحات المطالب بها فى ظله، فطلاب الجامعة الزيتونية ـ ممثلين في منظمتهم صوت الطالب الزيتونى ـ والتيار الإسلامي بصفة عامة يرون وجوب فرض إصلاحات دون المشاركة فى السلطة الاستعمارية ويلتقون مع غيرهم من الوطنيين فى بعض الأحزاب الأخرى في المطالبة بالاستقلال التام، وعدم الدخول فى مفاوضات ما يسمى بالاستقلال الداخلى، كان هذا التيار مدعوما من طرف الحزب الدستورى الأول ومكتب المغرب العربي بالقاهرة والذى كان يشرف عليه الشيخ عبد الكريم الخطابي.

كان هذا المكتب يرى ضرورة التنسيق بين حركات التحرير في المغرب العربى حتى لا تنفرد فرنسا بكل قطر على حدة، فى حين كان حزب الدستور الجديد (أى حزب بورقيبة) يفكر على عكس ذلك تماما وخاصة (بورقيبة) الذى صرح منذ نهاية الثلاثينيات أنه لا يمكن أن يتحقق الاستقلال إلا فى إطار المشاركة والتعاون مع فرنسا، وعلى هذا الأساس دخل فى مفاوضات مع حكومة الجبهة الشعبية التي وصلت إلى السلطة في فرنسا سنة ١٩٣٦م، حيث لم يكن بورقيبة يؤمن فى يوم من الأيام بالقطيعة مع فرنسا الاستعمارية سواء على المستوى السياسي أو الثقافى، وكان يؤكد على أن العلاقة مع فرنسا والحضارة الغربية ستبقى متميزة، وأنه يجب على تونس وأهلها أن يولوا وجوهم صوب الغرب وليس صوب الشرق، وكان يقول منذ الثلاثينيات في بعض المجالس الخاصة (حسب ما يرويه الشيخ المجاهد محمد الصالح النيفر رحمه الله) إنه (بورقيبة) لا يراهن على حصان خاسر ويقصد به الإسلام، في حين كان يراهن على فرنسا، أما علاقة القضية التونسية بقضايا المغرب العربى التحررية فإنه لا يرى موجبا لربطها ببعضها، خاصة وأن الجزائريين كانوا أكثر تشددا في التعامل مع الاستعمار، لذلك صرح مرارا أنه غير مطالب بجر «**العربة**

الجزائرية» إذا كانت تأبى السير، أى إذا كانت تأبى التفاوض والتعامل سلميا مع السلطة الاستعمارية والرضا بما يحققه ذلك ولو كان زهيدا.

وقد تبنى بورقيبة خطابا سياسيا وثقافيا ضمنه بعض المحتويات الإسلامية كما ساند وتزعم بعض التحركات الشعبية المناهضة للسياسات الفرنسية وذات المطالب المتعلقة بالهوية العربية الإسلامية، كان ذلك أساسا من أجل استقطاب أوسع قاعدة شعبية له على حساب خصومه من الأحزاب الوطنية الأخرى، والتي كان لبعضها منطلقات إسلامية واضحة، قامت على أساسها منذ بدايتها، وذلك مثل حزب الدستور الأول الذي أسسه كما ذكرنا الشيخ الزيتونى أبو الحركة الوطنية التونسية إثر الحرب العالمية الأولى.

والملاحظ أنه قد استمر التحالف بين بعض العلماء وحزب (بورقيبة) طوال الثلاثينيات والأربعينيات، وتجلى ذلك بوضوح فى مؤتمر ليلة القدر سنة ١٩٤٧م والذي كان فى الحقيقة عبارة عن جبهة تونسية ضمت أهم الفعاليات الوطنية ضد المستعمر، إلا أن الصدام بدأ كما ذكرنا في بداية الخمسينيات عندما شارك حزب بورقيبة فى حكومة ائتلافية في إطار السلطة الاستعمارية وطلب من الجميع الانصياع لأوامر الحكومة وفك الاضرابات، والكف عن الاحتجاجات ضد السلطة الاستعمارية، اتضحت نوايا حزب بورقيبة فى كيفية التعامل مع الإسلاميين والإسلام - فى صورة وصوله إلى السلطة - منذ هذه الفترة، إذ تشكلت ميليشيات مسلحة مهمتها التعرض للعلماء والنشيطين من طلاب الزيتونة وتعنيفهم.

لما انطلقت حركة المجاهدين المسلحة ١٩٥٣م ضد الوجود الاستعمارى فى البلاد كان من بين قيادتها العديد من الإسلاميين الزيتونيين وكان الدور المشبوه الذي قام به حزب (بورقيبة) هو الوشاية بهم وتسليمهم للسلطة الاستعمارية بعد أن طالبهم بمغادرة الجبال وإلقاء أسلحتهم والكف عن العمليات العسكرية ضد الأهداف الاستعمارية.

تفجر الصراع على أشده بين الجناح العروبي الإسلامي في الحزب الدستورى والجناح العلمانى الموالى للغرب ثقافياً إثر قبول بورقيبة لما سمي سنة ١٩٥٥م الاستقلال الداخلى والتخلى عن المطالبة بالاستقلال التام، واعتبر ذلك من طرف الوطنيين الإسلاميين

والعروبيين أنه خيانة للقضية الوطنية والمغاربية باعتبار أن سعي فرنسا إلى التفريط النسبى والشكلى لوجودها فى كل من تونس والمغرب جاء إثر اندلاع الثورة الجزائرية فى بداية شهر نوفمبر سنة ١٩٥٤م، لذلك فإن القبول بالمفاوضات مع فرنسا من أجل الحكم الذاتي - الاستقلال الداخلى - هو القبول من طرف بورقيبة باختيار فرنسا الانفراد بالثورة الجزائرية للقضاء عليها، لما رأت فرنسا أن مجريات الأحداث فى البلاد تسير ضد الجناح الموالى لها ثقافيا والقابل بشكل من التعاون معها، قررت إسناد ما سمى بالاستقلال التام لبورقيبة وأصدقائه في الوقت الذي اندلعت فيه معارك في طول البلاد وعرضها بين الوطنيين الإسلاميين والعروبيين من جهة - الذين رفضوا الصيغة التى توصل لها بورقيبة مع فرنسا فيما يخص الاستقلال مع التعاون مع فرنسا واحتفاظها ببعض القواعد العسكرية - والميليشيات البورقيبية التي كانت مدعومة من طرف الجيش والشرطة الفرنسية، هكذا تمت عملية سحق المعارضة الإسلامية قبل استلام تام للسلطة من طرف بورقيبة ورفاقه، كما تبين أيضا الدور المشبوه للسلطة الفرنسية في تغليب الطرف الذي يضمن لها مصالحها فى المنطقة وإقصاء كل من يعارض ذلك.

والآن ما هي السياسات التى سينفذها بورقيبة إثر تسلمه السلطة من الإدارة الفرنسية؟ وإلى أي مدى كانت هذه السياسات وطنية ومسايرة لطموحات الشعب التونسى في الحياة الكريمة المتناسقة مع ثقافته العربية الإسلامية؟

لقد بادر بورقيبة بعد أن تخلص من المعارضة العروبية والإسلامية - التى وقع تصفيتها جسديا باعتقال رموزها - إلى تنظيم انتخابات صورية أعلن إثرها إلغاء الملكية وتبني النظام الجمهوري (٢٥ يوليو ١٩٥٧م) ثم اتخذ مجموعة من القرارات التي سميت بالإصلاحات وكانت الغاية منها تغريب المجتمع وعلمنة الحياة السياسية، وبدأ الإصلاحات المشؤومة بالجامعة الزيتونية التي عمل النظام الجديد ابتداء من أبريل ١٩٥٦م على إعادة النظر فى وظيفتها التعليمية وحولها شيئا فشيئا إلى كلية للشريعة وأصول الدين بعد أن كانت جامعة تدرس بها كل العلوم ولها استقلالية تامة عن أنماط التعليم الأخرى التي سادت، سواء قبل دخول فرنسا أو بعدها، ثم فى مرحلة ثانية وبسرعة عجيبة

وقع تحويل المعاهد الزيتونية إلى مدارس للتعليم العام وإلحاقها بمؤسساته وذلك لتجفيف منابع الجامع الأعظم، ثم تحول هذا الأخير إلى جامع تقام فيه الصلاة فقط إلى اليوم ويحتفل فيه رسميا بالأعياد الدينية استجداء لشرعية دينية للنظام مفقودة منذ البداية ولمجرد ذر الرماد في العيون.

وفى إطار ضرب المقومات الحضارية للشخصية التونسية وقع إلغاء الأوقاف وإلحاقها بممتلكات الدولة بمقتضى أمر صادر في شهر مايو ١٩٥٦م، وبمقتضى أمر ثان صادر يوم ١٨ من يوليو من نفس السنة تم منع استحداث أحباس جديدة، وفى يوم ٣ من أغسطس من نفس السنة ألغيت المحاكم الشرعية وعوضت بما يسمى المحاكم المدنية، والتي هى فى الأصل استمرار للمحاكم الفرنسية السابقة، وامتداد لهذه الانتهاكات الموجهة للشريعة الإسلامية السمحاء، وبإرادة واضحة لتحدى الأسس الإسلامية التى كان يقوم عليها المجتمع التونسي تمّ يوم ١٠ أغسطس ١٩٥٦م الإعلان عن مجلة الأحوال الشخصية والتى عطلت بشكل مفضوح ونزق مجموعة من الأحكام الشرعية فيما يخص الحياة الزوجية كمنع الطلاق إلا بإذن من المحكمة ومنع تعدد الزوجات .. ثم تجرأ فيما بعد على الدعوة إلى السفور وكان بورقيبة في جولاته في المدن والقرى التونسية يطلب من النساء مباشرة نزع السفسارى[1] عنهن وقد يمد يده ليكشف عن وجه امرأة أو عن شعرها، ثم أباح الاختلاط بدون أي قيد أو شرط فى المدارس والمؤسسات العمومية بصفة عامة، ثم دعا إلى إفطار رمضان والمجاهرة بذلك، واتخذ من الإجراءات ما يحمى ويشجع من أفطر أو أراد الإفطار في حين وضع العديد من العراقيل أمام من تمسك بالصيام من موظفي الدولة والجيش الوطنى.

كما أنه لم يشترط في الدستور التونسي أن يكون دين الرئيس هو الإسلام، ولم ينص صراحة على أن دين الدولة هو الإسلام، وجاءت الصيغة التى تعرضت إلى هذه المسألة غامضة يفهم منها أن دين البلاد التونسية هو الإسلام وأن لغتها العربية ولكن لا يعنى ذلك أن الدولة تتبنى الإسلام كدين والعربية كلغة، وجاءت كل القوانين لتؤكد ذلك إذ

(١) السفساري: نوع من غطاء الرأس عند النساء التونسيات.

إن أغلبها وضعي مستمد من الدساتير والقوانين الغربية، أما اللغة الأولى فى البلاد فإنها الفرنسية ولازالت المواد العلمية إلى اليوم تدرس بهذه اللغة، وحدث فى السنوات الأخيرة تراجع حتى في الجرعات المحدودة التي وقعت في الثمانيات فى مجال التعريب، وتبقى تونس إلى اليوم من بين الأقطار العربية القلائل التى تعطل أسبوعيا يوم الأحد عوضا عن يوم الجمعة.

كما أن بورقيبة قد تهجم مرات عديدة فى خطبه على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام، واعتبر القرآن الكريم جمعا لما كان سائدا في الجزيرة العربية من خرافات وأساطير، كما حاول بورقيبة مرات عديدة إعادة النظر في قانون الميراث للتسوية بين الذكر والأنثى.

وقد ترتب على هذه السياسات انعدام الاستقرار السياسي للبلاد بين ١٩٥٦م و١٩٦٢م باعتبار أنها لقيت معارضة شديدة من طرف الأوساط الزيتونية سواء منها العلمية أو السياسية أو العسكرية وسواء منها فى الداخل أو الخارج، كما أنها تسببت في طمس الشخصية التونسية ببعديها العربى والإسلامي وإصابتها بالتشويه إلى حد الانفصام مما انعكس على مستوى السلوكيات الفردية والجماعية وكان من مظاهر ذلك اهتزاز الأسرة وارتفاع نسبة الطلاق وتزايد الإجرام وانتشار مظاهر التفسخ الأخلاقى بكل أنواعه.

إن المقارنة بين التجربة الجمهورية التي انطلقت سنة ١٩٥٧م والنظام الملكى فى تونس (ملك العائلة الحسينية الذى دام حوالى قرنين ونصف) تؤكد لنا مجموعة من الاستنتاجات التي حصلت لنا من خلال دراسة مقارنة للتجارب الجمهورية والملكية فى العالم العربى، وكذلك النتائج السلبية لتعامل الإسلاميين وبعض العلماء مع هذه الأنظمة، على أساس أن النظام الجمهورى أقرب إلى النمط الإسلامى فى الحكم حسب اعتقادهم :

اتسم الحكم الحسينى باحترامه للأسس الشرعية، التي كانت تقوم عليها الدولة بمختلف أجهزتها، والمجتمع فى مختلف تنظيماته وسلوكياته، بل استمد جانبا من شرعيته كسلطة ونظام حكم من تطبيقه للشريعة الاسلامية، رغم المآخذ التي يمكن أن يؤاخذ عليها فى بعض الجوانب، والناظر لا يجد فى سجل تاريخ الحكم الحسينى دعوة أو عملا ما يعمل على نقض الشريعة الإسلامية أو تعطيلها، كما أن النظام قد أولى العلماء ودور العلم

أهمية كبرى وكان يستشيرهم فى خصوص شؤون الدولة.

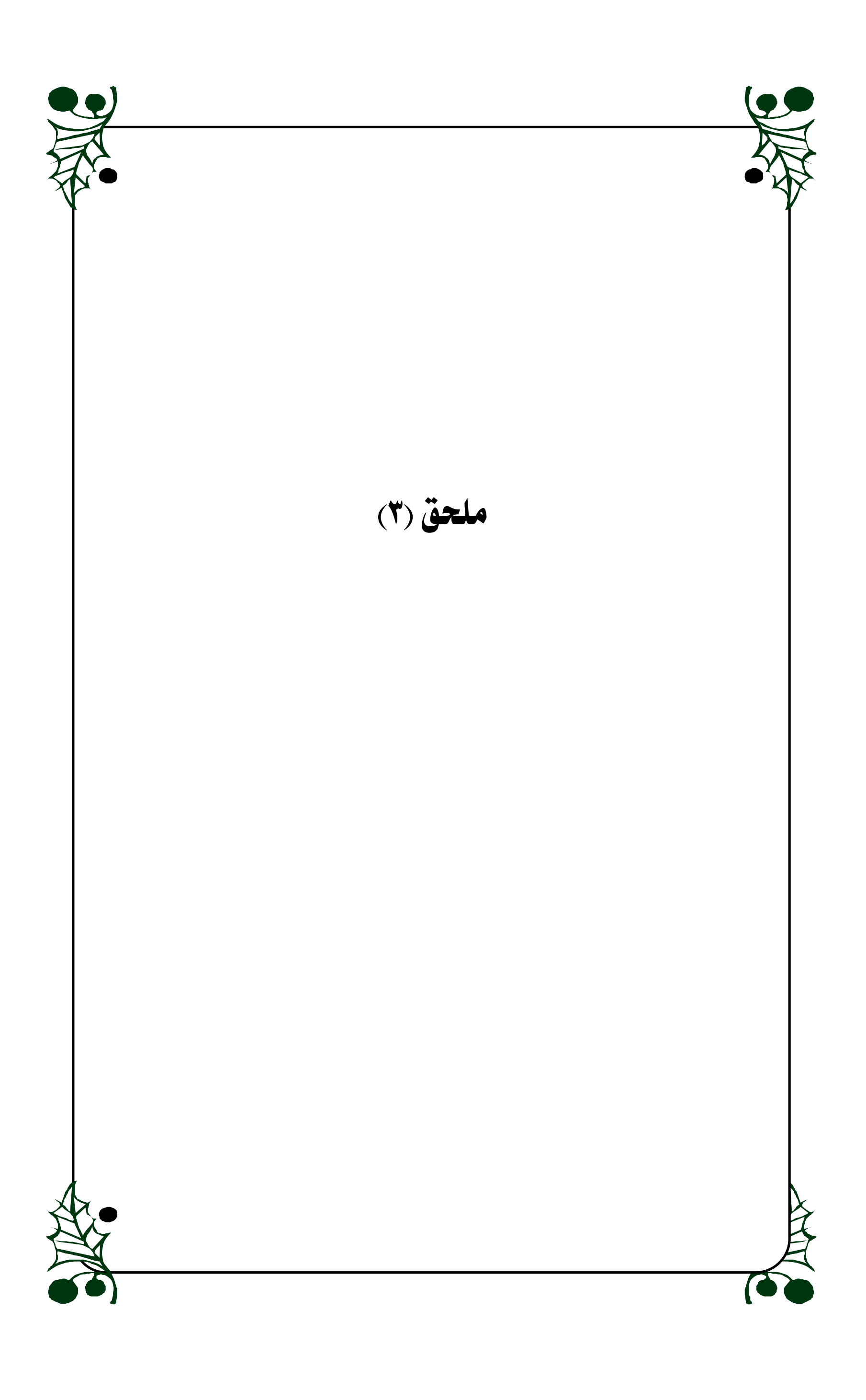
من جهة أخرى كانت العلاقة بين العلماء والسلطة فى ظل الملكية تقوم على الاعتراف والاحترام المتبادل، إذ قبل الباى باستقلالية العلماء ودور العلم عن الدولة رغم أن هذه الأخيرة كانت تمول فى جانب المؤسسات التعليمية التى كانت أيضا تعتمد على تمويل ذاتى لها باعتبار اعتمادها على موارد الأحباس، لذلك كان العلماء يمثلون سلطة في المجتمع قائمة بذاتها وكانت مهمتها توجيه المجتمع من الناحية الفكرية والقيمية مع التزامها بحدود المجال الذي تعمل فيه واحترامها لمجال السلطة السياسية، كما أن القضية الاجتماعية التي كانت سائدة فى ظل الحكم الملكى فى تونس تعود إلى اتفاق الجميع - الأهالى والعلماء والسلطة- وذلك حول المشروع المجتمعى والذى كان يتلاءم والهوية العربية الإسلامية والانتماء الحضارى للشعب التونسى، وهذا أيضا ما يفسر الاستقرار السياسي الذى كان سائدا فى ظل الملكية، إذ لم يطعن أحد من الأهالى فى شرعيتها، أما السلطة فى ظل النظام الجمهوري فإنها واجهت منذ تأسيسها إلى اليوم أزمات شرعية، ولم تتمكن من فرض نفسها على المجتمع وخصومها السياسيين إلا بالحديد والنار، والمتابع للأوضاع فى تونس يرى أن المحاكمات السياسية كانت دورية، سواء بسبب اكتشاف محاولات انقلابية أو تنظيمات سيساسية سرية مناهضة للسلطة أو فى إطار صراعات بين الأجنحة داخل الحزب الحاكم أو إثر انتفاضات شعبية معادية للسياسات المتبعة .. إلخ .

لقد ضاعت فى ظل الجمهورية كل الحقوق، وديست كل القيم من طرف الأجهزة المسؤولة عمَّا يسمى بحفظ النظام، رغم التبجح بمقولات جوفاء نحو دولة القانون وحقوق الإنسان وفصل السلطات عن بعضها ودولة المؤسسات.. إلخ، والحقيقة هى أن الدولة ليست حديثة إلا ظاهريا ولكنها علمانية في العمق، وأن المؤسسات ليس لها من الحداثة سوى التسمية، أما آلياتها وآداؤها فينم على أنها دولة دكتاتورية تسلطية، لم تترك أي مجال خارج دائرة نفوذها وأنها تراقب وتسيطر على ضمائر الناس، وقد اتَّضَح أن «**أبورقيبة**» في تونس جاء من فرنسا ليركب الموجة العالية موجة الإسلام، فيستميل الإسلاميين ويتبنى مطالبهم، وينال تأييدهم، ليكون هو أول من ينقلب عليهم بعد ذلك، حيث ألغى

جامعة الزيتونة وحولها إلى كلية للشريعة فقط ذراً للرماد في العيون، وألغى الأوقاف الإسلامية والمحاكم الشرعية، وأبطل كثيرا من الأحكام الإسلامية المتعلقة بالأحوال الشخصية، ولم ينص الدستور على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام وأباح الإفطار في رمضان بل وجاهر به، وفى عهده ديست كل القيم، وتم تغريب المجتمع التونسي.

هذا الذي ذكرناه في تونس يتكرر في الأنظمة الثورية الانقلابية في العراق وليبيا والجزائر وغيرها من البلاد، فهى ليست بأقل سوءا في الانقلاب على الإسلاميين بعد أن وصلت إلى سدة الحكم بمساندة ودعم الحركات الإسلامية التى دافعت عن هذه النظم ووقفت إلى جوارها، آملة منها أن تعمل على إقامة نظام الإسلام في البلاد ولكن سرعان ما تبين لها أنها واهمة، وأن الوهم زين لها ما ليس متاحا ولا صحيحا، فلم تزدد هذه الأنظمة إلا بعدا عن الإسلام، وانحرافا عن الخط المستقيم، وارتماء في أحضان الشرق تارة والغرب أخرى، وتبديدا لثروة الأمة والدخول بها فى متاهات أضاعت الأرض واستسلمت للعدو، ورضيت بما لم ترض به النظم السابقة على الثورات الانقلابية، فلما عارض الإسلاميون ذلك زج بالآلاف منهم في السجون والمعتقلات، وحوكم بعضهم وأعدم آخرون، وخفت الصوت الإسلامى، وعلا الصوت العلمانى، وأدرك الإسلاميون أن حظهم مع أنظمة الحكم الانقلابية فاق حد الخداع، ووصل إلى الضرب حتى إزالة النخاع.

* * *



ملحق (٣)

ملحق (٣)

انقلاب الضباط الأحرار يخلص بريطانيا من الملك فاروق

جاء انقلاب مجموعة الضباط الأحرار على الملك فاروق فى فترة هيجان شعبى وطنى ضد الوجود البريطاني فى مصر والسودان، وكانت هناك قوى سياسية وطنية تعمل على تخليص البلاد نهائيا من الاستعمار، وتطالب بإصلاحات سياسية واقتصادية دون التشكيك فى شرعية الملكية، خاصة وأن فاروق أعلن نفسه ملكا على مصر والسودان، مما يعني تبنيه للقضية الوطنية والمسألة السودانية، فوجدت نفسها فى ورطة أمام جمع الملك للقضيتين وتبنيه لهما معا، وأصبحت تطالب بإلغاء ملكيته على السودان أو التنحى، وبالتالى فإنها تدعم كل من يزيحه عن الحكم، وهى المهمة التى قام بها الضباط الأحرار فى انقلاب يوليو ١٩٥٢م لم تتحرك القوات البريطانية ولم تقم بأى شىء مناوئ للانقلابيين وهى الرابضة فى السويس، هذا بالنسبة لبريطانيا العظمى فماذا عن موقف أمريكا؟

انقلاب يوليو الأمريكي :

يعلم مؤرخو الانقلاب أن الضباط الأحرار كانوا على اتصال بالمخابرات الأمريكية (كان الاتصال بين المخابرات الأمريكية وتنظيم الضباط الأحرار يتم عن طريق –علي صبرى ـ الذى يشتغل بمخابرات سلاح الطيران المصرى) كانت السفارة الأمريكية على علم بأنه توجد عملية ما يرتب لها الضباط (أعلم الضباط الأحرار المخابرات الأمريكية بالانقلاب قبل حدوثه بأسبوع أى بتاريخ ١٩ يوليو) كما بادر الضباط ومنذ الساعات الأولى للانقلاب إلى إعلام السفارة الأمريكية (أبلغ علي صبرى ـ السفارة الأمريكية نبأ الانقلاب الساعة الرابعة صباحا من يوم ٢٣ يوليو وأكد لها أن النظام الجديد يضمن سلامة أشخاص وممتلكات الأجانب المقيمين فى مصر) لم تستغرب السفارة الأمر وتبنت مهمة إقناع البريطانيين بجدوى الانقلاب، كانت أمريكا تبحث هى أيضا عمن يمسك الأمور بيده حتى لا يؤدى الوضع إلى ثورة وطنية معادية للاستعمار دون أن تتمكن من توجيه القائمين عليها الوجهة التي تريدها، كما أنها كانت تلاحظ تراجع الاستعمار التقليدي في المشرق العربي وتقدم الاتحاد السوفيتي وكانت أمريكا ترى أن فرنسا وبريطانيا

عاجزتان عن التصدى للزحف الروسى؛ لذلك كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على احتلال المواقع التى قد تتركها بريطانيا وفرنسا في الشرق الأوسط فى إطار ما أطلق عليه «**الاستعمار الجديد**» الذي يتمثل فى تنصيب أنظمة طيعة وتابعة للقوى الاستعمارية تنوب عنها فى تنفيذ أغراضها، دون أن تضطر هذه القوى للنزول بجيوشها لاحتلال المستعمرات، هكذا ظهرت عبارات من نوع «**ثورة يوليو الأمريكية**» لدى البعض، إن العلاقة المشبوهة للانقلابيين بالقوى الدولية الاستعمارية ستتأكد فيما بعد عندما توقع مصر على اتفاقية الجلاء مع الإنجليز يوم ١٩ اكتوبر ١٩٥٤م والتي كانت تنص على إمكانية استعمال الأراضى المصرية من طرف القوى البريطانية إذا ما وقع الاعتداء على بعض الدول الحليفة لبريطانيا فى المنطقة (الفقرة الرابعة من الاتفاق)، هذا يعني بقاء ضمني للقواعد العسكرية البريطانية فى مصر.

أمريكا جهزت مصر بإذاعة صوت العرب وأنقذت عبد الناصر من السقوط فى حرب السويس:

أما فيما يخص الأمريكان فإنه كان لهم شرف تجهيز مصر سنة ١٩٥٤م بتجهيزات الإرسال الإذاعى لمحطة صوت العرب التي ستعتمد كأداة رئيسية للدعاية المصرية فى العالم العربي، كما قام الأمريكان بإقناع الإنجليز أن الانقلاب الناصرى هو المخرج الوحيد من الأزمة التي نشبت بينهم وبين القصر إثر إعلان فاروق نفسه ملكا على مصر والسودان، كما أننا لاننسى الدور الأمريكي فى إنقاذ نظام عبد الناصر إثر العدوان الثلاثي على مصر في إطار أزمة تأميم قناة السويس سنة ١٩٥٦م، فإن الدارس لوقائع حرب السويس يلمس بوضوح انهزام النظام المصرى وتراجعه وكان بإمكان القوات البريطانية والفرنسة التي كانت تتقدم نحو القاهرة إسقاط عبد الناصر لولا الضغوطات الأمريكية والسوفياتية عبر الأمم المتحدة.

التأميم سياسة فاشلة والتنمية من مشمولات المجتمع لا الدولة.

إن التحول الذي حدث في التوجه المصرى من المعسكر الغربى إلى المعسكر الشرقي لم يكن اختيارا استراتيجيا بقدر ما كان رد فعل على تلكؤ الأمريكان والغرب عموما فى

مسألة تمويل السد العالى، كان عبد الناصر يقول: إن الشيوعية خطر ولكن الاستعمار أخطر منها، لكن أن يتحول عبد الناصر من متحالف مع الغرب إلى متحالف مع الشرق ليس هو المهم بالنسبة لنا طالما أن علاقاته هذه لم يستفد منها المجتمع ولا الدولة المصرية بقدر ماكانت فى كل الحالات تخدم مصلحة القوى الاستعمارية والفئة المتنفذة فى البلاد.

لم تستفد مصر كثيرا من السياسات الناصرية باعتبار أن الاشتراكية والتأميم لم تكن نتيجته سوى القضاء على طبقة الرأسمالية الوطنية التى تكونت نواتها منذ ما قبل محمد علي - والتي ضربت للمرة الأولى من طرف هذا الأخير ثم تشكلت من جديد واستطاعت أن تفلت إلى حد ما من الانقراض فى ظل الاستعمار البريطانى، وجاء انقلاب الضباط الأحرار ليقضى عليها ويعطل الدور التنموى الذى كان من المفروض أن تقوم به، لقد ثبت بطلان أيديولوجية الدولة الوطنية التنموية إذ عجزت هذه الأخيرة في إحداث النقلة الحضارية والإقلاع الاقتصادى والرخاء بتحملها لكل أعباء مقاومة التخلف وتصديها لهذه المهمة بصورة فوقية، وكأن التقدم هو من مهام الدولة وحدها دون بقية مكونات المجتمع من قطاع خاص، ومجموعات محلية، ومنظمات حرفية وقطاعية، عجزت الدولة فى ظل الانقلابيين عن القيام بالمهام التي كانت تقوم بها بعض فئات المجتمع بتنسيق أو بمعزل عن الدولة، وكانت نتيجة هذه السياسات تضخم جهاز الدولة إلى حد حوّلها إلى إدارة ثقيلة تعطل سير الحياة أكثر مما تسهلها، مصابة بالفساد فى كل مستوياتها قاضية على المبادرة الفردية، تحولت الطبقة السياسية بمفعول ما تجمع بيدها من نفوذ وأدوات السلطة إلى طبقة اجتماعية تكونت ثروتها من استغلالها لمواقعها فى جهاز الدولة لا من تعاطيها نشاطا ما فكانت بذلك طبقة طفيلية.

استغل الضباط انتفاضة الوطنيين ضد بريطانيا لتحقيق الانقلاب، حسب مذكرات أنور السادات كانت مهمة الانقلابيين تتمثل فى مقاومة الاستعمار، والعرش، والإقطاع، وإقامة حياة ديمقراطية حرة، أما مقاومة الاستعمار فإننا بينا العلاقة التي كانت للضباط مع المخابرات الأمريكية واتفاقية ١٩٥٤م مع بريطانيا لكننا نريد أن نضيف هنا أنه لم يكن للضباط دور يذكر سنة ١٩٥١م و ١٩٥٢م عندما كان الوطنيون يقاومون القوات

البريطانية فى القناة والإسماعيلية، كان للوفد والإخوان والبوليس المصري جولات مع العساكر البريطانيين كما شهدت مصر حركة عصيان مدنى إذ غادر آلاف العمال مواقع عملهم فى المعسكرات البريطانية وكانت المظاهرات تجوب شوارع أهم المدن تنظمها القوى الوطنية المعادية للتواجد البريطانى، دامت هذه الحركة حوالى ثلاثة اشهر (١٩٥١ـ ١٩٥٢م) ولم يكن حقيقة للضباط الأحرار دور مباشر، كانت المواجهة التي قادها الوفد والإخوان مع القوات البريطانية والتي وصلت حتي حرب العصابات قد اندلعت شرارتها لما مورست ضغوط غربية ضد الحكومة المصرية في شهر أكتوبر ١٩٥١م لانضمامها إلى سياسة الأحلاف التي كان ينتهجها الغرب فى البحر الأبيض المتوسط، توافق رفض الحكومة الوفدية لسياسة الأحلاف هذه مع تراجعها عن اتفاقية مصر وبريطانيا المتمثلة في معاهدة ١٩٣٦م، (معلوم أن هذه المعاهدة تسمح لبريطانيا بالاحتفاظ بقواعد عسكرية بمنطقة قناة السويس).

إن إلغاء هذه المعاهدة وإعلان فاروق نفسه ملكا علي مصر والسودان والدخول في مواجهة مع البريطانيين فى مصر يكذب ادعاءات الانقلابيين أنهم الوحيدون الذين يعملون على التخلص من الاستعمار باعتبار أن القوى الوطنية دخلت مرحلة تصفية الوجود البريطاني فى حين كان الضباط يخططون للانقلاب وتسلم السلطة مما أجل التخلص من القوات الاستعمارية، وفتح مصر بشكل آخر للاستعمار الجديد، ماذا كان يفعل الضباط الأحرار عندما كان الإخوان المسلمون وغيرهم من القوى الوطنية الصادقة يخوضون المواجهة مع القوات البريطانية فى نهاية ١٩٥١م وبداية ١٩٥٢م؟ ما هو الدور الحقيقى الذى كان للضباط الأحرار فى تلك المواجهة؟

أولا: أنهم لم يشاركوا في المواجهة إلا بصورة غير مباشرة. ثانيا: اكتفى الجيش المصري بتدريب المتطوعين وتسليحهم فقط، كان الضباط يريدون استغلال الوضع المتفجر لإنجاز انقلابهم الذي كان مخططا له سابقا أن يتم سنة ١٩٥٥، هكذا قام الضباط باستثمار مجهود غيرهم لصالحهم ولصالحهم فقط رغم أنهم أوهموا العديد من التنظيمات الوطنية أنهم على اتفاق تام فى الأهداف مما جعل العديد من الوطنيين ينظرون إلى حركة الضباط على أنها

ثورتهم.

الضباط على اتصال بكل الأحزاب والجماعات :

كان الضباط على اتصال بالإخوان وبعض التنظيمات اليسارية كما كان بعض الضباط مثل ناصر - على علاقة منذ شبابه مع تنظيم مصر الفتاة، كان بعض الضباط الأحرار على علاقة بالإخوان منذ بداية الأربعينيات (تحديدا سنة ١٩٤١)، وكان أبرز الذين اتصلوا بالإخوان هم أنور السادات، وعبد المنعم عبد الرؤوف، ثم الملازم كمال الدين حسين الذي كان يعمل فى سلاح المدفعية، وكان السادات هو مندوب الاتصال بين الضباط الأحرار - الذين لم يشكلوا تنظيما حقيقيا إلا سنة ١٩٤٩م - والإخوان سنة ١٩٤٥م و ١٩٤٦م، أما زمن المواجهة مع القوات الإنجليزية سنة ١٩٥١م وبداية ١٩٥٢م فقد كان عبد الناصر نفسه على علاقة بعبد القادر عودة من الإخوان.

إلى جانب علاقاتهم بالإخوان كان الضباط على اتصال بتنظيمات أخرى، كالشيوعيين، وكان ممثل الضباط هو خالد محيى الدين، واعتقد الشيوعيون مثل غيرهم أن الضباط الأحرار أعضاء بتنظيمهم، بل أكثر من ذلك، تشير بعض المصادر الى أن الشيوعيين سجلوا اسم عبد الناصر فى قوائم المنتظمين لديهم، من جهة ثالثة كان الضباط الأحرار علي اتصال أيضا بحزب الوفد عن طريق ثروت عكاشة.

وتشير العديد من المصادر إلى أن عبد الناصر كان علي علاقة مع أكثر من حزب وتنظيم وعلى اتصال بشخصيات عديدة اختلفت انتماءاتها، فى حين كان يخفى عن زملائه العديد من هذه العلاقات ويستعملها للاطلاع على مواقف ومخططات هذه الأحزاب، كان لا يصرح بنواياه وحساباته، إلا أن المهم فى كل ذلك أنه كسب ثقة الشخصيات والأحزاب التي كان الضباط على اتصال بها واستثمرها لصالح الانقلاب، وكانت الشعارات التي رفعها الانقلابيون ليست إلا من قبيل الطعم الذى يريد به استدراج الأحزاب والشعب لتأييده، إنها شعارات كاذبة والمثال الصارخ على ذلك مسألة الديمقرطية.

هل آمن الضباط يوما بالديمقراطية؟

عندما حدث انقلاب الضباط كانت مصر تعيش فى ظل نظام ملكى، مع وجود برلمان

منتخب، وحكومة مسؤولة أمامه، وتعددية حزبية وحرية إعلام منقطعة النظير فى العالم العربى، وهنا يطرح السؤال عن طبيعة وخصوصيات النظام الديمقراطى الذى ينوي العسكريون إقامته في مصر على أنقاض النظام الملكى البرلمانى التعددى السابق؟ الجواب على هذا السؤال لا يكون إلا بدراسة طبيعة نظام الحكم الذي أقامه الانقلابيون وإن كانت توجد لدينا بديهية مفادها أن الديمقراطية لا تولد أبدا من رحم الانقلابات بصفة عامة والعسكرية منها بصفة خاصة.

انتصب في مصر على مراحل نظام عسكري دكتاتوري وإن خلع الضباط ابتداء من سنة ١٩٥٦ الزي العسكري ليحكموا على أساس صفتهم المدنية، ولكن بعقلية وأساليب سلطوية، في الحقيقة انكشف الوجه الدكتاتورى لمجموعة الضباط الأحرار منذ الأيام الأولى، وإن حاولوا إخفاء ذلك بتعيين وزارة مدنية كان على رأسها علي ماهر ـ شديد العداء للإنجليز مما يرضى ويطمئن العديد من الأطراف الوطنية والملك، وبعض القوى الأجنبية، كان علي ماهر بالنسبة للضباط عبارة عن واجهة تعتمد عليها لفترة ما، وفعلا لم يبق على رأس الوزارة أكثر من شهر، إذ عزل لقوة شخصيته وشدة عدائه للإنجليز، فى نفس الإطار وإثر التخلص من علي ماهر ـ أرغم الضباط الملك فاروق على التنحي لصالح ابنه الذى وضع تحت وصاية هيئة مكونة من ثلاثة أشخاص من بينهم أحد الضباط الأحرار.

كان الضباط الأحرار فى الأشهر الأولى من حكمهم يفكون حلقات المجتمع السياسي السابق الواحدة تلو الأخرى فى اتجاه سيطرتهم التامة على السلطة والمجتمع، إلا أن مستقبل علاقة الضباط بالمجتمع وحقه في التعبير والاحتجاج والمطالبة خارج القنوات الرسمية والصيغ المقررة له مسبقا ستنكشف بمناسبة إضراب عمال مصنع الغزل بكفر الدوار، جاء هذا الإضراب الذى قام به حوالى عشرة آلاف عامل بعد ثلاثة أسابيع فقط من انقلاب الضباط، وكان العمال يطالبون من زمان بتحسين أوضاعهم المعيشية والمهنية، فما كان من السلطة الوطنية الجديدة إلا أن واجهت المضربين بإطلاق النار عليهم فقتل بعضهم وأعدم البعض الآخر فيما بعد مع إيقاف حوالى ٢٠٠ عامل. ومهما كانت

منطلقات العمال المصريين السياسية أو الفكرية ـ وإن كان الاضراب احتجاجا على تباطؤ الإدارة فى تلبية المطالب الملحة ـ فإن قمع الإضراب بتلك الوحشية ينم عن تصور الضباط لدور الشعب على اختلاف فئاته في الحياة السياسية والاجتماعية، وهو تصور يتنافى والشعارات التي رفعها الضباط والمتمثلة فى الديمقراطية.

إثر حريق القاهرة يوم ٢٦ من يناير ١٩٥٢م استعان الملك فاروق بالجيش ونشر يومها الضباط الأحرار ما يلى :مهمة الجيش هي العمل على استقلال البلاد وإن وجود الجيش فى شوارع القاهرة إنما هو لإحباط مؤامرة الخونة، لكننا لانقبل ضرب الشعب، ولن نطلق رصاصة واحدة على مظاهرة شعبية، يجب أن يفهم الجميع أننا مع الشعب الآن ومع الشعب دائماً (المصدر: منشورات الضباط الأحرار) هذا ماكان يعلنه الضباط الأحرار قبل انقلابهم أما بعده مباشرة فإنهم تعاملوا بالطريقة التي بيناها سابقا مع العمال المضربين.

سيتأكد فى الأشهر التي تلت الإضراب اتجاه الضباط نحو تحييد مؤسسات المجتمع الأهلى من خلال علاقة السلطة بالأحزاب والنقابات، ومن جهة أخرى تخلت عن الواجهة المدنية لحكمها بتنصيب ضابط على رأس الوزارة هو نجيب، وإن كان هذا الأخير أكثر الضباط شعبية، والذي سيرتقى ليصبح أول رئيسا للدولة لكنهم سيتخلون عنه عندما ابتدأ الصراع مع الأحزاب ويظهر أن نجيب لم يكن فى يوم من الأيام من مجموعة الضباط الأحرار وإن كان قريبا منهم.

سبقت عملية حل الأحزاب التخلص من بعض رموزها في إطار ما سمي بتطهير الأحزاب، وهو الطلب الذى توجه به الضباط إلى الأحزاب وكان فى الحقيقة الغاية منه إضعافها بإحداث صراعات فى داخلها تجعلها غير قادرة على مقاومة السلطة الجديدة، كانت فى مصر في بداية الخمسينيات أحزاب وتنظيمات سياسية عريقة وقوية ولها شعبيتها ونشطاتها وهذا لا يمكن للنظام الجديد تجاهله وذلك مثل جماعة الإخوان وحزب الوفد الذى كان يتزعمه النحاس.

كان للأحزاب والنقابات موقف إيجابي من الانقلاب على أساس أن الجيش سيعود إلى ثكناته ويسلم السلطة إلى المدنيين وتتواصل بعد ذلك الحياة الديمقراطية، وكان ذلك وهما

باعتبار أن الضباط سيخلعون الزى العسكرى، ويبقون فى السلطة على أساس أنهم مدنيون، فهمت الأحزاب والنقابات ذلك سنة ١٩٥٤م، فطالبت نقابة المحامين والصحفيين بوضع حد للحكم العسكرى بإعلان الحريات والحكم الديمقراطى وعودة العسكر إلى الثكنات، وأدى ذلك إلى مواجهة بين الضباط والصحفيين كانت نتيجتها حل النقابتين.

إن عملية التطهير هذه كانت قد انطلقت فى صفوف الجيش منذ الأيام الأولى للانقلاب ثم طالت أجهزة الدولة والأحزاب لأن الضباط الأحرار لا يتصورون أنفسهم يحكمون البلاد فقط بل أصبح الولاء هو المعيار الوحيد لتحمل المسؤولية، وإثر محاولة تأزيم الأحزاب بخلق صراعات فى داخلها عمدت السلطة الجديدة فى مرحلة ثانية إلى منعها كما منعت المظاهرات والإضرابات

وحلت النقابات والجمعيات وانتهت بذلك الحياة الديمقراطية لتحل محلها الدكتاتورية.

معلوم لدى الجميع أنه فى ظل هذه الدكتاتورية ولدت الإدارة الثقيلة والفاسدة وتعمق التخلف فى المجالات سواء منها التعليمية والتربوية أو الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ بقيت البنية التحتية الضرورية للتنمية متخلفة جدا، والمقارنة اليوم بين الخدمات فى المغرب الأقصى الملكى والجزائر الجمهورية تبين بوضوح أن الأنظمة العسكرية الانقلابية لم تنجح في تحقيق ما رفعته من شعارات رغم ما أتيح لديها من إمكانيات مادية ضخمة ولا مجال للمقارنة بين الثروة البترولية التي تمتلكها الجزائر وموارد المغرب الأقصى، أما العراق فإنه وجه كل طاقاته لتطوير أسلحة الدمار التي استعملها فى النهاية ضد شعوب عربية ومسلمة ـ الغزو العراقي الآثم على الكويت وجيرانها ـ وضد شعبه بالذات وترك الشعب العراقي فى غذائه وأدوائه رهنا للخارج، كما أنه لامجال للمقارنة بين البنية التحتية لدول الخليج اليوم والأقطار العربية النفطية المحكومة من طرف العسكرين، ألم يكشف بعض المسؤولين الجزائريين النزهاء أن ديون الجزائر تعادل ماقبضه بعض المرتشين فى أجهزة الدولة من الشركات الأجنبية ووضعوه فى حساباتهم فى البنوك بالخارج!.

فى الوقت الذي كان عبد الناصر يبحث عن قروض من البنوك الدولية لتمويل بعض المشاريع الخيالية في مصر كان يجد ملايين الدولارات ليمول التدخل المصرى في اليمن إثر الإطاحة بالإمامية سنة ١٩٦٢م، أما على المستوى السياسي فإن القمع الوحشى للمعارضين فى مصر لم يشهده أى بلد عربى، كما لم يعرفه المصريون فى عهد الملكية، ولا يستغرب ذلك من نظام جمهورى انقلابى عسكرى كان زعيمه يمارس لاغتيال حسين سرى عامر يوم ٧ من يناير ١٩٥٢م وهو الضابط الذى نافس نجيب مرشح الضباط الاحرار لرئاسة نادى الضباط يوم ٦من يناير ١٩٥٢م؟ وهذا يذكرنا بأن ممارسة الاغتيال السياسي تلزم العقلية الانقلابية لدي العسكريين العرب، هنا لابد من التذكر أن صدام حسين الدكتاتور العربى الآخر تورط هو أيضا سنة ١٩٥٩م فى محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم، تفاقمت فى الحقيقة ظاهرة الاغتيال السياسي فى العالم العربى مع ازدياد عدد الأنظمة والحركات الانقلابية.

ولا يخفى على أحد أن وحشية هذه الأنظمة فى تعاملها مع معارضيها وشعوبها تعود إلى أن القائمين عليها دخلوا عالم السياسة متسلقين الجدران أو من الأبواب الخلفية، عاملين على تحويل الأقطار التي يحكمونها إلى ثكنات، سكانها من الجنود المطلوب منهم الطاعة العمياء للقيادة، وفى كثير من الأحيان يعاملون معارضيهم أو شعوبهم اذا ما تمردت عليهم معاملة العسكرى لعدوه فى الحرب بل يتجاوزون ما تسمح به أخلاقيات الحرب باعتبار أنهم ينكلون بأناس عزل شر التنكيل، إن التعذيب والمعاملات غير الإنسانية التي يتعرض لها المعارضون فى سجون الجمهوريين الانقلابيين الذين جاؤوا لتوفير نظام الحرية والديمقراطية إلى غير ذلك من الشعارات ليذكرنا بممارسة أعتى أعداء الانسانية فى العصور الحديثة، ألم يصل الأمر بصدام حسين - إلى استعمال الأسلحة المحرمة دوليا ضد أبناء شعبه؟ (حادثة حلبجة على الأكراد والعراقيين).

كم عالم وشيخ أهين أو عذب أو قتل أو شرد فى أحسن الأحوال من طرف الأنظمة الجمهورية الانقلابية؟ إن القائمة طويلة وطويلة جدا، بل أكثر من ذلك أن العلماء والدعاة إلى الله الذين تمكنوا من النجاة بشكل أو بآخر من أنظمة السوء الدموية هذه وجدوا الرعاية والأمن لدى الأنظمة الملكية.

المصادر والمراجع

- أ -

* أولاً: القرآن الكريم.

* ثانياً:

١ - إبراهيم أحمد العدوي، رشيد رضا - أعلام العرب «٣٣» مصر ١٩٦٤م.

٢ - إبراهيم عبدالرحمن آل خميس أسود آل سعود، دار النجاح، بيروت سنة ١٩٧٢.

٣ - ابن الأثير، الكامل في التاريخ - دار صادر بيروت ١٩٨٢م.

٤ - ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، دار المعرفة بيروت - ط٢ ١٣٩٥/١٩٧٨م.

٥ - ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربى بيروت بدون تاريخ.

٦ - الحافظ ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، تحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم - بيروت ط٧ - سنة ١٤٠٢هـ - سنة ١٩٨١م.

٧ - الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف - بيروت - ط ٥ سنة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

٨ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

٩ - أبو يعلى، الأحكام السلطانية.

١٠ - أحمد السباعي، تاريخ مكة - مصر ١٣٨٢ هـ.

١١ - أحمد أمين؛ زعماء الإصلاح - مكتبة النهضة - مصر، ط٣ - ١٩٧١م.

١٢ - أحمد بن حجر آل بن علي، الشيخ محمد بن عبد الوهاب، من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والدعوة والإشاد في المملكة العربية السعودية ١٣٩٩ هـ.

١٣ - أحمد ربيع عبد الحميد خلف الله، الفكر التربوي وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين مكتبة وهبة - مصر - ط ١ - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

١٤ - أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية، دار لبنان للطباعة والنشر - بيروت

١٩٦٧م.

١٥ ـ إسماعيل إبراهيم أبو شريعة، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، مكتبة الفلاح ـ الكويت ـ ط ١ / ١٤١٠ ـ ١٩٨١م.

ـ ب ـ

١٦ ـ بشير محمد سعيد، في السياسة السودانية، الخرطوم، ط١، ١٩٩٣م.

١٧ ـ بنت الشاطئ، نساء النبي، دار الكتاب ـ بيروت ١٩٦٩.

ـ ت ـ

١٨ ـ تقي الدين أحمد ابن تيمية،السياسة الشرعية،دار المعرفة ـ بيروت بدون تاريخ.

١٩ ـ تقي الدين ابن تيمية رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق صلاح الدين المنجد.

٢٠ـ ت . أ ـ لورنس، مذكرات، أعمدة الحكمة السبعة، المكتبة الأهلية، بيروت، ط ٢ سنة ١٩٧١م.

ـ جـ ـ

٢١ ـ جمال الدين الأفغاني، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٢ سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٢٢ ـ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط ٧، سنة ١٩٨٢ م.

٢٣ ـ جمهورية السودان. الاستراتيجية القومية الشاملة، ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٢م، ط٢ سنة١٩٩٢م، مطبعة جامعة الخرطوم.

ـ حـ ـ

٢٤ ـ حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، منشورات جامعة بيروت العربية ـ ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٥ ـ حسن ابراهيم حسن،تاريخ الإسلام، دار النهضة المصرية ـ ط٧سنة ١٩٦٤م.

٢٦ ـ حسن البنا، مجموعة رسائل ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٢٧ ـ حسن الترابي، الحركة الإسلامية في السودان، الخرطوم، ط١ ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٨ ـ حَسنَ الهضيبي، دعاة لا قضاة، القاهرة ١٩٧٧م.

٢٩ ـ حسين مؤنس، الحضارة، عالم المعرفة «١» الكويت ـ صفر ١٣٩٨، يناير ١٩٧٨م.

ـ خ ـ

٣٠ ـ خالص جبلي ـ في النقد الذاتي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ سنة ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م.

٣١ ـ خير الدين التونسي، مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق معن زيادة دار الطليعة بيروت ط١ سنة ١٩٧٨م.

٣٢ ـ خير الدين الزركلي، الإعلام قاموس،... دار العلم للملايين ـ بيروت ط٥ ـ سنة ١٩٨٠م.

٣٣ ـ راشد الغنوشي، الحريات العامة في الدولة الاسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ ط ١ ـ سنة ١٩٩٣م.

٣٤ ـ الإمام الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، تحقيق ابراهيم بركة، دار النفائس ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٩٢م ـ ١٤١٤هـ .

٣٥ ـ زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية ـ دار النهار، بيروت ـ ط ٣ سنة ١٩٧٩م.

ـ س ـ

٣٦ـ سيد قطب، في ظلال القرآن، ط ٥ سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧م.

٣٧ ـ سليمان الطماوي،عمر بن الخطاب، دار الفكر العربي القاهرة ـ ١٩٨٠.

٣٨ ـ سليمان موسى، الحركة العربية ١٩٠٨م ـ ١٩٢٤م، دار النهار بيروت ـ ط٢، ١٩٧٧م.

٣٩ ـ السيوطي، تاريخ الخلفاء ـ مصر ـ ط١ ـ سنة ١٩٥٢م.

ـ ش ـ

٤٠ ـ الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة ـ بيروت ـ بدون تاريخ «**٤ مجلدات**».

٤١ ـ الشهرستاني «**نهاية الاقدام**» تحقيق الفرد جيوم، بدون تاريخ بدون مكان نشر.

ـ ص ـ

٤٢ ـ صلاح شادي، صفحات في التاريخ، الكويت، ط ٢ سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.

٤٣ ـ صحيح البخاري، منشورات دار النفائس ـ بيروت ـ ط ٢، سنة ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥م.

ـ ط ـ

٤٤ـ طامي البقي، التطبيقات العملية للحسبة في المملكة العربية السعودية، رسالة دكتوراه ـ ط ١ ـ سنة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥م الطائف الجمعية الخيرية بتربه.

٤٥ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار القلم، بيروت بدون تاريخ.

٤٦ ـ طعيمة الجرف، نظرية الدولة والأسس العامة للتنظيم السياسي.

ـ ع ـ

٤٧ ـ عبد الحميد الأنصاري الشوري وأثرها في الديمقراطية، القاهرة، ط١ ـ سنة ـ ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠م.

٤٨ ـ عبد الحميد الثاني، السلطان، مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٧م ـ ١٣٩٧ هـ.

٤٩ ـ عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ عجائب الأمصار في التراجم والأخبار، دار الجيل بيروت، بدون تاريخ.

٥٠ ـ عبد الرحمن بن عبد الله آل الشيخ «**مشاهير علماء نجد وغيرهم**»، دار اليمامة، ط ٢ سنة ١٣٩٤ هـ.

٥١ ـ عبد الفتاح ساير داير، القانون الدستوري.

٥٢ ـ عبد القديم زلوم، كيف هدمت الخلافة، دار الأمة للطباعة والنشر بيروت ـ ط٣

سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٥٣ - عبد الكريم زيدان، السنن في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية مؤسسة الرسالة - بيروت، ط ٢ - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٥٤ - عثمان بن بشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، وزارة المعارف السعودية في المملكة العربية السعودية ١٣٨٧ هـ.

٥٥ - على الطنطاوي، محمد بن عبدالوهاب، دار الفكر، دمشق - ط ١ - سنة ١٩٦١م.

٥٦ - علي جريشه، دعاة لا بغاة، دار البحوث العلمية الكويت - ط١ - سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٧ - علي عبد الحليم محمود، رسائل التربية عند الإخوان المسلمين دار الوفاء مصر، ط ١ سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م.

- ف -

٥٨ - فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٥٩ - فتحى يكن، المسألة اللبنانية من منظور إسلامي، المؤسسة الاسلامية للطباعة والصحافة - بيروت - ط ١ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

٦٠ - فتحى يكن، الموسوعة الحركية، مؤسسة الرسالة بيروت ط ١ - سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

٦١ - فتحى يكن، الإيدز الحركي، المؤسسة الاسلامية للطباعة والصحافة، ط ١، سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

٦٢ - القرطبي - الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م.

- ل -

٦٣ - لورانت شايرى، السياسة وأقليات في الشرق الأدني ترجمة ذوقان قرقوط، مكتبة

مدبولي مصر - ١٤١١ - ١٩٩١م.

- م -

٦٤ - المسعودي (مروج الذهب)، دار الأندلس - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٣.

٦٥ - أبو الحسن بن على المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مطبعة السعادة مصر.

٦٦ - الماوردي، الأحكام السلطانية،دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٦٧ - مايلز كوبلان، لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني بيروت ١٩٧٠م.

٦٨ - محمد بن علي الشوكاني - نيل الأوطار - مطبعة الحلبي - الطبعة الأخيرة .

٦٩ - محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي، دار النفائس - بيروت - ط ٦ - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٧٠ - محمد رشيد رضا، نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة، دا الفكر القاهرة، ط٢ ١٩٧٣م.

٧١ - محمد رشيد رضا، مجلة المنار، مصر.

٧٢ - محمد عبده، الأعمال الكاملة، تحقيق وتقديم: محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - ط ٢ سنة ١٩٧٩م.

٧٣ - محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية دار البيان الكويت - ط ٢ سنة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م.

٧٤ - محمد فاروق النبهاني، نظام الحكم في الإسلام، موسسة الرسالة بيروت - ط٢ سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٧٥ - محمد فؤاد ابراهيم وغيره، المعرفة سويسرا، تم الإنتاج في بيروت.

٧٦ - محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل - بيروت - ١٣٩٧ - ١٩٧٧م.

٧٧ - محمود حلمي، نظام الحكم الإسلامي مقارناً بالنظم المعاصرة دار الفكر القاهرة -

ط ٢ ـ سنة ١٩٨٣م.

٧٨ ـ مصطفي الرافعي، الدعوة والدعاة في الإسلام، دار الشمال لبنان ـ ط ١، سنة ١٩٧٧م.

٧٩ ـ مصطفي طورات، أسرار الانقلاب العثماني ترجمة كمال خوجه، دار السلام، ط ١ ـ ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٨٠ ـ مصطفي محمد الطحان، الحركة الاسلامية الحديثه في تركيا ألمانيا الغربية ـ ط١ ـ سنة ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

٨١ ـ مصطفي محمد الطحان، القومية بين النظرية والتطبيق، دار الوثائق الكويت ـ ط ١ ـ سنة ١٤٠٩ ـ ١٩٨٩م.

٨٢ ـ معن ذيادة، معالم علي طريق تحديث الفكر العربي ـ عالم المعرفة الكويت ـ العدد «١١٥» تموز ١٩٨٧م.

٨٣ ـ منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، بدون ناشر ـ ط ٢ لسنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣م.

٨٤ ـ المجلس القومي للإعلام الخارجى، الخرطوم، الكتاب الأبيض، الزج باسم السودان في محاولة اغتيال الرئيس المصري.

٨٥ ـ المملكة العربية السعودية، تنظيم الأعمال الإدارية في الدوائر الشرعية رقم ١٠٩ في ٢٤/ ١/ ١٣٨٢.

٨٦ ـ المملكة العربية السعودية النظام تركيز مسؤوليات القضاء الشرعى ـ ط ٤ ـ الرياض ـ سنة ١٣٩٨ هـ.

٨٧ ـ المملكة العربية السعودية، مجلس الوزراء نظام هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولائحته التنفيذية ـ الرياض ـ ط١ سنة ١٤١١هـ.

٨٨ ـ المملكة العربية السعودية، نظام ديوان المظالم ومذكراته الإيضاحية، المرسوم الملكي رقم م/ ٥١ تاريخ ١٧/ ٧/ ١٤٠٢ ـ الرياض.

٨٩ ـ المملكة العربية السعودية ـ وزارة الإعلام تاريخ حضارة التنمية.

٩٠ ـ المملكة العربية السعودية، مجلس الوزراء، شعبة الخبراء، نظام مكافحة الغش التجاري ولائحته التنفيذية ـ ط٢ ـ الرياض ١٤٠٣ هـ.

٩١ ـ المملكة العربية السعودية، سياسة التعليم ـ ط ٣ ـ سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

ـ ي ـ

٩٢ ـ الشيخ د. يوسف القرضاوي، بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٢ ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٩٣ ـ الشيخ د. يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، مؤسسة الرسالة، بيروت ط ٣ ـ سنة ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢م.

٩٤ ـ بيانات الإخوان المسلمين في مصر:

ـ نص البيان القاهرة ـ ٢٧ جمادي الآخرة١٤١١ هـ الموافق ١٣ يناير ١٩٩١م.

ـ البيان المؤرخ ٢/ ٣/ ١٩٩١ م.

٩٥ ـ بيانات الإخوان المسلمين في سوريا:

ـ برقية بعث بها نائب المراقب العام للإخوان المسلمين في سوريا : عدنان سعد الدين ـ البيانوني للرئيس العراقي.

ـ نداء من الإخوان المسلمين في سوريا ٢١/ ١/ ١٩٩١م.

ـ بيان صادر من العراق في رجب ١٤١١ هـ ـ ٢١/ ١/ ١٩٩١م.

٩٦ ـ بيان صادر عن الحركة الإسلامية في تونس بتاريخ ٣٠/ ١/ ١٩٩١م.

❋ المجلات والدوريات والجرائد

٩٧ ـ جريدة الأيام الوثائق والمعاهدات فى بلاد العرب ـ دمشق.

٩٨ ـ جريدة الحياة ـ لندن.

٩٩ ـ مجلة التقوى ـ لبنان.

١٠٠ ـ مجلة الإنسان.

١٠١ ـ مجلة القدس العربي.

١٠٢ ـ مجلة المجتمع ـ الكويت.

١٠٣ ـ مجلة الأسبوع العربي.

١٠٤ ـ مجلة الأمان ـ بيروت.

١٠٥ ـ مجلة فلسطين المسلمة.

١٠٦ ـ مجلة لواء الإسلام.

١٠٧ ـ مجلة المجلة ـ لندن.

١٠٨ ـ مجلة عكاظ ـ السعودية.

١٠٩ ـ مجلة الرابطة الإسلامية.

١١٠ ـ ملحق المجلة العربية «**صحيفة أم القرى**».

١١١ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ـ ط ١ ـ سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

١١٢ ـ مجلة الدراسات العربية الإفريقية، العدد الرابع والخامس.

* * *

الفهرس

* * *

هذا الكتاب

الكتاب يعالج قضية من مباحث السياسة الشرعية. ونحن هنا لا نكتب تاريخاً وإن كان الكتاب يشتمل على بعض الحوادث التاريخية ولكنها ليست مقصودة لذاتها، ولكن المقصد من الكتاب قضية (الدولة الإسلامية) التي يريدها الإسلاميون بين ما هو موجود في الذهن من خلال النصوص وبين ما هو واقع بالفعل.

فهل هي دولة الخلافة الراشدة التي فيها قوة الصديق وحنكته، وعدل عمر وشدته، ورحمة عثمان وعفته، وولاية علي وحكمته - رضي الله عنهم جميعاً - فهي صورة ذهبية جميلة ينشدها الجميع، ولكن يواجهها في المقابل واقع ملموس، اختلطت فيه الأمور، وتشابكت فيه المفاهيم والقيم، حتى أصبح الإنسان لا يستطيع أن يقيم هذه الدولة في جمعيته، أو حتى بيته؛ فكان لابد من توضيح هذه المسألة من خلال مبحث أصولي وهو (الواجب والممكن) وكيفية التعامل مع هذه المسألة في العبادات، ليتم بعد ذلك إسقاطها على مباحث السياسة الشرعية والتي منها الدولة الإسلامية وحقيقتها، فجاء الكتاب في عدة فصول وهي:

الفصل الأول: مراحل تطور الدولة الإسلامية.

والفصل الثاني: حركات إصلاحية ودولة إسلامية.

وجاء الفصل الثالث: الحركات الإسلامية وواقعنا المعاصر.

واشتمل الكتاب على ملاحق هامة في نهايته لكبار العلماء ورأيهم في أصل تقسيم الدولة إلى واجب وممكن.

وحسب الكتاب أنه يفتح النوافذ للرؤى والنظر في مجال الدولة الإسلامية ومتعلقاتها.



الكويت : ت/٩٩٥٥٧٤٧١ الرمز البريدي : ٤٢٧٥٦ ص. ب : ٦٦٥٢٠
E-mail: alsamaha_laib@gmail.com